

التحبير

لمن أضيغ من التفسير

تأليف:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الجوزي الزعفراني

محتوى المجلد

فتح الكريم المنان تفسير السبع المثاني أم القرآن
إتحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة
تفسير قول الله عز وجل: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾
فتح الرحمن بتفسير سورة السجدة والإنسان
اللمعة في تفسير سورة الجمعة
تفسير سورة الشرح



فتح الكريم المنان تفسير السبع المثاني أم القرآن
إتحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة
تفسير قول الله عز وجل: { **أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ** }
فتح الرحمن بتفسير سورة السجدة والإنسان
اللمعة في تفسير سورة الجمعة
تفسير سورة الشرح

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ

تأليف:

أبي محمد عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الزّعكري

فتح الكريم المنان تفسير السبع المثاني أمر

القرآن

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك المنان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بين القرآن امتثالاً لأمر الله: ﴿لَتَبَيِّنَ لِّلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم كلام الله **عَزَّوَجَلَّ** ووحيه وتنزيله ونوره الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه المحفوظ بحفظ الله **عَزَّوَجَلَّ** له فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، فحفظ الله القرآن لفظاً ومعنى بفضله تعالى حيث سخر له من أراد من عباده فحفظوا حروفه وكلماته وأحكامه ومعانيه؛ فصانه وله الحمد عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وإن الاهتمام بهذا الكتاب حفظاً وقراءة وعملاً وتدریساً واعتقاداً لمن أفضل القربات وأفضل الأعمال، وقد تنافس الناس في خدمته قديماً وحديثاً، فهنيئاً لمن جعله الله **عَزَّوَجَلَّ** من أهله، ففي الحديث الذي أخرجه ابن ماجة عن أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إن لله أهلين وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته»، وهو نافع لمن كان من أهله في الدنيا بالسلامة من البدع والمحدثات والجهالات وفي الآخرة من النكبات، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** «يؤتى بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تتقدمه البقرة وآل عمران تهاجان عن صاحبهما»، وفضائله كثيرة فيكفي أنه صفة الله **عَزَّوَجَلَّ**، وصفات الله **عَزَّوَجَلَّ** بالغة في الحسن كماله.

وبيان القرآن على الوجه التام هو وظيفة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كما قال الله **عَزَّوَجَلَّ** ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فواجب على من أراد بيانه أن يسلك سبيل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في العلم والعمل والاعتقاد وذلك لأن الكثير من المفسرين الذين خالفوا طريقة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وسبيل السلف الصالحين؛ حرّفوا دلالة القرآن والسنة في كثير من المسائل الاعتقادية، وكان أسلم طريق لتفسير القرآن العظيم لهو تفسير القرآن بالقرآن و تفسير القرآن بالسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** المعصوم، ثم بما صح من آثار السلف الكرام فقد علموا أسباب نزول القرآن معاينة وعلموا ناسخه ومنسوخه ونزل بلغتهم و تلقّوه عن نبيهم ثم يليهم من أخذ عنهم من التابعين لهم بإحسان؛ لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد رضي طريق الجميع قال تعالى: ﴿وَالسَّيْفُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ١٠٣]، ثم يفسر القرآن بلغة العرب التي لم يدخلها التوليد فإن القرآن أنزله الله **عَزَّوَجَلَّ** بلسان عربي مبين.

ولما كان تفسير القرآن العظيم لابن كثير -إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - أنفس ما أُلّف في هذا الباب إذ جَمَعَ بين الاختصار والإيضاح والبيان فقد رأيت أن أضع مقدمته مع مقدمتي لنفاستها حيث قال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ فَيَمَّا يَنْزِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَلَائِكِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنزِلُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَا

لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِإِبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ [الكهف: ١-٥].

وافتح خلقه بالحمد، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنعام: ١].

واختتمه بالحمد، فقال بعد ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّقِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص: ٧٠]، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٥﴾﴾ [سبأ: ١].

فله الحمد في الأولى والآخرة، أي في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله، كما يقول المصلي: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»؛ ولهذا يُلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يُلهمون النفس، أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم؛ لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظيم سلطانه، وتوالي مننه ودوام إحسانه، كما قال تعالى: ﴿* وَجَوْرْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَأَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس: ٩٠-١٠].

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿لَا نُنذِرُكُمْ بِهِهٖ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم، وأسود وأحمر، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِهٖ مِنَ الْأَحْزَابِ قَالَنَارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود: ١٧] فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى، وكما قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَدَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»، قال مجاهد: يعني: الإنس والجن، فهو - صلوات الله وسلامه عليه - رسول الله إلى جميع الثقليين: الإنس والجن، مبلغا لهم عن الله ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِيهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه نذيرهم إلى تفهمه، فقال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِيهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩١﴾﴾ [ص: ٩١]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله، وتفسير ذلك، وطلبه من مظانه، وتعلم ذلك وتعليمه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتَشِيْبُنَّهٗمُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَهُ، فَنبذوه وراءه ظهورهم وأشترؤا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترؤن ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ وَأَلْهَمَ عَذَابَ أَلِيمٍ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧].

فدم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله إليهم، وإقبالهم على الدنيا وجمعها، واشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا -أيها المسلمون-: أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى به، وأن نأتمر بما أمرنا به،

من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهمه وتفهمه، قال الله تعالى: ﴿* أَلَمْ يَأْنِ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا

الكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْتَوَى ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦-١٧]، ففي ذكره تعالى

لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها، كذلك

يلين القلوب بالإيمان بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسئول أن

يفعل بنا ذلك، إنه جواد كريم.

فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان

فإنه قد فسر في موضع آخر، فإن أعيانك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن

وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي **رَحِمَهُ اللَّهُ:** (كل ما

حكم به رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فهو مما فهمه من القرآن)، قال الله تعالى: ﴿* إِنَّا

أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا

﴿١٣٥﴾﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿* وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿* وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ

الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:** «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»؛ يعني:

السنة، والسنة أيضًا تنزل عليه بالوحي، كما ينزل القرآن؛ إلا أنها لا تتلى كما يتلى

القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي **رَحْمَةُ اللَّهِ** وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك.

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة، كما قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «**بم تحكم؟**»، قال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد؟**»، قال: بسنة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد؟**»، قال: أجتهد برأيي، قال: فضرب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في صدره، وقال: «**الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**»، وهذا الحديث في المساند والسنن بإسناد جيد، كما هو مقرر في موضعه.

قلت: بل حديث معل لا يثبت، ففيه تلاميذ معاذ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** مجهولون.

قال: وحيثنذ، إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدري بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا جابر بن نوح، حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: (والذي لا إله غيره، ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت؟ وأين نزلت؟ ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته)، وقال الأعمش أيضًا، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن).

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً).

ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس؛ ابن عم رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، وترجمان القرآن وبركة دعاء رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** له حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل».

وقال ابن جرير: (حدثنا محمد بن بشار، حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن مسلم قال قال عبد الله -يعني ابن مسعود-: (نعم ترجمان القرآن ابن عباس)، ثم رواه عن يحيى بن داود، عن إسحاق الأزرق، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود أنه قال: (نعم الترجمان للقرآن ابن عباس)، ثم رواه عن بندار، عن جعفر بن عون، عن الأعمش به كذلك) اهـ.

فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود: أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** في سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعُمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود؟ .

وقال الأعمش عن أبي وائل: (استخلف عليُّ عبد الله بن عباس على الموسم، فخطب الناس، فقرأ في خطبته سورة البقرة -وفي رواية: سورة النور- ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والدَّيْلِم لأسلموا).

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره، عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حيث قال: «بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً

فليتوبوا مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله؛ ولهذا كان عبد الله بن عمرو يوم اليرموك قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد، لا للاعتضاد، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا تؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني؛ ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيرا، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعدتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت؟ وأسماء الطيور التي أحيها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم، ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز، كما قال

تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا

بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا

تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الكهف: ٢٢]، فقد اشتملت

هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال، ضَعَفَ القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما، ثم أرشد على أن الاطلاع على عدتهم لا

طائل تحته، فقال في مثل هذا: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس، ممن أطلعه الله عليه؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي: لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب.

فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام، وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم، فأما من حكى خلافا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا، فإن صَحَّحَ غير الصحيح عامدا فقد تعمد الكذب، أو جاهلا فقد أخطأ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالا متعددة لفظا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معني، فقد ضيع الزمان، وتكثر بما ليس بصحيح، فهو كلابس ثوبَي زور، والله الموفق للصواب.

قال سفيان بن عيينة: عن عبد الله بن أبي يزيد: كان ابن عباس إذا سئل عن الآية في القرآن قال به، فإن لم يكن وكان عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أخبر به، فإن لم يكن فعن أبي بكر وعمر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** فإن لم يكن اجتهد برأيه.



فصل

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين، كمجاهد بن جبر فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح، عن مجاهد، قال: (عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها).

وقال ابن جرير: (حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غنام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواح، قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله، ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به).

وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق ابن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم، فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ، يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً وليس كذلك، فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في كثير من الأماكن، فليتفطن اللبيب لذلك، والله الهادي.

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة؟ فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم، وهذا صحيح، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون

بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير **رَحِمَهُ اللهُ** حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى، هو ابن عامر الثعلبي^(١)، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: **«من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار»**، وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي، من طرق، عن سفيان الثوري به، ورواه أبو داود، عن مسدد، عن أبي عوانة، عن عبد الأعلى به، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وهكذا رواه ابن جرير -أيضاً- عن يحيى بن طلحة اليربوعي، عن شريك، عن عبد الأعلى، به مرفوعاً، ولكن رواه محمد بن حميد، عن الحكم بن بشير، عن عمرو بن قيس الملائي، عن عبد الأعلى، عن سعيد، عن ابن عباس، فوقفه، وعن محمد بن حميد، عن جرير، عن ليث، عن بكر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس من قوله، فالله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبري، حدثنا حبان بن هلال، حدثنا سهيل أخو حزم^(٢)، حدثنا أبو عمران الجوني، عن جندب **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**؛ أن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: **«من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ»**.

وقد روى هذا الحديث أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعي، وقال الترمذي: غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل.

(١) ضعفه أحمد.

(٢) ضعيف .

وفي لفظ لهم: «من قال في كتاب الله برأيه، فأصاب، فقد أخطأ»؛ أي: لأنه قد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به، فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه، كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم، وهكذا سمى الله القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور: ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به، ولو كان أخبر بما يعلم؛ لأنه تكلف ما لا علم له به، والله أعلم.

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة، عن سليمان، عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر^(١)، قال: قال أبو بكر الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني؟ إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام بن حوشب، عن إبراهيم التيمي^(٢)؛ أن أبا بكر الصديق سئل عن قوله: ﴿وَفَلَكُمُ الْوَيْبَاتُ ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٣١]، فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني؟ إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم، منقطع.

وقال أبو عبيد أيضاً: حدثنا يزيد، عن حميد، عن أنس؛ أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَفَلَكُمُ الْوَيْبَاتُ ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٣١]، فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر.

(١) لم يسمع من أبي بكر.

وقال عبد بن حميد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: كنا عند عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وفي ظهر قميصه أربع رقاع، فقرأ: ﴿**وَفَلَكُمَ وَآبَاؤُكُمْ**﴾ فقال: ما الأبُّ؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، فما عليك ألا تدريه. وهذا كله محمول علىٰ أنهما **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأبِّ، وإلا فكونه نبتا من الأرض ظاهر لا يجهل، لقوله: ﴿**فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ وَعِنَبًا وَقَضْبًا**﴾ [عبس: ٢٧-٢٨].

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليّة، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة: أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها، إسناده صحيح.

وقال أبو عبيد: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة، قال: سألت رجل ابن عباس عن ﴿**يُذَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا تَعُدُّونَ**﴾ [السجدة: ٥]، فقال له ابن عباس: فما ﴿**يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج: ٤]؟ فقال له الرجل: إنما سألتك لتحديثي، فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله تعالىٰ في كتابه، الله أعلم بهما، فكَرِهَ أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم.

وقال أيضًا-يعني ابن جرير-: حدثني يعقوب -يعني ابن إبراهيم- حدثنا ابن عليّة، عن مهدي بن ميمون، عن الوليد بن مسلم، قال: جاء طلق بن حبيب إلىٰ جندب بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال: أخرج عليك إن كنت مسلمًا إلا ما قمت عني، أو قال: أن تجالسني.

وقال مالك: عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن، قال: إنا لا نقول في القرآن شيئًا.

وقال الليث: عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب: إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن.

وقال شعبة: عن عمرو بن مرة، قال: سألت رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال: لا تسألني عن القرآن، وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء، يعني: عكرمة.

وقال ابن شوذب: حدثني يزيد بن أبي يزيد، قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت، كأن لم يسمع.

وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن عبدة الضبي، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن عمر، قال: لقد أدركت فقهاء المدينة، وإنهم ليعظمون القول في التفسير، منهم: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع.

وقال أبو عبيد: حدثنا عبد الله بن صالح^(١)، عن الليث، عن هشام بن عروة، قال: ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله قط.

وقال أيوب، وابن عون، وهشام الدستوائي، عن محمد بن سيرين: سألت عبيدة السلماني، عن آية من القرآن فقال: ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن؟ فاتق الله، وعليك بالسداد.

وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ، عن ابن عون، عن عبد الله بن مسلم بن يسار، عن أبيه، قال: إذا حدثت عن الله فقف، حتى تنظر ما قبله وما بعده.

حدثنا هشيم، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه.

(١) ضعيف.

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر، قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله **عَزَّوَجَلَّ**.

وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم، حدثنا عمر بن أبي زائدة، عن الشعبي، عن مسروق، قال: اتقوا التفسير، فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرُّجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به؛ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً، فلا حرج عليه؛ ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد؛ فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿**لَشَبَّانَةٌ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْفُرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طرق: «**من سئل عن علم فكتمه، ألجم يوم القيامة بلجام من نار**».

فأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا عباس بن عبد العظيم، حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، حدثنا جعفر بن محمد بن الزبير، حدثني هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: ما كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً تُعدُّ، علمهن إياه جبريل **عَلَيْهِ السَّلَام**، ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي، عن معن بن عيسى، عن جعفر بن خالد، عن هشام به.

فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي الزبيري، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث.

وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى، مما وقفه عليها جبريل، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث؛ فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء، ومنه ما تعلمه العرب من

لغاتهما، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله، كما صرح بذلك ابن عباس، فيما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا مؤمل^(١)، حدثنا سفيان عن أبي الزناد، عن الأعرج قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله.

قال ابن جرير: وقد روي نحوه في حديث في إسناده نظر:

حدثني يونس بن عبد الأعلى الصديقي، أنبأنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي^(٢)، عن أبي صالح^(٣)، مولى أم هانئ، عن عبد الله ابن عباس: أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلال وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله **عَزَّ وَجَلَّ**، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب.

والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي؛ فإنه متروك الحديث؛ لكن قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس، كما تقدم، اهـ.

كتبتها بطولها لحاجة الطالب إليها فضلا عن غيره ففيها بعض الضوابط و القواعد لمبتغي تفسير الكتاب العزيز.

فهذه مشاركة مني لمن سبقني من أهل الفضل في تفسير سورة الفاتحة، بما أرجو بركته وذخره لي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وقبل ذلك أستفيد فهُمَّ كتاب ربنا تعالى وما فيه من المعاني والعلوم النافعات ثم إفادة غيري من

(١) قال أبو حاتم صدوق شديد في السنة كثير الخطأ.

(٢) محمد بن السائب؛ متهم بالكذب.

(٣) باذام؛ ضعيف يرسل.

المسلمين بما أذكره من أقوال العلماء متضمنا ما قد نقلته من الأدلة البيّنات والآيات الزكيات، وسورة الفاتحة كما قال ابن القيم في مدارج السالكين: قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، اهـ.

وأنا والله الذي لا إله هو من زمن وأنا في دماغ أحاول في تفسير كتاب الله العظيم وأصرفُ عنه بمشاغل وأعمال، وأسأل الله تعالى أن لا يكون حرماناً من الخير، ثم لما قطنت مكة المكرمة حرسها الله بالتوحيد، شرح الله صدري ويسر أمري فكتبت عن هداية القرآن إلى التوحيد ثم عن لي أن أفسر سورة الفاتحة، وكانت لي محاضرة في مسجد السنة بسعوان عن بعض علومها وكنت راغباً حينها في تفريغها، لكن يسر الله و له الحمد و المنّة والفضل هذه الكتابة، فأسأل الله أن ينفع بها الإسلام والمسلمين والحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى عفو ربه القلدين:

عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الرُّعكري

في يوم الإثنين السابع من شهر ربيع الثاني

في منزلي بحي الشرايع من أحياء مكة المكرمة - حرسها الله -.



تفسير سورة الفاتحة

وأول ما أشرع فيه من ذلك بعون الله العزيز تفسير قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٧]، هذه سورة الفاتحة وهي أعظم سورة في كتاب الله عزَّ وجلَّ، ففي البخاري من حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مر بي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت ثم أتيت، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟» فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾﴾ [الأَنْفَال: ٢٤] ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ليخرج من المسجد فذكرته، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ٢] هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»، وعند مسلم من حديث عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعنده جبريل عَلَيْهِ السَّلَام إذ سمع نقيضا فوقه، فرفع جبريل عَلَيْهِ السَّلَام بصره إلى السماء، فقال: «هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته» وهذا لفظ النسائي.

وفي مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾﴾، قال الله تعالى: أنثى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾»

﴿٤﴾ قال: مجدي عبدي - وقال مرة فوض إلي عبدي - فإذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
 نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا
 الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ
 ﴿٧﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

فضائلها:

ومن فضلها وعُلُوُّ منزلتها أن الله أمرنا أن نقرأها في كل ركعة من الصلاة، ففي
 الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (ثم الكلام على ما يتعلق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة
 من وجوه:

أحدها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ
 بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١١﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: بقراءتك كما جاء
 مصرحاً به في الصحيح، عن ابن عباس وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة
 بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل»، ثم بين تفصيل
 هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها،
 إذ أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها وهو القراءة؛ كما أطلق لفظ القراءة
 والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ﴿٧٨﴾
 [الإسراء: ٧٨]، والمراد صلاة الفجر، كما جاء مصرحاً به في الصحيحين: من أنه يشهدها
 ملائكة الليل وملائكة النهار، فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة، وهو
 اتفاق من العلماء.

ولكن اختلفوا في مسألة نذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتعين للقراءة في
 الصلاة فاتحة الكتاب، أم تجزئ هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي

حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم أنها لا تتعين، بل مهما قرأ به من القرآن أجزاءه في الصلاة، واحتجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَأَقْرُؤْ مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل:٤٠]، وبما ثبت في الصحيحين، من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في قصة المسيء صلواته أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن» قالوا: فأمره بقراءة ما تيسر، ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها، فدل على ما قلناه.

والقول الثاني: أنه تتعين قراءة الفاتحة في الصلاة، ولا تجزئ الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة: مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء؛ واحتجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور، حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج»؛ والخداج هو: الناقص كما فسر به في الحديث: «غير تمام»، واحتجوا -أيضاً- بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن»، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، ووجه المناظرة هاهنا يطول ذكره، وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك، **رَحِمَهُمُ اللَّهُ**.

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم: أنه تجب قراءتها في كل ركعة، وقال آخرون: إنما تجب قراءتها في معظم الركعات، وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات، أخذاً بمطلق الحديث: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب».

وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها، بل لو قرأ بغيرها أجزاءه لقوله: ﴿فَأَقْرُؤْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل:٤٠]، كما تقدم والله أعلم.

وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** مرفوعاً: «**لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها**»، وفي صحة هذا نظر، وموضح تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير، والله أعلم.

الوجه الثالث: هل تجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء:

- ١- أنه تجب عليه قراءتها، كما تجب على إمامه؛ لعموم الأحاديث المتقدمة.
- ٢- لا تجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها، لا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، عن جابر ابن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «**من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة**» ولكن في إسناده ضعف، ورواه مالك، عن وهب بن كيسان، عن جابر من كلامه، وقد روي هذا الحديث من طرق، ولا يصح شيء منها عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، والله أعلم.

والقول الثالث: أنه تجب القراءة على المأموم في السرية، لما تقدم، ولا تجب في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**إنما جعل الإمام ليؤتم به؛ فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا**» وذكر بقية الحديث، وهكذا رواه أهل السنن؛ أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «**وإذا قرأ فأنصتوا**»، وقد صححه مسلم ابن الحجاج أيضاً، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي **رَحِمَهُ اللَّهُ**، ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل.

والغرض من ذكر هذه المسائل هاهنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من السور، والله أعلم) اهـ.

لكن الصحيح مما تقدم وجوب قراءتها في الجهرية والسرية على الإمام والمأموم والمنفرد، ويدل على هذا المذهب عموم حديث عبادة السابق، وحديث عند

أحمد (١٨٠٧٠)، عن محمد بن أبي عائشة، عن رجل من أصحاب النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «لعلكم تقرأون والإمام يقرأ؛ مرتين أو ثلاثاً»، قالوا يا رسول الله إنا لنفعل، قال: «فلا تفعلوا إلا أقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب».

ومن الأدلة على علو منزلتها كثرة أسمائها؛ فإن كثرة الأسماء الثبوتية تدل على المدح.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (يقال لها: الفاتحة، أي فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضًا: أم الكتاب عند الجمهور، وكره أنس والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات: هن أم الكتاب، ولذا كرها-أيضًا- أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت في الحديث الصحيح عند الترمذي وصححه عن أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم»، ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عن ربه: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال الله: حمدني عبدي» الحديث.

فسميت الفاتحة: (صلاة)؛ لأنها شرط فيها، ويقال لها: الشفاء؛ لما رواه الدارمي عن أبي سعيد **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** مرفوعاً: «فاتحة الكتاب شفاء من كل سم»، ويقال لها: الرقية؛ لحديث أبي سعيد **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «وما يدريك أنها رقية؟»، وروى الشعبي عن ابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** أنه سماها: أساس القرآن، قال: فأساسها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وسماها سفيان بن عيينة: الواقعة، وسماها يحيى بن أبي كثير: الكافية؛ لأنها تكفي عما عداها ولا يكفي ما سواها عنها، كما جاء في بعض الأحاديث المرسلة: «أم

القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها عوضاً عنها»، ويقال لها: سورة الصلاة، والكنز ذكرهما الزمخشري في كشافه، وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري، ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والله أعلم، وحكى أبو الليث السمرقندي أن نصفها نزل بمكة ونصفها الآخر نزل بالمدينة، وهو غريب جداً، نقله القرطبي عنه، وهي سبع آيات بلا خلاف) اهـ.

قال القرطبي: (في أسمائها وهي اثنا عشر اسماً):

الأول: (الصلاة)، قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»

الحديث، وقد تقدم.

الثاني: (سورة الحمد)، لأن فيها ذكر الحمد، كما يقال: سورة الأعراف، والأنفال، والتوبة، ونحوها.

الثالث: (فاتحة الكتاب)، من غير خلاف بين العلماء، وسميت بذلك لأنه تفتتح

قراءة القرآن بها لفظاً، وتفتتح بها الكتابة في المصحف خطأ، وتفتتح بها الصلوات.

الرابع: (أم الكتاب)، وفي هذا الاسم خلاف، جوزه الجمهور، وكرهه أنس

والحسن وابن سيرين. **قال الحسن:** أم الكتاب الحلال والحرام، قال الله تعالى:

﴿إِنِّي أَنزَلْتُ مَكِّمَكُمُ هَٰذَا أَمْرٌ أَلِكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٍ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال أنس وابن

سيرين: أم الكتاب اسم اللوح المحفوظ، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾

[الزخرف: ٤].

الخامس: (أم القرآن)، واختلف فيه أيضاً، فجوزه الجمهور، وكرهه أنس وابن

سيرين، والأحاديث الثابتة ترد هذين القولين، روى الترمذي عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**

قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» قال: هذا حديث حسن صحيح، وفي البخاري قال: «وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة»، وقال يحيى بن يعمر: أم القرى: مكة، وأم خراسان: مرو، وأم القرآن: سورة الحمد، وقيل: سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى لأنها أول الأرض ومنها دحيت، ومنه سميت الأم أما لأنها أصل النسل، والأرض أما، في قول أمية بن أبي الصلت: فالأرض معقلنا وكانت أمنا ❀❀ فيها مقابرنا وفيها نولد ويقال لراية الحرب: (أم)، لتقدمها واتباع الجيش لها، وأصل أم أمهة، ولذلك تجمع على أمهات، قال الله تعالى ﴿وَأْمَهْتُمْ كُفْرًا﴾، ويقال أمات بغير هاء، قال: (فرجت الظلام بأماتكا).

السادس: ليس في تسميتها بـ(المثاني وأم الكتاب) ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فأطلق على كتابه: مثاني، لأن الأخبار تشني فيه، وقد سميت السبع الطول أيضًا مثاني، لأن الفرائض والقصص تشني فيها، قال ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أوتي رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** سبعا من المثاني، قال: السبع الطول، ذكره النسائي، وهي من «البقرة» إلى «الأعراف» ست، واختلفوا في السابعة، فقيل: «يونس»، وقيل: «الأنفال والتوبة»، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. وقال أعشى همدان:

فلجوا المسجد وادعوا ربكم ❀❀ وادرسوا هذي المثاني والطول
السابع: (المثاني) جمع مثني، وهي التي جاءت بعد الأولى، والطول جمع أطول، وقد سميت الأنفال من المثاني لأنها تتلو الطول في القدر، وقيل: هي التي تزيد

آياتها على المفصل وتنقص عن المثين، والمثون: هي السور التي تزيد كل واحدة منها على مائة آية.

الثامن: (الرقية)، ثبت ذلك من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال للرجل، الذي رقى سيد الحي: «ما أدراك أنها رقية»، فقال: يا رسول الله شيء ألقى في روعي، الحديث، خرجه الأئمة، وسيأتي بتمامه.

التاسع: (الأساس)، شكا رجل إلى الشعبي وجع الخاصرة، فقال: عليك بأساس القرآن فاتحة الكتاب، سمعت ابن عباس يقول: لكل شيء أساس، وأساس الدنيا مكة، لأنها منها دحيت، وأساس السموات عربياً، وهي السماء السابعة، وأساس الأرض عجيباً، وهي الأرض السابعة السفلى، وأساس الجنان جنة عدن، وهي سررة الجنان عليها أسست الجنة، وأساس النار جهنم، وهي الدرعة السابعة السفلى عليها أسست الدرعات، وأساس الخلق آدم، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فإذا اعتلتت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى.

العاشر: (الوافية)، قاله سفيان بن عيينة، لأنها لا تنصف ولا تحتل الاختزال، ولو قرأ من سائر السور نصفها في ركعة، ونصفها الآخر في ركعة لأجزأ، ولو نصفت الفاتحة في ركعتين لم يجز.

الحادي عشر: (الكافية)، قال يحيى بن أبي كثير: لأنها تكفي عن سواها ولا يكفي سواها عنها، يدل عليه ما روى محمد بن خلاد الإسكندراني قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أم القرآن عوض من غيرها وليس غيرها منها عوضاً».

الثاني عشر: (الرقية)، قال المهلب: إن موضع الرقية منها إنما هو إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ [الفاتحة: ٦]، وقيل: السورة كلها رقية، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

للرجل لما أخبره: «وما أدراك أنها رقية»، ولم يقل: أن فيها رقية، فدل هذا على أن السورة بأجمعها رقية، لأنها فاتحة الكتاب ومبدؤه، ومتضمنة لجميع علومه) اهـ. ومن فضائلها أن تجزي عن غيرها ولا يجزي غيرها عنها في الصلاة لما تقدم، وقول الله عز وجل: ﴿فَأَقْرءُوا مَا نَسَّسَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ محمول عليها وكذلك ما جاء في حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في الصحيحين: «ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن»، فإن هذه المطلقات راجعة إلى ذلك المقيد «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، أخرجاه عن عبادة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فصلاته خداج»، أخرجه مسلم، ومسألة تعيين قراءة الفاتحة على الإمام والمأموم وما يتعلق بها من أحكام للعلماء فيها أقوال كثيرات، ومذاهب عديدات مسطرة في المطولات ومشار إليها في المختصرات، والصحيح من الأقوال أنها عائدة إلى هذا الحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، فهي واجبة على الإمام والمأموم والمنفرد.

ومن فضائلها: أنها رقية نافعة بإذن الله عز وجل، ففي حديث أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في الصحيحين، البخاري (٥٠٠٧) ومسلم (٢٢٠١)، أن ناسًا من أصحاب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كانوا في سفر فمروا بحَيٍّ من أحياء العرب فاستضافوهم فلم يضيفوهم، فقالوا لهم هل فيكم من راقٍ فإن سيد الحَيِّ لديغ أو مصاب، فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب فبرأ الرجل، فأعطي قطيعا من غنم فأبى أن يقبلها، وقال حتى أذكر ذلك لرسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فأتى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب، فتبسم وقال: «وما أدراك أنها رقية»، ثم قال: «خذوا منهم واضربوا لي بسهم معكم»، هذا لفظ مسلم.

ومن فضائلها: ما سيأتي من تضمنها بيان أنواع التوحيد الثلاثة، ومن فضائلها بيانها لسبيل الهداية في قوله ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾

ومن فضائلها:

امتنان الله عزَّجَلَّ بإنزالها على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ٨٧].

قال الشوكاني رَحْمَةُ اللهِ فِي تَفْسِيرِهِ: (اختلف أهل العلم في السبع المثاني ماهي؟ فقال جمهور المفسرين إنها الفاتحة، قال الواحدي وأكثر المفسرين على أنها فاتحة الكتاب، وهو قول عمر وعلي وابن مسعود والحسن ومجاهد وقتادة والربيع والكلبي، وزاد القرطبي؛ أبا هريرة وأبا العالية، وزاد النيسابوري؛ الضحاك وسعيد بن جبير وقد روي ذلك من قول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كما سيأتي بيانه فتعين المصير إليه، وقيل: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة الأنفال والتوبة، لأنها كسورة واحدة إذ ليس بينهما تسمية، روي هذا القول عن ابن عباس، وقيل: المراد بالمثاني السبعة الأحزاب فإنها سبع صحائف، والمثاني جمع مثناة من التثنية أو جمع مثنية، وقال الزجاج: تثنى بما يقرأ بعدها معها، فعلى القول الأول يكون وجه تسمية الفاتحة مثاني أنها تثنى، أي: تكرر في كل صلاة، وعلى القول بأنها السبع الطوال فوجه التسمية أن العبر والأحكام والحدود كررت فيها، وعلى القول بأنها السبعة الأحزاب يكون وجه التسمية هو تكرير ما في القرآن من القصص ونحوها، وقد ذهب إلى أن المراد بالسبع المثاني القرآن كله الضحاك وطاوس وأبو مالك، وهو رواية عن ابن عباس، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مَّثَانِي﴾.

وقيل: المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن وهي الأمر، والنهي، والتبشير، والإنذار، وضرب الأمثال، وتعريف النعم، وأنباء قرون ماضية. قاله زياد ابن أبي مريم، ولا يخفى عليك أن تسمية الفاتحة مثاني لا تستلزم نفي تسمية غيرها بهذا الاسم، وقد تقرر أنها المرادة بهذه الآية، فلا يقدر في ذلك صدق وصف المثاني على غيرها والقرآن العظيم معطوف على سبعا من المثاني ويكون من عطف العام على الخاص لأن الفاتحة بعض من القرآن، وكذلك إن أريد بالسبع المثاني السبع الطوال لأنها بعض من القرآن، وأما إذا أريد بها السبعة الأحزاب أو جميع القرآن أو أقسامه، فيكون من باب عطف أحد الوصفين على الآخر، كما قيل في قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَأَبْنِ الْهُمَامِ ❀❀

ومما يقوي كون السبع المثاني هي الفاتحة أن هذه السورة مكية، وأكثر السبع الطوال مدنية، وكذلك أكثر القرآن وأكثر أقسامه، وظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾، أنه قد تقدم إتياء السبع على نزول هذه الآية، و«من» في ﴿مِّنَ الْمَثَانِي﴾ للتبعيض أو البيان على اختلاف الأقوال، ذكر معنى ذلك الزجاج فقال: هي للتبعيض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال، وللبيان إذا أردت الإشباع) اهـ.

❀ **فائدة:** تقدم أنها تسمى بالسبع المثاني، فهل هذه التسمية خاصة بها؟

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره: (ليس في تسميتها بالمثاني وأم الكتاب ما يمنع من تسمية غيرها بذلك، قال الله عز وجل: ﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي﴾ [الزمر: ٢٣]، فأطلق على كتابه: مثاني، لأن الأخبار تشي فيه، وقد سميت السبع الطوال أيضًا مثاني، لأن الفرائض والقصص تشي فيها، قال ابن عباس: أوتي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبعا من المثاني، قال: السبع الطوال، ذكره النسائي، وهي من «البقرة» إلى «الأعراف»

ست، واختلفوا في السابعة، فقييل: يونس، وقيل: الأنفال والتوبة، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير، وقال أعشى همدان:

فلجوا المسجد وادعوا ربكم ❀❀ وادرسوا هذي المثاني والطول
اهـ.

مكان نزولها:

واختلف العلماء في نزول الحمد، فقييل: بمكة، وقيل: بالمدينة، وقيل: نزلت مرتين، والذي يظهر والله أعلم أنها نزلت بمكة، ثم لما كان النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** بالمدينة نزل فضلها وأجرها على ما تقدم في حديث ابن عباس **رضي الله عنهما** «أبشر بنورين أتيتها، فاتحة الكتاب وخواتم البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته» الحديث.

قال القرطبي في تفسيره: (قال ابن عطية: ظن بعض العلماء أن جبريل **عليه السلام** لم ينزل بسورة الحمد، لما رواه مسلم عن ابن عباس **رضي الله عنهما** قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أتيتها لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته»، قال ابن عطية: وليس كما ظن، فإن هذا الحديث يدل على أن جبريل **عليه السلام** تقدم الملك إلى النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** مُعلِّما به وبما ينزل معه، وعلى هذا يكون جبريل شارك في نزولها، والله أعلم، قلت: الظاهر من الحديث يدل على أن جبريل **عليه السلام** لم يُعلم النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** بشيء من ذلك. وقد بينا أن نزولها كان بمكة، نزل بها جبريل **عليه السلام**، لقوله تعالى: ﴿**نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ**﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وهذا يقتضي جميع

القرآن، فيكون جبريل **عَلَيْهِ السَّلَامُ** نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة، والله أعلم.

وقد قيل: إنها مكية مدنية، نزل بها جبريل مرتين، حكاها الثعلبي، وما ذكرناه أولى، فإنه جمع بين القرآن والسنة). اهـ.

وقال القرطبي أيضًا: (اختلفوا أهى مكية أم مدنية؟ فقال ابن عباس وقتادة وأبو العالية الرياحي - واسمه رفيع - وغيرهم: هي مكية، وقال أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري وغيرهم: هي مدنية، ويقال: نزل نصفها بمكة، ونصفها بالمدينة، حكاها أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي في تفسيره، والأول أصح لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والحجر مكية بالإجماع، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حُفِظَ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، يدل على هذا قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:** «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»، وهذا خبر عن الحكم، لا عن الابتداء، والله أعلم، وقد ذكر القاضي بن الطيب اختلاف الناس في أول ما نزل من القرآن، فقيل: المدثر، وقيل: اقرأ، وقيل: الفاتحة، وذكر البيهقي في دلائل النبوة عن أبي مسيرة عمرو بن شرحبيل أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال لخديجة: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء وقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا» قالت: معاذ الله! ما كان الله ليفعل بك، فو الله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث، فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ثم ذكرت خديجة حديثه له، قالت: يا عتيق، اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل، فلما دخل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أخذ أبو بكر بيده، فقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: «ومن أخبرك»، قال: خديجة، فانطلقا إليه فقصا عليه، فقال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي يا محمد يا محمد

فأنطلق هاربا في الأرض» فقال: لا تفعل، إذا أتاك فائتت حتى تسمع ما يقول ثم أتن فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، قل ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٢ حتى بلغ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٧، قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر ذلك له، فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر، فأنا أشهد أنك الذي بشر به عيسى بن مريم، وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل، وأنت سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، وإن يدركني ذلك لأجاهدن معك، فلما توفي ورقة قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني»؛ يعني ورقة، قال البيهقي رحمه الله: هذا منقطع؛ يعني هذا الحديث، فإن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزل عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿العلق: ١﴾، و﴿يَتَّبِعُهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ١ ﴿المدثر: ١﴾ اهـ.

عدد آياتها:

وهي سبع آيات إجماعاً، قال القرطبي: (أجمعت الأمة على أن فاتحة الكتاب سبع آيات، إلا ما روي عن حسين الجعفي: أنها ست، وهذا شاذ، وإلا ما روي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، وهي على عدّه ثمان آيات، وهذا شاذ، وقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]، وقوله: «قسمت الصلاة» الحديث، يردّ هذين القولين، وأجمعت الأمة أيضًا على أنها من القرآن، فإن قيل: لو كانت قرآنا لأثبتها عبد الله بن مسعود في مصحفه، فلما لم يثبتها دل على أنها ليست من القرآن، كالمعوذتين عنده، فالجواب ما ذكره أبو بكر الأنباري قال: حدثنا الحسن بن الحباب حدثنا سليمان بن الأشعث حدثنا ابن أبي قدامة حدثنا جرير عن الأعمش قال: أظنه عن إبراهيم قال: قيل لعبد الله بن مسعود: لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبتها مع كل سورة، قال أبو بكر: يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال: اختصرت

بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها، ولم أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة). اهـ.



تفاضل القرآن

ومن المسائل التي تذكر هنا بعد ذكر الفاتحة؛ هل القرآن يتفاضل؟! هذه مسألة اختلف فيها العلماء، والقول بتفاضل القرآن يؤدي إلى القول بتفاضل الأسماء والصفات، والمتأمل للأدلة من القرآن والسنة يجد تفاضلاً في هذا الباب، ومن ذلك الاسم الأعظم، ولا محذور في القول بالتفاضل.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: (اختلف العلماء في تفضيل بعض السور والآي على بعض، وتفضيل بعض أسماء الله تعالى الحسنی على بعض، فقال قوم: لا فضل لبعض على بعض، لأن الكل كلام الله، وكذلك أسماؤه لا مفاضلة بينها، ذهب إلى هذا الشيخ أبو الحسن الأشعري، والقاضي أبو بكر بن الطيب، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي، وجماعة من الفقهاء، وروي معناه عن مالك، قال يحيى ابن يحيى: تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها، وقال عن مالك في قول الله تعالى: ﴿نَأْتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٧٦]، قال: محكمة مكان منسوخة، وروى ابن كنانة مثل ذلك كله عن مالك، واحتج هؤلاء بأن قالوا: إن الأفضل يشعر بنقص المفضل، والذاتية في الكل واحدة، وهي كلام الله، وكلام الله تعالى لا نقص فيه، قال البستي: ومعنى هذه اللفظة «ما في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن»: أن الله تعالى لا يعطي لقارئ التوراة والإنجيل من الثواب مثلما يعطي لقارئ أم القرآن، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم، وأعطاهم من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه، وهو فضل منه لهذه الأمة، قال ومعنى قوله: «أعظم سورة» أراد به في الأجر، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض، وقال قوم بالتفضيل، وأن ما تضمنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وآية الكرسي، وآخر

سورة الحشر، وسورة الإخلاص من الدلالات على وحدانيته وصفاته، ليس موجودا مثلا في ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١﴾ [المسد:١] وما كان مثلها، والتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها، لا من حيث الصفة، وهذا هو الحق، وممن قال بالتفضيل إسحاق بن راهويه وغيره من العلماء والمتكلمين، وهو اختيار القاضي أبي بكر بن العربي وابن الحصار، لحديث أبي سعيد بن المعلى وحديث أبي بن كعب أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبي أي آية معك في كتاب الله أعظم» قال فقلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قال: فضرب في صدري وقال: «ليهنك العلم يا أبا المنذر»، أخرجه البخاري ومسلم، قال ابن الحصار: عجبني ممن يذكر الاختلاف مع هذه النصوص، وقال ابن العربي: قوله: «ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها»، وسكت عن سائر الكتب، كالصحف المنزلة والزبور وغيرها، لأن هذه المذكورة أفضلها، وإذا كان الشيء أفضل الأفضل، صار أفضل الكل، كقولك: زيد أفضل العلماء فهو أفضل الناس.

﴿قلت: وهذا هو الصواب الذي لا معدل عنه، وأن القرآن يتفاضل، ومنه تفاضل أسماء الله عزَّجَلَّ وصفاته.

قال: وفي الفاتحة من الصفات ما ليس لغيرها، حتى قيل: إن جميع القرآن فيها، وهي خمس وعشرون كلمة تضمنت جميع علوم القرآن، ومن شرفها أن الله سبحانه قسمها بينه وبين عبده، ولا تصح القراءة إلا بها، ولا يلحق عمل بثوابها، وبهذا المعنى صارت أم القرآن العظيم، كما صارت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ تعدل ثلث القرآن، إذ القرآن توحيد وأحكام ووعظ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ فيها التوحيد كله، وبهذا المعنى وقع البيان في قوله ﷺ: «أي آية في القرآن أعظم»، قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وإنما كانت أعظم آية لأنها توحيد كلها

كما صار قوله: «**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له**» أفضل الذكر، لأنها كلمات حوت جميع العلوم في التوحيد، والفتاحة تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير، ولا يستبعد ذلك في قدرة الله تعالى). اهـ.

ولشيخ الإسلام **رَحْمَةُ اللَّهِ** كلام طويل كما في المجموع (١٧/٧٢-٨٢) حول هذه المسألة إذ نقل بعض العلماء القول عن أهل السنة والجماعة بعدم التفاضل وذكره إجماعاً فقال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: (قالوا: وأما على قول أهل السنة والجماعة الذين أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق فيمتنع أن يقع التفاضل في صفات الله القائمة بذاته، ولأجل هذا الاعتقاد صار من يعتقده يذكر إجماع أهل السنة على امتناع التفضيل في القرآن، كما قال أبو عبد الله بن الدراج في مصنف صنفه في هذه المسألة قال: «**أجمع أهل السنة على أن ما ورد في الشرع مما ظاهره المفاضلة بين آي القرآن وسوره ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض؛ إذ هو كله كلام الله وصفة من صفاته بل هو كله لله فاضل كسائر صفاته الواجب لها نعت الكمال**»، وهذا النقل للإجماع هو بحسب ما ظنه لازماً لأهل السنة فلما علم أنهم يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق وظن هو أن المفاضلة إنما تقع في المخلوقات لا في الصفات قال ما قال، وإلا فلا ينقل عن أحد من السلف والأئمة أنه أنكر فضل كلام الله بعرضه على بعض؛ لا في نفسه ولا في لوازمه ومتعلقاته؛ فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً، وليس هو لازماً لابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وأتباعه؛ فإن هؤلاء يُجَوِّزون وقوع المفاضلة في القرآن العربي وهو مخلوق عندهم وهذا المخلوق يسمى «**كتاب الله**» والمعنى القديم يسمى «**كلام الله**» ولفظ «**القرآن**» يراد به عندهم ذلك المعنى القديم والقرآن العربي المخلوق، وحيث فهم يتأولون ما ورد من تفضيل بعض القرآن على بعض، على أن القرآن المخلوق عندهم، وإنما القول المتواتر عن أئمة السلف أنهم قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق وأنهم أنكروا مقالة الجهمية الذين جعلوا القرآن مخلوقاً منفصلاً عن الله بل كفَّروا من

قال ذلك، والكتب الموجودة فيها ألفاظهم بأسانيدھا وغير أسانيدھا كثيرة: مثل: كتاب «الرد على الجهمية» للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم، و«الرد على الجهمية» لعبد الله بن محمد الجعفي شيخ البخاري، و«الرد على الجهمية» للحكم بن معبد الخزاعي، و«كتاب السنة» لعبد الله بن أحمد بن حنبل، و«السنة» لحنبل ابن عم الإمام أحمد، و«السنة» لأبي داود السجستاني، و«السنة» للأثرم، و«السنة» لأبي بكر الخلال، و«السنة والرد على أهل الأهواء» لخشيش بن أصرم، و«الرد على الجهمية» لعثمان بن سعيد الدارمي، و«نقض عثمان بن سعيد على الجهمي الكاذب العنيد فيما افترى على الله في التوحيد»، و«كتاب التوحيد» لابن خزيمة، و«السنة للطبراني»، ولأبي الشيخ الأصبهاني، و«شرح أصول السنة» لأبي القاسم اللالكائي، و«الإبانة» لأبي عبد الله بن بطة، وكتب أبي عبد الله بن منده، و«السنة» لأبي ذر الهروي، و«الأسماء والصفات» للبيهقي، و«الأصول» لأبي عمر الطلمنكي، و«الفاروق» لأبي إسماعيل الأنصاري، و«الحجة» لأبي القاسم التيمي، إلى غير ذلك من المصنفات التي يطول تعدادها: التي يذكر مصنفوها العلماء الثقات مذاهب السلف بالأسانيد الثابتة عنهم بألفاظهم الكثيرة المتواترة التي تعرف منها أقوالهم مع أنه من حين محنة الجهمية لأهل السنة - التي جرت في زمن أحمد بن حنبل لما صبر فيها الإمام أحمد وقام بإظهار السنة والصبر على محنة الجهمية حتى نصر الله الإسلام والسنة وأطفأ نار تلك الفتنة - ظهر في ديار الإسلام وانتشر بين الخاص والعام أن مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين: أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الذين أحدثوا في الإسلام القول بأن القرآن مخلوق هم الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ومن اتبعه من المعتزلة وغيرهم من أصناف الجهمية لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، فهذا القول

هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة؛ وهو القول بأن القرآن كلام الله وهو غير مخلوق، أما كونه لا يفضل بعضه على بعض فهذا القول لم ينقل عن أحد من سلف الأمة وأئمة السنة الذين كانوا أئمة المحنة كأحمد بن حنبل وأمثاله ولا عن أحد قبلهم ولو قدر أنه نقل عن عدد من أئمة السنة لم يجز أن يجعل ذلك إجماعاً منهم فكيف إذا لم ينقل عن أحد منهم وإنما هذا نقل لما يظنه الناقل لازماً لمذهبهم، فلما كان مذهب أهل السنة أن القرآن من صفات الله لا من مخلوقات الله وظن هذا الناقل أن التفاضل يمتنع في صفات الخالق نقل امتناع التفاضل عنهم بناء على هذا التلازم، ولكن يقال له: أما المقدمة الأولى فمنقولة عنهم بلا ريب، وأما المقدمة الثانية وهي أن صفات الرب لا تتفاضل فهل يمكنك أن تنقل عن أحد من السلف قولاً بذلك فضلاً عن أن تنقل إجماعهم على ذلك ما علمت أحداً يمكنه أن يثبت عن أحد من السلف أنه قال ما يدل على هذا المعنى لا بهذا اللفظ ولا بغيره فضلاً عن أن يكون هذا إجماعاً، ولكن إن كان قال قائل ذلك ولم يبلغنا قوله فالله أعلم.

لكن الذي أقطع به ويقطع به كل من له خبرة بكلام السلف أن القول بهذا لم يكن مشهوراً بين السلف، ولا قاله واحد واشتهر قوله عند الباقيين فسكتوا عنه، ولا هو معروف في الكتب التي نقل فيها ألفاظهم بأعيانها، بل المنقول الثابت عنهم - أو عن كثير منهم - يدل على أنهم كانوا يرون تفاضل صفات الله تعالى وهكذا من قال من أصحاب مالك أو الشافعي أو أحمد عن أهل السنة: أن القرآن لا يفضل بعضه على بعض فإنما مستندهم أن أهل السنة متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن كلامه من صفاته القائمة بنفسه ليس من مخلوقاته وهذا أيضاً صحيح عن أهل السنة، ثم ظنوا أن التفاضل إنما يقع في المخلوق لا في الصفات وهذا الظن لم ينقلوه عن أحد من أئمة الإسلام كمالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة والثوري والأوزاعي ولا من قبل هؤلاء ولهذا شنع هؤلاء على من ظن فضل بعضه على بعض كما دلت عليه

النصوص والآثار، لظنهم أن ذلك مستلزم لخلاف مذهب أهل السنة، كما قال أبو عبد الله بن المرابط في الكلام على حديث البخاري في رده لتأويل من تأول هذا الحديث على أن هذه السورة إذا عدلت بثلاث القرآن أنها تفضل الربع منه وخمسه وما دون الثلث فهو التفاضل في كتاب الله تعالى وهو صفة من صفات الله **عَزَّوَجَلَّ** وقال: فهذا لولا عذر الجهالة لحكم على قائله بالكفر إذ لا يصح التفاضل إلا في المخلوقات؛ إذ صفاته كلها فاضلة في غاية الفضيلة ونهاية العلو والكرامة، فمن تنقص شيئاً منها عن سائرهما فقد أُلحِدَ فيها ألا تسمعه منع ذلك بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾ ❁.

قال: وقد أجمع أهل السنة على أن القرآن صفة من صفات الله لا من صفة خلقه، قال: وإنما أوقعهم في تأويل ذلك قوله تعالى: ﴿**نَاتٍ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا**﴾ ❁، ولا يخلو معنى ذلك من أحد وجهين: إما أن تكون الناسخة خيراً من المنسوخة في ذاتها وإما أن تكون خيراً منها لمن تعبد بها إذ محال أن يتفاضل القرآن في ذاته على ما ذهب إليه أهل السنة والاستقامة؛ إذ كلُّ من عند الله؛ لأن القرآن العزيز صفة الله وأسماء الله وصفاته كلها متوافرة في الكمال متناهية إلى غاية التمام لا يلحق شيئاً منها نقص بحال، فلما استحال أن تكون آية خيراً من آية في ذاتها علمنا أن المراد بخير منها إنما هو للمتعبدين بها لم ينقل عباده من تخفيف إلى تثقيل ولكنه نقلهم بالنسخ من تحريم إلى تحليل ومن إيجاب إلى تخيير ومن تطهير إلى تطهير، والشاهد لنا قوله: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ ❁ [النساء: ٢٨]، فيقال: أما قول القائل: "لولا عذر الجهالة لحكم على مثبت المفاضلة بالكفر"، فهم يقابلونه بمثل ذلك وحثهم أقوى، وذلك لأن الكفر حكم شرعي، وإنما يثبت بالأدلة الشرعية، ومن أنكر شيئاً لم يدل عليه الشرع؛ بل عُلِمَ بمجرد العقل لم يكن كافراً، وإنما الكافر من أنكر ما جاء به الرسول ومعلوم أنه ليس في الكتاب والسنة نص يمنع تفضيل بعض

كلام الله على بعض؛ بل ولا يمنع تفاضل صفاته تعالى؛ بل ولا نقل هذا النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أئمة المسلمين الذين لهم لسان صدق في الأمة بحيث جعلوا أعلاماً للسنة وأئمة للأمة.

وأما تفضيل بعض كلام الله على بعض؛ بل تفضيل بعض صفاته على بعض: فدلالة الكتاب والسنة والأحكام الشرعية والآثار السلفية كثيرة على ذلك، فلو قُدِّرَ أن الحق في نفس الأمر أنها لا تتفاضل لم يكن نفي تفاضلها معلوماً إلا بالعقل لا بدليل شرعي، وإذا قُدِّرَ أنها تتفاضل فالدال على ذلك هو الأدلة الشرعية مع العقلية فإذا قدر أن الحق في نفس الأمر هو التفضيل لكان كُفْرُ جاحِدٍ ذلك أولى من كُفْرٍ من يثبت التفضيل؛ إذا لم يكن حقاً في نفس الأمر، لأن ذلك جحد موجب الأدلة الشرعية بغير دليل شرعي؛ بل لما رآه بعقله وأخطأ فيه؛ إذ نحن نتكلم في هذا التقدير، ومعلوم أن من خالف ما جاءت به الرسل عن الله بمجرد عقله فهو أولى بالكفر ممن لم يخالف ما جاءت به الرسل عن الله، وإنما خالف ما علم بالعقل إن كان ذلك حقاً، ونظير هذا قول بعض نفاة الصفات لما تأمل حال أصحابه وحال مثبتها قال: لا ريب أن حال هؤلاء عند الله خير من حالنا فإن هؤلاء إن كانوا مصيبين فقد نالوا الدرجات العلى والرضوان الأكبر وإن كانوا مخطئين فإنهم يقولون: نحن يا رب صدقنا ما دل عليه كتابك وسنة رسولك؛ إذ لم تُبَيِّن لنا بالكتاب والسنة نفي الصفات كما دل كلامك على إثباتها فنحن أثبتنا ما دل عليه كلامك وكلام رسولك فإن كان الحق في خلاف ذلك فلم يبين الرسول ما يخالف ذلك ولم يكن خلاف ذلك مما يعلم ببداهة العقول بل إن قُدِّرَ أنه حق فلا يعلمه إلا الأفراد، فكيف وعامة المنتهين في خلاف ذلك إلى الغاية يقرون بالحيرة والارتباب، قال النافي: وإن كنا نحن مصيبين فإنه يقال لنا: أنتم قلتُم شيئاً لم أمركم بقوله وطلبتُم علماً لم أمركم بطلبه، فالثواب إنما يكون لأهل الطاعة وأنتم لم تمتثلوا أمري، قال: وإن كنا مخطئين فقد خسرتنا خسراناً مبيهاً، وهذا حال من أثبت المفاضلة في كلام الله وصفاته

ومن نفاها فإن المثبت معتصم بالكتاب والسنة والآثار ومعه من المعقولات الصريحة التي تبين صحة قوله وفساد قول منازعِهِ ما لا يتوجه إليها طعن صحيح، وأما النافي فليس معه آية من كتاب الله ولا حديث عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** ولا قول أحد من سلف الأمة، وإنما معه مجرد رأي يزعم أن عقله دل عليه ومنازعه يبين أن العقل إنما دل على نقيضه وأن خطأه معلوم بصريح المعقول كما هو معلوم بصحيح المنقول، واحتجاج المحتج على نفي التفاضل بقوله: **﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾** في غاية الفساد؛ فإن الآية لا تدل على هذا بوجه من الوجوه سواء أريد بها من آمن ببعضه وكفر ببعضه أو أريد بها من عضه فقال: هو سحر وشعر ونحو ذلك؛ بل من نفى فضل **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** على **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** فهو أولى بأن يكون ممن جعله عضين؛ إن دلت الآية على هذه المسألة، وذلك أن من آمن بما وصف الله به كلامه فأقر بأنه جميعه كلام الله، وأقر به كله فلم يكفر بحرف منه، وعلم أن كلام الله أفضل من كل كلام، وأن خير الكلام كلام الله، وأنه لا أحسن من الله حديثاً، ولا أصدق منه قياً، وأقر بما أخبر الله به ورسوله من فضل بعض كلامه كفضل فاتحة الكتاب وآية الكرسي و**﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** ونحو ذلك، بل وتفضيل يس وتبارك والآيتين من آخر سورة البقرة، بل وتفضيل البقرة وآل عمران، وغير ذلك من السور والآيات التي نطقت النصوص بفضلها وأقر بأنه كلام الله ليس منه شيء كلاماً لغيره؛ لا معانيه ولا حروفه فهو أبعد عن جعله عضين ممن لم يؤمن بما فضل الله به بعضه على بعض؛ بل آمن بفضله من جهة المتكلم ولم يؤمن بفضله من جهة المتكلم فيه؛ فإن هذا في الحقيقة آمن به من وجه دون وجه، وكذلك من قال: إنه معنى واحد وأن القرآن العربي لم يتكلم الله به؛ بل هو مخلوق خلقه الله في الهواء أو أحدثه جبريل أو محمد، فهذا أولى بأن يكون داخلاً فيمن عضه القرآن ورماه بالإفك وجعل القرآن العربي كلام مخلوق: إما بشرٌ وإما ملكٌ وإما غيرهما... إلى آخر كلامه.

الكلام على الاستعاذة

قال ابن كثير رحمه الله: (الكلام على تفسير الاستعاذة، قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩-٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٦٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٧٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦].

فهذه ثلاث آيات ليس لهن رابعة في معناها، وهو أن الله يأمر بمصانعة العدو الإنسي والإحسان إليه، ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة؛ إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً، ولا يتغي غير هلاك ابن آدم، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل؛ كما قال تعالى ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكَ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٦﴾﴾ [فاطر: ٦] وقال ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِيْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد أقسم للوالد إنه لمن الناصحين، وكذب، فكيف معاملته لنا وقد قال: ﴿قَالَ فِعْرَتِكَ لِأَعْوَابِهِمْ أجمعين ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٣، ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل: ٩٨، ٩٩].

قالت طائفة من القراء وغيرهم: نتعوذ بعد القراءة، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة؛ وممن ذهب إلى ذلك حمزة فيما ذكره ابن قلوفا عنه، وأبو حاتم السجستاني، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جبارة الهذلي المغربي في كتاب "الكامل".

وروي عن أبي هريرة -أيضاً- وهو غريب، ونقله فخر الدين محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال: وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصبهاني الظاهري، وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك **رَحِمَهُ اللهُ**، أن القارئ يتعوذ بعد الفاتحة، واستغربه ابن العربي، وحكى قول ثالث وهو الاستعاذة أولاً وآخرها جمعاً بين الدليلين نقله فخر الدين.

والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل **رَحِمَهُ اللهُ**: حدثنا محمد بن الحسن بن آتش^(١)، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي الإشكري^(٢)، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، قال: كان رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك» ويقول: «لا

(١) قال الحافظ في التقريب؛ فيه لين.

(٢) قال أبو حاتم لا يحتج به.

إله إلا الله» ثلاثاً، ثم يقول: «أعوذ بالله السميع العليم، من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه».

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر، كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة، عن عمر بن مرة^(١)، عن عاصم العنزي، عن نافع بن جبير بن مطعم، عن أبيه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: رأيت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حين دخل في الصلاة، قال: «الله أكبر كبيراً، ثلاثاً، الحمد لله كثيراً، ثلاثاً، سبحان الله بكرةً وأصيلاً ثلاثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان من همزه ونفخه ونفثه»، قال عمرو: وهمزه الموتة، ونفخه الكبر، ونفثه الشعر.

وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر، حدثنا ابن فضيل، حدثنا عطاء بن السائب، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن ابن مسعود عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، وهمزه ونفخه ونفثه»، قال: همزه: الموتة، ونفثه: الشعر، ونفخه: الكبر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك، عن يعلى بن عطاء، عن رجل حدثه: أنه سمع أبا أمامة الباهلي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يقول: كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إذا قام إلى الصلاة كبر ثلاثاً، ثم قال: «لا إله إلا الله» ثلاث مرات، و«سبحان الله وبحمده»، ثلاث مرات، ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخه ونفثه»^(٢).

(١) قال الحافظ مقبول؛ أي إن توبع، فحديثه يعتبر به.

(٢) ضعيف، لشريك والرجل المبهم.

وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هشام بن البريد عن يزيد بن زياد، عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: تلا حتى رجلان عند النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فتمزق أنف أحدهما غضبا، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إني لأعلم شيئا لو قاله ذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن يوسف بن عيسى المروزي، عن الفضل بن موسى، عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد به.

وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل، عن أبي سعيد، عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، والترمذي، والنسائي في اليوم والليلة عن بندار، عن ابن مهدي، عن الثوري، والنسائي -أيضا- من حديث زائدة بن قدامة، ثلاثتهم عن عبد الملك بن عمير، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فغضب أحدهما غضبا شديدا حتى خيل إلي أن أحدهما يتمزق أنفه من شدة غضبه، فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب»، قال: ما هي يا رسول الله؟ قال: «يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم»، قال: فجعل معاذ يأمره، فأبى ومحك، وجعل يزداد غضبا، وهذا لفظ أبي داود، وقال الترمذي: مرسل، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ ابن جبل، فإنه مات قبل سنة عشرين.

❁ قلت: وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب، كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل، فإن هذه القصة شهداها غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم.

قال البخاري: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن عدي بن ثابت، قال: قال سليمان بن صرد: استب رجلان عند النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، ونحن عنده جلوس، فأحدهما يسب صاحبه مغضبا قد احمر وجهه، فقال النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، فقالوا للرجل: ألا تسمع ما يقول رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال: إني لست بمجنون.

وقد رواه - أيضا - مع مسلم، وأبي داود، والنسائي، من طرق متعددة، عن الأعمش، به.

وقد جاء في الاستعاذة أحاديث كثيرة يطول ذكرها هاهنا، وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال، والله أعلم، وقد روي أن جبريل **عليه السلام**، أول ما نزل بالقرآن على رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** أمره بالاستعاذة.

كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس **رضي الله عنهما** قال: أول ما نزل جبريل على محمد **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال: يا محمد، استعذ، قال: «أستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: ﴿**أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١**﴾ قال عبد الله: وهي أول سورة أنزلها الله على محمد **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، بلسان جبريل، وهذا الأثر غريب، وإنما ذكرناه ليُعرف، فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً، والله أعلم.

مسألة: وجمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ليست بمتحمة يأثم تاركها، وحكى فخر الدين عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال: وقال ابن سيرين: إذا تعوذ مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب، واحتج فخر الدين لعطاء بظاهر الآية: ﴿**فَأَسْتَعِذْ**﴾ وهو أمر ظاهره

الوجوب وبمواظبة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عليها، ولأنها تدرأ شرَّ الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولأن الاستعاذة أحوط وهو أحد مسالك الوجوب، وقال بعضهم: كانت واجبة على النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** دون أمته، وحكي عن مالك أنه لا يتعوذ في المكتوبة ويتعوذ لقيام شهر رمضان في أول ليلة منه.

مسألة: وقال الشافعي في الإملاء يجهر بالتعوذ، وإن أسر فلا يضر، وقال في الأم بالتخيير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة، واختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى: هل يستحب التعوذ فيها؟ على قولين، ورجح عدم الاستحباب، والله أعلم، فإذا قال المستعيد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم: أعوذ بالله السميع العليم، وقال آخرون: بل يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم، قاله الثوري والأوزاعي وحكي عن بعضهم أنه يقول: أستعذ بالله من الشيطان الرجيم لمطابقة أمر الآية ولحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور، والأحاديث الصحيحة، كما تقدم، أولى بالاتباع من هذا، والله أعلم.

مسألة: ثم الاستعاذة في الصلاة إنما هي للتلاوة، وهو قول أبي حنيفة ومحمد، وقال أبو يوسف: بل للصلاة، فعلى هذا يتعوذ المأموم وإن كان لا يقرأ، ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد، والجمهور بعدها قبل القراءة.

ومن لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطيب له وتهيئ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يُدَارَى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات القرآن في ثلاث من المثاني، وقال تعالى:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقد

نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري يوم بدر، ومن قتله العدو البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهر كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطن كان مفتوناً أو موزوراً، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان.

فصل: والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعيادة تكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أوئله ❀❀ ومن أعود به ممن أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ❀❀ ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فصل: معنى الاستعاذة:

ومعنى (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم): أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة، قوله في الأعراف: ﴿حُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٠]،

وقال تعالى في سورة "المؤمنون": ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

يَصِفُونَ ﴿٦٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٦٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ

﴿٦٨﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨]، وقال تعالى في سورة «حم السجدة»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ

وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ [فصلت: ٣٤-٣٦]، والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ:

أَيَّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ❀❀ ثم يلقى في السجن والأغلال
فقال: أَيَّمَا شَاطِنٍ، ولم يقل: أَيَّمَا شَاطِنٍ.

وقال النابغة الذبياني - وهو: زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن سعد بن ذبيان -:

نَأَتْ بِسَعَادِ عَنكَ نَوَى شَطُونٍ ❀❀ فبانت والفؤاد بهار هين
يقول: بعدت بها طريق بعيدة.

وقال سيبويه: العرب تقول: تشيطن فلان إذا فَعَلَ فِعْلَ الشَّيْطَانِ ولو كان من شاط لقالوا: تَشَيَّطَ، والشيطان مشتق من البعد على الصحيح؛ ولهذا يسمون كل ما تمرد من جني وإنسي وحيوان شيطاناً، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وفي مسند الإمام أحمد، عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، تَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ»، فقلت: أو للانس شياطين؟ قال: «نعم»^(١).

(١) ضعيف فيه علي بن زيد بن جدعان، والقاسم أبو عبد الرحمن.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر -أيضاً- قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود»**، فقلت: يا رسول الله، ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر فقال: **«الكلب الأسود شيطان»**، وقال ابن وهب: أخبرني هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** ركب بردوناً، فجعل يتبختر به، فجعل لا يضربه فلا يزداد إلا تبختراً، فنزل عنه، وقال: ما حملتموني إلا على شيطان، ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي، إسناده صحيح.

والرجيم: فعيل بمعنى مفعول، أي: أنه مرجوم مطرود عن الخير كله، كما قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾** [الملك: ٥]، وقال تعالى: **﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوَكِبِ ٦ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ٧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ١٠﴾** [الصافات: ٦-١٠]، وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِ ١١ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ١٢ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ١٣﴾** [الحجر: ١٦-١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرحم الناس بالوساوس والخبائث والأول أشهر). اهـ.



الكلام على البسملة

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (افتتح بها الصحابة كتاب الله، واتفق العلماء على أنها بعض

آية من سورة النمل، ثم اختلفوا: هل هي آية مستقلة في أول كل سورة، أو من أول كل سورة كتبت في أولها، أو أنها بعض آية من أول كل سورة، أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها، أو أنها إنما كتبت للفصل، لا أنها آية؟، على أقوال للعلماء سلفًا وخلفًا، وذلك مبسوط في غير هذا الموضع.

وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح: عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أن رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الرَّحِيمِ﴾، وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في مستدرکه أيضًا، ورؤي مرسلًا

عن سعيد بن جبیر، وفي صحيح ابن خزيمة، عن أم سلمة: أن رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قرأ البسملة في أول الفاتحة في الصلاة وعدّها آية، لكنه من رواية

عمر بن هارون البلخي، وفيه ضعف، عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عنها،

وروي له الدارقطني متابعًا، عن أبي هريرة مرفوعًا، وروي مثله عن علي وابن عباس

وغيرهما، وممن حُكِيَ عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة: ابن عباس، وابن عمر،

وابن الزبير، وأبو هريرة، وعلي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ**، ومن التابعين: عطاء، وطاوس، وسعيد بن

جبیر، ومكحول، والزهري، وبه يقول عبد الله بن المبارك، والشافعي، وأحمد بن

حنبل، في رواية عنه، وإسحاق بن راهويه، وأبو عبيد القاسم بن سلام، **رَحِمَهُمُ اللَّهُ**، وقال

مالك وأبو حنيفة وأصحابهما: ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وقال

الشافعي في قول، في بعض طرق مذهبه: هي آية من الفاتحة وليست من غيرها، وعنه

أنها بعض آية من أول كل سورة، وهما غريان.

وقال داود: هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها، وهذه رواية عن الإمام أحمد بن حنبل، وحكاها أبو بكر الرازي، عن أبي الحسن الكرخي، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة، **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، هذا ما يتعلق بكونها من الفاتحة أم لا.

القول في الجهر بالبسمة:

فأما ما يتعلق بالجهر بها، فمفزع على هذا؛ فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها، وكذا من قال: إنها آية من أولها، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلفوا؛ فذهب الشافعي **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، إلى أنه يجهر بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهر بها من الصحابة أبو هريرة، وابن عمر، وابن عباس، ومعاوية، وحكاها ابن عبد البر، والبيهقي عن عمر وعلي، ونقله الخطيب عن الخلفاء الأربعة، وهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وهو غريب، ومن التابعين عن سعيد بن جببر، وعكرمة، وأبي قلابة، والزهري، وعلي بن الحسين، وابنه محمد، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسالم، ومحمد بن كعب القرظي، وأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وأبي وائل، وابن سيرين، ومحمد بن المنكدر، وعلي بن عبد الله بن عباس، وابنه محمد، ونافع مولى ابن عمر، وزيد بن أسلم، وعمر بن عبد العزيز، والأزرق بن قيس، وحبيب بن أبي ثابت، وأبي الشعثاء، ومكحول، وعبد الله بن معقل بن مقرن، زاد البيهقي: وعبد الله بن صفوان، ومحمد بن الحنفية، زاد ابن عبد البر: وعمرو بن دينار.

والحجة في ذلك: أنها بعض الفاتحة، فيجهر بها كسائر أبعاضها، وأيضاً فقد روى النسائي في سننه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** أنه صلى فجهر في قراءته بالبسمة، وقال بعد أن فرغ: إني

لأشبهكم صلاة برسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، وصححه الدارقطني والخطيب والبيهقي وغيرهم.

❁ **قلت**: قد أعل الحديث بتفرد نعيم المجرم بها؛ فلا يصح الجهر بها عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** البتة.

وروى أبو داود والترمذي، عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كان يفتح الصلاة بـ **﴿يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾** (١)، ثم قال الترمذي: وليس إسناده بذلك.

وقد رواه الحاكم في مستدركه، عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** قال: كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يجهر بـ **﴿يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾** (١)، ثم قال: صحيح (١).

وفي صحيح البخاري: عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه سئل عن قراءة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فقال: كانت قراءته مداً، ثم قرأ **﴿يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾** (١) يمد **﴿يَسْمُ اللَّهُ﴾**، ويمد **﴿الرَّحْمَنَ﴾**، ويمد **﴿الرَّحِيمَ﴾** (١) (٢).

وفي مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وصحيح ابن خزيمة، ومستدرك الحاكم: عن أم سلمة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يقطع قراءته: **﴿يَسْمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾** (١) **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (٢) **﴿الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾** (٣) **﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾** (٤)، وقال الدارقطني: إسناده صحيح.

وروى الشافعي **رَحِمَهُ اللَّهُ**، والحاكم في مستدركه، عن أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن معاوية صلى بالمدينة، فترك البسملة، فأنكر عليه من حضره من المهاجرين ذلك، فلما صلى المرة الثانية بسملاً.

(١) تصحيح الحاكم ليس بصحيح.

(٢) وهذا ليس فيه أنه جهر بها في الصلاة.

وفي هذه الأحاديث، والآثار التي أوردناها كفاية ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عداها، فأما المعارضات والروايات الغريبة، وتطبيقاتها، وتعليلها وتضعيفها، وتقريرها، فله موضع آخر.

وذهب آخرون إلى أنه لا يجهر بالبسمة في الصلاة، وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعة وعبد الله بن مغفل، وطوائف من سلف التابعين والخلف، وهو مذهب أبي حنيفة، والثوري، وأحمد بن حنبل.

وعند الإمام مالك: أنه لا يقرأ البسمة بالكلية، لا جهراً ولا سراً، واحتجوا بما في صحيح مسلم، عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يفتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، وبما في الصحيحين، عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قال: صليت خلف النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، ولمسلم: لا يذكرون **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** في أول قراءة ولا في آخرها، ونحوه في السنن عن عبد الله بن مغفل **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

فهذه مأخذ الأئمة **رَحِمَهُمُ اللَّهُ**، في هذه المسألة وهي قريبة؛ لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسمة ومن أسر، والله الحمد والمنة). اهـ.

وقد أشبع شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ** هذه المسألة كما في المجموع (٢٢/٤١٠-٤٣٧)، فقال **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (أما حديث أنس في نفي الجهر فهو صريح لا يحتمل هذا التأويل فإنه قد رواه مسلم في صحيحه فقال فيه: "صليت خلف النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بـ **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** لا يذكرون **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** في أول قراءة ولا في آخرها"، وهذا النفي لا يجوز إلا مع العلم بذلك لا يجوز بمجرد كونه لم يسمع مع إمكان الجهر بلا سماع، واللفظ الآخر الذي في صحيح مسلم: "صليت خلف النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحدا منهم يجهر أو قال: يصلي بـ ﴿يَسْمُو اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ﴾ ، فهذا نفي فيه السماع ولو لم يُرَوِ إلا هذا اللفظ لم يجز تأويله بأن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كان يقرأ جهراً ولا يسمع أنس لوجهه:

أحدها: أن أنساً إنما روى هذا؛ ليبين لهم ما كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يفعله إذ لا غرض للناس في معرفة كون أنس سمع أو لم يسمع إلا ليستدلوا بعدم سماعه على عدم المسموع فلو لم يكن ما ذكره دليلاً على نفي ذلك لم يكن أنس ليروي شيئاً لا فائدة لهم فيه ولا كانوا يروون مثل هذا الذي لا يفيدهم.

الثاني: أن مثل هذا اللفظ صار دالاً في العرف على عدم ما لم يدرك، فإذا قال: ما سمعنا أو ما رأينا لما شأنه أن يسمعه ويراه كان مقصوده بذلك نفي وجوده وذكر نفي الإدراك دليل على ذلك، ومعلوم أنه دليل فيما جرت العادة بإدراكه وهذا يظهر بالوجه الثالث.

الوجه الثالث: وهو أن أنساً كان يخدم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حين قدم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** المدينة إلى أن مات، وكان يدخل على نسائه قبل الحجاب ويصحبه حضراً وسفراً وكان حين حج النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** تحت ناقته يسيل عليه لعابها، أفيمكن مع هذا القرب الخاص والصحبة الطويلة أن لا يسمع النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يجهر بها مع كونه يجهر بها هذا مما يعلم بالضرورة بطلانه في العادة، ثم إنه صحب أبا بكر وعمر وعثمان وتولى لأبي بكر وعمر ولايات، ولا كان يمكن مع طول مدتهم أنهم كانوا يجهرون وهو لا يسمع ذلك فتبين أن هذا تحريف لا تأويل، لو لم يُرَوِ إلا هذا اللفظ؛ فكيف والآخر صريح في نفي الذكر بها وهو يفضل هذه الرواية الأخرى، وكلا الروايتين ينفي تأويل من تأول قوله: "يفتتحون الصلاة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾" ، أنه أراد السورة فإن قوله: "يفتتحون

ب﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ١ ﴾ لا يذكرون ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ١ ﴾ في أول قراءة ولا في آخرها"، صريح أنه في قصد الافتتاح بالآية لا بسورة الفاتحة التي أولها ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ١ ﴾، إذ لو كان مقصوده ذلك لتناقض حديثاه، وأيضاً فإن افتتاح الصلاة بالفاتحة قبل السورة هو من العلم الظاهر العام الذي يعرفه الخاص والعام كما يعلمون أن الركوع قبل السجود وجميع الأئمة غير النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وأبي بكر وعمر وعثمان يفعلون هذا ليس في نقل مثل هذا فائدة ولا هذا مما يحتاج فيه إلى نقل أنس وهم قد سألوه عن ذلك وليس هذا مما يسأل عنه وجميع الأئمة من أمراء الأمصار والجيوش وخلفاء بني أمية وبني الزبير وغيرهم ممن أدركه أنس كانوا يفتتحون بالفاتحة ولم يشتهبه هذا على أحد ولا شك؛ فكيف يظن أن أنسا قصد تعريفهم بهذا وأنهم سألوه عنه، وإنما مثل ذلك مثل أن يقال: فكانوا يصلون الظهر أربعاً والعصر أربعاً والمغرب ثلاثاً أو يقول: فكانوا يجهرون في العشاءين والفجر ويخافتون في صلاتي الظهرين، أو يقول: فكانوا يجهرون في الأوليين دون الأخيرتين، ومثل حديث أنس حديث عائشة الذي في الصحيح أيضاً: "أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كان يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة ب﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ١ ﴾"، إلى آخره وقد رُوي "يفتح القراءة ب﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ١ ﴾ **مَلَايَكُ يَوْمَ الدِّينِ** ١"، وهذا صريح في إرادة الآية؛ لكن مع هذا ليس في حديث أنس نفي لقراءتها سرا؛ لأنه رُوي "فكانوا لا يجهرون ب﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ١ ﴾"، وهذا إنما نفى هنا الجهر، وأما اللفظ الآخر "لا يذكرون"، فهو إنما ينفي ما يمكنه العلم بانتفائه وذلك موجود في الجهر فإنه إذا لم يسمع مع القرب علم أنهم لم يجهروا، وأما كون الإمام لم يقرأها فهذا لا يمكن إدراكه إلا إذا لم يكن له بين التكبير والقراءة سكتة يمكن فيها القراءة سرا؛ ولهذا استدل بحديث أنس على عدم القراءة من لم ير هناك سكوتا كمالك وغيره؛ لكن قد ثبت في الصحيحين من

حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: **«أقول: كذا وكذا»** إلى آخره، وفي السنن من حديث عمران وأبي وغيرهما: أنه كان يسكت قبل القراءة، وفيها أنه كان يستعيذ وإذا كان له سكوت لم يمكن أنسا أن ينفي قراءتها في ذلك السكوت فيكون نفيه للذكر وإخباره بافتتاح القراءة بها إنما هو في الجهر وكما أن الإمساك عن الجهر مع الذكر سراً يسمى سكوتاً كما في حديث أبي هريرة فيصلح أن يقال: لم يقرأها ولم يذكرها؛ أي جهراً؛ فإن لفظ السكوت ولفظ نفي الذكر والقراءة: مدلولهما هنا واحد، ويؤيد هذا حديث عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي في السنن: أنه سمع ابنه يجهر بها فأنكر عليه وقال: يا بني إياك والحدث وذكر أنه صلى خلف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأبي بكر وعمر وعثمان فلم يكونوا يجهرون بها، فهذا مطابق لحديث أنس وحديث عائشة اللذين في الصحيح، وأيضاً فمن المعلوم أن الجهر بها مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله فلو كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يجهر بها كالجهر بسائر الفاتحة لم يكن في العادة ولا في الشرع ترك نقل ذلك بل لو انفرد بنقل مثل هذا الواحد والاثنان لقطع بكذبهما إذ التواطؤ فيما تمنع العادة والشرع كتمانها كالتواطؤ على الكذب فيه، ويمثل هذا بكذب دعوى الرافضة في النص على علي في الخلافة وأمثال ذلك.

وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه ليس في الجهر بها حديث صريح ولم يرو أهل السنن المشهورة: كأبي داود والترمذي والنسائي شيئاً من ذلك وإنما يوجد الجهر بها صريحاً في أحاديث موضوعة يرويها الثعلبي والماوردي وأمثالهما في التفسير، أو في بعض كتب الفقهاء الذين لا يميزون بين الموضوع وغيره بل يحتجون بمثل حديث الحميراء، وأعجب من ذلك أن من أفاضل الفقهاء من لم يعز في كتابه حديثاً إلى البخاري إلا حديثاً في البسمة وذلك الحديث ليس في البخاري ومن هذا مبلغ علمه في الحديث كيف يكون حالهم في هذا الباب أو يرويها من جمع هذا

الباب: كالدارقطني والخطيب وغيرهما فإنهم جمعوا ما روي وإذا سئلوا عن صحتها قالوا: بموجب علمهم، كما قال الدارقطني لما دخل مصر، وسئل أن يجمع أحاديث الجهر بها فجمعها قيل له: هل فيها شيء صحيح؟ فقال: أما عن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** فلا، وأما عن الصحابة فمنه صحيح ومنه ضعيف، وسئل أبو بكر الخطيب عن مثل ذلك فذكر حديثين حديث معاوية لما صلى بالمدينة وقد رواه الشافعي **رحمة الله** قال: حدثنا عبد المجيد عن ابن جريج قال أخبرني عبد الله بن عثمان بن خثيم أن أبا بكر بن حفص بن عمر أخبره، أن أنس بن مالك قال: صلى معاوية بالمدينة فجهر فيها بأمر القرآن فقرأ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** ١) ولم يقرأ بها للرسالة التي بعدها ولم يكبر حين يهوي حتى قضى تلك الصلاة، فلما سلم ناداه من سمع ذلك من المهاجرين من كل مكان، يا معاوية أسرقت الصلاة أم نسيت؟ فلما صلى بعد ذلك قرأ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** ١) للرسالة التي بعد أم القرآن وكبر حين يهوي ساجداً، وقال الشافعي أنبأنا إبراهيم بن محمد قال: حدثني ابن خثيم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه أن معاوية قدم المدينة فصلى بهم ولم يقرأ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** ١) ولم يكبر إذا خفض وإذا رفع فناداه المهاجرون حين سلم والأنصار: أي معاوية؟ سرقت الصلاة؟ وذكره، وقال الشافعي أنبأنا يحيى بن سليم عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده عن معاوية والمهاجرين والأنصار بمثله أو مثل معناه لا يخالفه، وأحسب هذا الإسناد أحفظ من الإسناد الأول، وهو في كتاب إسماعيل ابن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده عن معاوية، وذكر الخطيب أنه أقوى ما يحتج به وليس بحجة كما يأتي بيانه، فإذا كان أهل المعرفة بالحديث متفقين على أنه ليس في الجهر حديث صحيح ولا صريح فضلا أن يكون فيها أخبار مستفيضة أو متواترة امتنع أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كان يجهر بها؛ كما يمتنع أن يكون كان يجهر بالاستفتاح والتعوذ

ثم لا ينقل، فإن قيل: هذا معارض بترك الجهر بها فإنه مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله ثم هو مع ذلك ليس منقولاً بالتواتر بل قد تنازع فيه العلماء كما أن ترك الجهر بتقدير ثبوته كان يداوم عليه ثم لم ينقل نقلاً قاطعاً بل وقع فيه النزاع.

قيل: الجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أن الذي تتوافر الهمم والدواعي على نقله في العادة ويجب نقله شرعاً: هو الأمور الوجودية فأما الأمور العدمية فلا خبر لها ولا ينقل منها إلا ما ظن وجوده أو احتيج إلى معرفته فينقل للحاجة؛ ولهذا قالوا لو نقل ناقل افتراض صلاة سادسة أو زيادة على صوم رمضان أو حجا غير حج البيت أو زيادة في القرآن أو زيادة في ركعات الصلاة أو فرائض الزكاة ونحو ذلك لقطعنا بكذبه فإن هذا لو كان لوجب نقله نقلاً قاطعاً عادة وشرعاً وإن عدم النقل يدل على أنه لم ينقل نقلاً قاطعاً عادة وشرعاً؛ بل يستدل بعدم نقله مع توافر الهمم والدواعي في العادة والشرع على نقله أنه لم يكن.

وقد مثل الناس ذلك بما لو نقل ناقل: أن الخطيب يوم الجمعة سقط من المنبر ولم يصل الجمعة أو أن قوما اقتتلوا في المسجد بالسيوف فإنه إذا نقل هذا الواحد والاثنان والثلاثة دون بقية الناس علمنا كذبهم في ذلك؛ لأن هذا مما تتوافر الهمم والدواعي على نقله في العادة؛ وإن كانوا لا ينقلون عدم الاقتتال ولا غيره من الأمور العدمية، يوضح ذلك أنهم لم ينقلوا الجهر بالاستفتاح والاستعادة واستدلت الأمة على عدم جهره بذلك وإن كان لم ينقل نقلاً عاماً عدم الجهر بذلك فبالطريق الذي يعلم عدم جهره بذلك يعلم عدم جهره بالبسملة وبهذا يحصل الجواب عما يورده بعض المتكلمين على هذا الأصل وهو كون الأمور التي تتوافر الهمم والدواعي على نقلها يمتنع ترك نقلها فإنهم عارضوا أحاديث الجهر والقنوت والأذان والإقامة فأما

الأذان والإقامة فقد نقل فعل هذا وهذا وأما القنوت فإنه قنت تارة وترك تارة وأما الجهر فإن الخبر عنه أمر وجودي ولم ينقل فيدخل في القاعدة.

الوجه الثاني: أن الأمور العدمية لما احتيج إلى نقلها نقلت فلما انقضى عصر الخلفاء الراشدين وصار بعض الأئمة يجهر بها كابن الزبير ونحوه، سأل بعض الناس بقايا الصحابة كأنس فروى لهم أنس ترك الجهر بها وأما مع وجود الخلفاء فكانت السنة ظاهرة مشهورة ولم يكن في الخلفاء من يجهر بها فلم يحتج إلى السؤال عن الأمور العدمية حتى ينقل.

الثالث: أن نفي الجهر قد نقل نقلاً صحيحاً صريحاً في حديث أبي هريرة والجهر بها لم ينقل نقلاً صحيحاً صريحاً مع أن العادة والشرع يقتضي أن الأمور الوجودية أحق بالنقل الصحيح الصريح من الأمور العدمية،

وهذه الوجوه من تدبرها وكان عالماً بالأدلة القطعية قطع بأن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لم يكن يجهر بها بل ومن لم يتدرب في معرفة الأدلة القطعية من غيرها يقول أيضاً: إذا كان الجهر بها ليس فيه حديث صحيح صريح فكيف يمكن بعد هذا أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كان يجهر بها ولم تنقل الأمة هذه السنة بل أهملوها وضيعوها؟ وهل هذه إلا بمثابة أن ينقل ناقل: أنه كان يجهر بالاستفتاح والاستعاذة كما كان فيهم من يجهر بالبسمة ومع هذا فنحن نعلم بالاضطرار أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لم يكن يجهر بالاستفتاح والاستعاذة كما كان يجهر بالفاتحة، كذلك نعلم بالاضطرار أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لم يكن يجهر بالبسمة كما كان يجهر بالفاتحة ولكن يمكن أنه كان يجهر بها أحياناً أو أنه كان يجهر بها قديماً ثم ترك ذلك كما روى أبو داود في مراسيله عن سعيد بن جبير ورواه الطبراني في معجمه عن ابن عباس **رضي الله عنهما**: «أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كان يجهر بها بمكة فكان المشركون إذا سمعوا سبوا الرحمن فترك الجهر فما جهر بها حتى مات» فهذا محتمل.

وأما الجهر العارض، فمثل ما في الصحيح أنه كان يجهر بالآية أحياناً ومثل جهر بعض الصحابة خلفه بقوله: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، ومثل جهر عمر بقوله: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك»، ومثل جهر ابن عمر وأبي هريرة بالاستعاذة، ومثل جهر ابن عباس بالقراءة على الجنابة ليعلموا أنها سنة، ويمكن أن يقال جهر من جهر بها من الصحابة كان على هذا الوجه ليعرفوا أن قراءتها سنة؛ لا لأن الجهر بها سنة، ومن تدبر عامة الآثار الثابتة في هذا الباب علم أنها آية من كتاب الله وأهم قرءوها لبيان ذلك لا لبيان كونها من الفاتحة، وأن الجهر بها سنة مثل ما ذكر ابن وهب في جامعه، قال أخبرني رجال من أهل العلم عن ابن عباس وأبي هريرة وزيد بن أسلم؛ وابن شهاب: مثله بغير هذا الحديث عن ابن عمر أنه كان يفتح القراءة بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال ابن شهاب: يريد بذلك أنها آية من القرآن، فإن الله أنزلها قال: وكان أهل الفقه يفعلون ذلك فيما مضى من الزمان، وحديث ابن عمر معروف من حديث حماد بن زيد عن أيوب عن نافع عن ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: أنه كان إذا صلى جهر بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ **﴿١﴾** فإذا قال: **﴿غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾** **﴿٧﴾** قال: **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** **﴿١﴾**، فهذا الذي ذكره ابن شهاب الزهري هو أعلم أهل زمانه بالسنة بين حقيقة الحال، فإن العمدة في الآثار في قراءتها إنما هي عن ابن عباس وأبي هريرة وابن عمر، وقد عرف حقيقة حال أبي هريرة في ذلك وكذلك غيره **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** أجمعين، ولهذا كان العلماء بالحديث ممن يروي الجهر بها ليس معه حديث صريح لعلمه بأن تلك أحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وإنما يتمسك بلفظ محتمل مثل اعتمادهم على حديث نعيم المجرم عن أبي هريرة المتقدم، وقد رواه النسائي، فإن العارفين بالحديث يقولون إنه عمدتهم في هذه المسألة ولا حجة فيه، فإن ما في صحيح مسلم عن أبي هريرة أظهر دلالة على نفي قراءتها من دلالة هذا

على الجهر بها؛ فإن في صحيح مسلم عن أبي هريرة **رَوَى اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «يقول الله قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٧﴾ قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٨﴾ قال: مجدي عبدي - أو قال فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٩﴾ قال فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿١٠﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿١١﴾ قال: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»، وقد روى عبد الله بن زياد بن سمعان - وهو كذاب - أنه قال: في أوله «فإذا قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١٢﴾ قال ذكرني عبدي»، ولهذا اتفق أهل العلم على كذب هذه الزيادة وإنما كثر الكذب في أحاديث الجهر؛ لأن الشيعة ترى الجهر وهم أكذب الطوائف فوضعوا في ذلك أحاديث لبسوا بها على الناس دينهم؛ ولهذا يوجد في كلام أئمة السنة من الكوفيين كسفيان الثوري أنهم يذكرون من السنة المسح على الخفين وترك الجهر بالبسمة كما يذكرون تقديم أبي بكر وعمر ونحو ذلك؛ لأن هذا كان من شعار الرافضة، ولهذا ذهب أبو علي بن أبي هريرة أحد الأئمة من أصحاب الشافعي إلى ترك الجهر بها قال: لأن الجهر بها صار من شعار المخالفين كما ذهب من ذهب من أصحاب الشافعي إلى تسنمة القبور؛ لأن التسطیح صار من شعار أهل البدع، فحديث أبي هريرة دليل على أنها ليست من القراءة الواجبة ولا من القراءة المقسومة وهو على نفي القراءة مطلقاً أظهر من دلالة حديث نعيم المجرم على الجهر؛ فإن في حديث نعيم المجرم أنه قرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١٣﴾ ثم قرأ أم القرآن وهذا دليل على أنها ليست من القرآن عندهم وحديث أبي هريرة الذي في مسلم يصدق ذلك فإنه قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي

خداج؛ فهي خداج» فقال له رجل: يا أبا هريرة - أنا أحياناً أكون وراء الإمام فقال: اقرأها في نفسك يا فارسي؛ فإني سمعت رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين» الحديث، وهذا صريح في أن أم القرآن التي يجب قراءتها في الصلاة عند أبي هريرة القراءة المقسومة التي ذكرها مع دلالة قول النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** على ذلك؛ وذلك ينفي وجوب قراءتها عند أبي هريرة فيكون أبو هريرة وإن كان قرأها؛ قرأها استحباباً لا وجوباً، والجهر بها مع كونها ليست من الفاتحة قول لم يقل به أحد من الأئمة الأربعة؛ وغيرهم من الأئمة المشهورين؛ ولا أعلم به قائلًا؛ لكن هي من الفاتحة وإيجاب قراءتها مع المخافتة بها قول طائفة من أهل الحديث؛ وهو إحدى الروايتين عن أحمد؛ وإذا كان أبو هريرة إنما قرأها استحباباً لا وجوباً؛ وعلى هذا القول لا تشرع المداومة على الجهر بها؛ كان جهره بها أولى أن يثبت دليلاً على أنه ليعرفهم استحباب قراءتها؛ وأن قراءتها مشروعة؛ كما جهر عمر بالاستفتاح: وكما جهر ابن عباس بقراءة فاتحة الكتاب على الجنابة؛ ونحو ذلك؛ ويكون أبو هريرة قصد تعريفهم أنها تقرأ في الجملة؛ وإن لم يجهر بها وحينئذ فلا يكون هذا مخالفاً لحديث أنس الذي في الصحيح؛ وحديث عائشة الذي في الصحيح؛ وغير ذلك، هذا إن كان الحديث دالاً على أنه جهر بها؛ فإن لفظه ليس صريحاً بذلك من وجهين: أحدهما أنه قال قرأ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴿١﴾ ثم قرأ أم القرآن، ولفظ القراءة محتمل أن يكون قرأها سراً ويكون نعيم علم ذلك بقربه منه؛ فإن قراءة السر إذا قويت يسمعها من يلي القارئ ويمكن أن أبا هريرة أخبره بقراءتها وقد أخبر أبو قتادة بأن رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كان يقرأ في الأوليين بفاتحة الكتاب وسورة وفي الأخيرتين بفاتحة الكتاب وهي قراءة سر كيف وقد بين في الحديث أنها ليست من الفاتحة فأراد بذلك وجوب قراءتها فضلاً عن كون الجهر بها سنة فإن النزاع في الثاني أضعف، الثاني أنه لم يخبر عن النبي

صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قرأها قبل أم الكتاب، وإنما قال في آخر الصلاة: إني لأشبههم صلاة برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وفي الحديث أنه أمن وكبر في الخفض والرفع، وهذا ونحوه مما كان يتركه الأئمة فيكون أشبههم برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من هذه الوجوه التي فيها ما فعله رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وتركوه هم ولا يلزم إذا كان أشبههم بصلاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن تكون صلاته مثل صلاته من كل وجه، ولعل قراءتها مع الجهر أمثل من ترك قراءتها بالكلية عند أبي هريرة؛ وكان أولئك لا يقرءونها أصلاً؛ فيكون قراءتها مع الجهر أشبه عنده بصلاة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وإن كان غيره ينازع في ذلك، وأما حديث المعتمر بن سليمان عن أبيه؛ فيعلم أولاً: أن تصحيح الحاكم وحده وتوثيقه وحده لا يوثق به فيما دون هذا؛ فكيف في مثل هذا الموضوع الذي يعارض فيه بتوثيق الحاكم، وقد اتفق أهل العلم في الصحيح على خلافه ومن له أدنى خبرة في الحديث وأهله لا يعارض بتوثيق الحاكم ما قد ثبت في الصحيح خلافه؛ فإن أهل العلم متفقون على أن الحاكم فيه من التساهل والتسامح في باب التصحيح حتى إن تصحيحه دون تصحيح الترمذي والدارقطني وأمثالهما بلا نزاع فكيف بتصحيح البخاري ومسلم، بل تصحيحه دون تصحيح أبي بكر ابن خزيمة وأبي حاتم بن حبان البستي وأمثالهما بل تصحيح الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختاره خير من تصحيح الحاكم فكتابه في هذا الباب خير من كتاب الحاكم بلا ريب عند من يعرف الحديث وتحسين الترمذي أحياناً يكون مثل تصحيحه أو أرجح وكثيراً ما يصحح الحاكم أحاديث يجزم بأنها موضوعة لا أصل لها فهذا هذا، والمعروف عن سليمان التيمي وابنه معتمر أنهما كانا يجهران بالبسمة، لكن نقله عن أنس هو المنكر كيف وأصحاب أنس الثقات الأثبات يروون عنه خلاف ذلك، حتى إن شعبة سأل قتادة عن هذا قال: أنت سمعت أنسًا يذكر ذلك؟ قال: نعم وأخبره باللفظ الصريح المنافي

للجهر، ونقل شعبة عن قتادة ما سمعه من أنس في غاية الصحة وأرفع درجات الصحيح عند أهله إذ قتادة أحفظ أهل زمانه أو من أحفظهم وكذلك إتقان شعبة وضبطه هو الغاية عندهم، وهذا مما يرد به قول من زعم أن بعض الناس روى حديث أنس بالمعنى الذي فهمه، وأنه لم يكن في لفظه إلا قوله: «**يستفتحون الصلاة بـ ﴿سورة﴾** **اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾**»، ففهم بعض الرواة من ذلك نفي قراءتها فرواه من عنده فإن هذا القول لا يقوله إلا من هو أبعد الناس علما برواة الحديث وألفاظ روايتهم الصريحة التي لا تقبل التأويل وبأنهم من العدالة والضبط في الغاية التي لا تحتمل المجازفة أو أنه مكابر صاحب هوى يتبع هواه ويدع موجب العلم والدليل، ثم يقال: هب أن المعتمر أخذ صلاته عن أبيه وأبوه عن أنس وأنس عن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** فهذا مجمل ومحتمل؛ إذ ليس يمكن أن يثبت كل حكم جزئي من أحكام الصلاة بمثل هذا الإسناد المجمل؛ لأنه من المعلوم أن مع طول الزمان وتعدد الإسناد لا تضبط الجزئيات في أفعال كثيرة متفرقة حق الضبط؛ إلا بنقل مفصل لا مجمل وإلا فمن المعلوم أن مثل منصور بن المعتمر وحماد بن أبي سليمان والأعمش وغيرهم أخذوا صلاتهم عن إبراهيم النخعي وذويه وإبراهيم أخذها عن علقمة والأسود ونحوها وهم أخذوها عن ابن مسعود وابن مسعود عن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** وهذا الإسناد أجل رجالاً من ذلك الإسناد وهؤلاء أخذ الصلاة عنهم أبو حنيفة والثوري وابن أبي ليلى وأمثالهم من فقهاء الكوفة، فهل يجوز أن يجعل نفس صلاة هؤلاء هي صلاة رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** بهذا الإسناد حتى في موارد النزاع فإن جاز هذا كان هؤلاء لا يجهرون ولا يرفعون أيديهم إلا في تكبيرة الافتتاح ويسفرون بالفجر وأنواع ذلك مما عليه الكوفيون، ونظير هذه احتجاج بعضهم على الجهر بأن أهل مكة من أصحاب ابن جريج كانوا يجهرون وأنهم أخذوا صلاتهم عن ابن جريج وهو أخذها عن عطاء، وعطاء عن ابن الزبير وابن الزبير عن أبي بكر الصديق وأبو بكر عن النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ولا ريب أن الشافعي **رَحِمَهُ اللَّهُ** أول ما أخذ الفقه في هذه المسألة وغيرها عن أصحاب ابن جريج، كسعيد بن سالم القداح ومسلم بن خالد الزنجي لكن مثل هذه الأسانيد المجملة لا يثبت بها أحكام مفصلة تنازع الناس فيها، ولئن جاز ذلك ليكونن مالك أرجح من هؤلاء فإنه لا يستريب عاقل أن الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين كانوا بالمدينة أجل قدرا وأعلم بالسنة وأتبع لها ممن كان بالكوفة ومكة والبصرة، وقد احتج أصحاب مالك على ترك الجهر بالعمل المستمر بالمدينة فقالوا: هذا المحراب الذي كان يصلي فيه رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ثم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم الأئمة وهلم جرا، ونقلهم لصلاة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** نقل متواتر كلهم شهدوا صلاة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ثم صلاة خلفائه، وكانوا أشد محافظة على السنة وأشد إنكارًا على من خالفها من غيرهم فيمتنع أن يغيروا صلاة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وهذا العمل يقترن به عمل الخلفاء كلهم؛ من بني أمية وبني العباس فإنهم كلهم لم يكونوا يجهرون وليس لجميع هؤلاء غرض بالإطباق على تغيير السنة في مثل هذا ولا يمكن أن الأئمة كلهم أقرتهم على خلاف السنة بل نحن نعلم ضرورة أن خلفاء المسلمين وملوكهم لا يبدلون سنة لا تتعلق بأمر ملكهم، وما يتعلق بذلك من الأهواء وليست هذه المسألة مما للملوك فيها غرض، وهذه الحجة إذا احتج بها المحتج لم تكن دون تلك بل نحن نعلم أنها أقوى منها فإنه لا يشك مسلم أن العزم بكون صلاة التابعين بالمدينة أشبه بصلاة الصحابة بها، والصحابة بها أشبه بصلاة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أقرب من العزم بكون صلاة شخص أو شخصين أشبه بصلاة آخر حتى ينتهي ذلك إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، ولهذا لم يذهب ذاهب قط إلى أن عمل غير أهل المدينة أو إجماعهم حجة وإنما تنوزع في عمل أهل المدينة وإجماعهم: هل هو حجة أم لا؟ نزاعًا لا يقصر عن عمل غيرهم، وإجماع غيرهم إن لم يزد عليه، فتبين دفع ذلك

العمل عن سليمان التيمي وابن جريج وأمثالهما بعمل أهل المدينة لو لم يكن المنقول نقلًا صحيحًا صريحًا عن أنس يخالف ذلك، فكيف والأمر في رواية أنس أظهر وأشهر وأصح وأثبت من أن يعارض بهذا الحديث المجمل الذي لم يثبت وإنما صححه مثل الحاكم وأمثاله.

ومثل هذا أيضًا يظهر ضعف حديث معاوية الذي فيه أنه صلى بالصحابة بالمدينة فأنكروا عليه ترك قراءة البسملة في أول الفاتحة وأول السورة حتى عاد يعمل ذلك، فإن هذا الحديث وإن كان الدارقطني قال: إسناده ثقات، وقال الخطيب: هو أجود ما يعتمد عليه في هذه المسألة كما نقل ذلك عنه نصر المقدسي فهذا الحديث يعلم ضعفه من وجوه:

أحدها: أنه يروي عن أنس أيضًا؛ الرواية الصحيحة الصريحة المستفيضة الذي يرد هذا.

الثاني: أن مدار ذلك الحديث على عبد الله بن عثمان بن خثيم وقد ضعفه طائفة وقد اضطربوا في روايته إسناده وامتنا: كما تقدم، وذلك يبين أنه غير محفوظ.

الثالث: أنه ليس فيه إسناده متصل السماع؛ بل فيه من الضعف والاضطراب ما لا يؤمن معه الانقطاع أو سوء الحفظ.

الرابع: أن أنسا كان مقيمًا بالبصرة ومعاوية لما قدم المدينة لم يذكر أحد علمناه أن أنسا كان معه، بل الظاهر أنه لم يكن معه.

الخامس: أن هذه القضية بتقدير وقوعها كانت بالمدينة والراوي لها أنس وكان بالبصرة وهي مما تتوافر الهمم والدواعي على نقلها، ومن المعلوم أن أصحاب أنس المعروفين بصحبته وأهل المدينة لم ينقل أحد منهم ذلك؛ بل المنقول عن أنس وأهل المدينة نقيض ذلك والناقل ليس من هؤلاء ولا من هؤلاء.

السادس: أن معاوية لو كان رجع إلى الجهر في أول الفاتحة والسورة لكان هذا أيضًا معروفًا من أمره عند أهل الشام الذين صحبوه ولم ينقل هذا أحد عن معاوية؛ بل الشاميون كلهم: خلفاؤهم وعلمائهم كان مذهبهم ترك الجهر بها؛ بل الأوزاعي مذهبه فيها مذهب مالك لا يقرؤها سرًا ولا جهراً، فهذه الوجوه وأمثالها إذا تدبرها العالم قطع بأن حديث معاوية إما باطل لا حقيقة له، وإما مغير عن وجهه، وأن الذي حدث به بلغه من وجه ليس بصحيح، فحصلت الآفة من انقطاع إسناده، وقيل: هذا الحديث لو كان تقوم به الحجة لكان شاذًا؛ لأنه خلاف ما رواه الناس الثقات الأثبات عن أنس وعن أهل المدينة وأهل الشام، ومن شرط الحديث الثابت أن لا يكون شاذًا ولا معللاً، وهذا شاذ معلل إن لم يكن من سوء حفظ بعض رواته.

والعمدة التي اعتمدها المصنفون في الجهر بها ووجوب قراءتها إنما هو كتابتها في المصحف بقلم القرآن، وأن الصحابة جردوا القرآن عما ليس منه، والذين نازعواهم دفعوا هذه الحجة بلا حق كقولهم: القرآن لا يثبت إلا بقاطع ولو كان هذا قاطعًا لكفر مخالفه، وقد سلك أبو بكر بن الطيب الباقلاني وغيره هذا المسلك وأدعوا أنهم يقطعون بخطأ الشافعي في كونه جعل البسمة من القرآن، معتمدين على هذه الحجة وأنه لا يجوز إثبات القرآن إلا بالتواتر ولا تواتر هنا فيجب القطع بنفي كونها من القرآن، والتحقيق: أن هذه الحجة مقابلة بمثلها فيقال لهم: بل يقطع بكونها من القرآن حيث كتبت كما قطعتم بنفي كونها ليست منه، ومثل هذا النقل المتواتر عن الصحابة بأن ما بين اللوحين قرآن فإن التفريق بين آية وآية يرفع الثقة بكون القرآن المكتوب بين لוחي المصحف كلام الله، ونحن نعلم بالاضطرار أن الصحابة الذين كتبوا المصاحف نقلوا إلينا أن ما كتبه بين لוחي المصحف كلام الله الذي أنزله على نبيه **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لم يكتبوا فيه ما ليس من كلام الله، فإن قال المنازع: إن قطعتم بأن البسمة من القرآن حيث كتبت فكفروا النافي قيل لهم: وهذا يعارض حكمه إذا

قطعتم بنفي كونها من القرآن فكفروا منازعكم، وقد اتفقت الأمة على نفي التكفير في هذا الباب مع دعوى كثير من الطائفتين القطع بمذهبه وذلك لأنه ليس كل ما كان قطعيا عند شخص يجب أن يكون قطعيا عند غيره، وليس كل ما ادعت طائفة أنه قطعي عندها يجب أن يكون قطعيا في نفس الأمر؛ بل قد يقع الغلط في دعوى المدعي القطع في غير محل القطع، كما يغلط في سمعه وفهمه ونقله وغير ذلك من أحواله كما قد يغلط الحس الظاهر في مواضع، وحينئذ فيقال: الأقوال في كونها من القرآن ثلاثة: (طرفان ووسط):

الطرف الأول: قول من يقول إنها ليست من القرآن إلا في سورة النمل كما قال مالك وطائفة من الحنفية وكما قاله بعض أصحاب أحمد، مدعي أنه مذهبه أو ناقلا لذلك رواية عنه.

والطرف المقابل له: قول من يقول إنها من كل سورة آية أو بعض آية كما هو المشهور من مذهب الشافعي ومن وافقه وقد نقل عن الشافعي أنها ليست من أوائل السور غير الفاتحة وإنما يستفتح بها في السور تبركا بها وأما كونها من الفاتحة فلم يثبت عنه فيه دليل.

والقول الوسط: أنها من القرآن حيث كتبت وأنها مع ذلك ليست من السور بل كتبت آية في أول كل سورة، وكذلك تتلى آية منفردة في أول كل سورة كما تلاها النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حين أنزلت عليه سورة **﴿إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾** كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وكما في قوله: **«إن سورة من القرآن هي ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له؛ وهي سورة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ﴾**، رواه أهل السنن وحسنه الترمذي، وهذا القول قول عبد الله بن المبارك، وهو المنصوص الصريح عن أحمد بن حنبل، وذكر أبو بكر الرازي أن هذا مقتضى مذهب أبي حنيفة عنده، وهو قول سائر من حقق القول في هذه المسألة وتوسط فيها جمع من مقتضى الأدلة وكتابتها

سطرا مفصولا عن السورة ويؤيد ذلك قول ابن عباس: «كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه» ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ رواه أبو داود.

وهؤلاء لهم في الفاتحة قولان هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: أنها من الفاتحة دون غيرها تجب قراءتها حيث تجب قراءة الفاتحة.

والثاني: وهو الأصح لا فرق به بين الفاتحة وغيرها في ذلك، وأن قراءتها في أول الفاتحة كقراءتها في أول السور، والأحاديث الصحيحة توافق هذا القول لا تخالفه، وحينئذ الخلاف أيضًا في قراءتها في الصلاة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها واجبة وجوب الفاتحة كمذهب الشافعي وأحمد في إحدى الروايتين وطائفة من أهل الحديث بناء على أنها من الفاتحة.

والثاني: قول من يقول: قراءتها مكروهة سرا وجهرا كما هو المشهور من مذهب مالك.

والقول الثالث: أن قراءتها جائزة؛ بل مستحبة وهذا مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنه، وأكثر أهل الحديث وطائفة من هؤلاء يسوي بين قراءتها وترك قراءتها، ويخير بين الأمرين معتقدين أن هذا على إحدى القراءتين، وذلك على القراءة الأخرى، ثم مع قراءتها هل يسن الجهر أو لا يسن على ثلاثة أقوال: قيل: يسن الجهر بها كقول الشافعي ومن وافقه، قيل: لا يسن الجهر بها كما هو قول الجمهور من أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار، وقيل: يخير بينهما، كما يروى عن إسحاق وهو قول ابن حزم وغيره، ومع هذا فالصواب أن ما لا يجهر به قد يشرع الجهر به لمصلحة راجحة، فيشرع للإمام أحيانا لمثل تعليم المأمومين ويسوغ للمصلين أن يجهروا بالكلمات اليسيرة أحيانا، ويسوغ أيضًا أن يترك الإنسان الأفضل لتأليف القلوب واجتماع الكلمة خوفًا من التنفير عما يصلح، كما ترك النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بناء البيت على قواعد إبراهيم؛ لكون قريش كانوا حديثي عهد بالجاهلية، وخشي تنفيرهم بذلك ورأى أن مصلحة الاجتماع والائتلاف مقدمة على مصلحة البناء على قواعد إبراهيم، وقال ابن مسعود - لما أكمل الصلاة خلف عثمان وأنكر عليه فقيل له في ذلك فقال - الخلاف شر؛ ولهذا نص الأئمة كأحمد وغيره على ذلك بالبسملة، وفي وصل الوتر وغير ذلك مما فيه العدول عن الأفضل إلى الجائر المفضول مراعاة ائتلاف المأمومين، أو لتعريفهم السنة وأمثال ذلك). اهـ.

فوائد تتعلق بالبسملة:

ويشرع الإتيان بالبسملة في مواطن كثيرة منها عند افتتاح الكتب، وجاء عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كما في الصحيحين البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٢)، من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كتب في كتابه إلى هرقل عن أنس: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» الحديث. وعند مسلم (١٧٨٤)، عن أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لما كتب الصلح بينه وبين قريش، قال لعلي بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما بسم الله فما ندري بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم.

وجاء عن البراء بن عازب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم (١٧٨٣)، قال: لما أحصر النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عند البيت، صالحه أهل مكة على أن يدخلها فيقيم بها ثلاثاً، ولا يدخلها إلا بجلبان السلاح، السيف وقرايه، ولا يخرج بأحد معه من أهلها، ولا يمنع أحداً يمكث بها ممن كان معه، قال لعلي: «اكتب الشرط بيننا، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله تابعناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فأمر علياً أن يمحاها، فقال علي: لا والله، لا أمحاها، فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أرني مكانها»، فأراه مكانها فمحاها،

وكتب ابن عبد الله، فأقام بها ثلاثة أيام، فلما أن كان يوم الثالث قالوا لعلي: هذا آخر يوم من شرط صاحبك، فأمره فليخرج فأخبره بذلك، فقال: «نعم» فخرج.

وفي كتاب النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إلى بني أقيش عند أحمد (٢٣٠٧٧) عن يزيد بن عبد الله بن الشخير قال: كنا بهذا المربد بالبصرة قال: فجاء أعرابي معه قطعة أديم، أو قطعة جراب، فقال: هذا كتاب كتبه لي النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، قال أبو العلاء: فأخذته فقرأته على القوم، فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لبني زهير بن أقيش: إنكم إن أقمتم الصلاة، وأديتم الزكاة، وأعطيتم من المغنم الخمس وسهم النبي والصفى، فأنتم آمنون بأمان الله، وأمان رسوله»، قال: قلنا: ما سمعت من رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**؟ فقال: سمعته يقول: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر».

وقص الله تعالى في القرآن أن سليمان **عَلَيْهِ السَّلَام** لما كتب إلى ملكة اليمن قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

وعند إتيان الرجل أهله، قال النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني، فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان، ولم يسلط عليه»، من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** في البخاري (٣٢٨٣)، ومسلم (١٤٣٤)، وبوب عليه البخاري في صحيحه؛ (باب ذكر الله عند الوقاع وغيره).

وعند الخروج من البيت لما صح عن أم سلمة وأنس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** أن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كان إذا خرج من بيته قال: «بسم الله توكلت على الله» رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٧).

وعند ركوب الدابة لما صح عن علي بن أبي طالب **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، فعن علي بن ربيعة، قال: شهدت علياً، أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب، قال: «بسم الله»

ثلاثا، فلما استوى على ظهرها، قال: «الحمد لله»، ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٣]، ثم قال: «الحمد لله» ثلاثا، «الله أكبر» ثلاثا، «سبحانك إني قد ظلمت نفسي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صنع كما صنعت، ثم ضحك، فقلت: من أي شيء ضحكت يا رسول الله؟ قال: «إن ربك ليعجب من عبده إذا قال: رب اغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب غيرك»، أخرجه أبو داود (٢٦١٢)، والترمذي (٢٤٤٣).

وقال تعالى في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: ٤١].

وعند دخول البيت لما صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٢٠١٨)، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء».

وعند الطعام والشراب ولحديث عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا غلام سم الله وكل بيمينك، وكل مما يليك»، البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، ولحديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٢٠١٧) قال: كنا إذا حضرنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طعاما لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيضع يده، وإنا حضرنا معه مرة طعاما، فجاءت جارية كأنها تدفع، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يدفع فأخذ بيده، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يذكر

اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها فأخذت بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده، والذي نفسي بيده، إن يده في يدي مع يدها».

وعند إغلاق الأبواب لحديث جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في مسلم (٢٠١٢) قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يجل سقاء، ولا يفتح بابًا، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عودًا، ويذكر اسم الله، فليفعل، فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم».

وعند النوم كما صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه، فلينفذ فراشه بداخلة إزاره، وليتوسد يمينه، ثم ليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، اللهم إن أمسكتها فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما حفظت به عبادك الصالحين»، من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).

وعند القيام من النوم، قال الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «باسمك أموت وأحيا» من حديث حذيفة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند البخاري (٦٣١٢)، وعن البراء في مسلم (٢٧١١).

وعند الصباح والمساء، لما صح من حديث عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** بن عفان قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من قال بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء، في الأرض، ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، لم تصبه فجأة بلاء، حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات، لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسي»، عند أبي داود (٥٠٨٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩).

وعند العلاج وغير ذلك، لما صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه كان إذا جاءه الرجل فيه الجرح بلل إصبعه ثم وضعها في التراب ثم وضعها على مكان الألم ثم قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك باسم الله أرقيك»، من حديث أبي سعيد عند مسلم (٢١٨٦)،

ومن حديث عثمان بن أبي العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه شكا إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وجعا يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»، عند مسلم (٢٢٠٢)، (٣٥٢٢)، ولما جاء جبرائيل، أتى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فقال: يا محمد اشتكيت؟ قال: «نعم»، قال: «بسم الله أريك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين، أو حاسد الله يشفيك، بسم الله أريك»، منه حديث أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند ابن ماجه (٣٥٢٣)، ومسنده أحمد (١١٢٢٥).

وعند إرسال الرسل وتوديع الأصحاب والإخوان لما صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** من حديث بريدة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا»، مسلم (١٧٣١).

وعند الرمي لما جاء من حديث صهيب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أن ذلك الغلام لما عجز عن قتله قال: «إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات»، مسلم (٣٠٠٥).

وعند إرسال الكلب المعلم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤]، وقال الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك،

فإن أكل فلا تأكل، فإنها أمسك على نفسه»، من حديث عدي بن حاتم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند البخاري (١٧٥)، ومسلم (١٩٢٩)، وقال: «إذا رميت سهمك، فاذكر اسم الله، فإن وجدته قد قتل فكل، إلا أن تجده قد وقع في ماء، فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك»، من حديث عدي بن حاتم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم (١٩٢٩).

ولما نحر النبي أضحيته قال: «من كان ذبح أضحيته قبل أن يصلي -أو نصلي-، فليذبح مكانها أخرى، ومن كان لم يذبح، فليذبح باسم الله»، من حديث جندب بن سفيان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم (١٩٦٠)، وما لم يذكر اسم الله عليه حال التذكية لا يجوز أكله بحال قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٨] وَمَا لَكُمْ إِلَّا أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٨-١١٩].

قال الشوكاني في فتح القدير: نهى الله سبحانه عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، بعد أن أمر بالأكل مما ذكر اسم الله عليه، وفيه دليل على تحريم أكل ما لم يذكر اسم الله عليه.

وقد اختلف أهل العلم في ذلك، فذهب ابن عمر، ونافع مولاة وهو الشعبي وابن سيرين وهو رواية عن مالك وعن أحمد بن حنبل وبه قال أبو ثور وداود الظاهري، أن ما لم يذكر اسم الله عليه من الذبائح حرام من غير فرق بين العامد والناسي لهذه الآية ولقوله تعالى في آية الصيد: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، ويزيد هذا الاستدلال تأكيداً قوله سبحانه في هذه الآية ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة، والأمر بالتسمية في الصيد وغيره، وذهب الشافعي وأصحابه، وهو رواية مالك، ورواية عن أحمد: أن التسمية مستحبة لا

واجبة، وهو مروى عن ابن عباس، وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، وحمل الشافعي الآية على من ذبح لغير الله، وهو تخصيص للآية بغير مخصص، وقد روى أبو داود في المرسل أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر»، وليس في هذا المرسل ما يصلح لتخصيص الآية، نعم حديث عائشة أنها قالت للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: إن قوما يأتوننا بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «اذكروا أتم اسم الله، وكلوا»، رواه البخاري (٧٣٩٨)، يفيد أن التسمية عند الأكل تجزئ مع التباس وقوعها عند الذبح، وذهب مالك، وأحمد في المشهور عنهما، وأبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه، أن التسمية إن تركت نسياناً لم تضر، وإن تركت عمدًا لم يحل أكل الذبيحة، وهو مروى عن علي وابن عباس، وسعيد بن المسيب، وعطاء وطاوس، والحسن البصري، وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وجعفر بن محمد وربيعه بن أبي عبد الرحمن، واستدلوا بما أخرجه البيهقي عن ابن عباس عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «المسلم إن نسي أن يسمي حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله»، وهذا الحديث رفعه خطأ، وإنما هو من قول ابن عباس، وكذا أخرجه من قوله عبد الرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد وابن المنذر، نعم يمكن الاستدلال لهذا المذهب بمثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، كما سبق تقريره، ويقول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»، وأما حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن عدي أن رجلاً جاء إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فقال: يا رسول الله، أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمي؟، فقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «اسم الله على كل مسلم»، فهو حديث ضعيف، قد ضعفه وغيره. انتهى

وعند السقوط والتعثر، فعن رجل من أصحاب النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: كنت رديف النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فعثرت دابة، فقلت: تعس الشيطان، فقال: «لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت ذلك تعظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصغر حتى يكون مثل الذباب»، عند أبي داود (٤٩٨٢)، ومسند أحمد (٢٠٥٩١).

ولما قطعت إصبع طلحة بن عبيد الله **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: حسّ، فقال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لو قلت: بسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون»، رواه النسائي (٣١٣٩).

هذه بعض المواطن التي تشرع فيها التسمية، وهناك مواطن أخرى لمن أراد التقصّي، ونسأل الله العون والسداد، ومنها ما تكون التسمية عليه واجبة ومنها ما تكون مستحبة، على تفصيل في كتب الفقه، والله أعلم.

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾

﴿بِسْمِ﴾: الباء للاستعانة، وقيل للمصاحبة، والأول أظهر وأشتهر، إذ أن العبد يسمي الله تعالى متبركا بذكره مستعينا به في تيسير أمره وتفريج كربته، والاسم مشتق من السمو الذي هو العلو، وقيل من السمة، والأول أظهر، لأنه يجمع على أسماء ويصغر على سُمِّي، ولو كان مشتقا من السمة لجمع على سمات، ويصغر على سُمِّيَّة، وهل الخلاف في هذا عقدي أم فقط نحوي، وعلى الصحيح فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الخلاف عقدي.

قال الراغب في "المفردات": (والاسم ما يعرف به ذات الشيء، وأصله سَمُو، بدلالة قولهم أسماء، وسُمِّي وأصله من السمو، وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به). اهـ

وقال شيخ الإسلام القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِهِ: (اختلفوا في اشتقاق الاسم على وجهين، فقال البصريون: هو مشتق من السمو وهو العلو والرفعة، فقيل: اسم لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به، وقيل لأن الاسم يسمى بالمسمى فيرفعه عن غيره، وقيل إنما سمي الاسم اسماً لأنه علا بقوته على قسمي الكلام: الحرف والفعل، والاسم أقوى منهما بالإجماع لأنه الأصل، فلعلوه عليهما سُمي اسماً فهذه ثلاثة أقوال، وقال الكوفيون: إنه مشتق من السمة وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، فأصل اسم على هذا «وسم»، والأول أصح، لأنه يقال في التصغير سُمِّي وفي الجمع أسماء، والجمع والتصغير يردان الأشياء إلى أصولها، فلا يقال: وسيم ولا أوسام، ويدل على صحته أيضاً فائدة الخلاف وهي: الثامنة عشر فإن من قال الاسم مشتق من العلو يقول: لم يزل الله سبحانه موصوفاً قبل وجود الخلق وبعد وجودهم وعند فناءهم، ولا تأثير لهم في أسمائه ولا صفاته، وهذا قول أهل السنة، ومن قال الاسم مشتق من السمة يقول: كان الله في الأزل بلا اسم ولا صفة، فلما خلق الخلق جعلوا له أسماء وصفات، فإذا أفناهم بقي بلا اسم ولا صفة، وهذا قول المعتزلة وهو خلاف ما أجمعت عليه الأمة، وهو أعظم في الخطأ من قولهم: إن كلامه مخلوق، تعالى الله عن ذلك) اهـ.

﴿الله﴾: لفظ الجلالة؛ وهو علم على الذات العلية، وهو أعرف المعارف، والاسم الأعظم على الصحيح، وهو مشتق من الإله، وهو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم، أفاده ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ.

والتأله هو التعبد، قال رؤبة:

لله درُّ الغانيات المــــدّه ❀ ❀ سبَّحن واسترجعن من تألَّهي

أي: من تعبدي، وكل الأسماء الحسنی عائدة إليه وتابعة له؛ إذ لم يأت تابعاً قط، وأما قول الله عزَّجَل في سورة إبراهيم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿الله﴾، فهذا من

عطف البيان لا النسق، فإن ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ ١﴾ هو الله تعالى، وهو دال على الذات العلية بالمطابقة، ودال على الذات والصفة بالتضمن، ودال على جميع الصفات بالالتزام، إذ أن الإله هو السميع البصير الحي القدير المتكلم المتصف بجميع صفات الجمال والكمال والعظمة، قال ابن القيم: (وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنی) اهـ، من البدائع.

قال القرطبي في تفسيره: (هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره، لذلك لم يُتَنَّ ولم يجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ١٥﴾ أي من تسمى باسمه الذي هو ﴿اللَّهُ﴾ فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه، وقيل: معناه الذي يستحق أن يعبد، وقيل: معناه واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال، والمعنى واحد) اهـ.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "المدارج" (٤١/١): (اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنی، والصفات العليا بالدلالات الثلاث، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية: هي صفات الكمال، المنزهة عن التشبيه والمثال، وعن العيوب والنقائص، ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنی إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] ويقال: الرحمن الرحيم، والقدوس، والسلام، والعزیز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال: الله من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك.

فَعُلِمَ أن اسمه الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنی، دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنی تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله، واسم الله

دال على كونه مألوها معبودا، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا، وفزعا إليه في الحوائج والنوائب) اهـ.

وقال ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ: ﴿اللَّهُ﴾ علم على الرب **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، يقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤]، فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي الصحيحين، عن أبي هريرة: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة»، وجاء تعداها في رواية الترمذي، وابن ماجه وبين الروايتين اختلاف زيادات ونقصان، وقد ذكر فخر الدين الرازي في تفسيره عن بعضهم أن لله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوراة، وألف في الإنجيل، وألف في الزبور، وألف في اللوح المحفوظ.

وهو اسم لم يسم به غيره **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**؛ ولهذا لا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل ويفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتقاق له.

وقد نقل القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم، وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمة.

قال الخطابي: ألا ترى أنك تقول: يا الله، ولا تقول: يا الرحمن، فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام.

وقيل: إنه مشتق، واستدلوا عليه بقول رؤبة بن العجاج:

لله دُرُّ الغانِيَاتِ المِـدَّهِ ❀❀ سَبَّحْنَ واسترجعن من تَأَلَّهِي
فقد صرح الشاعر بلفظ المصدر، وهو التأله، من أله يأله إلهة وتألها، كما روي
أن ابن عباس قرأ: ﴿وَيَذَرِكْ وَالْأَهْتَكْ﴾، قال: عبادتك، أي: أنه كان يعبد ولا يعبد،
وكذا قال مجاهد وغيره.

وقد استدل بعضهم على كونه مشتقا بقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾
[الأنعام: ٣]، أي: المعبود في السماوات والأرض، كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ
وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ونقل سيبويه عن الخليل: أن أصله: إلاه، مثل فعال،
فأدخلت الألف واللام بدلًا من الهمزة، قال سيبويه: مثل الناس، أصله: أناس، وقيل:
أصل الكلمة: لاه، فدخلت الألف واللام للتعظيم وهذا اختيار سيبويه.
قال الشاعر:

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب ❀❀ عني ولا أنت ديان فتخزوني
قال القرطبي: بالخاء المعجمة، أي: فتسوسني، وقال الكسائي والفراء: أصله:
الإله حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية، كما قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾
[الكهف: ٣٨]، أي: لكن أنا، وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي: ثم قيل: هو مشتق
من وله: إذا تحير، والوله ذهاب العقل؛ يقال: رجل واله، وامرأة ولهي، وماء موله:
إذا أرسل في الصحاري، فالله تعالى تتحير أولو الأبواب والفكر في حقائق صفاته،
فعلى هذا يكون أصله: ولاه، فأبدلت الواو همزة، كما قالوا في وشاح: أشاح،
ووسادة: أسادة، وقال فخر الدين الرازي: وقيل: إنه مشتق من ألّهت إلى فلان، أي:
سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح لا تفرح إلا بمعرفته؛ لأنه

الكامل على الإطلاق دون غيره قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، قال: وقيل: من لاه يلوه: إذا احتجب.

وقيل: اشتقاقه من أله الفصيل، إذ ولع بأمه، والمعنى: أن العباد مألوهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال، قال: وقيل: مشتق من أله الرجل يأله: إذا فزع من أمر نزل به فألّاهه، أي: أجاره، فالمجبر لجميع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وهو المنعم لقوله: ﴿وَمَا يَكُرُّ مِنْ تَعَمَّرٍ فِئِنَّ اللَّهَ﴾ [النحل: ٥٣]، وهو المطعم لقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وهو الموجد لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨].

وقد اختار فخر الدين أنه اسم علم غير مشتق البتة، قال: وهو قول الخليل وسيبويه وأكثر الأصوليين والفقهاء، ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه: **منها:** أنه لو كان مشتقا لاشترك في معناه كثيرون.

ومنها: أن بقية الأسماء تذكر صفات له، فتقول: الله الرحمن الرحيم الملك القدوس، فدل أنه ليس بمشتق، قال: فأما قوله تعالى: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ٢١]، على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان.

ومنها: قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامدا غير مشتق نظر، والله أعلم.

وحكى فخر الدين عن بعضهم أنه ذهب إلى أن اسم الله تعالى عبراني لا عربي، ثم ضعفه، وهو حقيق بالتضعيف كما قال، وقد حكى فخر الدين هذا القول ثم قال: واعلم أن الخلق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة، ومحرومون قد بقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهالة؛ فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم، وأما الواجدون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكبرياء والجلال، فتأهوا في ميادين الصمدية، وبادوا في عرصة الفردانية، فثبت أن الخلق كلهم والهون في معرفته، وروي عن

الخليل بن أحمد أنه قال: لأن الخلق يألهون إليه بنصب اللام وجرها لغتان، وقيل: إنه مشتق من الارتفاع، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاها، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس: لاها.

وأصل ذلك (الإله)، فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة، فالتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعريف فأدغمت إحداهما في الأخرى، فصارتا في اللفظ لآماً واحدة مشددة، وفخمت تعظيماً، فقليل: الله(أه).

والصحيح من أقوال أهل العلم: أنه مشتق على ما رجحه ابن القيم في «بدائع الفوائد» وغيره من كتبه، وليس المراد بالاشتقاق اشتقاق الأصل من الفرع كما ظنه السهيلي وغيره؛ ولكن الاشتقاق المراد به من حيث المعنى.

والكلام على هذا الاسم يطول نظراً لمنزلته الرفيعة في كونه علم على الذات العلية المتصفة بكل كمال، والمنتزه عن كل نقص، ويذكر الله **عَزَّجَلَّ** به، فتقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبي الله، وأستغفر الله، وسبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم، وأكثر الأدعية به فتقول **﴿اللَّهُمَّ﴾**، أو يا **﴿اللَّهُ﴾**، إلى غير ذلك.

وهو من الأسماء المختصة بالله تعالى فلا يجوز أن يسمى به غيره بحال. وكان أهل الجاهلية يعرفون هذا الاسم، فقد الله **عَزَّجَلَّ** علينا في كثير من آيات القرآن ما يدل على ذلك فمنها **﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾**، وقال الله **عَزَّجَلَّ**: **﴿أَفَى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**، وقال تعالى مخبراً عنهم **﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾**، إلى غير ذلك لكنهم لم يفرده بالعبادة، بل أشركوا معه غيره، ففي مسلم عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** أن المشركين كانوا يطوفون بالبيت، وكانوا يقولون: (لييك اللهم لييك، لييك لا شريك

لك ليك، فيقول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**قد، قد**»، فيقولون: إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك).

الحكمة من جعل التسمية متعلقة باسم الله **عَزَّجَلَّ** دون غيره من الأسماء؛ فلا تقل باسم الجبار ولا باسم العظيم ونحوه، وإنما بسم الله، وذلك لما تقدم من خصائص هذا الاسم العظيم ولأنه اسم جامع لما سواه، ولأنه أشهر وأظهر اسم **تُسَمِّي** الله **عَزَّجَلَّ** به.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي كَلَامِهِ عَنْ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ فِي "مَدَارِحِ السَّالِكِينَ": (اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال، وتضمنها أكمل تضمن، فاشتملت على التعريف بالمعبود **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات إليها، ومدارها عليها، وهي الله والرب والرحمن) اهـ.

وزد على ما تقدم أن كثيرا من أسماء الله **عَزَّجَلَّ** تذكر في مقام الوصف مع دلالتها على العلمية، بينما هذا الاسم متمحض في العلمية مع دلالة على الوصفية، وقلنا ذلك لأنك حين تصف الله **عَزَّجَلَّ** تقول: الله الرحمن الرحيم الملك، وهكذا والله أعلم.

ونزيد عليه كونه مشتق من الإله، والإله هو العظيم الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال، والذي بيده تصريف الأمر فيطلب العون منه، وبالاسم الأخص في ذلك قال تعالى: ﴿**قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٨٤﴾ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴿٨٥﴾ **قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴿٨٦﴾ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴿٨٧﴾ **قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٨٨﴾ **سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ** ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٩].

قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

اسمان جليلان من الأسماء الحسنی، و﴿الرَّحْمَنُ﴾ اسم مختص من أسماء الله عزَّجَل، وهو مشتق من الرحمة، ففي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند البخاري قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّحْمَ شَجَنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ»، وقد كان معلوماً قبل البعثة، ففي أشعار المشركين:

..... ألا قُضِبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا ❀❀

وأما قولهم ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ فهو من باب المكابرة، أو أن بعضهم كان لا يعرفه، والأول أظهر.

واسم ﴿الرَّحْمَنُ﴾ على وزن فعلان، وزيادة المباني تدل على زيادة المعاني، وهو من الأسماء التي عليها مدار الأسماء الحسنی كما تقدم، ويأتي تابعاً ويأتي متمحصاً في الأسمية.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي "بدائع الفوائد": (استبعد قوم أن يكون الرحمن نعتاً لله تعالى؛ من قولنا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقالوا الرحمن علم والأعلام لا ينعت بها ثم قالوا: هو بدل من اسم الله قالوا: ويدل على هذا أن الرحمن علم مختص بالله تعالى لا يشاركه فيه غيره فليس هو كالصفات التي هي العليم القدير والسميع والبصير ولهذا تجري على غيره تعالى قالوا ويدل عليه أيضاً وروده في القرآن غير تابع لما قبله كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، و﴿الرَّحْمَنُ﴾ عَمَّ الْقُرْآنَ ﴿١﴾، و﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾، وهذا شأن الأسماء المحضة لأن الصفات لا يقتصر على ذكرها دون الموصوف، قال السهيلي: والبدل عندي فيه ممتنع وكذلك عطف البيان لأن الاسم الأول لا يفتر إلى تبين فإنه أعرف المعارف كلها وأبينها ولهذا قالوا: وما الرحمن ولم يقولوا وما الله ولكنه وإن جرى

مجري الأعلام فهو وصف يراد به الثناء وكذلك الرحيم إلا أن الرحمن من أبنية المبالغة كغضبان ونحوه وإنما دخله معنى المبالغة من حيث كان في آخره ألف ونون كالتثنية فإن التثنية في الحقيقة تضعيف وكذلك هذه الصفة فكأن غضبان وسكران كامل لضعفين من الغضب والسكر فكان اللفظ مضارعا للفظ التثنية لأن التثنية ضعفان في الحقيقة ألا ترى أنهم أيضًا قد شبهوا التثنية بهذا البناء إذا كانت لشيئين متلازمين فقالوا الحكمان والعلمان وأعربوا النون كأنه اسم لشيء واحد فقالوا اشترك باب فعلان وباب التثنية ومنه قول فاطمة يا حسنان يا حسينان برفع النون لابنيها ولمضارعة التثنية امتنع جمعه فلا يقال غضابين وامتنع تأنيثه فلا يقال غضبانه وامتنع تنوينه كما لا تنون نون المثنى فجرت عليه كثير من أحكام التثنية لمضارعة إياها لفظا ومعنى وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة تم كلامه قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت فإنها دالة على صفات كماله فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية فالرحمن اسمه تعالى ووصفه لا تنافي اسميته وصفيته فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم ولما كان هذا الاسم مختصا به تعالى حسن مجيئه مفردا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالة على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية ولم يجيء قط تابعا لغيره بل متبوعا وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة لا ينافي أحدهما الآخر وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعا وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم

خلقه برحمته وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٦﴾، ﴿إِنَّهُ وَبِهِم رَوْفٌ رَحِيمٌ ۝١٧﴾، ولم يجيء قط رحمن بهم فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب) اهـ.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: (وأما ﴿الرَّحْمَنُ﴾، فهو فعَلان، من رَحِمَ، و﴿الرَّحِيمِ﴾ ① فعيل منه، والعرب كثيرًا ما تبني الأسماء من "فَعِلْ يَفْعَلْ" على "فعلان"، كقولهم من غَضِبَ: غَضبان، ومن سَكَرَ: سكران، ومن عَطَشَ: عطشان. فكذلك قولهم «رَحِمَن» من رَحِمَ، لأن «فَعِلْ» منه: رَحِمَ يَرَحِمُ، وقيل «رحيم»، وإن كانت عين «فَعِلْ» منها مكسورة، لأنه مدح، ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء - إذا كان فيها مدح أو ذم - على «فَعِيل»، وإن كانت عين «فَعِلْ» منها مكسورة أو مفتوحة، كما قالوا من «عَلِمَ» عالم وعليم، ومن «قَدَرَ» قادر وقدير، وليس ذلك منها بناء على أفعالها، لأن البناء من «فَعِلْ يَفْعَلْ» و«فَعَلَ يَفْعَلْ» فاعلٌ، فلو كان ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾ ① خارجين عن بناء أفعالهما لكانت صورتها «الراحم».

فإن قال قائل: فإذا كان الرحمن والرحيم اسمين مشتقين من الرحمة، فما وجه تكرير ذلك، وأحدهما مؤدٌ عن معنى الآخر؟ قيل له: ليس الأمر في ذلك على ما ظننت، بل لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها.

فإن قال: وما المعنى الذي انفردت به كل واحدة منهما، فصارت إحداها غير مؤدية المعنى عن الأخرى؟

قيل: أما من جهة العربية، فلا تمنع بين أهل المعرفة بلغات العرب، أن قول القائل: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ - عن أبنية الأسماء من «فَعِلْ يَفْعَلْ» - أشدُّ عدولاً من قوله ﴿الرَّحِيمِ﴾ ①، ولا خلاف مع ذلك بينهم، أن كل اسم كان له أصل في «فَعِلْ يَفْعَلْ» - ثم كان

عن أصله من «فَعِلَ يَفْعَلُ» أشد عدولاً - أنّ الموصوف به مفضّل على الموصوف
بالاسم المبني على أصله من «فَعِلَ يَفْعَلُ»، إذا كانت التسمية به مدحاً أو ذمّاً. فهذا ما
في قول القائل ﴿الرَّحْمَنُ﴾، من زيادة المعنى على قوله ﴿الرَّحِيمِ ١﴾ في اللغة.

وأما من جهة الأثر والخبر، ففيه بين أهل التأويل اختلاف:

فحدثني السري بن يحيى التميمي، قال: حدثنا عثمان بن زفر، قال: سمعت
العزّمي يقول: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ ١﴾، قال: الرحمن بجميع الخلق، الرحيم، قال:
بالمؤمنين.

حدثنا إسماعيل بن الفضل، قال: حدثنا إبراهيم بن العلاء، قال: حدثنا إسماعيل
بن عياش، عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن أبي مليكة، عن حدثه، عن ابن مسعود -
ومسعر بن كدام، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد - يعني الخديّ - قال: قال رسول
الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ قَالَ: الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ وَالرَّحِيمُ
رَحِيمُ الْآخِرَةِ»، قلت: عطية ضعيف.

فهذان الخبران قد أنبأ عن فرق ما بين تسمية الله جل ثناؤه باسمه الذي هو
﴿الرَّحْمَنُ﴾، وتسميته باسمه الذي هو ﴿الرَّحِيمِ ١﴾، واختلاف معنى الكلمتين - وإن
اختلفا في معنى ذلك الفرق، فدّل أحدهما على أنّ ذلك في الدنيا، ودلّ الآخر على أنه
في الآخرة.

فإن قال: فأبي هذين التأويلين أولى عندك بالصحة؟ قيل: لجميعهما عندنا في
الصحة مخرج، فلا وجه لقول قائل: أيهما أولى بالصحة؟ وذلك أنّ المعنى الذي في
تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن
موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص
الرحمة بعض خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال.

فلا شك - إذا كان ذلك كذلك - أنّ ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعاً.

فإذا كان صحيحاً ما قلنا من ذلك - وكان الله جل ثناؤه قد خصّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أمره واجتناب معاصيه، مما خُذِلَ عنه من أشرك به، وكفر وخالف ما أمره به، وركب معاصيه؛ وكان مع ذلك قد جعلَ، جَلَّ ثناؤه، ما أعد في آجل الآخرة في جناته من النعيم المقيم والفوز المبين، لمن آمن به، وصدّق رسله، وعمل بطاعته، خالصاً، دون من أشرك وكفر به - كان بيّناً إن الله قد خصّ المؤمنين من رحمته في الدنيا والآخرة، مع ما قد عمَّهم به والكفار في الدنيا من الإفضال والإحسان إلى جميعهم، في البَسْط في الرزق، وتسخير السحاب بالغيث، وإخراج النبات من الأرض، وصحة الأجسام والعقول، وسائر النعم التي لا تُحصى، التي يشترك فيها المؤمنون والكافرون.

فربُّنا جل ثناؤه رحمنٌ جميع خلقه في الدنيا والآخرة، ورحيمٌ المؤمنين خاصةً في الدنيا والآخرة. فأما الذي عمَّ جميعهم به في الدنيا من رحمته فكان رحماناً لهم به، فما ذكرنا مع نظائره التي لا سبيل إلى إحصائها لأحد من خلقه، كما قال جل ثناؤه:

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وأما في الآخرة، فالذي عمَّ جميعهم به فيها من رحمته، فكان لهم رحماناً، تسويته بين جميعهم جل ذكره في عدله وقضائه، فلا يظلم أحداً منهم مثقال ذرة، وإن تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا، وتوفى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ. فذلك معنى عمومه في الآخرة جميعهم برحمته، الذي كان به رحماناً في الآخرة.

وأما ما خص به المؤمنين في عاجل الدنيا من رحمته، الذي كان به رحيماً لهم فيها، كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٣]، فما وصفنا من اللطف لهم في دينهم، فخصَّهم به، دون من خذله من أهل الكفر به.

وأما ما خصّهم به في الآخرة، فكان به رحيمًا لهم دون الكافرين، فما وصفنا آنفًا مما أعدّ لهم دون غيرهم من النعيم، والكرامة التي تقصّر عنها الأمانيّ اهـ.

وقال ابن كثير في تفسيره: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ١﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، ورحمن أشد مبالغة من رحيم، وفي كلام ابن جرير ما يفهم حكاية الاتفاق على هذا، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك، كما تقدم في الأثر، عن عيسى؛ أنه قال: والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة وقد زعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان كذلك لاتصل بذكر المرحوم وقد قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وحكى ابن الأنباري في الزاهر عن المبرد: أن الرحمن اسم عبراني ليس بعربي، وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي، والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما. قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه.

وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق ما خرجه الترمذي وصححه عن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»، قال: وهذا نص في الاشتقاق فلا معنى للمخالفة والشقاق. قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له.

قال القرطبي: هما بمعنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيد، وقيل: ليس بناء فعلاً كفعيل، فإن فعلاً لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قولك: رجل غضبان، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول، قال أبو علي الفارسي: الرحمن: اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقال ابن عباس: هما اسمان

رفيقان، أحدهما أرق من الآخر، أي أكثر رحمة، ثم حكى عن الخطابي وغيره: أنهم استشكلوا هذه الصفة، وقالوا: لعله أرفق كما جاء في الحديث: «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله وإنه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف**».

وقال ابن المبارك: الرحمن إذا سئل أعطى، والرحيم إذا لم يسأل يغضب، وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي صالح^(١) الفارسي الخوزي عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، وقال بعض الشعراء:

لا تطلبن بني آدم حاجة ❀❀ وسل الذي أبوابه لا تغلق
الله يغضب إن تركت سؤاله ❀❀ وبني آدم حين يسأل يغضب
قال ابن جرير: حدثنا السري بن يحيى التميمي، حدثنا عثمان بن زفر، سمعت العرزمي يقول: الرحمن الرحيم، قال: الرحمن لجميع الخلق، الرحيم، قال: بالمؤمنين، قالوا: ولهذا قال: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ**﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه: ٥]، فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٣] فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما^(٢).

واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ**

(١) قال الحافظ: لين الحديث.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢/٤٨١)، وفيه الحكم بن عبد الله الأيلي؛ متروك.

قَتِيلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ءِالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾، ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلاباب الكذب وشهر به؛ فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب، فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضرم من أهل المدر، وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن؛ لأنه أكد به، والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكد، والجواب أن هذا ليس من باب التوكيد، وإنما هو من باب النعت بعد النعت، ولا يلزم فيه ما ذكره، وعلى هذا فيكون تقدير اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره، ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، وإنما تجهرم مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتابعه على ذلك إلا من كان معه في الضلالة.

وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، كما وصف غيره بذلك من أسمائه في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإنسان: ٤].

والحاصل: أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره، ومنها ما لا يسمى به غيره، كاسم الله والرحمن والخالق والرزاق ونحو ذلك؛ فلهذا بدأ باسم الله، ووصفه بالرحمن؛ لأنه أخص وأعرف من الرحيم؛ لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخص.

فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة؛ فهلا اكتفي به عن الرحيم؟ فقد روي عن عطاء الخراساني ما معناه: أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن، جيء بلفظ الرحيم

ليقطع التوهم بذلك، فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى. كذا رواه ابن جرير عن عطاء. ووجهه بذلك، والله أعلم.

وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد الله عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لعلي: «**اكتب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»^(١)، فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾^(٢) [الفرقان: ٦٠]، والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله تعالى بالرحمن. **قال ابن جرير**: وقد أشد لبعض الجاهلية الجهال:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ❀❀ ألا قضب الرحمن ربى يمينها
وقال سلامة بن جندب الطهوي:

عجلتم علينا عجلتنا عليكم ❀❀ وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة، حدثنا أبو روق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن: الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب، وقال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمِ﴾^(٣)، الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه، وكذلك أسماؤه كلها.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا حماد بن مسعدة، عن عوف، عن الحسن، قال: الرحمن اسم ممنوع.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني أبو الأشهب، عن الحسن، قال: الرحمن: اسم لا يستطيع الناس أن يتحلوه، تسمى به **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** اهـ.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "مختصر الصواعق" (٣٤١/٢): (ورود الرحمن في أسمائه أكثر من ورود الرحيم).

ولهذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٥٩]، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم:٤٥] ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ﴾ [النبا:٣٧]، ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن:١-٢] اهـ.

وقال أيضًا (٣٤٤/٢): (ما رواه أهل السنن عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «يقول الله تعالى: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته»، فهذا صريح في أن اسم الرحمة مشتق من اسمه الرحمن تعالى، فدل على أن رحمته لما كانت هي الأصل في المعنى كانت هي الأصل في اللفظ) اهـ.

قال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ: (ف) ﴿الرَّحْمَنُ﴾ خاص الاسم عام الفعل، و﴿الرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾ عام الاسم خاص الفعل) اهـ.

وقرن الله بينهما في هذا الموضع وغيره لأن لهما عبودية تخصصهما؛ وهي شهود عموم رحمته وسعتها لكل شيء، وَمَنْعُهَا لكل مخلوق، وأخذ كل موجود بنصيب منها، ولا سيما الرحمة الخاصة التي أقامت عبده بين يديه في خدمته ينجيه بكلامه ويتملقه ويسترحمه ويسأله هدايته ورحمته وإتمام نعمته عليه، فهذا من رحمته لعبده،

فرحمته وسعت كل شيء، كما أن عبده وسع كل شيء، انتهت من كلام ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ**.

وهذه الحكمة العظيمة الجليلة التي تظهر لي في جعل هذين الاسمين في البسملة، فإن الإنسان حين يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فإنه يتوسل إلى الله **عَرْشَ جَلِّ** في عونته على ما يؤمله ويرجوه بألوهيته ورحمته التي وسعت كل شيء، وفي ذلك التوسلات ما يكون أدمى لقضاء الحاجات وتفريج الكربات واستجابة الدعوات.

وقال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٤٢/١-٤٣) في تكرار اسم الجلالة ﴿الرَّحْمَنُ فِي

فاتحة الكتاب: (وكرر إيذانا بثبوت الوصف، وحصول أثره، وتعلقه بمتعلقاته.

فالرحمن الذي الرحمة وصفه، والرحيم الراحم لعباده، ولهذا يقول تعالى:

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]،

ولم يجىء: رحمن بعباده، ولا رحمن بالمؤمنين، مع ما في اسم الرحمن الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف، وثبوت جميع معناه الموصوف به.

ألا ترى أنهم يقولون: غضبان، للممتلى غضبًا، وندمان وحيران وسكران ولهفان

لمن ملئ بذلك، فبناء فعلان للسعة والشمول، ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا

الاسم كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش

محيط بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم، كما قال تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع

الصفات، فلذلك وسعت رحمته كل شيء، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:** «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو

عنده موضوع على العرش إن رحمتي تغلب غضبي»، وفي لفظ «فهو عنده على العرش».

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة، ووضعها عنده على العرش، وطابق بين ذلك وبين قوله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]، وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان:٥٩]، يفتح لك باب عظيم من معرفة الرب **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم) اهـ.

ورحمات الله بعباده عظيمة وجليلة، ولا عد لها ولا حصر إذ أن نعمه من رحمته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، ومع ذلك من أجل نعمه إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

قال ابن القيم في كتاب "الصلاة وأحكام تاركها" (١٧٣) في كلامه على المصلي: (يشهد عند ذكر اسم الرحمن **جَلَّ جَلَالُهُ** ربا محسنا إلى خلقه بأنواع الإحسان متحبيبا إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمةً وعلماً، وأوسع كل مخلوق نعمةً وفضلاً فوسعت رحمته كل شيء ووسعت نعمته كل حي فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته وخلق خلقه برحمته وأنزل كتبه برحمته وأرسل رسله برحمته وشرع شرائعه برحمته وخلق الجنة برحمته والنار أيضاً برحمته فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه من خليقته.

فتأمل ما في أمره ونبيه ووصاياه ومواعيظه من الرحمة البالغة والنعمة السابغة وما في حشوها من الرحمة والنعمة فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به فمنهم إليه العبودية ومنه إليهم الرحمة، ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي

ربه، وأهله لعبوديته ومناجاته وأعطاه ومنع غيره وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره وذلك من رحمته به) اهـ.

وهكذا القول في ﴿الرَّحِيمِ ١﴾ ف ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و ﴿الرَّحِيمِ ١﴾ يدلان على ذي الرحمة المتعدية آثارها إلى المخلوق، فناسب الإتيان بهذين الاسمين مع اسم الجلالة ﴿الله﴾ في مبدأ كل عمل، فتكون إعانة الله عزَّوجلَّ لعبده من رحمته به وإعانتته على ما يريد، ويكون من العبد التبعيد لله عزَّوجلَّ والتضرع إليه حمدًا له وشكرًا على ما أولاه من النعم وأعطاه من المنن، فتظهر المناسبة لكل مبصر في الجمع بين هذه الأسماء الثلاثة ﴿الله﴾ و ﴿الرَّحْمَنِ﴾ و ﴿الرَّحِيمِ ١﴾ في هذه الكلمة العظيمة التي افتتحت بها كل سورة من القرآن، إلا ما كان من سورة ﴿بَرَاءةُ﴾ لكلام أهل العلم في ذلك.

الحكمة في افتتاح القرآن بالبسملة:

فالحكمة إذا فيما أظن وأرى والله أعلم من افتتاح القرآن بالبسملة:

أولاً: للتبرك بذكر الله عزَّوجلَّ.

الثاني: الاستعانة بالله عزَّوجلَّ.

الثالث: تقديم اسم الله عزَّوجلَّ على من سواه.

الرابع: التحصن من الشيطان الرجيم وجنده.

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا والله أعلم، السر العظيم في كون البسملة تضمنت الأسماء الثلاثة العظيمة حتى يدخل تحتها كل وصف حسن، والتنزه من كل ما يضاد ذلك، وبالله التوفيق والله أعلم.

قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره: (إن الله تعالى ذكره وتقدَّست أسماؤه أدب نبيه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنَى أمام جميع أفعاله، وتقدَّم إليه في وصفه بها قبل جميع مُهمَّاته، وجعل ما أدبه به من ذلك وعلمه إياه، منه

لجميع خلقه سنةً يستنون بها، وسبيلاً يتبعونه عليها، فيها افتتاح أوائل منطقتهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل:

﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾، على من بطن من مراده الذي هو محذوف.

وذلك أن الباء من ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾ مقتضية فعلاً يكون لها جالبًا، ولا فعل معها ظاهر، فأغنت سامع القائل ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾ معرفته بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك مراده قولاً إذ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمرًا، قد أحضر منطقتَه به - إما معه، وإما قبله بلا فصل - ما قد أغنى سامعَه عن دلالة شاهدةٍ على الذي من أجله افتتح قبيلَه به، فصار استغناءً سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظير استغنائه - إذا سمع قائلًا قيل له: ما أكلت اليوم؟ فقال: «طعامًا» - عن أن يكرّر المسئول مع قوله «طعامًا»، أكلت، لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه، بتقدم مسألة السائل إياه عما أكل، فمعقول إذاً أن قول أو أقرأ بتسميتي الله، أو أقوم وأقعد بتسميتي الله وذكره - لا أنه يعني يقيله ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾: أقوم بالله، أو أقرأ بالله، فيكون قول القائل: أقرأ بالله، أو أقوم أو أقعد بالله - أولى بوجه الصواب في ذلك من قوله ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾.

فإن قال: فإن كان الأمر في ذلك على ما وصفت، فكيف قيل: ﴿يَسِّرَ اللَّهُ﴾ وقد علمت أن الاسم اسمٌ، وأن التسمية مصدرٌ من قولك سميت؟

قيل: إن العرب قد تخرج المصادر مبهمَةً على أسماء مختلفة، كقولهم: أكرمت فلانًا كرامةً، وإنما بناءً مصدر «أفعلت» - إذا أخرج على فعله - «الإفعال»، وكقولهم: أهنت فلانًا هوانًا، وكلمته كلامًا، وبناءً مصدر: «فعلت» التفعيل.

ومن ذلك قول الشاعر:

أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي ❀❀ وبعْدَ عَطَائِكَ الْمِئَةَ الرَّتَاعَا
يريد: إعطائك، ومنه قول الآخر:

وَإِنْ كَانَ هَذَا الْبُخْلُ مِنْكَ سَجِيَّةً ❀❀ لَقَدْ كُنْتُ فِي طَوْلِي رَجَاءَكَ أَشْعَبًا

يريد: في إطالتي رجاءك، ومنه قول الآخر:

أَظْلَمِيُمْ إِنْ مُصَّابِكُمْ رَجُلًا ❀❀ أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلْمٌ

يريد: إصابتكم.

والشواهد في هذا المعنى تكثُر، وفيما ذكرنا كفاية، لمن وُفِّق لفهمه، فإذا كان الأمر - على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادر الأفعال على غير بناء أفعالها - كثيرًا، وكان تصديرها إياها على مخارج الأسماء موجودًا فاشيًا، فبيِّنُ بذلك صواب ما قلنا من التأويل في قول القائل ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأ بتسمية الله، قبل فعلي، أو قبل قولي.

وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إنما معناه: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، أو أبتدئ قراءتي بتسمية الله.

فَجُعِلَ «الاسم» مكان التسمية، كما جُعِلَ الكلامُ مكان التكليم، والعطاءُ مكان الإعطاء.

وبمثل الذي قلنا من التأويل في ذلك، رُوِيَ الخبر عن عبد الله بن عباس. حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عُمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: أوَّل ما نزل جبريل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «يا محمد، قل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم»، ثم قال: «قل: بسم الله الرحمن الرحيم».

قال ابن عباس: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، يقول له جبريل: يا محمد، اقرأ بذكر الله ربِّك، وقم واقعد بذكر الله.

وهذا التأويل من ابن عباس يبنى عن صحة ما قلنا - من أنه يراد بقول القائل مفتتحاً قراءته: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾: أقرأ بتسمية الله وذكره، وأفتتح القراءة بتسمية الله، بأسمائه الحسنی وصفاته العلی - ويوضح فساد قول من زعم أن معنى ذلك من قائله: بالله الرحمن الرحيم أول كل شيء، مع أن العباد إنما أمرُوا أن يبتدئوا عند فواتح أمورهم بتسمية الله، لا بالخبر عن عظمته وصفاته، كالذي أمرُوا به من التسمية على الذبائح والصيد، وعند المَطعم والمشرب، وسائر أفعالهم، وكذلك الذي أمرُوا به من تسميته عند افتتاح تلاوة تنزيل الله، وصدور رسائلهم وكتبهم.

ولا خلاف بين الجميع من علماء الأمة، أن قائلًا لو قال عند تذكّيته بعض بهائم الأنعام «بالله»، ولم يقل «بسم الله»، أنه مخالف - بتركه قيل: «بسم الله» ما سُنَّ له عند التذكية من القول، وقد علم بذلك أنه لم يُرد بقوله «بسم الله» «بالله»، كما قال الزاعم أن اسم الله في قول الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ هو الله، لأن ذلك لو كان كما زعم، لوجب أن يكون القائل عند تذكّيته ذبيحته «بالله»، قائلًا ما سُنَّ له من القول على الذبيحة، وفي إجماع الجميع على أن قائل ذلك تارك ما سُنَّ له من القول على ذبيحته - إذ لم يقل «بسم الله» - دليل واضح على فساد ما ادّعى من التأويل في قول القائل: «بسم الله»، أنه مراد به «بالله»، وأن اسم الله هو الله) اهـ.

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره (١/١٤٢): (قال بعض العلماء: إن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾

تضمنت جميع الشرع، لأنها تدل على الذات وعلى الصفات، وهذا صحيح) اهـ.

وعدد حروف البسملة تسعة عشر حرفًا، قال القرطبي: (وقد روى وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله ابن مسعود قل: من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ ليجعل الله تعالى له بكل حرف منها جنة من كل واحد.

فالبسمة تسعة عشر حرفاً على عدد ملائكة أهل النار الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾، وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فمن هناك هي قوتهم، وببسم الله استضلعوا.

قال ابن عطية: ونظير هذا قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظه ﴿هِيَ﴾ من كلمات سورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، ونظيره أيضاً قولهم في عدد الملائكة الذين ابْتَدَرُوا قول القائل: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، فلذلك قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:** «لقد رأيت بضعةً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها أول».

قال ابن عطية: وهذا من ملح التفسير وليس من متين العلم) اهـ.

مسألة: كتابة البسمة قبل الشعر لا محذور فيه، ومن منعها فقد منعها لغير ما دليل عن معصوم.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: (اتفقت الأمة على جواز كتبها في أول كتاب من كتب العلم والرسائل، فإن كان الكتاب ديوان شعر فروى مجالد عن الشعبي قال: أجمعوا ألا يكتبوا أمام الشعر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وقال الزهري: مضت السنة ألا يكتبوا في الشعر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وذهب إلى رسم التسمية في أول كتب الشعر سعيد بن جبير، وتابعه على ذلك أكثر المتأخرين، قال أبو بكر الخطيب: هو الذي نختاره ونستحبه). اهـ

مسألة: النحت في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، قال القرطبي **رَحِمَهُ اللَّهُ:** (قال الماوردي ويقال لمن قال بسم الله: مبسمل، وهي لغة مولدة، وقد جاءت في الشعر. قال عمر بن أبي ربيعة:

لقد بسملت ليلى غداه لقيتها ❀❀ فيا حبذا ذلك الحبيب المبسمل

قلت: المشهور عن أهل اللغة بسمل، قال يعقوب بن السكيت والمطرز والشعالبي وغيرهم من أهل اللغة: بسمل الرجل، إذا قال: بسم الله، يقال: قد أكثرت من البسمة، أي من قول بسم الله، ومثله حوقل الرجل، إذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وهلل، إذا قال: لا إله إلا الله، وسبحل، إذا قال: سبحان الله، وحمدل، إذا قال: الحمد لله، وحيصل، إذا قال: حي على الصلاة، وجعفل إذا قال: جعلت فداك، وطقبل، إذا قال: أطال الله بقاءك، ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك، وحيفل، إذا قال: حي على الفلاح، ولم يذكر المطرز: الحivelse، إذا قال: حي على الصلاة، وجعفل، إذا قال: جعلت فداك، وطقبل، إذا قال: أطال الله بقاءك، ودمعز، إذا قال: أدام الله عزك) اهـ.

بيان الاسم الأعظم:

ورد في خصوص (اسم الله الأعظم) عدة أحاديث، أشهرها:

- حديث أبي أمامة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «اسم الله الأعظم في سور من القرآن ثلاث: في (البقرة) و(آل عمران) و(طه)»، رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وفي سنده غيلان بن أنس مجهول.

- وحديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أنه كان مع رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** جالسا ورجل يصلي ثم دعا: (اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم)، فقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»، رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

- وحديث بريدة بن الحصيب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** سمع رجلاً يقول: (اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)، فقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لقد سألت

الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب»، رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

قال الحافظ ابن حجر: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

وحديث أسماء بنت يزيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ وَ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾»، وفتحة سورة آل عمران: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»، رواه الترمذي (٣٤٧٨)، وأبو داود (١٤٩٦)، وابن ماجه (٣٨٥٥).

والحديث ضعيف، فيه عبید الله بن أبي الزناد وشهر بن حوشب، وكلاهما ضعيف.

وقد اختلف أهل العلم في (اسم الله الأعظم).

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري" (٢٢٤/١١): (وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض ونسب ذلك بعضهم لمالك لكرهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لثلاثي يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم وأن أسماء الله كلها عظيمة وعبارة أبي جعفر الطبري اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم ولا شيء أعظم منه فكأنه يقول كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم وقال بن حبان الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك كما أطلق ذلك في القرآن والمراد به مزيد ثواب القارئ وقيل المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء الله تعالى دعا العبد به مستغرفاً بحيث لا يكون في فكره حالته غير الله

تعالى فإن من تأتي له ذلك استجيب له ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق وعن الجنيد وعن غيرهما وقال آخرون استأثر الله تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحدا من خلقه وأثبته آخرون معينا واضطربوا في ذلك وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشر قولاً:

الأول: الاسم الأعظم هو ما نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف، واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام معظم بحضرته لم يقل له أنت قلت كذا، وإنما يقول هو يقول؛ تأدبا معه.

الثاني: الله، لأنه اسم لم يطلق على غيره ولأنه الأصل في الأسماء الحسنی ومن ثم أضيفت إليه.

الثالث: الله الرحمن الرحيم، ولعل مستنده ما أخرجه بن ماجه عن عائشة أنها سألت النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** أن يعلمها الاسم الأعظم فلم يفعل فصلت ودعت: **«اللهم إني أدعوك الله وأدعوك الرحمن وأدعوك الرحيم وأدعوك بأسمائك الحسنی كلها ما علمت منها وما لم أعلم»**، الحديث، وفيه أنه **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال لها إنه لفي الأسماء التي دعوت بها.

* **قلت:** وسنده ضعيف وفي الاستدلال به نظر لا يخفى^(١).

الرابع: الرحمن الرحيم الحي القيوم، لما أخرج الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال: **«اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ ﴿وَاللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»**، **وفاتحة سورة آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾**

(١) في الزوائد في إسناده مقال، وعبد الله بن عكيم وثقه الخطيب وعده من الصحابة، ولا يصح له سماع، وأبو شيبة لم أر من جرحه ولا من وثقه وباقي رجال الإسناد ثقات. اهـ
قلت: أبو شيبة كذبه أبو حاتم، وقال البخاري في حديثه عن ابن عكيم نظر.

هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»، أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي، وحسنه الترمذي، وفي نسخة صحيحة وفيه نظر لأنه من رواية شهر بن حوشب.

الخامس: الحي القيوم، أخرج ابن ماجه من حديث أبي أمامة: «الاسم الأعظم في ثلاث سور، البقرة، وآل عمران، وطه»، قال القاسم- الراوي عن أبي أمامة-: التمسته منها فعرفت أنه: «الحي القيوم»، وقواه الفخر الرازي واحتج بأنهما يدلان من صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما كدلالتهما.

السادس: الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم، ورد ذلك مجموعا في حديث أنس عند أحمد والحاكم وأصله عند أبي داود والنسائي وصححه بن حبان.

السابع: بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام، أخرجه أبو يعلى من طريق السري بن يحيى عن رجل من طي وأثنى عليه قال: كنت أسأل الله أن يريني الاسم الأعظم فأرثته مكتوبا في الكواكب في السماء.

الثامن: ذو الجلال والإكرام، أخرج للترمذي من حديث معاذ بن جبل قال: سمع النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** رجلا يقول: «ياذا الجلال والإكرام، فقال قد استجيب لك، فسل»، واحتج له الفخر بأنه يشمل جميع الصفات المعتبرة في الإلهية لأن في الجلال إشارة إلى جميع السلوب، وفي الإكرام إشارة إلى جميع الإضافات.

التاسع: الله لا إله إلا هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث بريدة، وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك.

العاشر: رب رب، أخرجه الحاكم من حديث أبي الدرداء وابن عباس بلفظ: «اسم الله الأكبر رب، رب»، وأخرج ابن أبي الدنيا عن عائشة: «إذا قال العبد يا رب يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدي سل تعط»، رواه مرفوعاً وموقوفاً.

الحادي عشر: دعوة ذي النون، أخرج النسائي والحاكم عن فضالة بن عبيد رفعه: «دعوة ذي النون في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم قط إلا استجاب الله له».

الثاني عشر: نقل الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الاسم الأعظم، فرأى في النوم «هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم».

الثالث عشر: هو مخفي في الأسماء الحسنی، ويؤيده حديث عائشة المتقدم لما دعت ببعض الأسماء وبالأسماء الحسنی، فقال لها **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إنه لفي الأسماء التي دعوت بها».

الرابع عشر: كلمة التوحيد، نقله عياض (اهـ).

❖ **والصحيح مما تقدم:** أن اسم الله الأعظم هو «الله»، فعليه مدار جميع الأسماء الحسنی، وهي له نعوت وأوصاف، ولأنه الجامع لمعانيها جميعاً.

قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❖

(الحمد) هو: الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه، قال ابن القيم في «البدائع» (٩٣/٢): (وهذا أحسن تعريف لها)، وقد دل التعريف على أن الحمد يكون باللسان؛ لقوله الإخبار، ويكون بالقلب؛ لقوله مع حبه وإجلاله وتعظيمه، وأكثر العلماء يذهبون في تعريفها إلى أنها: الثناء على الله، وذهب بعضهم إلى أنها شكر الله **عَزَّوَجَلَّ**، وسيأتي الفرق بينهما إن شاء الله تعالى.

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "بدائع التفسير" (١٢٢/١): (نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلا ووصفا واسما، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً، فهو المحمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه منزّه من العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه). اهـ.

كما أن قول: (سبحان الله) يتضمن تنزيه الله عزَّوَجَلَّ عن جميع النقائص والعيوب، ويستلزم إثبات جميع المحامد.

ولعظم هذه الكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ افتتح عزَّوَجَلَّ بها خمس سور من القرآن: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

وكم يجمع الله عزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بينهما وبين التسييح لما تقدم بيانه.

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كما في حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٢٢٣): «والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن-أو تملأ- ما بين السموات والأرض».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: كما في حديث أبي سلام عن مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عند أحمد (٤٤٣/٣)، وهو في الصحيح المسند لشيخنا رَحْمَةُ اللَّهِ «بخ بخ! الخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والداه».

ويسمع الله لحامده كما في حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٤٠٤)، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد يسمع الله لكم، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قال على لسان نبيه: سمع الله لمن حمده».

وأخرج الإمام مسلم (٣٩٥) من حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في قراءة الفاتحة في الصلاة وفيه: **«فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي»**.

وهي من أحب الكلام إلى الله، كما في حديث سمرة بن جندب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: **«أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن ابتدأت»**، أخرجه مسلم (٢١٣٧).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الصَّوَاغِقِ الْمُرْسَلَةِ (١٢٢٣/٤): (فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه عليها في كتابه وحمده عليها رسله وملائكته والمؤمنون من عباده فمن لا فعل له البتة كيف يحمد على ذلك فالأفعال هي المقتضية للحمد ولهذا نجده مقروناً بها كقوله: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾** [الأنعام: ١]، **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾** [الأعراف: ٤٣]، **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾** [الكهف: ١]، **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [فاطر: ١] اهـ.

قال السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ (٣٦٤/١): (ثم اعلم أن حمد الله تعالى لنفسه حسن لا كحمد المخلوقين لأنفسهم؛ لأن حمد المخلوقين لا يخلو عن نقص؛ فلا يخلو مدحه نفسه عن كذب؛ فيقبح منه أن يمدح نفسه، وأما الله **جَلَّ جَلَالُهُ** بريء عن النقص والعيب؛ فكان مدحه نفسه حسناً) اهـ.

الفرق بين الحمد والشكر:

وقد ذهب ابن جرير **رَحِمَهُ اللَّهُ** إلى أن الحمد هو الشكر لله **عَزَّ وَجَلَّ**، ورد هذا التعريف ابن كثير في تفسيره، فقال: (وهذا الذي ادعاه ابن جرير فيه نظر؛ لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة

والمتعديّة، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ❀❀ يدي ولساني والضمير المحجبا
اهـ.

وهذا التعريف الذي ذهب إليه ابن كثير؛ رده ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ** كما في «البدائع» (٩٥/٢)، وبين أن الثناء هو الحمد إذا تكرر، فقال: (فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فإن الثناء مأخوذ من الشني وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض ومنه ثنيت الثوب ومنه الثنية في الاسم) اهـ.

واستدل على ذلك **رَحْمَةُ اللَّهِ** بحديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الإمام مسلم (٣٩٥):
«قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الزَّكَاةَ الرَّحْمِيَّةَ ﴿٥﴾﴾، قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي»؛ لأنه كرر الحمد.

واللام في الحمد للاستغراق، أي استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيمًا وتمجيدًا، قاله القاسمي في تفسيره.

وقال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ فِي التفسير (١٧٧/١): (الحمد في كلام العرب معناه: الثناء الكامل، والألف واللام للاستغراق الجنسي من المحامد؛ فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه، إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلاء) اهـ.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "طريق الهجرتين": (وكل ما شمله **عَزَّوَجَلَّ** ملكه وقدرته شمله حمده) اهـ.

وقد تقدم ذكر بعض الفروق بين الحمد والشكر من حيث أن الشكر أعم آله؛ أي أنه يكون بالقلب خضوعاً واستكانة، وباللسان ثناء واعتراضاً، وبالجوارح طاعة وانقياداً، بينما الحمد يكون باللسان وبالقلب فقط.

والشكر يكون على الصفات المتعدية فقط، فتقول شكرته على إحسانه وفضله وعدله، ولا تقول شكرته على سمعه وبصره وجماله.

بينما الحمد يكون على الصفات المتعدية واللازمة، تقول حمدته على جماله وإحسانه، وحمدته على سمعه وبصره. اهـ، بتصريف من "المدارج" (٢/٤٦٦).

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (اختلفوا أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق أن بينهما عمومًا وخصوصًا)، ثم ذكر بنحو ما تقدم من كلام ابن القيم.

وقد تكلم أهل العلم في هذه الفروق، وأجمعها ما قال ابن القيم في «البدائع»: (فنقول الإخبار عن محاسن الغير له ثلاث اعتبارات اعتبار من حيث المخبر به واعتبار من حيث الإخبار عنه بالخبر واعتبار من حيث حال المخبر فمن حيث الاعتبار الأول ينشأ التقسيم إلى الحمد والمجد فإن المخبر به إما أن يكون من أوصاف العظمة والجلال والسعة وتوابعها أو من أوصاف الجمال والإحسان وتوابعها فإن كان الأول فهو المجد وإن كان الثاني فهو الحمد وهذا لأن لفظ (م ج د) في لغتهم يدور على معنى الاتساع والكثرة فمنه قولهم أمجد الدابة علفا أي أوسعها علفا ومنه مجد الرجل فهو ماجد إذا كثر خيره وإحسانه إلى الناس قال الشاعر:

أنت تكون ماجد نبيل ❀❀ إذا تهب شمأل بليلى

ومنهم قولهم في شجر الغار واستمجد "المرخ" و"العفار"؛ أي كثرت النار فيهما، ومن حيث اعتبار الخبر نفسه ينشأ التقسيم إلى الثناء والحمد فإن الخبر عن المحاسن إما متكرر أو لا فإن تكرر فهو الثناء وإن لم يتكرر فهو الحمد فإن الثناء مأخوذ من الشئ وهو العطف ورد الشيء بعضه على بعض ومنه ثنيت الثوب ومنه الثنية في

الاسم فالمثنى مكرر لمحاسن من يثنى عليه مرة بعد مرة ومن جهة اعتبار حال المخبر ينشأ التقسيم إلى المدح والحمد فإن المخبر عن محاسن الغير إما أن يقترن بإخباره حب له وإجلال أو لا فإن اقترن به الحب فهو الحمد وإلا فهو المدح فحصل هذه الأقسام وميزها) اهـ.

وكان رسول الله يفتتح خطبه بالحمد لله **عَزَّجَلَّ** كما هو مشهور من خطبة الحاجة ففي حديث عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند أبي داود (٢١١٨) قال: «علمنا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خطبة الحاجة: إن الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝١٢٦﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٦ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧٧﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].»

وفي حديث جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم برقم (٨٦٧) قال: كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يخطب الناس ويحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: «من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله.»

وفي رواية: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.»

وفي حديث ابن عباس عند مسلم (٨٦٨) أن ضمادا، قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يركي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة، يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، قال فلقيه، فقال: يا

محمد إني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد».

والكلام على الحمد ومواطنه يطول، فيا حبذا لو يفرد بمؤلف مستقل، فهذا اللفظ أحب الكلام إلى الله **عَزَّ وَجَلَّ**.

وصح عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ- ما بين السموات والأرض»، من حديث أبي مالك الأشعري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم (٢٢٣).

وأحب الكلام إلى الله؛ سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده»، لحديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤)، ولما صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «بخ بخ، لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه والده»، من حديث أبي سلمى **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند أحمد (١٥٦٦٢)، في أحاديث كثيرة، وصح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»، من حديث جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند الترمذي (٣٣٨٣).

والحمد جاء في مواطن:

منها: بعد الصلاة؛ إذ صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه أمر بحمد الله **عَزَّ وَجَلَّ** من حديث كعب ابن عجرة في مسلم (٥٩٦): «معقبات لا يخيب قائلهن - أو فاعلهن - دبر

كل صلاة مكتوبة، ثلاث وثلاثون تسيحة، وثلاث وثلاثون تحميدة، وأربع وثلاثون تكبيرة».

ومنها: عند النوم؛ لما صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من حديث علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند البخاري (٣١١٣)، ومسلم (٢٧٢٧) واللفظ له، أن فاطمة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** اشتكت ما تلقى من الرحى في يدها، وأتى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** سبي، فانطلقت، فلم تجده ولقيت عائشة، فأخبرتها فلما جاء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، أخبرته عائشة بمجيء فاطمة إليها، فجاء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم فقال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «على مكانكم» فقعد بيننا حتى وجدت برد قدمه على صدري، ثم قال: «ألا أعلمكما خيرا مما سألتما، إذا أخذتما مضاجعكما، أن تكبرا الله أربعاً وثلاثين، وتسبحاه ثلاثاً وثلاثين، وتحمداه ثلاثاً وثلاثين، فهو خير لكم من خادم».

وفي مسند أحمد (٦٩١٠): من طريق شعبة عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «خصلتان - أو خلتان - لا يحافظ عليهما رجل مسلم إلا دخل الجنة، هما يسير، ومن يعمل بهما قليل، تسبح الله عشرًا، وتحمد الله عشرًا، وتكبر الله عشرًا في دبر كل صلاة، فذلك مائة وخمسون باللسان، وألف وخمس مائة في الميزان، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتحمد ثلاثاً وثلاثين، وتكبر أربعاً وثلاثين - عطاء لا يدري أيتهن أربع وثلاثون - إذا أخذ مضجعه، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان، فأيكم يعمل في اليوم ألفين وخمس مائة سيئة؟»، قالوا: يا رسول الله، كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل؟ قال: «يأتي أحدكم الشيطان إذا فرغ من صلاته، فيذكره حاجة كذا وكذا، فيقوم ولا يقولها، فإذا اضطجع يأتيه الشيطان فينومه قبل أن يقولها»، فلقد رأيت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يعقدهن في يده.

ومنه: الدعاء؛ لما صح أن أم سليم **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** غدت إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فقالت: علمني كلمات أقولهن في صلاتي، فقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «كبري الله عشرا، وسبحي الله عشرا، واحمديه عشرا، ثم سلي ما شئت»، من حديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الترمذي (٤٨١)، والنسائي (١٢٩٩).

وعند الصباح والمساء، قال الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ **وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾**﴾ [الروم: ١٧-١٨].

وبعد قراءة القرآن وحضور المجالس، قال الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه، ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»، أبو داود (٤٨٥٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، ومن حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الترمذي (٣٤٣٣)، وجاء عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**.

وهو من أحب الكلام إلى الله، كما تقدم قوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

وهي من غراس الجنة، كما قال إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَام** إلى محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أقرب أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، من حديث ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الترمذي (٣٤٦٢)، وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من قال سبحان الله العظيم وبحمده، وغرست له نخلة في الجنة»، من حديث جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** عند الترمذي (٣٤٦٤)، وجاء من حديث النعمان بن بشير **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «إن مما تذكرون من جلال الله التسييح، والتهليل، والتحميد

ينعطفن حول العرش، لهن دوي كدوي النحل، تذكر بصاحبها، أما يجب أحدكم أن يكون له أو لا يزال له من يذكر به؟»، ابن ماجه (٣٨٠٩).

وعند ركوب الدابة، فقد صح عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل»، من حديث ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** في مسلم (١٣٤٢).

وعند الانتهاء من الطعام، قال الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها»، من حديث أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم (٢٧٣٤).

وقد حمد الله نفسه في عدة مواطن من القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وحمد نفسه بعد الانتهاء من القضاء بين العباد حيث قال **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٧٥]، أدخل أهل الجنة الجنة بفضله وإدخال أهل النار النار بعدله، وفي حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** عند ابن ماجه (٣٨٠٣)، وابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند أبي داود (٥٠٥٨)، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «الحمد لله على كل حال».

وأجمل حديث في الحمد وأتمّه؛ حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فانطلقنا معه، فلما طعم وغسل يديه - أو قال: يده - قال: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسا من العري، وهدى من الضلالة وبصر من العمية وفضل على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين»، أخرجه الحاكم في المستدرک (١/٧٣١).

إلى غير ذلك وإنما هذه إشارات إلى فضل هذه الكلمة، وهي متضمنة لإثبات كل كمال لله **عَزَّجَلَّ** ومستلزمة لنفي جميع النقائص عن الله **عَزَّجَلَّ**.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في "طريق الهجرتين" (١٣٠-١٣٣): (وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره وعند الأمر والشرع وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفردّه بالإلهية وعلى حياته، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاته أحد من خلقه لحاجته إليه، وحمد نفسه على علوه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة، وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي، ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه، فتنوع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة وفرقها أخرى ليتعرف إلى عبادته ويعرفهم كيف يحمده وكيف يثنون عليه، وليتجنب إليهم بذلك ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٤]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ [الكهف: ١-٢]، وقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَآلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
 ﴿١﴾ [سبأ: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي

أَجْنِحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتُلَاقٍ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١﴾ [فاطر: ١]،
 وقال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَآلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

﴿٧٠﴾ [القصص: ٧٠]، وقال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فِي الْحَمْدِ
 لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ [غافر: ٦٥]، وقال: ﴿فَسَبِّحْنَا اللَّهَ حِينَ نُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ

﴿١٧﴾ وَآلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الروم: ١٧-١٨].

أخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بشوابه وكرامته
 والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانتها ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
 ﴿٧٥﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم
 يدخلوها إلا بحمده، فقال أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا

أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، و﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ
 وَعَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [يونس: ١٠]، وقال عن أهل النار:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
 سَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

﴿٧٥﴾ [القصص: ٧٤-٧٥]، وقال: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١١﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلّموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا مكذابين
 بآيات ربهم مشركين به جاحدين لإلهيته مفترين عليه، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم
 وأخذه مبعوض حقه عليهم وأنه غير ظالم لهم وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده
 وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه، لا كما تقول الجبرية.

وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة به ولا إلى التعبير عنه، ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله **عَزَّجَلَّ** على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه فهو محامد له وثناءً وتسبيح وتقديس، فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناءً عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه خلقه، فله الحمد أولاً وآخرًا حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده.

❁ **فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده** وهو حمد الصفات والأسماء، والنوع الثاني حمد النعم والآلاء، وهذا مشهود للخليقة برها وفاجرها مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديهِ وجميل صنائعه وحسن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين وإغاثة الملهوفين ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق بل ابتداءً منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها.

ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أَرادَه بأحسن الألفاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصته وعباده إلى سبل دار السلام، ومدافعتهم عنهم أحسن الدفاع وحمائيتهم عن مراتع الآثام، وحبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبب إليهم بنعمة مع غناه عنهم وتبغضهم إليه بالمعاصي وفقرهم إليه، ومع هذا كله فاتخذ لهم دارا وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وملاها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة

والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ثم أرسل إليهم الرسل يدعوهم إليها، ثم يسر لهم الأسباب التي توصلهم إليها وأعانهم عليها، ورضى منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدا بالإضافة إلى بقاء دار النعيم، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرًا وإن أساءوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات، وذكرهم بآلائه وتعرف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحسانًا لا حاجة منه إليهم، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلاً منه عليهم وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه ونصحهم بأحسن النصائح ووصاهم بأكمل الوصايا وأمرهم بأشرف الخصال ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال.

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، وصرف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته وفتح لهم أبواب الهداية وعرفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه، ويخاطبهم بألطف الخطاب ويسميهم بأحسن أسمائهم). اهـ

❁ **وهنا فائدة وهي:** أن الله **عَزَّجَلَّ** أمر بالحمد للذات العلية باسم ﴿الله﴾ دون ما سواه، وذلك لأن هذا الاسم متضمن لكل كمال ثابت للرب تعالى؛ سواء كان ذلك بدلالة المطابقة أو التضمن أو الالتزام.

قال شيخ الإسلام رحمه الله كما في المجموع (١٤/١٢-١٤): قال الله **عَزَّجَلَّ** في أول السورة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾، فبدأ بهذين الاسمين: الله والرب، و ﴿الله﴾ هو الإله المعبود فهذا الاسم أحق بالعبادة؛ ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله، و ﴿الرب﴾ هو المرابي الخالق الرازق الناصر الهادي وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة، ولهذا يقال: ﴿رَبِّ أَعْفِرْ لِي ذُنُوبِي﴾، ﴿قَالَ رَبَّنَا﴾

ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾، ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب، فالاسم الأول يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله، والاسم الثاني يتضمن خلق العبد ومبتدأه، وهو أنه يربه ويتولاه مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية والربوبية تستلزم الألوهية أيضًا.

والاسم «الرحمن» يتضمن كمال التعليقين وبوصف الحاليين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٢﴾﴾، فذكر هنا الأسماء الثلاثة: (الرحمن و (ربي والإله)، وقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٣﴾﴾، كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن؛ لكن بدأ هناك باسم الله؛ ولهذا بدأ في السورة بـ ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِكَ نَكْبِدُ﴾ فقدّم الاسم وما يتعلق به من العبادة؛ لأن تلك السورة فاتحة الكتاب وأم القرآن فقدّم فيها المقصود الذي هو العلة الغائية فإنها علة فاعلية لليلة الغائية، وقد بسطت هذا المعنى في مواضع؛ في أول «التفسير» وفي «قاعدة المحبة والإرادة» وفي غير ذلك) اهـ.

قوله ﴿رَبِّ﴾: قال الراغب في "المفردات": (الرَّبُّ في الأصل: التربيّة، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدّ التمام، يقال رَبَّتهُ، ورَبَّاهُ ورَبَّبْتُهُ، وقيل: (لأن يربّي رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّي رجل من هوازن)، فالرَّبُّ مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرَّبُّ مطلقًا إلا لله تعالى المتكفّل بمصلحة الموجودات، نحو قوله: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥]، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٨٠] أي: آلهة، وتزعمون أنهم الباري مسبب الأسباب، والمتولّي لمصالح العباد، وبالإضافة يقال له ولغيره، نحو قوله:

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]، و﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [١٣٦] [الصفات: ١٢٦]، ويقال: رَبُّ الدَّارِ، وَرَبُّ الفرس لصاحبهما، وعلى ذلك قول الله تعالى: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَإِنَّكَ فَانْسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَنَاقِبًا﴾ [يوسف: ٢٣]، قيل: عنى به الله تعالى، وقيل: عنى به الملك الذي رباه، والأول أليق بقوله.

والرَّبَّانِيُّ قيل: منسوب إلى الرَّبَّانِ، ولفظ فعلان من: فعل بينى نحو: عطشان وسكران، وقلما بينى من فعل، وقد جاء نعلان.

وقيل: هو منسوب إلى الرَّبِّ الذي هو المصدر، وهو الذي يرب العلم كالحكيم، وقيل: منسوب إليه، ومعناه، يرب نفسه بالعلم، وكلاهما في التحقيق متلازمان، لأن من رب نفسه بالعلم فقد رب العلم، ومن رب العلم فقد رب نفسه به. وقيل: هو منسوب إلى الرَّبِّ أي: الله تعالى، فالرَّبَّانِيُّ كقولهم: إلهي، وزيادة النون فيه كزيادته في قولهم: لحياني، وجسماني.

قال علي رضي الله عنه: (أنا رباني هذه الأمة)، والجمع ربانيون.

قال تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَدُهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣]، ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، وقيل: رباني لفظ في الأصل سرياني، وأخلق بذلك، فقلما يوجد في كلامهم، وقوله تعالى: ﴿رَبِّيونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فالرَّبِّيُّ كالرَّبَّانِيِّ.

والرَّبَّويَّةُ مصدر، يقال في الله عَزَّوَجَلَّ، والرَّبَّابَةُ تقال في غيره، وجمع الرَّبِّ أَرْبَابٌ، قال تعالى: ﴿أَرْبَابٌ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، ولم يكن من حق الرَّبِّ أن يجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلا الله تعالى، لكن أتى بلفظ

الجمع فيه على حسب اعتقاداتهم، لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه، والرّب لا يقال في التعارف إلا في الله، وجمعه أربّة، وربوب) اهـ.

قال الشوكاني رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِهِ: (قال في الصحاح: الرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك، وقال في الكشاف: الرب المالك، ومنه قول صفوان لأبي سفيان: لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن، ثم ذكر نحو كلام الصحاح).

قال القرطبي في تفسيره: والرب السيد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وفي الحديث «أن تلد الأمة ربتها»، والرب: المصلح والجابر والقائم قال: والرب: المعبود، ومنه قول الشاعر:

أرب يبول الثعلبان برأسه ❀❀ لقد هان من بالت عليه الثعالب
اهـ.

و(الرب) من الأسماء الحسنی المختصة بالله تعالى، وإذا أطلق على غيره فمع الإضافة والتقييد فتقول: رب الدار، ورب المنزل، وهكذا. وهو من الأسماء الجامعة التي عليها مدار الأسماء الحسنی.

قال ابن القيم في البدائع: (الرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له) اهـ. ويتنظم في معنى هذا الاسم سائر الأسماء.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "البدائع" أَيضًا: (فإن الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما

يستحقه من الأسماء الحسنی وأما الملك فهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء وله من معنی الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنی) اهـ.

وهذا الاسم دال على إفراد الرب تعالى بأفعاله تضمننا، ودال على إفراد الله عز وجل بأفعال المكلفين التزاماً.

قال ابن القيم: (فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعالاً مدبراً متصرفاً في خلقه، يعلم ويقدر ويريد ويسمع ويبصر، فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته، إذا انتفت عنه صفة الكلام انتفى الأمر والنهي ولوازمها وذلك ينفي حقيقة الإلهية). اهـ، كما في مختصر الصواعق.

وقال في "الصواعق المرسله" (١٢٢٣/٤): قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه وتدييره له ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويخفض ويرفع ويعطي ويمنع ويعز ويذل ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه) اهـ.

وقد اختلف العلماء في تفضيل قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ على ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ والعكس ولكن الظاهر أن قول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أفضل، لدلالة الدليل على ذلك.

قال القرطبي رحمه الله (١٧٧/١): (اختلف العلماء أيما أفضل، قول العبد: الحمد لله رب العالمين، أو قول لا إله إلا الله؟ فقالت طائفة: قوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أفضل، لأن في ضمنه التوحيد الذي هو لا إله إلا الله، ففي قوله توحيد وحمد، وفي قوله لا إله إلا الله توحيد فقط. وقالت طائفة: لا إله إلا الله أفضل، لأنها تدفع الكفر والإشراك، وعليها يقاتل الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»، واختار هذا القول ابن عطية قال:

والحاكم بذلك قول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له» اهـ.

قلت: وقول رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** «أفضل الذكر لا إله إلا الله»، أخرجه الترمذي عن جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وهو حديث صحيح، ونزيد على ذلك أن كلمة **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** لو قالها كافر لم يدخل بها في الإسلام، ولم يحقن دمه وماله.

ثم إن كلمة **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾** دلالتها على التوحيد ظاهرة ومتضمنة للنفي والإثبات إلى غير ذلك من الأوجه.

وقد اختلف أهل العلم في أيهما أفضل النعمة في ذاتها أو الحمد عليها.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٨٢-٨٣): (وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إني بأرض قد كثرت فيها النعم، حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر، فكتب إليه عمر: إني قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت، إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها، إلا كان حمده أفضل من نعمته، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل، قال الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾** [النمل: ١٥]، وقال الله: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبَّنَا قَدْ خَلَوْهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾** وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾

[الزمر: ٧٣-٧٤]، وأي نعمة أفضل من دخول الجنة؟، وقد ذكر ابن أبي الدنيا في "كتاب الشكر" عن بعض العلماء أنه صوب هذا القول، أعني قول من قال: إن الحمد أفضل من النعم، وعن ابن عيينة أنه خطأ قائله، وقال: لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الرب **عَزَّ وَجَلَّ**، ولكن الصواب قول من صوبه، فإن المراد بالنعم: النعم الدنيوية، كالعافية والرزق والصحة، ودفع المكروه، ونحو ذلك، والحمد لله هو من النعم

الدينية، وكلاهما نعمة من الله، لكن نعمة الله على عبده بهديته لشكر نعمه بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده، فإن النعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكر، كانت بلية كما قال أبو حازم: كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية، فإذا وفق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيرا من تلك النعم وأحب إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** منها، فإن الله يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلبا للثناء، والله **عَزَّوَجَلَّ** أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها، والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكرا عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحب ذلك من عباده، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكماله فيه، ومن فضله سبحانه أنه نسب الحمد والشكر إليهم، وإن كان من أعظم نعمه عليهم، وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال، ثم استقرض منهم بعضه، ومدحهم بإعطائه، والكل ملكه ومن فضله، ولكن كرمه اقتضى ذلك) اهـ.

وقد جاء عند ابن ماجه (٣٨٠٥): عن أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»، في سنده شبيب بن بشر، ضعفه أبو حاتم بقوله ليين، ووثقه ابن معين، وقال ابن حبان يخطئ كثيرا، وقال الحافظ في التقریب صدوق، وجاء عند ابن ماجه من حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** برقم (٣٨٠٣)، قال كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إذا رأى ما يحب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال»، قال البوصيري إسناده صحيح.

وعند ابن ماجه (٣٨٠٠): عن جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**:
«أفضل الذكر لا إله الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»، إسناده حسن.

قوله: **﴿الْعَالَمِينَ﴾** (١): قال الشوكاني **رَحِمَهُ اللَّهُ** في فتح القدير: (و**﴿الْعَالَمِينَ﴾** (١)
 جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى قاله قتادة، وقيل أهل كل زمان عالم،
 قاله الحسين بن الفضل، وقال ابن عباس: العالمون الجن والإنس، وقال الفراء وأبو
 عبيد: العالم عبارة عن من يعقل وهم أربعة أمم: الإنس، والجن، والملائكة،
 والشياطين، ولا يقال للبهائم عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع ما يعقل، حكى هذه
 الأقوال القرطبي في تفسيره وذكر أدلتها وقال: إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه
 شامل لكل مخلوق وموجود، دليله قوله تعالى: **﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** (٣٣) **قَالَ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا** [الشعراء: ٢٣-٢٤]، وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه
 يدل على موجد، كذا قال الزجاج، وقال: العالم: كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة،
 انتهى.

وعلى هذا يكون جمعه على هذه الصيغة المختصة بالعقلاء تغليبا للعقلاء على
 غيرهم، وقال في الكشاف: ساغ ذلك لمعنى الوصفية فيه، وهي الدلالة على معنى
 العلم، وقد أخرج ما تقدم من قول ابن عباس عنه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير
 وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه، وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير
 عن مجاهد، وأخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير، وأخرج ابن جبير وابن أبي حاتم
 عن ابن عباس في قوله تعالى: **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** (١)، قال: إله الخلق كله،
 السموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما
 لا يعلم) اهـ.

فعلى هذا فكل ما سوى الله **عَزَّجَلَّ** عالم، فيدخل فيه الإيمان بالملائكة؛ والإيمان بهم أحد الأركان الإيمان الستة.

قال ابن أبي العزفي "شرح الطحاوية" (٤٠٥/٢): (وأما الملائكة فهم الموكلون

بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى:

﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ٥﴾ [النازعات: ٥]، ﴿**فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا** ٤﴾ [الذاريات: ٤]، وهم الملائكة

عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسول المنكرون للصانع فيقولون:

هي النجوم، وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف

المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة،

ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ

ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة،

ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار

وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل

آلاتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: ﴿**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا** ١﴾ **فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا**

٢ **وَالنَّشْرَاتِ نَشْرًا** ٣ **فَالْفَرَقَاتِ فَرَقًا** ٤ **فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا** ٥﴾ [المرسلات: ١-٥]، ومنهم:

﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ١ **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** ٢ **وَالسَّيِّدَاتِ سَبْحًا** ٣ **فَالسَّيِّدَاتِ سَبْحًا** ٤﴾

[النازعات: ١-٤]، ومنهم: ﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا** ١ **فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا** ٢ **فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** ٣﴾

[الصفافات: ١-٣].

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها:

"فرقة"، و"طائفة"، و"جماعة"، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة

قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح

والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله، ولفظ

(الملك) يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْئُرُونَهُ بِأَقْوَالٍ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ تَوْفِيقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [النحل: ٥٠]، فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلامهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ﴿١١﴾ [الأنبياء: ١٩]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عبادته، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أظت السماوات بهم، وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راعع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشریف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والظهور والقوة والإخلاص، قال تعالى: ﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِإِلَهِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ

التَّورِ ﴿ [الأحزاب: ٤٣] ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [غافر: ٧] ﴾ ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر: ٧٥] ﴾ ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] ﴾ ﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [فصلت: ٣٨] ﴾ ﴿ كِرَامًا كَتِيبِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الانفطار: ١١] ﴾ ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [عبس: ١٦] ﴾ ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُفَرِّقُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [المطففين: ٢١] ﴾ ﴿ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴾ [الصافات: ٨] ﴾

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم) اهـ.

ومن ﴿ الْمَلَائِكَةِ ﴿٧٢﴾ ﴾؛ الجن، وفي مسلم عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجن من نار، وخلق الإنسان مما ذكر لكم».

قال الراغب في مفردات القرآن: (أنَّ الروحانيين ثلاثة:

- أخيار: وهم الملائكة.
 - وأشرار: وهم الشياطين.
 - وأوساط فيهم أخيار وأشرار: وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ [الجن: ١- ١٤].
- والجِنَّة: جماعة الجن، قال تعالى: ﴿ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: ٦]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَبْأً ﴾ [الصافات: ١٥٨] اهـ.

فالله رب العالمين المتصرف فيه (فهو الذي يرب عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله ويهديه إلى اجتناب المفسدات التي بها فساده وهلاكه). اهـ من طريق الهجرتين.

وقد جعل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من الإيمان الرضى بالله ربًّا، أخرجه مسلم عن العباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نبياً**»، أخرجه مسلم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مدارج السالكين: (إن الرضا به ربا يتضمن الرضا عنه، ويستلزمه، فإن الرضا بربوبيته: هو رضا العبد بما يأمره به، وينهاه عنه، ويقسمه له ويقدره عليه، ويعطيه إياه، ويمنعه منه، فمتى لم يرض بذلك كله لم يكن قد رضى به ربًّا من جميع الوجوه، وإن كان راضياً به ربا من بعضها، فالرضا به ربًّا من كل وجه: يستلزم الرضا عنه، ويتضمنه بلا ريب.

وأيضًا: فالرضا به ربا متعلق بذاته، وصفاته وأسمائه، وربوبيته العامة والخاصة، فهو الرضا به خالقًا ومدبرًا، وأمرًا وناهيًا، وملكًا، ومعطيًا ومانعًا، وحكمًا، ووكيلًا ووليًا، وناصرًا ومعينًا، وكافيًا وحسيبًا ورقيبًا، ومبتليًا ومعافيًا، وقابضًا وباسطًا، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

وأما الرضا عنه: فهو رضا العبد بما يفعله به، ويعطيه إياه، ولهذا لم يجئ إلا في الثواب والجزاء، كقوله تعالى: ﴿**يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٧٨﴾**﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، فهذا برضاها عنه لما حصل لها من كرامته، كقوله تعالى: ﴿**خَلَّيْنِ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨٠﴾**﴾ [البينة: ٨].

والرضا به: أصل الرضا عنه، والرضا عنه: ثمرة الرضا به.

وسر المسألة: أن الرضا به متعلق بأسمائه وصفاته، والرضا عنه: متعلق بثوابه وجزائه، وأيضًا: فإن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** علق ذوق طعم الإيمان بمن رضى بالله ربا، ولم يعلقه بمن رضى عنه، كما قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ رسولاً**»، فجعل الرضا به

قرين الرضا بدينه ونبيه، وهذه الثلاثة هي أصول الإسلام، التي لا يقوم إلا بها وعليها) اهـ.

❁ **تنبيه:** اسم الرب تعالى من الأسماء المفردة، ويكون من الأسماء المركبة كما في هذه الآية ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، والأسماء المركبة من أسمائه الحسنی بالإجماع كما نقلته في «القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن»، والحمد لله.

قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ❁

تقدم الكلام عليها وعلى معانيها في البسمة ونضيف هنا مناسبة المجيء بها في هذا الموطن.

قال الشوكاني رحمه الله: (قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع، كما قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّبَى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ❁ [الحجر: ٤٩]، وقال: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ❁ [غافر: ٣]، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» اهـ.

هذا من حيث المناسبة، وأما من حيث الحمد فإن هذا تثنية وتكرار له فقد تضمنت الآية الأولى حمد الله عَزَّجَلَّ على ألوهيته للعالم، وربوبيته له ثم ثنى الحمد ببيان رحمة الله عَزَّجَلَّ، وقد تقدم في الحديث: «إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ❁، قال الله حمدي عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ❁، قال الله أثنى عليّ عبدي».

فالثناء هو الحمد إذا تكرر، وفيها بيانٌ عظيمٌ لفضل ذكر الله **عَزَّوَجَلَّ** ومحبة الله تعالى، لذلك فيتعين على العبد أن يلازم ذكر الله في السر والعلن سواءً كان في ذلك الذكر الواجب الذي شرعه الله في العبادات، أو الذكر المستحب وهو الإتيان بالأدعية والأذكار في أوقات مخصوصة أو مطلقة، ومن وصايا رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لعبد الله بن بسر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قوله: «**لا يزال لسانك رطبًا بذكر الله**».

والله تعالى يحب أن يمدح ويذكر ويثنى عليه ويمجد، فانظر كيف يباهي الملائكة تعالى ويخبرهم بحمد عبده له وثناؤه عليه وتمجيده له، وفي حديث عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**لا أحد أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش ما ظهر وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه**»، أخرجه البخاري ومسلم، ومدح الله **عَزَّوَجَلَّ** يكون بأسمائه وصفاته إذ أنها دالة على المدح الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ومتضمنة لصفات مدح لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

ولهذا قال معاذ بن جبل **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** ليس شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله. ونذكر هنا لفظة لطيفة عن أسباب رحمة الله تعالى لعباده، فمن أعظم تلك الأسباب بل أعظمها على الإطلاق لهو توحيد الله **عَزَّوَجَلَّ** وإفراده بما يجب له، قال الله **عَزَّوَجَلَّ** ﴿**وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وقال: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَّارِكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿**أَوْحَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن ذلك اتباع طريقة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** جملةً وتفصيلاً، قال تعالى: **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾** [١٥٦] الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، ومنها رحمة الغير، قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لأبي رمثة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»، وقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، إلى غير ذلك من أدلة الباب، وليس هذا موطن بسط ولكن إشارة إلى التعبد لله بما يكون سبباً لرحمته للعبد.

قوله: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٤﴾.

قال الشوكاني رحمه الله: (فِرَى مَلِكٍ وَمَالِكٍ وَمَلِكٍ بسكون اللام، ومَلِكٌ بصيغة الفعل).

وقد اختلف العلماء أيهما أبلغ مَلِكٍ أو مَالِكٍ؟ فقيل إن مَلِكٍ أعم وأبلغ من مَالِكٍ، إذ كل مَلِكٍ مَالِكٍ، وليس كل مَالِكٍ مَلِكًا، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا بتدبير الملك، قاله أبو عبيد والمبرد ورجحه الزمخشري، وقيل مَالِكٍ أبلغ لأنه يكون مَالِكًا للناس وغيرهم، فالمالك أبلغ تصرفاً وأعظم.

وقال أبو حاتم: إن مالكا أبلغ في مدح الخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن المالك من المخلوقين قد يكون غير ملك، وإذا كان الله تعالى مالكا كان ملكا، واختار هذا القاضي أبو بكر بن العربي.

والحق أن لكل واحد من الوصفين نوعٌ أخصية لا يوجد في الآخر، فالمالك يقدر على ما يقدر عليه الملك من التصرفات بما هو مالك له بالبيع والهبة والعقق ونحوها، والملك يقدر على ما لا يقدر عليه المالك من التصرفات العائدة إلى تدبير

الملك وحياطته ورعاية مصالح الرعية، فالمالك أقوى من الملك في بعض الأمور، والملك أقوى من المالك في بعض الأمور، والفرق بين الوصفين بالنسبة إلى الرب سبحانه أن الملك صفة لذاته، والمالك صفة لفعله) اهـ.

وقال ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ: (قرأ بعض القراء: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وقرأ آخرون:

﴿مَلِكِ﴾ وكلاهما صحيح متواتر في السبع.

ويقال: ملك أيضاً، وأشبع نافع كسرة الكاف فقرأ: «ملكي يوم الدين» وقد رجح

كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى، وكلاهما صحيحة حسنة، ورجح

الزمخشري «ملك»؛ لأنها قراءة أهل الحرمين ولقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، وقوله:

﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾، وحكي عن أبي حنيفة أنه قرأ «مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ» على أنه

فعل وفاعل ومفعول، وهذا شاذ غريب جدا.

وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد

الرحمن الأذرمي، حدثنا عبد الوهاب عن عدي بن الفضل، عن أبي المطرف، عن

ابن شهاب: أنه بلغه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية

وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرءون: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأول من أحدث

﴿مَلِكِ﴾ مروان، قلت: مروان عنده علم بصحة ما قرأه، لم يطلع عليه ابن شهاب،

والله أعلم.

وقد روي من طرق متعددة أوردها ابن مردويه أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ

كان يقرؤها: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، ومالك مأخوذ من الملك، كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ

الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ [مريم: ١٠]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾

مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ [الناس: ١-٢]، وملك: مأخوذ من الملك كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ

الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ [غافر: ١٦]، وقال: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ﴾

[الأنعام:٧٣]، وقال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان:٢٦]، وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَاْمُونَ إِلَّا مَن أٰذَنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبا:٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه:١٠٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود:١٠٥].

وقال الضحاک عن ابن عباس: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى تفسير ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِّلرَّحْمٰنِ﴾ [الفرقان:٢٦]، والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام:٧٣]، والله أعلم. اهـ.

ولما كان يوم الدين يوم الجزاء بالعقاب أو الثواب، وكان الملك هو الذي يأمر وينهى ويطاع، ومن شأنه أن يعز من أطاعه ويذل من عصاه؛ ناسب أن يأتي به مقيداً بهذا اليوم، مع أنه ملك يوم الدين وغير يوم الدين، وهذا الاسم من الأسماء الدالة على جميع صفات الكمال باللزوم.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "شفاء العليل": (أن من أسمائه الملك ومعنى الملك الحقيقي ثابت له سبحانه بكل وجه وهذه الصفة تستلزم سائر صفات الكمال إذ من المحال ثبوت الملك الحقيقي التام لمن ليس له حياة ولا قدرة ولا إرادة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا فعل اختياري يقوم به) اهـ.

وقال في "طريق الهجرتين": (إن حقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع والإكرام والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَتَّى الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ وَمَنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غمما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانياً ويغني فقيراً ويجبر كسيراً ويشفي مريضاً ويقبل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويعطي سائلاً ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواماً ويضع آخرين يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواعيدها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك) اهـ.

وهو سبحانه الملك الحق، قال تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وله الملك المطلق، قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣﴾ [المائدة: ١٣٠]، والآيات الدالات على عموم ملكه كثيرة، وفي الحديث ما يوافق ما تضمنته هذه الآية، ففي الصحيحين عن ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«إِنَّ اللَّهَ يَطْوِي السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ، وَيَأْخُذُ الْأَرْضَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى، ثُمَّ يَهْزَنُ وَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ»**، وما جاء في بعض روايات مسلم أنه يأخذ الأرض بشماله لا يثبت؛ بل هي زيادة منكرة زادها عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر العمري؛ وهو ضعيف، والثابت كما في حديث عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند مسلم: **«وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٍ»**، والله أعلم، وصفة اليدين من الصفات الذاتية الخبرية، قال تعالى: **﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾** [المائدة: ٦٤]، وقال تعالى: **﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيْكَ﴾** [ص: ٧٥]، وكان من حلف رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»**.

قوله: **﴿مَلَايَ يَوْمَ الدِّينِ﴾** ①.

المراد به يوم القيامة، فهو يوم الجزاء و الموافاة على الأعمال، وقد فسرت هذا اليوم آيات سورة الانفطار.

قال الشوكاني: (و) **﴿مَلَايَ يَوْمَ الدِّينِ﴾** ① يوم الجزاء من الرب سبحانه لعباده كما قال: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾** [الانفطار: ١٧-١٩]. اهـ.

قال ابن كثير رحمه الله: (وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين، وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدعي أحد هنالك شيئاً، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه، كما قال: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾** ② [النبا: ٣٨]، وقال تعالى: **﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾** ③ [طه: ١٠٨]، وقال: **﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾** ④ [هود: ١٠٥].

وقال الضحاک عن ابن عباس: ﴿مَلَايَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٤ يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حكماً، كملكهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، وهو يوم القيامة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر، إلا من عفا عنه، وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف، وهو ظاهر.

وحكى ابن جرير عن بعضهم أنه ذهب إلى تفسير ﴿مَلَايَ يَوْمَ الدِّينِ﴾ ٤ أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه.

والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم، وأن كلا من القائلين بهذا وبما قبله يعترف بصحة القول الآخر، ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال: ﴿الْمَلَأَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، والقول الثاني يشبه قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣] اهـ.

قال القرطبي رَحْمَةُ اللَّهِ: (اليوم: عبارة عن وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس، فاستعير فيما بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما. وقد يطلق اليوم على الساعة منه، قال الله تعالى: ﴿أَيُّومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وجمع يوم أيام، وأصله أيوم فأدغم، وربما عبروا عن الشدة باليوم، يقال: يوم أيوم، كما يقال: ليلة ليلاء، قال الراجز:

(نعم أخو الهيجاء في اليوم اليمى)

وهو مقلوب منه، آخر الواو وقدم الميم ثم قلبت الواو ياء حيث صارت طرفاً، كما قالوا: أدل في جمع دلو.

و﴿الدِّينِ﴾ ٤: الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس وابن مسعود وابن جريج وقتادة وغيرهم، وروي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥]؛ أي حسابهم.

وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧]، و﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وقال: ﴿أَنَا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]؛ أي مجزيون

محاسبون، وقال لبيد:

حصادك يوماً ما زرعت وإنما ❀❀ يدان الفتى يوماً كما هو دائن
وقال آخر:

إذا ما رمونا رميناهم ❀❀ ودناهم مثل ما يقرضونا
وقال آخر:

واعلم يقيناً أن ملكك زائل ❀❀ واعلم بأن كما تدين تدان
وحكى أهل اللغة: دنته بفعله دينا (بفتح الدال)، ودينا (بكسرها) جزيته، ومنه
الديان في صفة الرب تعالى أي المجازي، وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه»؛ أي
حاسب.

وقيل: القضاء، روي عن ابن عباس أيضاً، ومنه قول طرفة:

لعمرك ما كانت حمولة معبد ❀❀ على جدها حرباً لدينك من مضر
ومعاني هذه الثلاثة متقاربة، والدين أيضاً: الطاعة، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وأيام لنا غر طوال عصينا ❀❀ الملك فيها أن نديننا
فعلى هذا هو لفظ مشترك وهي: الثانية والعشرون قال ثعلب: دان الرجل إذا
أطاع، ودان إذا عصى، ودان إذا عز، ودان إذا ذل، ودان إذا قهر، فهو من الأضداد،
ويطلق الدين على العادة والشأن، كما قال:

كدينك من أم الحويرث قبلها ❀❀
وقال المثقب يذكر ناقته:

تقول إذا درأت لها وضيبي ❀❀ أهذا دينه أبداً وديني

والدين: سيرة الملك، قال زهير:

لئن حللت بجو في بني أسد في ❀❀ دين عمرو وحالت بينا فذك
أراد في موضع طاعة عمرو، والدين: الداء، عن اللحياني، وأنشد:
يا دين قلبك من سلمى وقد دينا) اهـ.

ويوم الدين هو اليوم الآخر الذي ذكره الله في كتابه مجليا له حتى كأنه رأي العين،

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا
الْقُبُورُ بُعِثِرَتْ ۝٤ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ
۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَبُّكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ
۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كَرَامًا كَتِيبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ
۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الذِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ
الذِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَّا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الذِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ
لِلَّهِ ۝١٩﴾ [سورة الانفطار: ١-١٩].

وقال الله عزَّجَل: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ
۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا النُّفُوسُ
رُجِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُيِّجَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ
كُفِّطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ ۝١٣ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ ۝١٤﴾
[التكوير: ١-١٤].

وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَّا الْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ
النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۝١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ۝١١﴾ [سورة القارعة: ١-١١].

وقال تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ ١ مَا الْحَاقَّةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٣﴾ [الحاقة: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢﴾ [الحج: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ٥١﴾ [يس: ٥١].

وقال تعالى: ﴿إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ١٣ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ١٦ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾ [الحاقة: ١٣-١٨].

إلى غير ذلك من أدلة الكتاب والسنة الصحيحة.

والإيمان باليوم الآخر أحد الأركان الستة الذي تضمنه حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ إذ جاءه رجل فسأله عن الإسلام فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»، أخرج مسلم، وفي حديث أبي هريرة: «وتؤمن بالبعث بعد الموت»، ويدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بما في القبر من حياة البرزخية وما يليها من أهوال يوم القيامة وكل ذلك داخل في الإيمان بالغيب الذي امتدح الله

تعالى أهله، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَآخِزُونَ هُنَّ يُؤْفِقُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة: ٣-٥]، ويتعين على المسلم أن يعرف ما يتعلق بذلك اليوم حيث وأن المبتدعة من المعتزلة وغيرهم ممن سار على علم الكلام الباطل ينكرون أكثر المعتقدات المتعلقة بالحياة الأخروية، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، فينكرون عذاب القبر مع تواتر الأدلة بثبوته، ولو لم يكن إلا ما يقوله المسلمون في دبر التشهد «اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال»، وقبل ذلك قول الله عزَّ وجلَّ في شأن قوم فرعون: ﴿التَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٦]، فأخبر الله عزَّ وجلَّ عن عذاب يمر به آل فرعون قبل قيام الساعة، والأدلة على ذلك يطول ذكرها، ولي بحمد الله مؤلف مستقل في نعيم القبر وعذابه، ومما ينكره هؤلاء المتهوكه الحيارى ما يتعلق بإثبات رؤية الله عزَّ وجلَّ في ذلك اليوم، مع ما دل عليه قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

وقد فسر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، كما في صحيح مسلم من حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَى الْأَرْبَابِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المطففين]، وقال تعالى: ﴿تَجِيئُهُمْ بِيَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب»، قالوا: لا يا رسول الله، قال «وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر»: قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك، وذكر

الحديث، والحديث مخرج بطوله في الصحيحين، وقد تكلمت بحمد الله عن هذه المسألة عن هذه وعقيدة المسلمين فيها بما يكفي ويشفي إن شاء الله في كتاب رؤية المؤمنين للجبار في المحشر ودار القرار.

وينكرون الحوض والميزان والصراط وكل ذلك عليه أدلته المتواترة من الكتاب والسنة، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿ **إِنَّا أَنْعَمْنَا عَلَى الْكَافِرِ ۗ** ﴾ [الكوثر]، وفسره ورسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كما في حديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم «أتدرون ما الكوثر؟»، قال: فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي **عَزَّوَجَلَّ**، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول: رب إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك»، والأحاديث في شأنه متواترة رواها أكثر من ثمانين صحابياً، كما ذكر الحافظ ذلك في الفتح، ولقبني بن مخلد جزء في أحاديث الحوض، وقيل شعراً في ذلك:

مما تواتر حديث من كذب ❀❀ ومن بنى لله بيتا واحتسب
ورؤية شفاعته والحوض ❀❀ ومسح خفين وهذي بعض
والميزان قال الله في شأنه ﴿ **وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا** ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٥]،
وقال تعالى: ﴿ **فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ** ﴾ [١١٦] **وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۗ** ﴾ [المؤمنون: ١٠٣-١٠٤]، وهو ميزان واحد له كفتان، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند الترمذي قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يخلص رجلاً من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أنتكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا

رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء» الحديث، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ومن عجيب فتنه المبتدعة أنهم ينكرون شفاعة رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في أهل الكبائر من أمة محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، مع تواتر الأدلة في ثبوتها، وقد صح عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من طرق كثيرة قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»، أخرجه الترمذي وغيره عن أنس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، وعند أحمد عن أبي موسى **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «خيرت بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ لا؛ ولكنها للمذنبين الخاطئين المتلوثين»، ومنها ما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك - وقال ابن عبيد: فيلهمون لذلك - فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا، قال: فيأتون آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فيقولون: أنت آدم، أبو الخلق، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناك، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتنوا نوحاً أول رسول بعثه الله، قال: فيأتون نوحاً **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فيقول: لست هناك، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتنوا إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** الذي اتخذ الله خليلاً، فيأتون إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتنوا موسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، الذي كلمه الله وأعطاه التوراة، قال: فيأتون موسى؛ فيقول: لست هناك، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن اتنوا عيسى روح الله وكلمته، فيأتون

عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم، ولكن اتوا محمدا **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: فيأتوني فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيتُه وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع فيحدي حدا، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع يا محمد، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع فيحدي حدا، فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة - قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة - قال فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود، ولشيخنا مقبل **رحمة الله** كتابا ماتعا في الشفاعة.

ومن عظيم بلائهم زعم الجهمية فناء الجنة والنار قاتلهم الله، مع ما تواتر به المنقول من القرآن والسنة من أن الجنة والنار لا تفنيان أبداً، ولا تبيدان، وقبل ذلك ما يعتقده المسلمون من أنهما موجودتان الآن، الجنة في السماء السابعة وسقفها عرش الرحمن، والنار في الأرض السفلى، قال تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبَارِ لَفِي عَلَيِّنَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُوعٌ ﴿٢٠﴾** ﴾ [المطففين: ١٨-٢٠]، وفي حديث البراء **رضي الله عنه** الطويل وغيره «عليون في السماء السابعة»، وقال تعالى: ﴿ **كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴿٧﴾** ﴾ [المطففين: ٧]، وفي حديث البراء **رضي الله عنه** أن «سجين في الأرض السفلى»، وقال تعالى في شأن الجنة ﴿ **أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾** ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال في شأن النار ﴿ **أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾** ﴾ [آل عمران: ١٣١] وفي حديث أبي هريرة **رضي الله عنه** عند أحمد وغيره: «لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبريل، قال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه، فقال: وعزتك، لا

يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحجبت بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها فإذا هي قد حجبت بالمكاره، فرجع إليه، فقال: وعزتك، قد خشيت أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع، فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فرجع إليه، قال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها.

وفي حديث الكسوف يقول رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «رأيت الجنة والنار»، وأما أدلة الخلود فكم في القرآن من قوله تعالى: **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾**، وقوله: **﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** (١٦٧)، وقوله: **﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾**، وفي السنة حديث أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يجاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال فيشربون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾** [مريم: ٣٩]، أخرجه مسلم، إلى غير ذلك، وإنما ذكرت هذا تصحيحاً لعقائد المسلمين.

وفي هذه السورة بيان التوسل المشروع، وهو التوسل إلى الله **عَزَّجَلَّ** بأسمائه وصفاته وما في ذلك من المعاني البليغة، وكيف كانت المناسبة، إذا توسل إلى الله **عَزَّجَلَّ** بحمده على ألوهيته وربوبيته، وعلى جميع صفات كماله ونعوت جلاله، وكان ذلك بالتوسل بالاسم الأعظم المتضمن لجميع صفات الكمال، ثم باسم الرب الدال على الاطلاع والإحاطة وغير ذلك، ثم ثلث بالتوسل باسم الله **﴿الَّتِي تَحْتَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**

﴿١﴾، الدال على صفة الرحمة الواسعة، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾
فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾
 [الأعراف: ١٥٦]، وسواء كان ذلك بالتوسل بالرحمة العامة أو الرحمة الخاصة
 بالمؤمنين، ثم كان التوسل بعد ذلك باسمه الملك الدال على الموافاة والمجازاة
 والرفع والحفظ والإعزاز والإذلال، فكان في هذه الآيات أعظم التناسق والتناسب،
 ولهذا إذا رجعت إلى الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** فيما يرويه
 النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عن ربه **عَزَّجَلَّ** قال: «**إِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾**، قال الله تعالى: **حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾**، قال الله تعالى: **أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾﴾**، فكل هذه الأسماء
 والصفات دالة على حمد الله **عَزَّجَلَّ** إلا أن الفرق بين الحمد والثناء والمجد، مع أنها
 كلها حمد، وأن الثناء تكرر الحمد كما تقدم، والتمجيد هو الحمد لكن يكون
 بوصف الله **عَزَّجَلَّ** بأسماء العظمة، والحمد لله.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فتأويل قراءة من قرأ ذلك: ﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١﴾**﴾، أن الله
 المُلْك يوم الدين خالصًا دون جميع خلقه، الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكًا
 جبابرة ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفرادًا بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية
 فأيقنوا بقاء الله يوم الدين أنهم الصَّغَرَةُ الأذَلَّةُ، وأنَّ له - من دُونهم، ودون غيرهم -
 المُلْك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال جلَّ ذكره وتقدست أسماؤه في تنزيله:
 ﴿**يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾**﴾
 [غافر: ١٦]، فأخبر تعالى ذكره أنه المنفرد يومئذ بالملْك دون ملوك الدنيا، الذين صاروا
 يوم الدِّين من مُلْكهم إلى ذِلَّة وصغار، ومن دُنْياهم في المعاد إلى خسار) اهـ.

تتمة: جاء في الصحيحين عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال:

«**إِنْ أَخْنَعَ اسْمَ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْمَلَائِكَةِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ.**»

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "زاد المعاد" (٢/٣٤٠-٣٤١): (ولما كان الملك الحق لله وحده، ولا ملك على الحقيقة سواه كان أخنع اسم، وأوضعه عند الله، وأغضبه له اسم «شاهان شاه» أي: ملك الملوك وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل، والله لا يحب الباطل.

وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا «قاضي القضاة»، وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق، وهو خير الفاصلين الذي إذا قضى أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، ويلى هذا الاسم في الكراهة والقبح والكذب سيد الناس، وسيد الكل، وليس ذلك إلا لرسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خاصة كما قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»، فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره: إنه سيد الناس، وسيد الكل، كما لا يجوز أن يقول: إنه سيد ولد آدم) اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١٠/٧٢١): (وقيل يلتحق به أيضًا من تسمى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمن والقدوس والجبار وهل يلتحق به من تسمى قاضي القضاة أو حاكم الحكام اختلف العلماء في ذلك فقال الزمخشري في قوله تعالى أحكم الحاكمين أي أعدل الحكام وأعلمهم إذ لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل قال ورب غريق في الجهل والجور من مقلدي زماننا قد لقب أفضى القضاة ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر وتعقبه بن المنير بحديث أفضاكم علي قال فيستفاد منه أن لا حرج على من أطلق على قاض يكون أعدل القضاة أو أعلمهم في زمانه أفضى القضاة أو يريد إقليمه أو بلده ثم تكلم في الفرق بين قاضي القضاة وأفضى القضاة وفي اصطلاحهم على أن الأول فوق الثاني وليس من غرضنا هنا وقد تعقب كلام بن المنير علم الدين العراقي فصوب ما ذكره الزمخشري من المنع ورد ما احتج به من قضية علي بأن التفضيل في ذلك وقع في حق من خوطب به ومن يلتحق بهم فليس مساويًا لإطلاق التفضيل بالألف واللام قال ولا يخفى ما في

إطلاق ذلك من الجراءة وسوء الأدب ولا عبرة بقول من ولي القضاء فنعت بذلك فلذ في سمعه فاحتال في الجواز فإن الحق أحق أن يتبع) اهـ.

وتضمنت هذه الآيات بيان أنواع التوحيد الثلاثة:

النوع الأول: (توحيد الربوبية):

وهو إفراد الله **عَزَّوَجَلَّ** بأفعاله؛ ويسمى بالتوحيد العلمي، وهذا التوحيد فطري، قال تعالى: ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقرهم من الله زلفى) اهـ.

ولم ينكر الربوبية إلا شواذ من البشرية، ومع ذلك بينه الله **عَزَّوَجَلَّ** في القرآن بياناً شافياً كافياً مزيلاً لكل لبس وشك، وألزم من اعتقده وآمن به أن يقر بالالوهية؛ لأن الخالق الرازق المالك المدبر هو المستحق للعبادة على ما يأتي، ولا يجوز أن تصرف إلى غيره بحال.

قال تعالى مقررًا هذا الباب بدلالة الخلق والإيجاد ﴿**إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُعْشَىٰ أَيْلَ النَّهَارِ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال الله تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِيَتَلَمَّوْا أَنْ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾ [١٢].

وقال: ﴿**اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [١٢] لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَابَتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾ [الزمر: ٦٢-٦٣].

وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوِنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ قَمِيَدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ أَقْلًا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ٣]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١]، والأدلة في القرآن على أنه خالق العالم أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر.

وقال تعالى مبيناً ربوبيته بدلالة الملك: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُورِيُّ الْمَلِكِ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٦١].

وقال: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١].

وقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [الحديد: ٢].
وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦]، فهو المالك والملك إلى غير ذلك من الآيات الدالة على

عموم ملك الله تعالى، وأن كل من ملك شيئاً في هذا العالم فملكه قاصر، والمالك حقا هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ أَنشُرَ الْفُقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ

الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنَّ يَسْأَلُ يَدْبَهُكُمْ وَيَأْتِ بِخَاقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ [فاطر: ١٥-١٧]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَجْعَلُ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ [الحديد: ١-٣].

وقال تعالى مدللاً على تدبيره للعالم؛ علويّه وسفليّه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴿١﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ [الروم: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمَسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّيْحَانَ مُشْتَبِهًا وَعَیْرَ مُتَشَبِهًا أَنْظَرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٩].

ويدخل في ذلك قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُومًا مُّشْتَبِهَاتٍ لِّعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الرعد: ٢-٣].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَ الْكَبِيرَ فِيهِ يَلْتَبَتُونَ مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ الْوَيْلَ وَاللَّجِيمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل: ١٤-١٩]، وقال تعالى: ﴿يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وهكذا يتعرف الله **عَزَّجَلَّ** على عباده في هذا الكتاب الذي جعله يهدي للتي هي أقوم وإلى تحقيق هذا التوحيد ليؤدي إلى حسن التوكل على الله **عَزَّجَلَّ**، وذلك لعلم العبد وتيقنه أن الأمر لله **عَزَّجَلَّ** من قبل ومن بعد، وأنه تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾﴾ [البروج: ١٦]، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨١-٨٢].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَينَ بِهِمْ يَرْيَحُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ

بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٤﴾
[يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١١﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَالًا ﴿١٢﴾﴾
[نوح: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، فهو تعالى الخالق الرازق المالك المدبر لهذا العالم علويّه وسفليّه.

ومنها دلالة القرآن على أن الذي بيده النفع والضر هو الله **عَزَّجَلَّ**، قال الله تعالى:
﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، في آيات كثيرات فإن
الذي ينفع ويضر ويجلب ويدفع ويخفض ويرفع هو الله **عَزَّجَلَّ**، المالك لهذا العالم،
قال تعالى: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٧-
١٨]، بل إن الكفار على ما تقدم لم يكونوا يخالفون في إثبات هذا النوع من التوحيد، إذ
من المقرر في كل فطرة أن الله **عَزَّجَلَّ** هو المتفرد بملك هذا العالم والتصرف فيه؛
تعالى الله **عَزَّجَلَّ** عن قول الملحدين علوا كبيرا، فهو تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿١﴾﴾
[الرعد: ٩].

قال ابن كثير **رَحِمَهُ اللَّهُ**: ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿الْمُتَعَالِ﴾
﴿١﴾؛ أي: على كل شيء.

فسبحان الله الذي لا يعجزه شيء ولا يعزب عنه شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر: ٤٤]،
ويتلخص مما تقدم أن الدلائل على ربوبية الله **عَزَّجَلَّ** عائدة إلى أمرين:

الأول: دلالة الخلق والإيجاد والتكوين الدالة على القدرة والخلق والحكمة والإتقان والعلم.

الثاني: دلالة الإمداد بعد الإيجاد وهي لا تفارق الأولى إلا أن ذكرها مفردة تبين تصرف الله **عَزَّوَجَلَّ** في هذا العالم على أكمل وجه وأحسن تدبير.

قال تعالى: ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ أَلْمِيَّتُهُ أَحْيَيْنَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَيُّ لَّهُمُ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَدُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٣٣-٤٤]، هذه أمثلة ليزداد بها المؤمن إيمانًا وإلا فإنها ظاهرة جليلة لكل صاحب فطرة سوية، وبالله التوفيق.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾﴾ [الزمر: ٢١]، والآيات في هذا كثيرة.

النوع الثاني مما تضمنته هذه السورة: (توحيد الألوهية):

وهذا مأخوذ من عدة مواطن:

الأول: لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾، فهو دال على الألوهية.

الثاني: من قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

ومن أسمائه:

- توحيد الطلب.

- وتوحيد القصد.

- وتوحيد العبادة.

- والتوحيد العملي.

- وتوحيد النية.

وهو: أفراد الله **عَزَّوَجَلَّ** بالعبادة، أو قل أفراد الله **عَزَّوَجَلَّ** بأفعال المكلفين، وهو التوحيد الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل وشرع من أجله الجهاد، ومن أجل تحقيقه خلقت الجنة والنار، وانقسم الناس بسببه إلى مؤمنين وفجار، وهو حق الله **عَزَّوَجَلَّ** على العباد كما صح عن رسولنا الكريم **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**؛ محمد والحديث في الصحيحين عن معاذ وأنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

ولما كان هذا التوحيد هو الحق العظيم فقد بينه الله **عَزَّوَجَلَّ** في كتابه على أكمل وأوضح بيان، فأخبر أنه خلق العباد لتحقيقه فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأمر به جميع الناس فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأرسل من أجله الرسل قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأُنزل الله عزَّ وجلَّ به جميع الكتب قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأعظم القسط ملازمة التوحيد.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٥] يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [١٦] [المائدة: ١٥-١٦]، وأعظم نور هو التوحيد، وأعظم ظلمة هي الشرك، والصراط المستقيم يدخله ابتداءً التوحيد.

وبيَّن أنه شرع الجهاد لتحقيق هذا التوحيد فقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [٢٩] [التوبة: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، إلى غير ذلك.

وهذه الكلمة العظيمة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

﴿٣٥﴾ [الصفات: ٣٥]، وقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، وهدى القرآن إلى شروطها وبينها:

فأولها: (العلم)، قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

ثانها: (اليقين)، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥].

ثالثها: (الإخلاص)، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾ [الزمر: ٢].

رابعها: (الصدق)، قال تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

خامسها: (المحبة)، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

سادسها: (الانقياد)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١].

سابعها: (القبول)، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

ثامنها: (الكفر بالطاغوت)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهدى القرآن إلى هذه الشروط على أكمل وجه وأتم بيان حتى لم يدع لمحتج حجة.

وكم ساق من الأدلة والشواهد موضحة لمعناها وسائرة على مبناها؛ من تضمن
النفي والإثبات قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا
الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ
وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وغير ذلك مما في بابه.

وذكر لها من الأسماء الكثير؛ دلالة على عظم هذه الكلمة وهداية للناس إلى
محبتها والعمل بها، فسامها كلمة التقوى قال تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ
وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وسمها الكلمة قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي
عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨]، وسمها العروة الوثقى قال تعالى: ﴿فَقَدَّ
اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهي كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص والمثل
الأعلى على قول لأهل العلم، في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

ومن هدى القرآن بين نواقضها للتقوى وتحذر، وأذكر هنا أشهرها؛ وهو ما ذكره
الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نواقض الإسلام قال:

اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض:

الأول: (الشرك في عبادة الله تعالى)، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٢] ومن
ذلك دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والنذر والذبح لهم.

الثاني: (من جعل بينه وبين الله وسائط) يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم
فقد كفر إجماعاً.

الثالث: (من لم يكفر المشركين أو شك في كفرهم أو صحح مذهبهم كفر).

الرابع: (من اعتقد أن هدي غير النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يفضلون حكم الطواغيت على حكمه)، فهو كافر.

الخامس: (من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ولو عمل به فقد كفر)؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٩﴾ [محمد: ٩].

السادس: (من استهزأ بشيء من دين الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أو ثوابه أو عقابه كفر)، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

السابع: (السحر، ومنه الصرف والعطف)، فمن فعله أو رضي به كفر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا فَخْرُ فِتْنَةٍ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثامن: (مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين)، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٣٣﴾ [التوبة: ٢٣].

التاسع: (من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فهو كافر)؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥].

العاشر: (الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به)، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ دُكِرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ۝٢٢﴾ [السجدة: ٢٢].

ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف، إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطراً، وأكثر ما يكون وقوعاً، فينبغي للمسلم أن يحذرهما، ويخاف

منها على نفسه، نعوذ بالله من موجبات غضبه وأليم عقابه، وصلى الله على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلم.

وهذه أشهر النواقض وإلا فإن نواقض الإسلام قولية وفعلية واعتقادية(أهـ).

ومن هدى الله **عَزَّوَجَلَّ** لها أن أخبر بحال أصحابها في الدنيا والآخرة؛ دعوة إلى

العمل بها وبشارة لأهلها، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ

الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ

كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٧﴾ [النحل: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، فذكر الله تعالى طاعته؛ فهو أعم من ذكر اللسان.

وقال تعالى مخبراً عن حالهم في القبور: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ

وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا

إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةٌ جَهِيمٍ ﴿٩٤﴾ [الواقعة: ٨٨-٩٤].

ومن هدى القرآن للتوحيد أنه حذر من نقيضه الشرك، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا

اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿٣٦﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ

عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿١٥٩﴾ [الأنعام: ١٥٩]، في غير ذلك من الآيات، وأخبر عن

حال أصحاب الشرك مفصلاً موضعاً مبيناً، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾ [المائدة: ٧٤]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ

يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أُولَٰئِكَ نُعَذِّبُهُمْ بِمَا يَنْذَرُ فِيهِمْ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَهُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ [فاطر: ٣٦-٣٨].

[٣٨].

وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠]، إلى غير ذلك.

بينما جلي ما للمؤمنين الموحدين من النعيم المقيم ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾﴾ [القمر: ٥٤]، ولا تقوى إلا بالتوحيد: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبا: ٣١-٣٤]، وقال: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٠﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠١﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٢﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٣﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٤﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٥﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٦﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٧﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٨﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠٩﴾ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠-١١٠]، ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

وقال تعالى مبينًا حال الصنفين الموحدين وغيره: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ يَطوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ جَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٢٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٢٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْظُرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ مِنْ إِسْنِ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٥﴾﴾

فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأْتَهَنَّ الْيَأْفُوثُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
 جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾
 فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
 نَضَّخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَلَكَمَةٌ وَمِخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا
 تُكْذِبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي
 الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ لِنِسِّ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَيَايَ
 آءِ الْآءِ رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَيَايَ آءِ الْآءِ
 رَيْكَمَا تُكْذِبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ [الرحمن: ٤٣-٧٨]، إلى
 غير ذلك مما يطول به المقام.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي "مدارج السالكين" (٤٥٠/٣): (إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم) اهـ.

وقال رَحِمَهُ اللهُ فِي "إغاثة اللهفان": (وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن) اهـ.

فضل التوحيد:

فضائل التوحيد كثيرة منها:

١- أنه عبادة لرب العالمين، ومؤدي إلى مرضاته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ

مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
 أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٦٧﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، وهو
 رأس التقوى؛ إذ أن كلمة الإخلاص هي كلمة التقوى، قال تعالى: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ
 التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، وكم في القرآن من آيات بينات وأدلة
 واضحة تبين حال المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾
 وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾﴾ [النبا: ٣١-٣٥]، على ما
 يأتي بيانه في آخر مبحث.

٢- سبب الأمن، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ
 الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، والظلم هنا؛ الشرك على ما يأتي إن شاء الله.

٣- سبب للحياة السعيدة، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَى
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧]، وكل آية فيها عمل صالح، فالتوحيد داخل فيه دخولا أوليًا.

٤- سبب للتمكين والاستخلاف، قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ
 لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا
 وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

٥- سبب لعصمة الدم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ
 جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ٩٣]،
 وقد ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أوجه كثيرة قوله: «أمرت أن
 أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه
 وحسابه على الله» متفق عليه.

٦- سبب لحفظ المال، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ٢٩]، وقد تقدم الحديث وفيه «فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله» متفق عليه.

٧- سبب لرضى الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وعند مسلم: «إن الله يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً»، ومعلوم أن ما رضىه الله **عَزَّوَجَلَّ** فهو يحبه ويثيب عليه.

٨- سبب للتقوى، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، والتقوى سبب للدرجات العلى على ما تقدم ويأتي، وسبب للكرامة ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٩- سبب لمغفرة الذنوب قال: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي حديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الترمذي: «يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة».

١٠- سبب لدخول الجنة والنجاة من النار ومن عذاب القبر، وفي الحديث: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» أخرجه مسلم عن عثمان **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وفيهما: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله».

١١- سبب لبركة الأرزاق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥١﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٢﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]، وكم من أمم كانت في غاية من القلق والذلة فلما استقامت على توحيد الله **عَزَّوَجَلَّ** تغير حالها، ويقول: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا وَبِزْدِكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾ [هود: ٥٦]،
وأول ما يدخل في الاستغفار تحقيق التوحيد وتجريده مما يشوبه من الشراكيات.

١٢- سبب لتفريغ الكرب، ولهذا جاء في قصة ذي النون **عَلَيْهِ السَّلَامُ** أنه توسل إلى الله بالتوحيد فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الأنبياء: ٨٧]، قال الله: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَبْنَا لَهُ مِنَ الْعَرْمِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وفي الدعاء المحفوظ عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض، ورب العرش الكريم»، متفق عليه عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**.

١٣- أعظم حسنة، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ [البقرة: ٨٢]، ويوضح ذلك حديث عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند الترمذي: «إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فقال: إنك لا تظلم، قال: «فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء».

وحديث عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند أحمد في وصية نوح لولده، قال **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: «إن نبي الله نوحاً **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات

السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بين لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة، قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»، قال: قلت أو قيل يا رسول الله: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا»، قال: الكبر هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قيل: يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه الحق، وغمص الناس».

١٤- أفضل ما يلهج به الإنسان، فعند الترمذي من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله».

١٥- من حقه دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، وعند الشيخين من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «عرضت علي الأمم، فرأيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ومعه الرهيط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله، وذكروا أشياء فخرج عليهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فقال: «ما الذي تخوضون فيه؟» فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم

يتوكلون»، فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنت منهم؟» ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عكاشة».

١٦- تثبيت المؤمن تبع له، قال الله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

١٧- من فضله وجوب تقديمه في الدعوة وغيرها، وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما بعث معاذًا إلى اليمن، قال: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عَزَّجَلَّ، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها، فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم»، وقد أجمع الرسل على وجوب تقديمه، وقصصهم في القرآن طافح بذلك، قال الله عَزَّجَلَّ عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥١﴾ [الأعراف: ٥٩]، وهكذا هود يقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الأعراف: ٦٥]، وجميع الرسل على هذا المنوال كما قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

١٨- سبب لقبول العمل، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ [المائدة: ٢٧]، بينما قال في الكفار: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ﴿٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، فلا يقبل الله من عامل عملاً ما لم يكن موحدًا، وفي الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم،

ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

١٩- ومما يدل على فضله المنزلة الرفيعة لأهله عند الله **عَزَّوَجَلَّ**، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَجَعَلَ الْمُسَيِّئِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [٣٥] مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، وفي البخاري عن سهل قال: مر رجل على رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع، فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

٢٠- مما يدل على فضله اتفاق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم على الدعوة إليه.

٢١- أن الله **عَزَّوَجَلَّ** شرع الجهاد لإعلاء هذه الكلمة، ولو لم تكن في المنزلة الرفيعة ما كان ثمنها إزهاق النفس التي هي أعلى شيء عند الإنسان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ الَّتِي بِالْذِّمَّةِ بِأَيْمَانِهِمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وفضائل التوحيد كثيرة عند التفصيل ولكن هذه إشارات وإجماليات تكون طريقاً إلى غيرها.



فصل: خطر الشرك

الشرك هو الذنب العظيم الذي لا يغفره الله ولا يرضاه، وذلك لأن فيه من التعدي على حق الله **عَزَّوَجَلَّ** ما لا يجوز عقلاً ولا شرعاً ولا فطرةً ولا قدرًا، ولذلك وصفه الله **عَزَّوَجَلَّ** بعدة أوصاف منها:

١- أنه الذنب العظيم، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان: ١٣]، وفي الحديث: أي الذنب أعظم؟، قال: « **أن تجعل لله ندا وهو خلقك** »، أخرجاه عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

٢- أنه الذنب الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ [النساء: ٤٨].

٣- أنه يخلد صاحبه في النار، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْكُفْرِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٠]، وقال ﴿ **مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَدَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ** ﴾ ﴿٧٦﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿ **لَا تَفْتَحْ لَهُمُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ** ﴾ ﴿٥٠﴾ [الأعراف: ٤٠].

٤- أنه الحياة الضنك، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ ﴿١٢٦﴾ [طه: ١٢٦]، وأشد أنواع الإعراض هو إعراض المشركين والكافرين.

٥- أنه محبط لجميع الأعمال الصالحة إن وجدت، قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ ﴿٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ ﴿٨١﴾ [البقرة: ٨١].

٦- ووصف أصحابه بأنهم لا يعقلون في عدة مواطن.

٧- ووصف أصحابه بأنهم لا يفقهون في عدة آيات.

٨- ووصف أصحابه بأنهم لا يعلمون في عدة آيات، ومن هذا حاله فهو أجهل الناس بربه وبنفسه.

٩- وهو المذموم، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعَدَ مَذْمُومًا فُحْدُولًا﴾ ﴿٢٢﴾ [الإسراء: ٢٢].

١٠- سبب للعن والطرده من رحمة الله، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وقال: ﴿لَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقال: ﴿فَلَعَنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩].

١١- وسمى أصحابه بالكاذبين والمكذبين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ [الزمر: ٣٦].

١٢- وهو المعلوم المدحور: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَأْتِيَ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿٣٦﴾ [الإسراء: ٣٩].

١٣- سمي أصحابه بالمتكبرين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ [الصفات: ٣٥]، ﴿إِلَّا إِلِيلَيْسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ [ص: ٧٤]، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [الزمر: ٦٦]، والكبر بطل الحق كما صح عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مُسْلِمٍ وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ أَحْمَدَ.

١٤- وسماهم بالمعرضين قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿٧﴾ [الجن: ١٧]، ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ﴿٥٠﴾ [القمر: ٤]، وقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ

مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ [يس:٤٦]، وفي حديث أبي واقد الليثي: «وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»، أخرجه البخاري.

١٥- أنهم غافلون، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ

﴿٧٨﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس:٧]، وقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْغَافِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:١٠٨]، وقال: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء:١].

١٦- شبههم بالأنعام بل هم أضل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَيْبًا مِنَ الْبِنِّ

وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا

أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

١٧- صاحب الشرك حيران، قال تعالى: ﴿كَأَلَىٰ أَسْتَهْوَيْتُهُ الشَّيْطَانُ فِي

الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ اسْتِنَاءً قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ

وَأَمْرًا لِلشَّيْطَانِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام:٧١].

١٨- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة:١٧٦]، وهذا وصف لهم في آيات

كثيرات، صم عن سماع الحق، وبكم عن النطق به، وعمي عن معرفته، وهم لا

يعقلونه مع علمهم بكثير من أمور الدنيا: ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ

الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الروم:٧].

١٩- طبع الله على قلوبهم بسبب إعراضهم، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ

قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١٠٨]، وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا

قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء:١٥٥]، وقال: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

[التوبة:٩٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف:١٠٨]، وقال:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٩]، وقال: ﴿وَطَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ [التوبة: ٨٧]، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [النحل: ١٠٨]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]، ووصفت قلوبهم بأقبح الصفات؛ منها: أنها غلف ومريضة وعمي ولا تفقه ولا تعقل وعليها أقفال وأنها تشمئز من سماع الحق إلى غير ذلك.

٢٠- وهم الضالون والمغضوب عليهم، قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧]، وقال: ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ﴾ [الفتح: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النساء: ١٦٧]، في آيات كثيرات.

٢١- وهم الكافرون في آيات كثيرات.

٢٢- وهم المشركون في آيات كثيرات.

٢٣- وهم شر البرية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

وكم لهم من الأوصاف الذميمة في كتاب ربنا وسنة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ بيانا لضلالهم وشرهم وحالهم في الدنيا والآخرة، فلا أشر منهم وأضل وأكذب وأظلم، فقد ضيعوا حق الله ونسوه فهم لما سواه أنسى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِوهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩].

النوع الثالث: مما دلت عليه هذه السورة وتضمنته؛ (توحيد الأسماء والصفات):

وبيانه في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ﴾، و﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، ﴿رَبِّ الْمَلَكِئِاتِ ﴿١﴾﴾، ﴿مَلِكٍ﴾، ﴿مَلِكٍ﴾، وكذا صفة الغضب وغير ذلك.

وطريقة أهل السنة في باب الأسماء والصفات؛ ما قرره شيخ الإسلام وغيره.

قال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "التدمرية": (فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسله؛ نفيًا وإثباتًا فَيُثَبَّتَ اللهُ ما أثبتته لنفسه، ويُنفَى عنه ما نفاه عن نفسه.

وقد عُلِمَ أن طريقة سلف الأمة وأئمتها، إثبات ما أثبتته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه - مع ما أثبتته من الصفات - من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُؤَلِّقُ فِي النَّارِ خَبِيرًا مِّنْ يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [فصلت: ٤٠]، فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتا بلا تشبيه، وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ففي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ رد للإلحاد والتعطيل.

والله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بعث رسله بإثبات مفصّل، ونفي مجمل، فأثبتوا له الصفات على وجه التفصيل، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، قال أهل اللغة: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ أي نظيرًا يستحق مثل اسمه، ويقال مُسَامِيًّا يُسَامِيهِ، وهذا معنى ما يروى عن ابن عباس: هل تعلم له مثلًا أو شبيهًا.

وقال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣٠﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤١﴾﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿رَوَى النَّاسُ مَن

يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجْبُونُهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥]،
وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِبْتِ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم مَبْنَينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ
وَتَكَلَّى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٦٦﴾ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ
وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأنعام: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ
مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١-٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ الرِّيبَ الْبَنَاتِ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٦٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا
وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٧٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٧١﴾ وَلَدَ اللَّهِ وَإِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٧٢﴾
أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٧٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٧٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٦﴾
فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ أَنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٧٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٧٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [سورة
الصفات: ١٦٩-١٧٠]. إلى قوله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨١﴾ وَسَلَّمَ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨٢﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢].

فسبح نفسه عما يصفه المفترون المشركون، وسلم على المرسلين، لسلامة ما
قالوه من الإفك والشرك، وحمد نفسه إذ هو سبحانه المستحق للحمد بما له من
الأسماء والصفات وبديع المخلوقات.

وأما الإثبات المفصل، فإنه ذكر من أسمائه وصفاته ما أنزله في محكم آياته،
كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ
حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝١﴾، ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ۝٥﴾، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١١﴾، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٤﴾، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٧﴾، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٤-١٦]، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٣-٤].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۝٢٨﴾ [محمد: ٢٨].

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ۝٥٤﴾، وقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۝١٣﴾ [التوبة: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٢﴾ [النساء: ٩٣].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾ [غافر: ١٠].

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١].

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١﴾ [فصلت: ١١].

وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَتَدْبِرُهُ مِنْ جَانِبِ الظُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّقْنَاهُ يَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٢] هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

إلى أمثال هذه الآيات والأحاديث الثابتة عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في أسماء الرب تعالى وصفاته، فإن في ذلك من إثبات ذاته وصفاته على وجه التفصيل، وإثبات وحدانيته بنفي التمثيل ما هدى الله به عباده إلى سواء السبيل، فهذه طريقة الرسل صلى الله عليهم أجمعين) اهـ.

وقال في "الواسطية": (ومن الإيمان بالله:

- الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه.

- وبما وصفه به رسوله محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**؛ من غير تحريف ولا تعطيل،

ومن غير: تكيف ولا تمثيل، بل يؤمنون بأن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ

الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فلا ينفون عنه: ما وصف به نفسه.

ولا يحرفون: الكلم عن مواضعه.

ولا يلحدون في: أسماء الله، وآياته.

ولا يمثلون: صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه؛ لا سمي له، ولا كفو له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**؛ فإنه سبحانه؛ أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلا، وأحسن حديثا من خلقه.

- ثم رسله صادقون مصدقون؛ بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون؛ ولهذا قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٥﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٦﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصفات: ٧٥-٧٦-٧٧]، فسيح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسول، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين: النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاءت به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

وقد دخل في هذه الجملة: ما وصف به نفسه في "سورة الإخلاص" التي تعدل ثلث القرآن؛ حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١-٤].

- وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه، حيث يقول: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، - أي: لا يكرثه ولا يتقله -؛ ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلة؛ لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح) اهـ.

ثم مثل لمجموعة من أسماء الله وصفاته مشيرا إلى ثبوت ما عداها، وقد تكلمت عن هذا النوع من التوحيد في عدة كتب من كتبي لحاجة الناس إليه ولأن الله عز وجل

عرّف خلقه بها ليعرفوه وليتبعوا له بها، وقد تضمنت هذه السورة شيئاً من ذلك على ما تقدم بيانه وبالله التوفيق^(١).



(١) نقلت ما تقدم ذكره من أنواع التوحيد وفضله وخطر الشرك؛ من كتابي «فتح المجيد لبيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد».



أقسام التوسل

وفي هذه الآيات من العلوم حاجة العبد إلى التوسل بأسماء الله وصفاته، إذ هي من أعظم أسباب استجابة الدعاء؛ بل أعظمها على الإطلاق، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

قال القرطبي رحمه الله: قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهديني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، هكذا، فإن دعوت باسم عام قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني، وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت: يا الله، فهو متضمن لكل اسم، ولا تقول: يا رزاق اهديني، إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير، قال ابن العربي: وهكذا، رتب دعائك تكن من المخلصين) اهـ.

وفي الحديث أن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** سمع رجلاً يدعو ولم يشن على الله ولم يصل على النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، فقال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «عجل هذا»، أخرجه أبو داود، وقد تقدم، وكان من دعاء النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض»، إلى غير ذلك من الأحاديث.

ومنها: حديث عائشة **رضي الله عنها**: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك».

ومن أنواع التوسل المشروع: (التوسل بالعمل الصالح)، قال الله **عز وجل** مخبراً عن دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وفي

حديث ابن عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «انطلق ثلاثة رهط من كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغقب قبلها أهلاً، ولا مالا فنأى بي في طلب شيء يوماً، فلم أرح عليها حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتها نائمين وكرهت أن أغقب قبلها أهلاً أو مالا، فلبثت والقدح على يدي، أنتظر استيقاظها حتى برق الفجر، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج»، قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن نفسها، فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»، قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراً، فأعطيتهم أجراً غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون» متفق عليه.

ومنها: التوسل بدعاء الرجل الصالح، والأمثلة على ذلك كثيرة وبالله التوفيق.

فعلى المسلم أن يحقق التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، ولا يكون ذلك إلا بعد العلم، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم قبل القول والعمل، وقلنا بأن التوحيد لا يمكن تحقيقه إلا مع العلم لأن أكثر الناس يجهلون معنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ بل زد على ذلك أنهم قد يفسرونها بما يكون سبباً للاعتقادات الباطلة، مثل قولهم (لا موجود إلا الله)، أو (لا معبود إلا الله)، وهكذا تفسيرهم لها بـ(أن لا خالق إلا الله) و(لا رازق إلا الله)، ومعناها الحق (لا معبود بحق إلا الله)، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَّ مَا يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

هذا إخبار بحال الموحد مع الله **عَزَّجَلَّ** أنه يعبد الله **عَزَّجَلَّ** حال كونه مستعينا به على طاعته، إذ لا حول ولا قوة إلا بالله **عَزَّجَلَّ**.

قال الشوكاني في فتح القدير: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قراءة السبعة وغيرهم بتشديد الياء، وقرأ عمرو بن فائد بتخفيفها مع الكسر وقرأ الفضل والرقاشي بفتح الهمزة وقرأ أبو السوار الغنوي (هياك) في الموضوعين وهي لغة مشهورة.

والضمير المنفصل هو (يا) وما يلحقه من الكاف والهاء والياء هي حروف لبيان الخطاب والغيبة والتكلم، ولا محل لها من الإعراب كما ذهب إليه الجمهور، وتقديمه على الفعل لقصد الاختصاص، وقيل للاهتمام، والصواب أنه لهما ولا تزام بين المقتضيات، والمعنى: نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل.

قال ابن كثير: وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وعدل عن الغيبة إلى الخطاب لقصد الالتفات، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى

آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وأكثر إيقاظاً له كما تقرر في علم المعاني، والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه وعن جنسه من العباد، وقيل: إن المقام لما كان عظيماً لم يستقل به الواحد استقصاراً لنفسه واستصغاراً لها، فالمجيء بالنون لقصد التواضع لا لتعظيم النفس وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية، وتقديم الوسائل سبب لتحصيل المطالب، وإطلاق الاستعانة لقصد التعميم) اهـ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (العبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبغير معبد أي

مذل، وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف.

وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحرص أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل

إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهذا كما

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض

إلى الله عَزَّجَلَّ، وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: ﴿فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ

عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَأَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ

تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]،

وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وتحول الكلام من

الغيبية إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب

وحضر بين يدي الله تعالى فلماذا قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي هذا

دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته

الحسنى وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك

وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت أن رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وفي صحيح مسلم من

حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٣﴾ قال: مجدني عبدي - أو قال فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٤﴾ قال فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٥﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٦﴾ قال: فهو لاء لعبدي ولعبدي ما سأل».

وقال الضحاك: عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾؛ يعني إياك نوحده ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك وإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها.

وقال قتادة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم، وإنما قدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ لأن العبادة له هي المقصودة، والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم تقديم ما هو الأهم فالأهم والله أعلم.

فإن قيل: فما معنى النون في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾ فإن كانت للجمع فالداعي واحد وإن كانت للتعظيم فلا يناسب هذا المقام؟ وقد أجيب بأن المراد من ذلك الإخبار عن جنس العباد والمصلي فرد منهم ولا سيما إن كان في جماعة، أو إمامهم فأخبر عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين بالعبادة التي خلقوا لأجلها وتوسط لهم بخير، ومنهم من قال: يجوز أن تكون للتعظيم، قيل: إذا كنت داخل العبادة فأنت شريف وجاهك عريض فقل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٥﴾، وإن كنت خارج العبادة فلا تقل نحن ولا فعلنا ولو كنت في مائة ألف أو ألف ألف لاحتياج الجميع إلى الله **عَزَّ وَجَلَّ** وفقرهم إليه، ومنهم من قال: إياك نعبد ألطف في

التواضع من إياك عبدنا لما في الثاني من تعظيم نفسه من جعله نفسه وحده أهلاً لعبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبده حق عبادته ولا يشني عليه كما يليق به، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

وقد سمى الله رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** بعبدته في أشرف مقاماته فقال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ**﴾ [الكهف: ١]، ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾ [الجن: ١٩]، ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا**﴾ [الإسراء: ١]، فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشدته إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول: ﴿**وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنكَ يُضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾**﴾ [الحجر: ٩٧-٩٩] اهـ.

وللإمام ابن القيم كلام نفيس على هذه الآية، فقال في «المدارج» (١/٧٤-٨٠):
 (وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد، حتى قيل: أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن، وجمع معاني القرآن في المفصل، وجمع معاني المفصل في الفاتحة، ومعاني الفاتحة في ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾**﴾ [الفاتحة: ٥].

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين، فنصفهما له تعالى، وهو ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾**﴾. وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه.

والعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد أي مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محبباً خاضعاً، ومن

هاهنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية، والمنكرون لكونه محبوبا لهم، بل هو غاية مطلوبهم، ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم منكرين لكونه إلهها، وإن أقروا بكونه ربًا للعالمين وخالقا لهم، فهذا غاية توحيدهم، وهو توحيد الربوبية الذي اعترف به مشركو العرب، ولم يخرجوا به عن الشرك، كما قال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٤ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ٨٥ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ٨٦ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ٨٧ ﴿قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوَتْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٨٨ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ ٨٩ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره، كما أنه لا خالق غيره، ولا رب سواه.

والاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغناؤه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به.

والتوكل معنى يلتئم من أصليين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ تَعَبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وهذان الأصلان وهما التوكل، والعبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَتَبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ٥﴾ [المزمل: ٨-٩].

السادس: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ ٣٥﴾ [الرعد: ٣٥].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ...

إذا عرفت هذا، فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام: أجهلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم، وطلبهم منه أن يعينهم عليها، ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الرب **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لحبه معاذ بن جبل **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، فقال «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب إسعافه بهذا المطلوب، وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه، فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ومقابل هؤلاء القسم الثاني، وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به، فلا عبادة ولا استعانة، بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السماوات والأرض يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمد هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه عدوه إبليس ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته، كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عوناً على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤه له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه، فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا حمله على الأقدار وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياح لفرصته ❀❀ حتى إذا فات أمر عاتب القدرًا
فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي، والأمر ليس إلي؟ والعاقل خصم نفسه، والجاهل خصم أقدار ربه.

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة، بل استخارة من لا علم له

بمصالحه، ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرد عليه أمره.

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تَكْفُرُونَ الْآيَاتِ ﴿١٧﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي، ولكنه ابتلاء مني، وامتحان له أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفري فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط؟.

فرد الله سبحانه علي من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي، فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتري على المؤمن لا لإهاتته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد. فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥] اهـ.

وله كلام نفيس بعد هذا في نفس الموطن.

ومنه قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والتوكل معنى يلتئم من أصلين: من الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، وهذان الأصلان وهما التوكل، والعبادة قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع، قرن بينهما فيها، هذا أحدها.

الثاني: قول شعيب ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

الثالث: قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

الرابع: قوله تعالى حكاية عن المؤمنين ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤].

الخامس: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨-٩].

السادس: قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ [الرعد:٣٠].

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين، وهما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] اهـ.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، شامل لجميع أنواع العبادة سواء كانت القولية أو الفعلية أو الاعتقادية، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال والمعتقدات كما عرفه بذلك شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى.

وقال ابن الأمير الصنعاني في "تطهير الاعتقاد": (الأصل الخامس: أن العبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل ولم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم فكان حقيقا بأقصى غاية الخضوع كما في «الكشاف».

ثم إنَّ رأسَ العبادة وأساسها التوحيدُ اللهُ الذي تفيده كلمته التي إليها دعت جميع الرسل، وهي قول (لا إله إلا اللهُ)، والمراد اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها، لا مجرد قولها باللسان.

ومعناها: إفراد الله بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كلِّ معبودٍ دونه، وقد علم الكفار هذا المعنى؛ لأنَّهم أهلُ اللسان العربي، فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَبِعَدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

إذا عرفتَ هذه الأصول فاعلم أنَّ الله تعالى جعل العبادة له أنواعًا:

اعتقادية: وهي أساسها، وذلك أن يعتقد أنَّه الربُّ الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، ويده النفع والضرر، وأنَّه الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلاَّ بإذنه، وأنَّه لا معبود بحق غيره، وغير ذلك من لوازم الإلهية.

ومنها لفظية: وهي النطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر ولم ينطق بها لم يحقن دمه ولا ماله، وكان كإبليس، فإنَّه يعتقد التوحيد، بل ويُقرُّ به كما أسلفناه عنه، إلاَّ أنَّه لم يمثّل أمر الله بالسجود فكفر، ومن نطق بها ولم يعتقد حقن ماله ودمه وحسابه على الله، وحكمه حكم المنافقين.

وبدنية: كالقيام والركوع والسجود في الصلاة، ومنها الصوم وأفعال الحج والطواف.

ومالية: كإخراج جزء من المال امتثالاً لما أمر الله تعالى به، وأنواع الواجبات والمندوبات في الأموال والأبدان والأفعال والأقوال كثيرة، لكن هذه أمهاتها.

وإذا تقرَّرت هذه الأمور، فاعلم أنَّ الله تعالى بعث الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى آخرهم يدعون العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، لا إلى إثبات أنَّه خلَقهم ونحوه، إذ هم مقرُّون بذلك، كما قررناه وكررناه، ولذا قالوا: ﴿أَجَعْتْنَا لَتَعْبُدَ

اللَّهِ وَحْدَهُ؛ أي: لنفرده بالعبادة ونخصه بها من دون آلهتنا، فلم ينكروا إلا طلب الرسل منهم أفراد العبادة لله، ولم ينكروا الله تعالى، ولا قالوا إنه لا يعبد، بل أقروا بأنه يعبد، وأنكروا كونه يفرد بالعبادة، فعبدوا مع الله غيره، وأشركوا معه سواه، واتخذوا معه أندادًا، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وأنتم تعلمون أنه لا ند له، وكانوا يقولون في تلييتهم للحج: «لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، وكان يسمعهم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عند قولهم «لا شريك لك» فيقول: «قد قد»؛ أي: أفردوه **جَلَّ جَلَالُهُ** لو تركوا قولهم: «إلا شريكاً هو لك»، فنفس شركهم بالله تعالى إقرار به تعالى.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شُرَكَاءِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]، فنفس اتخاذ الشركاء إقرار بالله تعالى، ولم يعبدوا الأنداد بالخضوع لهم والتقرب بالنذور والنحر لهم؛ إلا لاعتقادهم أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم لديه.

فأرسل الله الرسل تأمرهم بترك عبادة كل ما سواه، وتبين أن هذا الاعتقاد الذي يعتقدونه في الأنداد باطل، وأن التقرب إليهم باطل، وأن ذلك لا يكون إلا لله وحده، وهذا هو توحيد العبادة، وقد كانوا مقرين - كما عرفت في الأصل الرابع - بتوحيد الربوبية، وهو أن الله هو الخالق وحده والرازق وحده.

ومن هذا تعرف أن التوحيد الذي دعتهم إليه الرسل من أولهم وهو نوح **عَلَيْهِ السَّلَام**، إلى آخرهم وهو محمد بن عبد الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، هو توحيد العبادة، ولذا تقول لهم الرسل: ﴿أَلَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وقد كان المشركون منهم من يعبد الملائكة ويناديهم عند الشدائد، ومنهم من يعبد أحجاراً ويهتف بها عند الشدائد، وهي في الأصل صور رجال صالحين كانوا

يحبونهم ويعتقدون فيهم، فلما هلكوا صوروا صورهم تسلياً بها، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم، ثم زاد الأمد طويلاً فعبدوا الأحمجار، ومنهم من يعبد المسيح، ومنهم من يعبد الكواكب، ويهتف بها عند الشدائد، فبعث الله محمداً **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** يدعوهم إلى عبادة الله وحده، بأن يفرده بالعبادة كما أفرده بالربوبية، بربوبيته للسموات والأرض، وأن يفرده بمعنى ومؤدى كلمة «**لا إله إلا الله**»، معتقدين لمعناها، عاملين بمقتضاها، وأن لا يدعوا مع الله أحداً، وقال تعالى: ﴿**لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ**﴾ [الرعد:١٤]، وقال تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَوَكَّلُوا إِن كُنتم مَّؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة:٢٣]، أي: من شرط الصدق في الإيمان بالله أن لا يتوكلوا إلا عليه، وأن يفرده بالتوكل كما يجب أن يفرده بالدعاء والاستغفار، وأمر الله عباده أن يقولوا ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، ولا يصدق قائل هذا إلا إذا أفرده بالعبادة تعالى، وإلا كان كاذباً منهياً عن أن يقول هذه الكلمة؛ إذ معناها: نخصك بالعبادة ونفردك بها دون كل أحد، وهو معنى قوله: ﴿**فَإِيَّائِي فَاعْبُدُونِ**﴾ [العنكبوت:٥٦]، ﴿**وَإِيَّائِي فَاتَّقُونِ**﴾ [البقرة:٤١]؛ لما عرف من علم البيان أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي: لا تعبدوا إلا الله ولا تعبدوا غيره، ولا تتقوا إلا الله ولا تتقوا غيره، كما في "الكشاف".

فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له، والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله وحده، والاستغاثة والاستعانة بالله وحده، واللجوء إلى الله والندى والنحر له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع والقيام تذلاً لله تعالى، والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب والحلق والتقصير كله لا يكون إلا لله **عَزَّوَجَلَّ**، ومن فعل شيئاً من ذلك لمخلوق حي أو ميت أو جماد أو غيره، فقد أشرك في العبادة، وصار من تفعل له هذه الأمور إليها لعبادته، سواء كان ملكاً أو

نبيًا أو وليًا أو شجرًا أو قبرًا أو جنيًا أو حيًا أو ميتًا، وصار العابد بهذه العبادة أو بأي نوع منها عابدًا لذلك المخلوق مشركا بالله، وإن أقر بالله وعبده، فإن إقرار المشركين بالله وتقربهم إليه لم يخرجهم عن الشرك، وعن وجوب سفك دمائهم وسبي ذراريهم وأخذ أموالهم غنيمة، فالله تعالى أغنى الشركاء عن الشرك، لا يقبل عملا شورك فيه غيره، ولا يؤمن به من عبد معه غيره) اهـ.

وهذا الذي ذكره ابن الأمير **رَحْمَةُ اللَّهِ** بالنظر إلى العبادة من جهة الفعل، بينما لو أردنا التفريع أكثر فإن العبادة تكون من جهة الترك، فتارك المحرم أو المكروه -لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** شرع تركه- مأجور غير مأزور؛ بل ويعتبر عابدا لله **عَزَّوَجَلَّ** في ذلك، وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: عن محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: «إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها، فأنا أكتبها بعشر أمثالها، وإذا تحدث بأن يعمل سيئة، فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها، فأنا أكتبها له بمثلها»، وقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «قالت الملائكة: رب، ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به، فقال: ارقبه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنها تركها من جراي»، أخرج بهذا اللفظ مسلم (١٢٩)، وربما جرت العبادة في الأحكام الخمسة فتكزن شاملة لكل فعل فعله العبد وكل نهي تركه العبد من جراء الله **عَزَّوَجَلَّ**.

قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "المدارج": (ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كملها كمل مراتب العبودية.

وبيانها أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح) اهـ.

ثم انطلق **رَحْمَةُ اللَّهِ** في تفصيلها تفصيلاً موسعاً وباللغة التوفيق .

وعبادة الله **عَزَّوَجَلَّ** هي لب وسر وجود هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، معنى 'يعبدون' يوحّدون، وهي دعوة جميع

الرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا

الطَّغُوتَ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهي أمر الله **عَزَّوَجَلَّ** لجميع الناس: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ [البقرة: ٢١]، وهي قضاء

الله وحكمه وأمره، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿٢٣﴾

[الإسراء: ٢٣]، وهي أمر الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴿٣٦﴾

[النساء: ٣٦]، وهي وصية الله **عَزَّوَجَلَّ**، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا

عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمَائِي

مَنْ نَزَرْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ كُفْرًا وَمَنْ كَفَرَ بِهِ لَعَنَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ [الأنعام: ١٥١]،

وهي سبيل المرشدين: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١١٠﴾ [الحجر: ٩٩]، إلى غير

ذلك مما يذكر في هذا الباب العظيم، وقد بينت ذلك بتوسع وتفريع والحمد لله؛ في

كتابي هداية القرآن للتوحيد.

ومن السنة: أنها حق الله **عَزَّوَجَلَّ** على العبيد، ففي الصحيحين عن معاذ بن جبل

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على

العبيد وما حق العبيد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم، فكررها ثلاثاً، قال: «حق الله

على العبيد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العبيد على الله أنهم إن فعلوا ذلك أن لا

يعذبهم.»

وفي الصحيحين عن أبي أيوب: أن أعرابياً عرض لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته - أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله - أو يا محمد - أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لقد وفق، أو لقد هدي»، قال: كيف قلت؟ قال: فأعاد، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دع الناقة»، واتفقا عليه بنحوه عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة وحج البيت، وصوم رمضان»، والأحاديث في هذا الباب لا تكاد تنتهي لكثرة ما دعا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إلى هذا الأمر العظيم، كيف لا وهو سبب رضا الله عن العبد في الدارين.

ففي مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

شروط قبول العبادة:

وقبول العبادة أي كانت متوقفة على شرطين وهما:

- الإخلاص لله عَزَّجَلَّ بالتوحيد، قال الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا أَمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۗ﴾ [الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، وفي الصحيحين عن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إنما الأعمال بالنية وإنما لكل امرئ ما

نوى»، وفي مسلم عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»، والأحاديث في الباب كثيرة يعسر حصرها، وسنخرج عن الموضوع. ويدل عليه هنا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فهي دالة على الإخلاص بأوضح عبارة وأحسن بيان على ما تقدم بيانه.

٢- والشرط الثاني هو: المتابعة لرسول الله متابعة لرسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إذ يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُخَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»، متفق عليه عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، وفي رواية لمسلم «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، وسيأتي بيان هذا الشرط في الكلام على قول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: أي: نستعينك يا الله على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وذلك لأن العبد عاجز عن كل عمل لم يقدره الله **عَزَّوَجَلَّ** عليه، والاستعانة بعبادة جليلة وصرافها لغير الله **عَزَّوَجَلَّ** فيما لا يقدر عليه إلا الله **عَزَّوَجَلَّ** شرك أكبر مخرج من الملة، وقد قال الله **عَزَّوَجَلَّ** مخبراً عن موسى **عَلَيْهِ السَّلَام** قوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]، ومن أسمائه تعالى المستعان، قال تعالى: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، وكان من دعاء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «اللهم أعني على ذكرك وشركك وحسن عبادتك»، أخرجه أحمد عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وغيره، وكان يقول كما في حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: «رب

أعني ولا تُعن عليّ»، وقال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن»، وفي خطبة الحاجة: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه»، ومعلوم ما في قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، من تحقيق ذلك حتى كان من فضلها أنها كنز من كنوز الجنة، كما جاء عن أبي موسى **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في الصحيحين.

وهذه الآية دالة على عظم التوكل على الله **عَزَّجَلَّ** والاعتماد عليه ومعلوم منزلته، حتى قال الله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿**وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي كافيه ومعينه، وفي هذا من بيان رحمة الله بعباده ما تعجز الأقلام عن تسطيره، إذ أن العبد يعبد الله **عَزَّجَلَّ** بإعانتة له تعالى ثم يأجره على ذلك: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ**﴾ [النور: ٢١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في "جامع العلوم والحكم": (فالعبد محتاج إلى الاستعانة بالله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات كلها في الدنيا وعند الموت وبعده من أهوال البرزخ ويوم القيامة، ولا يقدر على الإعانة على ذلك إلا الله **عَزَّجَلَّ**، فمن حقق الاستعانة عليه في ذلك كله أعانه، ومن ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكَلِهَ اللهُ إلى من استعان به فصار مخذولا، عاجز عن الاستقلال بجلب مصالحه، ودفع مضاره، ولا معين له على مصالح دينه ودنياه، إلا الله **عَزَّجَلَّ**، فمن أعانه الله، فهو المعان، ومن خذله فهو المخذول، وهذا تحقيق معنى قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، فإن المعنى لا تحول للعبد من حال إلى حال، ولا قوة له على ذلك إلا بالله) اهـ.

وقال ابن القيم في "مدارج السالكين" (٨٦/١): (الاستعانة تجمع أصليين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به) اهـ.

والحكمة في تقديم العبادة على الاستعانة: ما قاله ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ** في "المدارج" (٩٧/١): (وتقديم (العبادة) على (الاستعانة) في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ (العبادة) غاية العباد التي خلقوا لها، و (الاستعانة) وسيلة إليها؛ ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، متعلق بألوهيته واسمه «الله» ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، متعلق بربوبيته واسمه «الرب» فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، كما قدم اسم «الله» على «الرب» في أول السورة، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قسم «الرب»، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد، فكان من الشطر الذي له، وهو ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، إلى آخر السورة.

ولأن (العبادة) المطلقة تتضمن (الاستعانة) من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب. ولأن (الاستعانة) جزء من (العبادة) من غير عكس، ولأن (الاستعانة) طلب منه، و (العبادة) طلب له.

ولأن (العبادة) لا تكون إلا من مخلص، و (الاستعانة) تكون من مخلص ومن غير مخلص.

ولأن (العبادة) حقه الذي أوجبه عليك، و (الاستعانة) طلب العون على (العبادة)، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

ولأن (العبادة) شكر نعمته عليك، والله يحب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبدا، حتى يقضي العبد نجه.

ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما له مقدم على ما به، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعتهم وإيمانهم، فالكفار أهل مشيئته، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبدا، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾



وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه: أدهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيدان بالاختصاص، المسمى بالحصر، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقهاء فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقديما، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره.



ولأنه يقبح من القائل أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه وقال: وغيره أيضًا أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى ﴿وَأَيُّنَ فَآرَهَبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠]، ﴿وَأَيُّنَ فَآتَقُونَ﴾ [البقرة: ٤١]، كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي، وكذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، هو في قوة: لا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق) اهـ.

مما تضمنته بيان عقيدة أهل السنة في القدر:

وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، رد على الجبرية، وفي قوله: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ رد على القدرية.

واعلم - وفقك الله عزَّوجلَّ لطاعته - أن الناس في باب القدر ثلاثة أصناف:

الصف الأول: أهل السنة والجماعة الذين حققوا الإيمان بهذا الركن العظيم من أركان الإيمان الستة، ويؤمنون بأن الخير والشر من الله عزَّوجلَّ ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وأنه لن يكون في هذا العالم شيء إلا بمشيئة الله وقدرته النافذة، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ويؤمنون بأن الله عزَّوجلَّ خالق كل شيء - العباد وأفعالهم - قال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في العقيدة الواسطية: (وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة **«بالقدر خيره وشره»**).

- والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين.
- فالدرجة الأولى: الإيمان: بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أولاً وأبداً، وعلم: جميع أحوالهم، من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال، ثم كتب الله تعالى في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق.

- فأول ما خلق الله القلم؛ قال له: اكتب! قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

- فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، جفت الأقلام وطويت الصحف. كما قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج:٧٠]، وقال: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢].

- وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون في مواضع جملة وتفصيلا.
- فقد كتب في اللوح المحفوظ ما شاء.
- فإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه؛ بعث إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات، فيقال: اكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ونحو ذلك.
- فهذا القدر قد كان ينكره غلاة "القدرية" قديماً، ومنكروه اليوم قليل. وأما الدرجة الثانية: فهي:

- مشيئة الله تعالى النافذة، وقدرته الشاملة.
- وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.
- وأنه ما في السماوات والأرض، من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه، لا يكون في ملكه إلا ما يريد.
- وأنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات.
- فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره، ولا رب سواه.
- وقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

- وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء.

- ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد.

- والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم.

- والعبد هو: المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والمصلي والصائم.

- وللعباد قدرة على أعمالهم، وإرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم.

- كما قال تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] اهـ.

من النقل عن شيخ الإسلام يتبين أنه جمع مراتب الإيمان بالقدر وهي أربعة عند التفصيل، ولا يتم الإيمان بالقدر على وجهه إلا بتحقيقها:

المرتبة الأولى: العلم؛ إذ نعتقد ونجزم أن الله بكل شيء عليم، لا تخفى عليه خافية

في الأرض ولا في السماء، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا

هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقِهِ إِلَّا يُعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ

الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥١﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ

يَكُلُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا

﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، إلى غير ذلك من

الأدلة، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَلَوْ

رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، وفي حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**

وغيره في الصحيح قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «والله أعلم بما كانوا عاملين».

المرتبة الثانية: الكتابة؛ وهي أن الله كتب ما كان وما يكون في اللوح المحفوظ، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿١٢﴾﴾ [البروج: ١١-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥١﴾﴾ [القمر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٩]، قال تعالى: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْأَكْتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الزخرف: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤]، في أدلة كثيرة، ومنها من السنة: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام وعرشه على الماء»، أخرجه مسلم عن عبد الله بن عمرو، وفي حديث عبادة: «لما خلق الله القلم قال: اكتب، قال: وما أكتب، قال: اكتب ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»، في أدلة غير هذه ليس هذا موطن بسطها إلا أنني أزيد حديثاً وهو ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود: حدثنا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه كتابه، فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة»، فالأول تقدير أزلّي وهذا تقدير عمري، وهناك تقدير يومي، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]،

وتقدير سنوي قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُقَرَأُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ٥﴾ [الدخان:٤]؛ أي في ليلة القدر، فأمره تعالى قدرًا مقدورًا كما قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ٣٨﴾ [الأحزاب:٣٨]؛ أي مقدور لا يخرج شيء عن علمه وما سطره في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: مرتبة المشيئة النافذة والإرادة الغالبة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ [الإنسان:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَقَعُلْ مَا يُرِيدُ ٥٣﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ١٢٥﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ٤﴾ [الكهف:٣٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ٣١﴾ [الرعد:٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى ٣١﴾ [السجدة:١٣]، إلى غير ذلك من الآيات، وفي حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى مَا يَشَاءُ قَادِرٌ»، وفي حديث أنس وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إِنَّ اللَّهَ صَانِعُ مَا يَشَاءُ لَا مُكْرَهَ لَهُ».

ومشيئة الله هي المعبر عنها بالإرادة الكونية وتكون في المحبوب وغير المحبوب، وهي واقعة على مقتضى حكمته تعالى ولا بد أن تقع ولا تتخلف بحال فإن الله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ١٧﴾ [البروج:١٦].

ثم إن لله إرادة شرعية وهي موافقة للمحبوب، فما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به فهو محبوب إليه، وما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه فهو مبغوض إليه، إلا أن هذه الإرادة قد تقع وقد لا تقع، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ١٨٥﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا

مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ [النساء: ٢٧]، إلى غير ذلك من الأدلة، والإرادتان الكونية والشرعية تجتمعان في حق الطائع وتفترقان في حق العاصي؛ فحق هذا تسلم من تخبط المبتدعين الضالين من الجبرية والقدرية، فقد ضلوا في هذا الباب؛ على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق، فالله **عَزَّجَلَّ** خلق العباد وأفعالهم، وخلق المؤمنين والكفار والمجرمين والأبرار وخلق أفعالهم، فهو الذي يهدي ويضل ويطبع على قلوب المعتدين، قال تعالى: ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أْتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾** [النساء: ٨٨]، وقال: ﴿ **مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٦﴾** [الأعراف: ١٨٦]، وقال: ﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [المدرثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾** [غافر: ٣٥]، وقال: ﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾** إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ [يس: ٧-١٠].

وفي قوله: ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾** [البقرة: ٣٠]، قال مجاهد: علم من إبليس المعصية وخلقها لها، وقد قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [الرعد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾** [الصافات: ٩٦]، ﴿ **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** ﴾ [القصص: ٦٨]، وقال: ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى ﴿٤٣﴾** [النجم: ٤٣]، وفي الحديث الذي أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد قول رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ صَانِعٍ وَصَنَعْتِهِ»** رواه حذيفة عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، وعند عبد الله بن أحمد في السنة قال سعيد بن جبير في قول الله تعالى: ﴿ **يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾

[الأنفال:٢٤]، قال يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكفر وبين الإيمان وطاعة الله.

فمن حقق هذه المراتب الأربعة فقد حقق الإيمان بالقدر، ومن أنكر مرتبة منها فهو ضال مضل.

فأما إن أنكر العلم فهو كافر مرتدّ حلال الدم، وقد كفر ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعْبَدًا الجهنّي لهذه المسألة بعينها، ففي مسلم عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنّي، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين - أو معتمرين - فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوقف لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلًا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه، والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن، ويتفكرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: **«إِذَا لَقِيتَ أَوْلَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بَرَاءٌ مِنِّي»**، والذي يحلف به عبد الله بن عمر **«لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ مِثْلَ أَحَدِ ذَهَبًا، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللَّهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ»**، ثم ذكر حديث عمر بن الخطاب في سؤال جبريل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قال عبد الله بن أحمد في السنة: سمعت أبي رَحِمَهُ اللَّهُ وسأله علي بن الجهم عن من قال: **«بِالْقَدْرِ يَكُونُ كَافِرًا؟»** قال: **«إِذَا جَحَدَ الْعِلْمَ، إِذَا قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا حَتَّى خَلَقَ عِلْمًا فَعَلِمَ فَجَحَدَ عِلْمَ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَهُوَ كَافِرٌ»**، وأخرج عن سلام أبي المنذر غير مرة وهو يقول: سلوهم عن العلم، هل عَلِمَ أو لم يعلم؟، فإن قالوا قد علم، فليس في أيديهم شيء، وإن قالوا لم يعلم، فقد حلت دماؤهم.

ومن زعم أن الله لم يخلق الشر فهؤلاء ضلال وهم المعتزلة، قال عكرمة بن خالد، سألت يحيى بن أبي كثير عن القدرية، فقال: «هم الذين يقولون إن الله عَزَّجَلَّ لم يقدر الشر»، أخرجه عبد الله بن أحمد في السنة (٨٩٢).

وعند اللالكائي: «الذين يقولون إن الله لم يقدر المعاصي»، وقد سمي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هذه الطائفة مجوس، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى. والقدر سرّ الله عَزَّجَلَّ لم يطلع عليه ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلًا.

قال الطحاوي: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين) اهـ.

وأما مذهب القدرية النفاة هم في الأصل يعظمون الأمر والنهي والوعد والوعيد ولكنهم نفوا عموم مشيئة الله تعالى ونفوا عموم خلقه، فزعموا أن العبد هو المحدث للمعصية والمحدث للطاعة.

قال ابن العز في "شرح الطحاوية" (٣٢١): (وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فَرُّوا إلى هذا، لئلا يقولوا شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه! ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار!).

فإنهم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر،

فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى!! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائي، من حديث بقية عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي، عن ابن عباس قال: قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذ أعمى، فقالوا له: ما تصنع به؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبتة بيدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** يقول: «كأني بنساء بني فهر يظفن بالخزرج، تصطفق ألياتهن مشركات»، وهذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر.

قوله: «وهذا أول شرك في الإسلام»، إلى آخره، من كلام ابن عباس، وهذا يوافق قوله: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيداً. وروى عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري: إن الله يريد، ولكن الشيطان لا يريد! قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان! هذا شيطان قوي!! وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما!!

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرت، فارددها عليه! فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك! قال: ولم؟ قال: أخاف - كما أراد أن لا تسرق فسرت - أن يريد ردها فلا ترد!

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني: أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذبنى، أأكون منصفًا؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئًا هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة: فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْإِنْسِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا.

فقال الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبًا مرضيًا.

وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له.

فليست مقدره ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه، وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة - الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها، وأما نصوص

المحبة والرضا، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ

لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش

والكبر: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]

وفي الصحيح: عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وفي المسند: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته»، وكان من دعائه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»، فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول الصفة، والثاني: لأثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده، لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فأعاذني مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضًا، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذي بك منك، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك، فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية، إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

فإن قيل: كيف يريد الله أمرًا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا، وتباينت طرقهم وأقوالهم.

فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره، قد لا يكون مقصودًا لما يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا

يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاء، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إثارة هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سبباً إلى أمر هو أحب إليه من فوته.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه، **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التي هي أخصب الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقيح، والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرفه وتدييره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتديير مملكته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذو البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلو لا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلى هذا بقوله: «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم». ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك، فلو قدر عدم الأسباب المكروهة له لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة.

ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بها من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار، وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه، إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟ فهذا سؤال فاسد! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم، فهل تكون مرضية محبوبه من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه؟ قيل: هذا السؤال يرد على وجهين:

أحدهما: من جهة الرب تعالى، وهل يكون محبا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها؟.

والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضًا؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه، مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه، وحركتها من حيث هي حركة - خير، وإنما تكون شرًا بالإضافة، لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شرًا، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية، ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محلها خيرا في نفسها، وإن كانت شرًا بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرًا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل، حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شرًا محضًا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك. فلا يمكن في جناب الحق تعالى أن يريد شيئًا يكون فسادًا من كل وجه، لا مصلحة في خلقه بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير كله، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم

هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرًّا، فتأمل، فانقطع نسبته إليه هو الذي صيره شرًّا.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقًا ومشية؟ قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير) اهـ.

وأما مذهب القدرية الجبرية أتباع جهم بن صفوان يقولون إن العبد مجبور على فعله، وحركاته وأفعاله كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار في مهب الريح، ويزعمون أنه لا فعل للعبد أصلًا، قال البغدادي في «الفرق بين الفرق»: (لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز، كما يقال زالت الشمس ودارت الرحي، من غير أن يكونوا فاعلين أو مستطيعين لما وصفنا به) اهـ.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (قابل القدرية قوم من العلماء والعباد وأهل الكلام والتصوف فأثبتوا القدر وآمنوا بأن الله رب كل شيء ومليكه وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه خالق كل شيء وربّه ومليكه وهذا حسن وصواب؛ لكنهم قصرُوا في الأمر والنهي والوعد والوعيد وأفرطوا حتى خرج غلاتهم إلى الإلحاد فصاروا من جنس المشركين الذين قالوا ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]...، والمقصود هنا أن من أثبت القدر واحتج به على إبطال الأمر والنهي فهو شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر...) اهـ.

وقال كما في "المجموع" (١٠٦/٨): (ومعلوم أن من أسقط الأمر والنهي الذي بعث الله به رسله فهو كافر باتفاق المسلمين واليهود والنصارى؛ بل هؤلاء قولهم متناقض

لا يمكن أحدًا منهم أن يعيش به ولا تقوم به مصلحة أحد من الخلق ولا يتعاشر عليه
اثنان) اهـ.

فسبب ضلال الطائفتين أن كل واحدة أخذت بجانب من الأدلة.

قال ابن القيم في "شفاء العليل" (١/١٩٩): (فكل دليل صحيح للجبرية إنما يدل
على إثبات قدرة الرب تعالى ومشيتته وأنه لا خالق غيره وأنه على كل شيء قدير لا
يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات) اهـ.

وقال ابن أبي العزفي "شرح الطحاوية" في بيان فساد مذهب الجهمية: (فرأى تلك
الأفعال طاعات، لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أظعت
إرادته! وفي ذلك قيل:

أصبحت منفعلاً لما يختاره ❀❀ مني، ففعلي كله طاعات!
وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن
الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقة
القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط
وشعيب وقوم فرعون - كلهم مطيعين! وهذا غاية الجهل.

لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه وعدم
استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين - كان بالله في هذه الحال لا بنفسه، فوقع
الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال ألبتة، فإن عليه حصنا حصينا «**فبي يسمع، وبى يصبر،
وبى يبطش، وبى يمشي**»، فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة، فإذا حجب عن هذا
المشهد وبقي بنفسه، استولى عليه حكم النفس، فهناك نصبت عليه الشباك
والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انتفى عنه ضباب ذلك الوجود الطبيعي،
فهناك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية محجوبًا بنفسه عن ربه،

فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه) اهـ، والحمد لله رب العالمين.

قوله: ﴿أَهْدِنَا﴾.

طلب من الله ودعاء بالهداية، والهداية تنقسم من حيث هي إلى أربعة أقسام:

١- **هداية عامة**: وهي هداية الخلائق إلى طريق معاشها وما يكون نافعا لها حتى أن الجنين يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئا ومع ذلك يتتبع ثدي أمه ليرضع منه، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ فَزُودْهُ هَدًى﴾ [طه: ٥٠].

قال الشوكاني رحمه الله: (أي لأنه سبحانه هداهم إلى طريق الانتفاع بما أعطاهم فانفعوا بكل شيء فيما خلق له) اهـ.

٢- **النوع الثاني من الهداية هي**: دلالة التوفيق وهذه خاصة بالله **عَزَّوَجَلَّ**، قال الله **عَزَّوَجَلَّ** عن نبيه محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

٣- **والنوع الثالث من أنواع الهدايا هو**: هداية الدلالة والإرشاد، وهذه عامة قال الله **عَزَّوَجَلَّ** عن القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [١] ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ١-٢]، وقال الله **عَزَّوَجَلَّ** عن نبينا محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، قال قتادة والسدي ومقاتل لتدعو إلى الإسلام فهو الصراط المستقيم، وقال النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عن هداية الدعاة والعلماء: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا

خيرا لك من حمر النعم»، أخرجاه عن سهل **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «الدال على الخير كفاعله»، أخرجه مسلم عن سهل **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

٤- النوع الرابع: الهداية إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس: ٩]، وقال في شأن الكفار: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٣].

قال الراغب **رَحِمَهُ اللَّهُ فِي مَفْرَدَاتِهِ فِي مَادَّة (هَدَى)**: (الهداية دلالة بلطف، ومنه: الهدية، وهوادي الوحش؛ أي: متقدماتها الهادية لغيرها، وخص ما كان دلالة بهدیت، وما كان إعطاء بأهدیت.

نحو: أهدیت الهدية، وهدیت إلى البيت، إن قيل: كيف جعلت الهداية دلالة بلطف وقد قال الله تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصافات: ٢٣]، ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾ [الحج: ٤]، قيل: ذلك استعمل فيه استعمال اللفظ على التهكم مبالغة في المعنى كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: ٢١]، وقول الشاعر:

(تحية بينهم ضرب وجيع)

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأول: الهداية التي عم بجنسها كل مكلف من العقل، والفتنة، والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتمالها كما قال: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على السنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣].

الثالث: التوفيق الذي يختص به من اهتدى، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَهْتَدُوا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الرابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة المعنى بقوله: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِالْقَلَمِ﴾ [محمد: ٥]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلِيٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتبة، فإن من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصح تكليفه، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة والرابعة، ومن حصل له الرابع فقد حصل له الثالث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل له اللذان قبله، ثم ينعكس، فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحداً إلا بالدعاء وتعريف الطرق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأول أشار بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤]، ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]؛ أي: داع.

وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وكل هداية ذكر الله **عَزَّجَلَّ** أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التوفيق الذي يختص به المهتدون، والرابعة التي هي الثواب في الآخرة، وإدخال الجنة، نحو قوله **عَزَّجَلَّ**: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٦].

[آل عمران: ٨٦]، وكقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]، وكل هداية نفاها الله عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختص من الدعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل، والتوفيق، وإدخال الجنة، كقوله عز ذكره: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَا كِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُهْدِي الْعَمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١]، ﴿إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كِنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ أي: طالب الهدى ومتحريه هو الذي يوفقه ويهديه إلى طريق الجنة لا من ضاده، فيتحرى طريق الضلال والكفر كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧]، وفي أخرى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]؛ الكاذب الكفار: هو الذي لا يقبل هدايته، فإن ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعاً لذلك، ومن لم يقبل هدايته لم يهده، كقولك: من لم يقبل هديتي لم أهد له، ومن لم يقبل عطيتي لم أعطه، ومن رغب عني لم أرغب فيه، وعلى هذا النحو: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، وفي أخرى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ [يونس: ٣٥]، وقد قرئ: ﴿يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾؛ أي: لا يهدي غيره ولكن يُهدى؛ أي: لا يعلم شيئاً ولا

يعرف أي لا هداية له، ولو هُدي أيضًا لم يهتد، لأنها موات من حجارة ونحوها، وظاهر اللفظ أنه إذا هُدي اهتدى لإخراج الكلام أنها أمثالكم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وإنما هي أموات، وقال في موضع آخر: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصفات: ١١٨]، فذلك إشارة إلى ما عرف من طريق الخير والشر، وطريق الثواب والعقاب بالعقل والشرع وكذا قوله: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، فهو إشارة إلى التوفيق الملقى في الروح فيما يتحراه الإنسان وإياه عنى بقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، وعدي الهداية في مواضع بنفسه، وفي مواضع باللام، وفي مواضع بالي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧]، وقال: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ﴾ [يونس: ٣٥]، وقال: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكِبَ﴾ [١٨] ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [١١] [النازعات: ١٨-١٩].

وما عدي بنفسه نحو: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨]، ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصفات: ١١٨]، ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿اتَّبِعُونِ أَنْ تَهْدُوا مِنْ أَصْلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: ١٦٨]، ﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ﴾ [يونس: ٤٣]، ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥].

ولما كانت الهداية والتعليم يقتضي شيئين:

تعريفًا من المعرف، وتعرفًا من المعرف، وبهما تم الهداية والتعليم فإنه متى حصل البذل من الهادي والمعلم ولم يحصل القبول صح أن يقال: لم يهد ولم يعلم اعتبارًا بعدم القبول، وصح أن يقال: هدى وعلم اعتبارًا ببذله، فإذا كان كذلك صح أن يقال: إن الله تعالى لم يهد الكافرين والفاستين من حيث إنه لم يحصل القبول الذي هو تمام الهداية والتعليم، وصح أن يقال: هداهم وعلمهم من حيث إنه حصل البذل الذي هو مبدأ الهداية.

فعلى الاعتبار بالأول يصح أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

وعلى الثاني قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

والأولى حيث لم يحصل القبول المفيد فيقال: هداه الله فلم يهتد، كقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ الآية.

وقوله: ﴿* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣]، فهم الذين قبلوا هداه واهتدوا به، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٤٣]، فهم الذين قبلوا هداه واهتدوا به، وقوله تعالى:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨]، فقد قيل: عني به الهداية العامة التي هي العقل، وسنة الأنبياء، وأمرنا أن نقول ذلك بألسنتنا وإن كان قد فعل ليعطينا بذلك ثوابًا كما أمرنا أن نقول: ﴿اللَّهُم صل على محمد﴾ وإن كان قد صلى عليه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى

التَّيِّبَةَ ﴿[الأحزاب:٥٦]، وقيل: إن ذلك دعاء بحفظنا عن استغواء الغواة واستهواء الشهوات، وقيل: هو سؤال للتوفيق الموعود به في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧]، وقيل: سؤال للهداية إلى الجنة في الآخرة، وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٣]، فإنه يعني به من هداه بالتوفيق المذكور في قوله عز وجل: والذين اهتدوا زادهم هدى.

والهدى والهداية في موضوع اللغة واحد لكن قد خص الله عز وجل لفظة الهدى بما تولاه وأعطاه، واختص هو به دون ما هو إلى الإنسان نحو: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿البقرة:٢﴾، ﴿أُوَلِّيكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة:٥]، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٨٥]، ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة:٣٨]، ﴿قُلْ إِن هُدًى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٧١]، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿آل عمران:١٣٨﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [الأنعام:٣٥]، ﴿إِن تَخْرُصْ عَلَىٰ هُدًىٰ فَأِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧]، ﴿أُوَلِّيكَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة:١٦].

والاهتداء يختص بما يتحراه الإنسان على طريق الاختيار، إما في الأمور الدنيوية، أو الآخروية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ [الأنعام:٩٧]، وقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٨]، ويقال ذلك لطلب الهداية نحو: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَتَّبِعْ فِعْمِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٠]، ﴿فَإِنْ أَسَأَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران:٢٠]، ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة:١٣٧].

ويقال المهتدي لمن يقتدي بعالم نحو: ﴿أُولَٰئِكَ كَانَ أَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة:١٤]، تنبيها أنهم لا يعلمون بأنفسهم ولا يقتدون بعالم،

وقوله: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ [النمل: ٩٢]، فإن الاهتداء هاهنا يتناول وجوه الاهتداء من طلب الهداية، ومن الاقتداء، ومن تحريها، وكذا قوله: ﴿وَرِزْقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ [النمل: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٣﴾ [طه: ٨٢]، فمعناه: ثم أدام طلب الهداية، ولم يفتر عن تحريه، ولم يرجع إلى المعصية، وقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]؛ أي: الذين صَلَّوْا مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦-١٥٧]؛ أي: الذين تحروا هدايته وقبلوها وعملوا بها، وقال مخبرا عنهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ [الزخرف: ٤٩].

والهدي مختص بما يهدى إلى البيت، قال الأخفش: والواحدة هدية، قال: ويقال للأثنى هدي كأنه مصدر وصف به، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿هَدْيًا بَلَغَ الْكَعْبَةَ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ [الفتح: ٢٥].

والهدية مختصة باللطف الذي يهدي بعضنا إلى بعض، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]، ﴿لَلَّ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، والمهدى الطبق الذي يهدى عليه، والمهداء: من يكثر إهداء الهدية، قال الشاعر:

(وإنك مهذاء الخنا نطف الحشا)

والهدي يقال في الهدي، وفي العروس يقال: هديت العروس إلى زوجها، وما أحسن هدية فلان وهديه، أي: طريقته، وفلان يهادى بين اثنين: إذا مشى بينهما معتمدا عليهما، وتهادت المرأة: إذا مشت مشي الهدي) اهـ.

ومن هنا تعلم أن سؤال الله **عَزَّوَجَلَّ** الهداية والتوفيق متعين وحتم، وذلك لأنه تعالى مالكها وحده والمستطيع عليها لا غيره، ولهذا السبب أوجب الله علينا أن نسأله الهداية في كل ركعة من صلاتنا زد على ذلك ما يأتي من الأدلة في تعيين سؤال الله **عَزَّوَجَلَّ** الهداية.



أسباب الحصول على الهدى التام

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي "الفوائد": (واعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام

المطلوب إلا بعد ستة أمور هو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها:

الأمر الأول: معرفته في جميع ما يأتيه ويذره؛ بكونه محبوباً للرب تعالى مرضياً له فيؤثره، وكونه مغضوباً له مسخوطاً عليه فيجتنبه، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء نقص من الهداية التامة بحسبه.

الأمر الثاني: أن يكون مريد الجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازماً عليه، ومريداً لترك جميع ما نهى الله عازماً على تركه؛ بعد خطوره بالبال مفصلاً، وعازماً على تركه من حيث الجملة مجملاً فإن نقص من إرادته لذلك شيء نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة.

الأمر الثالث: أن يكون قائماً به فعلاً وتركاً فإن نقص من فعله شيء نقص من هداه بحسبه فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها:

الأمر الرابع: أمور هدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها.

الأمر الخامس: أمر هدي إليها من وجه دون وجه فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكتمل له هدايتها.

الأمر السادس: الأمور التي هدي إليها تفصيلاً من جميع وجوهها، فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها، فهذه أصول تتعلق بما يعزم على فعله وتركه.

الأمر السابع: يتعلق بالماضي، وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها، وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف

يسأل الهداية وهي موجودة له، ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها، إذا كانت هذه المراتب حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤال الهداية سؤال تثبيت ودوام، فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه، وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده، ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعليه فيه، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه وإقداراً له، وخلقاً للفاعلية وتثبيتاً له على ذلك، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علماً وعملاً، والتثبيت عليها والدوام إلى الممات، وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلاً وتفصيلاً وتثبيتاً ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية، فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه) اهـ.

الدعاء بالهداية:

لأهمية الهداية والتوفيق لها أوجب الله **عَزَّوَجَلَّ** علينا قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة على الصحيح في الصلاة ففي حديث عبادة بن الصامت **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، متفق عليه، وفي حديث أبي هريرة في مسلم قال: قال رسول الله: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين: نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝﴾ قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝﴾ قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ۝﴾ قال: مجدني عبدي - أو قال فوض إلي عبدي - فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ قال فهذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾ صرَّط الذين **أَعْمَتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝﴾** قال: فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل».

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: (فإن قيل فكيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت

من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا؟

فالجواب: أن لا، ولولا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى

إلى ذلك، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية

ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً

ولا ضرراً إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة

والثبات والتوفيق، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فإنه قد تكفل بإجابة الداعي إذا

دعاه ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار، وقد قال

تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك

من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال

المعينة على ذلك والله أعلم.

وقال تعالى آمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، وقد كان الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

يقرأ هذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً، فمعنى قوله

تعالى اهدنا الصراط المستقيم استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره.

قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

[الفاتحة: ٧].

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد اهدنا الصراط المستقيم إلى آخرها أن الله

يقول «هذا لعبدي ولعبدي ما سألت».

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مفسر للصراط المستقيم؛ وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم.

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٥﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، وقال الضحاك عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين.

وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: هم النبيون، وقال ابن جريج عن ابن عباس: هم المؤمنون، وكذا قال مجاهد، وقال وكيع: هم المسلمون، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن معه، والتفسير المتقدم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أعم وأشمل والله أعلم.

وهذا موافق لدعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا لَا نُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يدعو كثيرًا بالهداية؛ إذ هي من الله، ففي الحديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»، ففي مسلم عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «اللهم إني أسالك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، وفي الصحيح عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال له: قل: «اللهم

اهدني وسدني»، وفي رواية «اللهم إني أسألك الهدى والسداد»، وفي دعاء الليل: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت»، وقد دعا رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** بالهداية لجملة استجاب الله لمن أراد، فقد قال: «اللهم اهد دوسًا وائت بهم»، أخرجه مسلم، وقال: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فاستجاب الله له، وكان إذا جاءه أحد بالإسلام علمه هذا الدعاء: «اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني وعافني»، أخرجه مسلم عن طارق بن أشيم، وفي خطبة الحاجة: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه»، وفي الحديث المشهور الذي علمه الحسن بن علي **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا**: «اللهم اهدني فيمن هديت»، إلى غير ذلك من الأدعية في هذا الباب، ومن ذلك حرصه على هداية عمه أبي طالب، ففي الصحيحين عن المسيب بن حزن قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «أي عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، قال: قال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب، فقال لرسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

[القصص: ٥٦].



الهداية والضلال بيد الله عز وجل

تقدم معنى الهداية وما تفرع منها ونذكر هنا معنى الضلال.

قال الراغب في "مفردات القرآن" مادة (ضل): (الضلال: العدول عن الطريق

المستقيم، وبضاده الهداية، قال تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج، عمداً كان أو

سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإن الطريق المستقيم الذي هو المرغوب صعب جداً، قال

النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم:** «استقيموا ولن تحصوا»، وقال بعض الحكماء: كوننا

مصيبين من وجه وكوننا ضالين من وجوه كثيرة، فإن الاستقامة والصواب يجري مجرى المقرطس من المرمى، وما عداه من الجوانب كلها ضلال.

وإذا كان الضلال ترك الطريق المستقيم عمداً كان أو سهواً، قليلاً كان أو كثيراً،

صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما، ولذلك نسب الضلال إلى

الأنبياء، وإلى الكفار، وإن كان بين الضالين بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي

صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: غير مهتد لما سيق

إليك من النبوة، وقال في يعقوب: ﴿إِنَّكَ لِنِي ضَالِّكَ الْقَدِيرِ﴾ [يوسف: ٩٥]، وقال

أولاده: ﴿إِنَّ أَبَانَا لِنِي ضَالِّ مَبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، إشارة إلى شغفه بيوسف

وشوقه إليه، وكذلك: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرِيهَا فِي ضَالِّ مَبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]،

وقال عن موسى **عليه السلام:** ﴿قَالَ فَعَلَّهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، تنبيهه أن

ذلك منه سهو، وقوله: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢]؛ أي: تنسى، وذلك من

النسيان الموضوع عن الإنسان.

والضلال من وجه آخر ضربان:

ضلال في العلوم النظرية، كالضلال في معرفة الله ووحدانيته، ومعرفة النبوة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وضلال في العلوم العملية، كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات، والضلال البعيد إشارة إلى ما هو كفر كقوله على ما تقدم من قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ
بِاللَّهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا
ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، وكقوله: ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]؛ أي:
في عقوبة الضلال البعيد، وعلى ذلك قوله: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]،
﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]،
وقوله: ﴿أَوَدَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]، كناية عن الموت واستحالة البدن.
وقوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فقد قيل: عُني بالضالين النصارى.
وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، أي: لا يضل عن ربي، ولا
يضل ربي عنه: أي: لا يغفله، وقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]؛
أي: في باطل وإضلال لأنفسهم.

والإضلال ضربان:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وذلك على وجهين: إما بأن يضل عنك الشيء
كقولك: أضللت البعير، أي: ضل عني، وإما أن تحكم بضلاله، والضلال في هذين
سبب الإضلال.

والضرب الثاني: أن يكون الإضلال سبباً للضلال، وهو أن يزين للإنسان الباطل
ليضل كقوله: ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾

[النساء: ١١٣]، أي يتحرون أفعالاً يقصدون بها أن تضل، فلا يحصل من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم، وقال عن الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَا مُنِيَّتَهُمْ﴾ [النساء: ١١٩]، وقال في الشيطان: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضلال، وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك في الدنيا، ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار في الآخرة، وذلك إضلال هو حق وعدل، فالحكم على الضال بضالته والعدول به عن طريق الجنة إلى النار عدل وحق.

والثاني: من إضلال الله، هو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقاً، محموداً كان أو مذموماً، ألفه واستطابه ولزمه، وتعذر صرفه وانصرافه عنه، ويصير ذلك كالطبع الذي يأبى على الناقل، ولذلك قيل: العادة طبع ثان.

وهذه القوة في الإنسان فعل إلهي، وإذا كان كذلك - وقد ذكر في غير هذا الموضع أن كل شيء يكون سبباً في وقوع فعل - صح نسبة ذلك الفعل إليه، فصح أن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه، فيقال: أضله الله لا على الوجه الذي يتصوره الجهلة، ولما قلناه جعل الإضلال المنسوب إلى نفسه للكافر والفاسق دون المؤمن، بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، ﴿فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ﴾ [١] ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد: ٤-٥]، وقال في الكافر والفاسق: ﴿فَتَعَسَىٰ لَهُمْ وَاضِلٌ أَعْمَلُهُمْ﴾ [٨] [محمد: ٨]، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ [٣] [البقرة: ٢٦]، ﴿كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكٰفِرِينَ﴾ [٧٤] [غافر: ٧٤]، ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وعلى هذا النحو تقلب الأفئدة في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَانَهُمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، والختم على القلب في قوله: ﴿خَسَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وزيادة المرض في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. اهـ.

من رحمة الله عز وجل أنه يهدي من يشاء من عباده فضلاً منه تعالى ومن حكمته أنه يضل من يشاء عدلاً منه وما ربك بظلام للعبيد، قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَسْتَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وقال: ﴿مَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، إلى غير ذلك وفي حديث أبي ذر الذي أخرجه مسلم قال الله عز وجل: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم»، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩-١٠٠].

قال ابن كثير رحمه الله: (ولو شاء ربك يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨٨] إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ [١٨٩] [هود: ١١٨]-

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتَيْسَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾

[الرعد:٣١]، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ﴾ [يونس:٩٩]، أي تلزمهم وتلجئهم

حتى يكونوا مؤمنين؛ أي ليس ذلك عليك ولا إليك بل الله ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل:٩٣]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتًا﴾ [فاطر:٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ

هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ اللَّهِ تَفْسَدُ وَلَا تَكُونُ

مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦]، ﴿فَاتَمَّا عَلَيْكَ

الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]، ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية:٢٢]، إلى

غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء،

المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ

تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس:١٠٠] الرِّجْسَ - وهو

الخبال والضلال-، على الذين لا يعقلون أي حجج الله وأدلتها، وهو العادل في كل

ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل) اهـ.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

﴾ [الأعراف:١٧٨].

قال ابن كثير رحمه الله: (يقول تعالى من هداه الله فإنه لا مضل له ومن أضله فقد

خاب وخسر وضل لا محالة، فإنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولهذا جاء

في حديث ابن مسعود «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغديه ونستغفره، ونعوذ بالله

من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادي

له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله»

الحديث بتمامه رواه الإمام أحمد وأهل السنن وغيرهم) اهـ.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، يقول تعالى: من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزئ عنه شيئاً ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠٨].

وهنا سؤال يطرحه القدرية ومن إليهم ممن يعترض على الله عز وجل (بلم) كيف يهدي الله هذا؟ ويضل هذا؟ وهذا السؤال مبني على عقيدتهم من وجوب فعل الأصلاح للعبد.

فأقول الحمد لله الفعال لما يريد الذي لا يسئل عما يفعل وهم يسألون، فالملك له وحده تعالى وهو الحكيم الخبير، يهدي من يشاء بفضله؛ لعلمه أنه أهلا للهداية، ويضل من يشاء بعدله -وما ظلمه- ولكنه علم أنه أهلا للغواية فأوكله إلى نفسه وهو، فتسلط عليه الشيطان والعياذ بالله.

قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾

قال في "المفردات": (الصراط الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، ويقال له صراط) اهـ.

وقال: (الصراط الطريق المستسهل أصله من سرطت الطعام وزردته؛ ابتلعتة فليل صراط تصورا أنه يتلعه سالكه أو يتلعه سالكه) اهـ.

قال ابن القيم في "المدارج": (وذكر الصراط المستقيم مفردا معرفا تعريفين: تعريفا باللام، وتعريفا بالإضافة، وذلك يفيد تعيينه واختصاصه، وأنه صراط واحد، وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]،

فوحده لفظ الصراط وسبيله، وجمع السبل المخالفة له، وقال ابن مسعود خط لنا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خطأ، وقال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، وقال: «هذه سبل، على كل سبيل شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق اهـ.

والصراط المستقيم هنا هو الإسلام بدلالة قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]، وفي حديث النواس بن سمعان عند أحمد قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتح، فإنك إن تفتحته تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

قال ابن جرير **رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ**: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن «الصراط المستقيم»، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.

وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أمير المؤمنين على صراطٍ ❀❀ إذا اعوجَّ الموارِدُ مُسْتَقِيمِ
يريد على طريق الحق، ومنه قول الهذلي أبي ذؤيب:

صَبَحْنَا أَرْضَهُمْ بِالْحَيْلِ حَتَّى ❀❀ تَرَكْنَاهَا أَدَقَّ مِنْ الصَّرَاطِ
ومنه قول الراجز:

(فَصُدَّ عَنْ نَهْجِ الصَّرَاطِ الْقَاصِدِ)

والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى، وفيما ذكرنا غنى عما تركنا.

ثم تستعيرُ العرب «الصراط» فتستعمله في كل قولٍ وعملٍ وُصِفَ باستقامة أو اعوجاج، فتصفُ المستقيمَ باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.

والذي هو أولى بتأويل هذه الآية عندي، أعني: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، أن يكونا معنيًا به: وَقَفْنَا لِلثَبَاتِ عَلَى مَا ارْتَضَيْتَهُ وَوَفَّقْتَ لَهُ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِكَ، من قولٍ وعملٍ، وذلك هو الصَّرَاطُ المستقيم، لأن من وُفِّقَ لما وفق له من أنعم الله عليه من النبيين والصديقين والشهداء، فقد وُفِّقَ للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسك بالكتاب، والعمل بما أمر الله به، والانزجار عما زجره عنه، واتباع منهج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكلِّ عبدٍ لله صالح، وكل ذلك من الصراط المستقيم) اهـ.

والاستقامة على الصراط الحسي في الآخرة هي جزاء الاستقامة على الصراط المعنوي في الدنيا فمن جازه جازه، ولنذكر بعض الأدلة المتعلقة بالصراط الممدود على متن جهنم، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أن ناسًا قالوا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه، كذلك، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي

صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم، وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان، هل رأيتم السعدان؟»، قالوا: نعم يا رسول الله قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تحطف الناس بأعمالهم، فمنهم المؤمن بقي بعمله، ومنهم المجازي حتى ينجي، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله تعالى أن يرحمه ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار وهو آخر أهل الجنة دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبنى ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء الله أن يدعو، ثم يقول الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**: هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء الله، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك، ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك فيقول: أي رب، يدعو الله حتى يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي ربه ما شاء الله من عهود ومواثيق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا قام على باب الجنة انفهقت له الجنة، فرأى ما فيها من الخير والسرور، فيسكت ما شاء الله أن

يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة، فيقول الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** له: أليس قد أعطيت عهودك ومواريقك أن لا تسأل غير ما أعطيت؟، ويملك يا ابن آدم، ما أغدرك، فيقول: أي رب، لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى** منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة، فإذا دخلها قال الله له: تمنه، فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليذكره من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأماني، قال الله تعالى: ذلك لك ومثله معه»، قال عطاء بن يزيد، وأبو سعيد الخدري، مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً، حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله قال لذلك الرجل: «ومثله معه»، قال أبو سعيد: «وعشرة أمثاله معه»، يا أبا هريرة، قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: «ذلك لك ومثله معه»، قال أبو سعيد: أشهد أني حفظت من رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قوله: «ذلك لك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وأخرج الشيخان عن أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** نحوه وفيه: «ثم يضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم، سلم»، قيل: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: «دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلايب وحسك تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، والبرق، والريح، والكايطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم» الحديث، وفي رواية لمسلم قال أبو سعيد: (بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف).

وفي حديث جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم: «قال: فينطلق بهم ويتبعونه، ويعطى كل إنسان منهم منافقاً، أو مؤمناً نوراً، ثم يتبعونه وعلى جسر جهنم كلايب وحسك، تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين، ثم ينجو المؤمنون»، وعن أبي هريرة وحذيفة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند مسلم (١٩٥): «وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق» قال: قلت: بأبي أنت وأمي أي شيء كمر البرق؟ قال:

«ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونببكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً»، قال: «وفي حافتي الصراط كلاب معلقة مأمورة بأخذ من امرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار» والذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريقاً.

وفي آخر الصراط القنطرة وهي طرفه من جهة الجنة، ففي حديث أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في البخاري (٦٥٣٥) قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»، وقد أشار الله **عَزَّ وَجَلَّ** إلى الصراط في القرآن بقوله: **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾** [مريم: ٧١].

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ فِي التفسير: (وقد اختلف الناس في هذا الورد، فقيل: الورد الدخول، ويكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم. وقالت فرقة: الورد هو المرور على الصراط، وقيل: ليس الورد الدخول، إنما هو كما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها.

وقد توقف كثير من العلماء عن تحقيق هذا الورد، وحمله على ظاهره لقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** [الأنبياء: ١٠١]، قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده عنها، ومما يدل على أن الورد لا يستلزم الدخول، قوله تعالى: **﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾** [القصص: ٢٣]، فإن المراد أشرف عليه لا أنه دخل فيه، ومنه قول زهير:

فلما وردن الماء زرقاً جاماه **❀❀** وضعن عصي الحاضر المتخيم ولا يخفى أن القول بأن الورود هو المرور على الصراط، أو الورود على جهنم وهي خامدة فيه جمع بين الأدلة من الكتاب والسنة، فينبغي حمل هذه الآية على ذلك لأنه قد حصل الجمع بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل من المؤمنين مبعداً من عذابها، أو بحمله على المضي فوق الجسر المنصوب عليها، وهو الصراط ﴿كَانَ عَلَى رَيْكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۝﴾ [مريم: ٧١]؛ أي: كان ورودهم المذكور أمراً محتوماً، قد قضى سبحانه أنه لا بد من وقوعه لا محالة، وقد استدلت المعتزلة بهذه الآية على أن العقاب واجب على الله، وعند الأشاعرة أن هذا مشبه بالواجب من جهة استحالة تطرق الخلف إليه، ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢]؛ أي: اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، وترك ما شرعه، وأوجب العمل به.

قرأ عاصم الجحدري ومعاوية بن قرة ﴿نُنَجِّي﴾ بالتخفيف من أنجى، وبها قرأ حميد ويعقوب والكسائي، وقرأ الباقون بالتشديد، وقرأ ابن أبي ليلى ﴿تُنْظَرُ ۝﴾ [المدثر: ٢١]، بفتح الثاء من ثم، والمراد بالظالمين الذين ظلموا أنفسهم بفعل ما يوجب النار، أو ظلموا غيرهم بمظلمة في النفس أو المال أو العرض، والجثي: جمع جاث) اهـ.

لزوم الجماعة:

وليس هنالك من يسير على الصراط المستقيم إلا أهل السنة والجماعة، والجماعة هي: جماعة المسلمين وهم الصحابة والتابعون ومن صار على سيرهم إلى يوم الدين.

وسُمّوا بالجماعة لاجتماعهم على الخير والصلاح والهدى والفلاح، المتمثل في أخذ الكتاب والسنة على فهم صفوة الأمة ومن سار على سيرهم من الأمة، وقد أمر

ربنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بلزوم الجماعة ونهى عن الفرقة فقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ قَرَّؤُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١-٣٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وحدث رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** على الجماعة لما فيها من نصرة الدين وظهور الحق المبين ففي حديث عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الآجري في "الشرعية" (٦)، و"السنة" لابن أبي عاصم (ص ٨٨)، وأحمد (١/ ١٨) أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «من أحب منكم أن ينال بحبوحه الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد»، وبحبوحه الجنة وسطها كما في النهاية.

وفي حديث الحارث الأشعري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الترمذي (٢٨٦٣) قال: قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «وأنا أمركم بخمس الله أمرني بهن، السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ريقه الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثا جهنم»، فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين، عباد الله».

ولما كانت الجماعة في الأهمية بمكان قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات؛ مات ميتة جاهلية»، أخرجه مسلم (١٨٤٨) عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وتكمن أهمية الجماعة في كونها محفوظة من الاجتماع على الخطأ بعصمة الكتاب والسنة، قال أبو مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: (عليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمة

محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** على ضلالة)، أخرج ابن أبي عاصم (٨٥)، وجاء مرفوعاً عن ابن عباس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** أخرجهم الحاكم (١/١١٦).

والجماعة هي الإسلام الحق والسنة تدل على ذلك، أخرج أحمد (٣/٣٩٧)، وغيره عن النواس بن سمعان الأنصاري **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** عن رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعاً، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم».

وقال عبد الله بن مسعود كما في "الشریعة" (١٦): (إن هذا الصراط محتضر، يحضره الشياطين ينادون؛ يا عبد الله هلم هذا الصراط ليصدوا عن سبيل الله تعالى، فاعتصموا بحبل الله **تَبَارَكَ وَتَعَالَى**، فإن حبل الله **عَزَّ وَجَلَّ** هو كتاب الله **جَلَّ وَعَلَا**).

ولا معرفة للصراط الحق إلا بالعلم النافع؛ الذي هو علم الكتاب والسنة على ما قرره علماء الأمة، قال الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي: (والعلم هو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة).

وقد بين رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أن الخيرة في هذا العلم، ففي الصحيحين؛ البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧)، عن معاوية **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وأخرج الأجرى (١٩): عن أبي العالية قوله: (تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم فإنه الإسلام، ولا تحرفوا الصراط يمينا ولا شمالاً، وعليكم بسنة نبيكم **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** والذي عليها أصحابه، فإننا قد قرأنا

القرآن من قبل أن يفعلوا الذي فعلوه خمس عشرة سنة، وإياكم وهذه الأهواء التي تلقي بين الناس العداوة والبغضاء قال: فحدثت به الحسن فقال: صدق ونصح، وحدثت به حفصة بنت سيرين، فقالت: يا بني أحدثت بهذا محمداً؟ قلت: لا، قالت: فحدثه إذن) اهـ.

فالواجب على المسلمين: الاعتصام بالكتاب والسنة، ولن يتم ذلك إلا بالبعد عن الافتراق والبدعة وملازمة الاتباع، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿**اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿**فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى**﴾ [طه: ١٢٣]، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة هكذا فسرها السلف.

قال الشوكاني رحمه الله: (انتصب صراط على أنه بدل من الأول، وفائدته التوكيد لما فيه من الثنية والتكرير، ويجوز أن يكون عطف بيان، وفائدته الأيضاح، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال: ﴿**وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام) اهـ.

قال ابن كثير **رحمه الله**: (قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد ﴿**أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبدي ولعبدي ما سألت»، وقوله تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحاة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم.

والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ**﴾

وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٥﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٧٥﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، وقال الضحاك عن ابن عباس: صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين؛ وذلك نظير ما قال ربنا تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ الآية.

وقال أبو جعفر الرازي: عن الربيع بن أنس صراط الذين أنعمت عليهم قال: هم النبيون، وقال ابن جريج عن ابن عباس: هم المؤمنون، وكذا قال مجاهد وقال وكيع: هم المسلمون، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومن معه، والتفسير المتقدم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أعم وأشمل والله أعلم اهـ.

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]؛ (أي من عمل بما أمره الله به وترك ما نهاه الله عنه ورسوله فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة وهم الصديقون، ثم الشهداء والصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ثم أثنى عليهم تعالى فقال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿٦٩﴾).

وقال البخاري: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب، حدثنا إبراهيم بن سعد عن أبيه، عن عروة، عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول: «ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة»، وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول: «مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» فعلمت أنه خير، وكذا رواه مسلم من حديث شعبة عن سعد بن إبراهيم

به، وهذا معنى قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في الحديث الآخر «اللهم الرفيق الأعلى» ثلاثاً، ثم قضى، عليه أفضل الصلاة والتسليم.

ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة:

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وهو محزون، فقال له النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يا فلان ما لي أراك محزوناً؟» فقال: يا نبي الله شيء فكرت فيه، فقال: ما هو؟ قال: نحن نغدو عليك ونروح وننظر إلى وجهك ونجالسك، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك، فلم يرد النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** شيئاً، فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، فبعث النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فبشره.

وقد روي هذا الأثر مرسلًا عن مسروق، وعن عكرمة، وعامر الشعبي وقاتدة، وعن الربيع بن أنس وهو من أحسنها سنداً، قال ابن جرير: حدثنا المثنى، حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ الآية، وقال: إن أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قالوا: قد علمنا أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقته، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً، فأنزل الله في ذلك، يعني هذه الآية، فقال: يعني رسول الله «إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم، فيجتمعون في رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه، وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به، فهم في روضة يجرون ويتنعمون فيه».

وقد روي مرفوعاً من وجه آخر، فقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا عبد الرحيم بن محمد بن مسلم، حدثنا إسماعيل بن أحمد بن أسيد، حدثنا عبد الله بن عمران،

حدثنا فضيل بن عياض عن منصور، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: جاء رجل إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي من نفسي، وأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** حتى نزلت عليه ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وهكذا رواه الحافظ أبو عبد الله المقدسي في كتابه في صفة الجنة من طريق الطبراني عن أحمد بن عمرو بن مسلم الخلال، عن عبد الله بن عمران العابدي به، ثم قال: لا أرى بإسناده بأساً، والله أعلم.

وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي، حدثنا أبو بكر بن ثابت بن عباس المصري، حدثنا خالد بن عبد الله عن عطاء بن السائب، عن عامر الشعبي، عن ابن عباس: أن رجلاً أتى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فقال: يا رسول الله إنني لأحبك حتى إنني لأذكرك في المنزل فيشق ذلك علي، وأحب أن أكون معك في الدرجة، فلم يرد عليه النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** شيئاً، فأنزل الله **عَزَّ وَجَلَّ** هذه الآية، وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد عن جرير عن عطاء، عن الشعبي مرسلًا.

وثبت في صحيح مسلم: من حديث هقل بن زياد عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي «سل»، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» قلت: هو ذاك، قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر، عن عيسى بن طلحة، عن عمرو بن مرة الجهني، قال: جاء رجل إلى النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** فقال: يا رسول الله، شهدت أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، وصليت الخمس، وأديت زكاة مالي، وصمت شهر رمضان، فقال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة وهكذا- ونصب أصبعيه- ما لم يعق والديه»، تفرد به أحمد.

قال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم، حدثنا ابن لهيعة عن زبان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه، أن رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال: «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً إن شاء الله».

وروى الترمذي من طريق سفيان الثوري، عن أبي حمزة، عن الحسن البصري، عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء» ثم قال: هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو حمزة اسمه عبد الله بن جابر شيخ بصري.

وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، فقال: «المرء مع من أحب»، قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث، وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، وأحب أبا بكر وعمر **رضي الله عنهما**، وأرجو أن الله يبعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم.

قال الإمام مالك بن أنس: عن صفوان بن سليم، عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال **«بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»**، أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم.

ورواه الإمام أحمد، حدثنا فزارة، أخبرني فليح عن هلال يعني ابن علي، عن عطاء، عن أبي هريرة أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة كما تراءون- أو ترون- الكوكب الدرّي الغابر في الأفق الطالع في تفاضل الدرجات»، قالوا: يا رسول الله أولئك النبيون؟ قال: **«بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»** قال الحافظ الضياء المقدسي: هذا الحديث على شرط البخاري، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن عمار الموصلي، حدثنا عفيف بن سالم عن أيوب، عن عتبة، عن عطاء عن ابن عمر، قال: أتى رجل من الحبشة إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يسأله فقال له رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«سل واستفهم»** فقال: يا رسول الله فضلتكم علينا بالصور والألوان والنوبة، ثم قال: أفرأيت إن آمنت بما آمنت به وعملت بما عملت به، إني لكائن معك في الجنة، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«نعم، والذي نفسي بيده، إنه ليضيء بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام»**، ثم قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«من قال: لا إله إلا الله، كان له بها عهد عند الله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، كتب له بها مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة»**،

فقال رجل: كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله؟ فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إن الرجل ليأتي يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله، فتكاد أن تستنفذ ذلك كله إلا أن يتغمده الله برحمته»، ونزلت هذه الآيات ﴿هَلْ أَرَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١﴾ - إلى قوله - ﴿نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ١-٢]، فقال الحبشي: وإن عيني لريان ما ترى عينك في الجنة؟ فقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «نعم» فاستبكي حتى فاضت نفسه، قال ابن عمر: فلقد رأيت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يدلبيه في حفرته بيديه، فيه غرابة ونكارة وسنده ضعيف. ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي من عند الله برحمته، وهو الذي أهلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ۝٧﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق) اهـ.

وقال الشنقيطي **رَحْمَةُ اللَّهِ فِي "أضواء البيان" بعد أن ذكر الذين أنعم الله عليهم:**
(تنبيهان:

الأول: يؤخذ من هذه الآية الكريمة صحة إمامة أبي بكر الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**؛ لأنه داخل فيمن أمرنا الله في السبع المثاني والقرآن العظيم - أعني الفاتحة - بأن نسأله أن يهدينا صراطهم، فدل ذلك على أن صراطهم هو الصراط المستقيم.

وذلك في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾، وقد بين الذين أنعم عليهم، فعد منهم الصديقين، وقد بين **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أن أبا بكر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** من الصديقين، فاتضح أنه داخل في الذين أنعم الله عليهم، الذين أمرنا الله أن نسأله الهداية إلى صراطهم، فلم يبق لبس في أن أبا بكر الصديق **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** على الصراط المستقيم، وأن إمامته حق.

الثاني: قد علمت أن الصديقين من الذين أنعم الله عليهم، وقد صرح تعالى بأن مريم ابنة عمران صديقة في قوله: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وإذن فهل تدخل مريم في قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أو لا؟

الجواب: أن دخولها فيهم يتفرع على قاعدة أصولية مختلف فيها معروفة، وهي: هل ما في القرآن العظيم والسنة من الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور تدخل فيه الإناث أو لا يدخلن فيه إلا بدليل منفصل؟ فذهب قوم إلى أنهن يدخلن في ذلك، وعليه: فمريم داخلة في الآية، واحتج أهل هذا القول بأمرين:

الأول: إجماع أهل اللسان العربي على تغليب الذكور على الإناث في الجمع.
والثاني: ورود آيات تدل على دخولهن في الجموع الصحيحة المذكرة ونحوها، كقوله تعالى في مريم نفسها: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَدَاتِينِ ١٢﴾ [التحریم: ١٢]، وقوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ٢١﴾ [يوسف: ٢٩]، وقوله في بلقيس: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ٤٣﴾ [النمل: ٤٣]، وقوله فيما كالجمع المذكر السالم: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية [البقرة: ٣٨]؛ فإنه تدخل فيه حواء إجماعاً.

وذهب كثير إلى أنهن لا يدخلن في ذلك إلا بدليل منفصل. واستدلوا على ذلك بآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِيهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ثم قال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]، فعطفهن عليهم يدل على عدم دخولهن.

وأجابوا عن حجة أهل القول الأول بأن تغليب الذكور على الإناث في الجمع ليس محل نزاع، وإنما النزاع في الذي يتبادر من الجمع المذكور ونحوه عند الإطلاق، وعن الآيات بأن دخول الإناث فيها إنما علم من قرينة السياق ودلالة اللفظ، ودخولهن في حالة الاقتران بما يدل على ذلك لا نزاع فيه.

وعلى هذا القول: فمریم غير داخلة في الآية وإلى هذا الخلاف أشار في "مراقي السعود" بقوله:

وما شمول من للأُنثى جنف ❀❀ وفي شبيهه المسلمين اختلفوا
اهـ.

فهذه الآية دالة على وجوب سؤال الله **عَزَّجَلَّ** الهداية التامة التي لا تكون إلا بالعلم والعمل، وفي هذا من الترغيب في طلب العلم ما يكون حافزاً لأهل الحق في التزود منه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فإن الله **عَزَّجَلَّ** أرسل رسله بالعلم والعمل، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ لِّقِي لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝﴾ [الفتح: ٢٨]، ففي هذه الآية وجوب الأخذ بالدليل والبعد عن التقليد، لأن المنعم عليهم هم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان لا أصحاب التقليد والحدس والظن والرأي الفاسد، وفيها أن الحق واحد؛ وهو الطريق الوسط العدل الخيار الذي قال الله **عَزَّجَلَّ** عنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۝﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولا شك أن الحق هدى بين ضلالين ونور بين ظلامين وحق بين باطلين.

وفيه فضل الصحابة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** على غيرهم، فهم ذروة المنعم عليهم؛ صحبوا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وهاجروا وصلوا معه **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** ورضوا عنه كما ذكر الله تعالى في آيات عدة من كتابه، وفيما صح عن ابن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «إن الله نظر في

قلوب العباد فرأى قلب محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ».

وفيه: أن لا سبيل لسلك هذا الطريق إلا بعون الله **عَزَّجَلَّ** وتوفيقه للعبد؛ إذ العبد بحاجة إلى هذه الهداية أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب بل والنفس، فإنه يفقد هذه النعمة العظيمة يقع عليه العطب الدنيوي والأخروي والخسران المبين.

وفيه: أن العلم المأمور به هنا هو علم الكتاب والسنة على فهم سلف رضوان الله عليهم، لا علم الكلام ولا الرأي، وذلك لأن الهدى في علم السلف على ما بينه العلماء، ومن ذلك رسالة ابن رجب «**فضل علم السلف على الخلف**».

وفيه: أهمية التوحيد ومتابعة رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إذ هو أعظم ما يهدي إليه، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةٌ**﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]، فالاهتداء التام لأهل التوحيد والمتابعة لرسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**.

وفيه: دليل على فقر الإنسان وحاجته إلى الله **عَزَّجَلَّ**، فإن السؤال والطلب دال على ذلك، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿**يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥].

وفيه: دليل على وجوب التوكل والاعتماد على الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**؛ إذ القلوب بين أصبعين من أصابعه يصرفها تعالى كيف يشاء، كما صحت بذلك الأحاديث. وفيه التحذير من البدع؛ إذ هي مخالفة للصراط، فكل ما خالف الكتاب والسنة قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً فليس من الهدى في شيء، بل هو من الضلال، قال رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «فإن، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»، وقال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ففيه التحذير من البدع كما تقدم، وفيه رد علي أصحاب دعاة التقريب سواء التقريب بين الأديان أو التقريب بين السنة والشيعه أو التقريب بين الجماعات الإسلامية فالصراط واحد ولا يجوز مخالفته ولا التنازل عنه بحال قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقد قال الله **عَزَّجَلَّ** عن حال المبطلين: ﴿وَدُوًّا لَّو تُذْهِنَ فَيَذْهَبُونَ﴾ [القلم: ٩]، فلا يجوز للمسلم أن يتنازل عن شيء من دينه إلى غير ذلك من الفوائد التي تدل على بركة كتاب الله **عَزَّجَلَّ**، وقد قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وفيه أن الإنعام على هذه الطائفة إنما حصل لهم بسلوك الصراط المستقيم جزاء من ربك عطاء حساباً، فلا بد من العمل قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، قال: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ففيه رد على المرجئة الذين يخرجون الأعمال عن مسمى الإيمان، إذ الإيمان عند أهل السنة قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوارح والأركان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

وفي هذا بيان لمنهج أهل السنة الحق؛ الطائفة المنصورة التي أثنى عليها رسول الله بقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ:** «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون»، فكان ظهورهم وحفظهم بأخذهم بالصراط المستقيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، والله أعلم.

قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ٧.

ثبت تفسير ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ باليهود، و﴿الضَّالِّينَ﴾ ٧ بالنصارى، عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون»، أخرجه أحمد وغيره وفيه كلام، وعن عبد الله بن شقيق عن سمع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم بوادي القرى وسأله رجل - من بني القين - من المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «اليهود»، قال فمن الضالون؟ قال: «النصارى»، أخرجه أحمد.

فالمغضوب عليهم اليهود ومن شابههم ممن عرف الحق وترك العمل به، والضالون النصارى الذين عملوا بغير علم ومن شابههم فضلوا وأضلوا.

وفي الحديث: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الصدور ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق علماً، اتخذ الناس رءوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، وفي رواية البخاري: «أفتوا برأيهم فضلوا وأضلوا»، أخرجاه عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولهذا قال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللهُ: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى)، وكلا الفريقين مغضوب عليهم وضال، سواء اليهود أو النصارى.

قال الشوكاني في تفسيره: (وغير المغضوب عليهم بدل من الذين أنعمت عليهم، على معنى: أن المنعم عليهم هم الذين سلموا من غضب الله والضلال، أو صفة له على معنى: أنهم جمعوا بين النعمتين نعمة الإيمان والسلامة من ذلك، وصح جعله صفة للمعرفة مع كون (غير) لا تتعرف بالإضافة إلى المعارف لما فيها من الإبهام، لأنها هنا غير مبهمة لاشتتار المغايرة بين الجنسين).

والغضب في اللغة، قال القرطبي: الشدة، ورجل غضوب: أي شديد الخلق، والغضوب: الحية الخبيثة لشدتها.

و (لا) في قوله ولا الضالين تأكيد النفي المفهوم من (غير).

والضلال في لسان العرب، قال القرطبي: هو الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق، ومنه ضل اللبن في الماء: أي غاب، ومنه ﴿أَوَدَّا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]؛ أي غبنا بالموت وصرنا ترابا) اهـ بتصرف.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، يعنى اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم، وهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة لله ورسوله، وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه، غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق، وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين، وهما طريقتا اليهود والنصارى.

وقد زعم بعض النحاة أن (غير) هاهنا استثنائية، فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى، لقول الشاعر:

كأنك من جمال بني أقيش ❀❀ يقعقع عند رجليه بشن
أي: كأنك جمل من جمال بني أقيش، فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ أي: غير صراط المغضوب عليهم.

اكتفى بالمضاف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل عليه سياق الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

ومنهم من زعم أن (لا) في قوله: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾ زائدة، وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين، واستشهد بيت العجاج:

(في بئر لا حور سرى وما شعر)

أي: في بئر حور، والصحيح ما قدمناه.

ولهذا روى أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن، عن أبي معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عمر بن الخطاب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أنه كان يقرأ: (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)، وهذا إسناد صحيح، وكذا حكى عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك، وهو محمول على أنه صدر منه على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه؛ من أنه إنما جيء بها لتأكيد النفي، لئلا يتوهم أنه معطوف على **﴿الَّذِينَ أَعْمَتَ عَلَيْهِمْ﴾**، وللفرق بين الطريقتين، لتجنب كل منهما؛ فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم؛ ولهذا كان الغضب لليهود، والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب، بخلاف من لم يعلم.

والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه، لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو إتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال فيهم: **﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾** [المائدة: ٦٠]، وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال: **﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** [المائدة: ٧٧]، وبهذا جاءت الأحاديث والآثار، وذلك واضح بين.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت سماك بن حرب، يقول: سمعت عباد بن حبيش، يحدث عن عدي بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فأخذوا عمتي وناسا، فلما أتوا بهم إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** صفوا له، فقالت: يا رسول الله، ناء الوافد وانقطع الولد، وأنا

عجوز كبيرة، ما بي من خدمة، فمن علي من الله عليك، قال: «من وافدك؟»، قالت: عدي بن حاتم، قال: «الذي فر من الله ورسوله!»، قالت: فمن علي، فلما رجع، ورجل إلى جنبه، ترى أنه علي، قال: سليه حملانا، فسألته، فأمر لها، قال: فأتتني فقالت: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، فأتته فإذا عنده امرأة وصبيان أو صبي، وذكر قريهم من النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيصر، فقال: «يا عدي، ما أفرك أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟»، قال: «ما أفرك أن يقال: الله أكبر، فهل شيء أكبر من الله، **عَزَّجَلَّ؟**»، قال: «فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر»، وقال: «المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى»، وذكر الحديث، ورواه الترمذي، من حديث سماك بن حرب، وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه، قلت: وقد رواه حماد بن سلمة، عن سماك، عن مري بن قطري، عن عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** عن قول الله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، قال: «هم اليهود» ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)، قال: «النصارى هم الضالون»، وهكذا رواه سفيان بن عيينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي، عن عدي بن حاتم به، وقد روي حديث عدي هذا من طرق، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن بديل العقيلي، أخبرني عبد الله بن شقيق، أنه أخبره من سمع النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** وهو بوادي القرى، وهو على فرسه، وسأله رجل من بني القين، فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ قال: «المغضوب عليهم - وأشار إلى اليهود - والضالون هم النصارى»، وقد رواه الجريري وعروة، وخالد الحذاء، عن عبد الله بن شقيق، فأرسلوه، ولم يذكروا من سمع النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر، فالله أعلم.

وقد روى ابن مردويه، من حديث إبراهيم بن طهمان، عن بديل بن ميسرة، عن عبد الله بن شقيق، عن أبي ذر قال: سألت رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عن المغضوب عليهم قال: **«اليهود»**، قال: قلت: الضالين، قال: **«النصارى»**.

وقال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة الهمداني، عن ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **﴿غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾** هم اليهود، **﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾** هم النصارى. وقال الضحاك، وابن جريج، عن ابن عباس: **﴿غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾** هم اليهود، **﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾** هم النصارى.

وكذلك قال الربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون، الحديث المتقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة: **﴿يَسْمَأُ أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَيُغْضِبُ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** [البقرة: ٩٠]، وقال في المائة **﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَ مَثْوِيَّةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَظْبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾** [المائدة: ٦٠].

وقال تعالى: **﴿لِوَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾** [المائدة: ٧٨-٧٩]. **﴿فَعَلَوْهُ لِبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾** [المائدة: ٧٨].

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل؛ أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفر.

وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله فقال: لا أستطيعه، فاستمر على فطرته، وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين، ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية؛ لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل، حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** اهـ.

وقال شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم": (فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً. وأنا أشير إلى بعض أمور أهل الكتاب والأعاجم، التي ابتليت بها هذه الأمة، ليجتنب المسلم الحنيف الانحراف عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم، أو الضالين.

قال الله سبحانه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَمِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].
فدم اليهود على ما حسدوا المؤمنين على الهدى والعلم.

وقد يتلى بعض المنتسبين إلى العلم وغيرهم بنوع من الحسد لمن هداه الله بعلم نافع أو عمل صالح، وهو خلق مذموم مطلقاً، وهو في هذا الموضوع من أخلاق المغضوب عليهم. وقال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٣٧ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝٣٨﴾ [النساء: ٣٦-٣٧]، فوصفهم بالبخل الذي هو البخل بالعلم والبخل بالمال، وإن كان السياق يدل على أن البخل بالعلم هو المقصود الأكبر، وكذلك وصفهم بكتمان العلم في غير آية، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ۝﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ۝١٥٩﴾ [البقرة: ١٥٩-١٦٠] الآية، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ۝﴾ [البقرة: ١٧٤] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَفُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضِبُهُمْ إِلَيَّ بَعْضٌ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦﴾ [البقرة: ٧٦].

فوصف المغضوب عليهم بأنهم يكتمون العلم: تارة بخلاً به، وتارة اعتياضاً عن إظهاره بالدنيا، وتارة خوفاً في أن يُحتج عليهم بما أظهره منه.

وهذا قد يتلى به طوائف من المنتسبين إلى العلم فإنهم تارة يكتمون العلم بخلاً به، وكرهية لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضاً عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعتزى إلى طائفة قد خولفت في مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجة لمخالفه وإن لم يتيقن أن مخالفه مبطل.

ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم.

وليس الغرض تفصيل ما يجب أو يحتسب في ذلك بل الغرض التنبيه على مجامع يتفطن اللبيب بها لما ينفعه الله به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١] بعد أن قال: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

فوصف اليهود: بأنهم كانوا يعرفون الحق قبل ظهور الناطق به، والداعي إليه، فلما جاءهم الناطق به من غير طائفة يهوونها لم يتقادوا له، وأنهم لا يقبلون الحق إلا من الطائفة التي هم منتسبون إليها، مع أنهم لا يتبعون ما لزمهم في اعتقادهم. وهذا يبتلى به كثير من المنتسبين إلى طائفة معينة في العلم، أو الدين، من المتفهمة، أو المتصوفة أو غيرهم، أو إلى رئيس معظم عندهم في الدين - غير النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم - فإنهم لا يقبلون من الدين رأياً ورواية إلا ما جاءت به طائفتهم، ثم إنهم لا يعلمون ما توجبه طائفتهم، مع أن دين الإسلام يوجب اتباع الحق مطلقاً: رواية ورأياً من غير تعيين شخص أو طائفة - غير الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم -.

وقال تعالى في صفة المغضوب عليهم: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦].

ووصفهم بأنهم ﴿يَلْوَنَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧٨]، والتحريف قد فسر بتحريف التنزيل، وبتحريف التأويل.

فأما تحريف التأويل فكثير جدا، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمة، وأما تحريف التنزيل فقد وقع في كثير من الناس، يحرفون ألفاظ الرسول، ويروون الحديث بروايات منكرة.

وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك، وربما يطاول بعضهم إلى تحريف التنزيل، وإن لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].
وأما لِي الألسنة بما يُظن أنه من عند الله فكوضع الوضاعين الأحاديث على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو إقامة ما يظن أنه حجة في الدين، وليس بحجة، وهذا الضرب من أنواع أخلاق اليهود، وذمها كثير لمن تدبره في كتاب الله وسنة رسوله، ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمة من الأحداث.

وقال سبحانه عن النصارى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، إلى غير ذلك من المواضع.

ثم إن الغلو في الأنبياء والصالحين قد وقع في طوائف من ضلال المتعبدة والمتصوفة حتى خالط كثيرا منهم من مذهب الحلول والاتحاد ما هو أقبح من قول النصارى أو مثله أو دونه.

وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١]، وفسره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأنهم: «أحلوا الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم».

وكثير من أتباع المتعبدة يطيع بعض المعظمين عنده في كل ما يأمر به وإن تضمن تحليل حرام أو تحريم حلال، وقال سبحانه عن الضالين: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد ابتلي طوائف من المسلمين من الرهبانية المبتدعة بما الله به عليهم.

وقال الله سبحانه: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ۝١١﴾ [الكهف: ٢١]، فكان الضالون - بل والمغضوب عليهم - يبنون المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وقد نهى رسول الله ﷺ أمته عن ذلك في غير موطن حتى في وقت مفارقتة الدنيا - بأبي هو وأمي -.

ثم إن هذا قد ابتلي به كثير من هذه الأمة.

ثم إن الضالين تجد عامة دينهم إنما يقوم بالأصوات المطربة، والصور الجميلة، فلا يهتمون بأمر دينهم بأكثر من تلحين الأصوات، ثم تجد قد ابتليت هذه الأمة من اتخاذ السماع المطرب، بسماع القصائد وإصلاح القلوب والأحوال به ما فيه مضاهاة لبعض حال الضالين، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْنَصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ الْنَصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، فأخبر أن كل واحدة من الأمتين تجحد كل ما الأخرى عليه.

وأنت تجد كثيرًا من المتفهمة، إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا ولا يعدهم إلا جهالًا ضلالًا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئًا، وترى كثيرًا من المتصوفة، والمتفكرة لا يرى الشريعة والعلم شيئًا، بل يرى أن المتمسك بها منقطعًا عن الله وأنه ليس عند أهلها مما ينفع عند الله شيئًا.

وإنما الصواب: أن ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حق، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا: باطل.

وأما مشابهة فارس والروم، فقد دخل في هذه الأمة من الآثار الرومية، قولاً وعملاً، والآثار الفارسية، قولاً وعملاً، ما لا يخفاء به على مؤمن عليم بدين الإسلام، وبما حدث فيه، وليس الغرض هنا تفصيل الأمور التي وقعت في الأمة، مما تضارع طريق المغضوب عليهم أو الضالين، وإن كان بعض ذلك قد يقع مغفوراً لصاحبه: إما لاجتهاد أخطأ فيه، وإما لحسنات محت السيئات، أو غير ذلك، وإنما الغرض أن نبين ضرورة العبد وفاقته إلى هداية الصراط المستقيم، وأن يفتح باب إلى معرفة الانحراف) اهـ.

فنسأل الله **عَزَّوَجَلَّ** الهداية إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

إثبات صفة الغضب لله **عَزَّوَجَلَّ**:

وفي هذه الآية وما في بابها إثبات غضب الله **عَزَّوَجَلَّ** وهو من الصفات الفعلية- غضب يليق بجلاله- وأدلته كثيرة في الكتاب والسنة منها ما تقدم من الآيات وزد على ذلك: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ﴾ [النساء: ٩٣]، ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰتَقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ [الزخرف: ٥٥]، والأسف هو شدة الغضب، والأدلة من السنة كثيرة منها حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أتى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** يوماً بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نهسة فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: اتنوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت

أبو البشر، خلقتك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسألك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله فضلك الله برسالاته، وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت الناس في المهدي، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد، فيأتوني فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنتطلق، فأتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه،

اشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيقال: يا محمد، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى» متفق عليه.

وينكر اتصاف الله **عَزَّوَجَلَّ** بهذه الصفة؛ بل وبجميع الصفات الاختيارية الأشاعرة وأشد منهم المعتزلة والجهمية مع توارد الأدلة بأن الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، وأنه يحب ويرضى ويسخط ويكره ويغضب إلى غير ذلك، وكل ذلك على ما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وهو سبحانه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

قال الطحاوي رَحْمَةُ اللَّهِ: (والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى).

قال ابن أبي العز: (فصل: ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب، والرضى، والعداوة، والولاية، والحب، والبغض، ونحو ذلك من الصفات، التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرّفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: «إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية - بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين».

وانظر إلى جواب الإمام مالك **رَحْمَةُ اللَّهِ** في صفة الاستواء: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول»، وروي أيضاً عن أم سلمة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** موقوفاً عليها، ومرفوعاً إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

وكذلك قال الشيخ رَحْمَةُ اللَّهِ فيما تقدم: (من لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه)، ويأتي في كلامه: (أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل).

فقول الشيخ رحمه الله: (لا كأحد من الوري) - نفي التشبيه، ولا يقال: إن الرضى إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام - فإن هذا نفي للصفة؛ وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريد ولا يشاء، وينهى عما يسخطه ويكرهه، ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاء وأراده، فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريد، ويكره ويسخط ويغضب لما أراد.

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك؟ فلا بد أن يقول: لأن الغضب غليان دم القلب، والرضا الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى! فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب، لا أنه الغضب.

ويقال له أيضًا: وكذلك الإرادة والمشية فينا، هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريد ومفتقر إليه، ويزداد بوجوده، وينقص بعدمه، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قالوا: الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة؟ قيل له: فقل: إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات، لم يتعين التأويل، بل يجب تركه؛ لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضًا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام، ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه عقله، إذ العقول مختلفة، فكل يقول إن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر!.

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به، ووجود الباري تعالى كما يليق به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمي به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته، مثل الحي والعليم والقدير، أو سمي به بعض صفاته، كالغضب والرضى، وسمى به بعض صفات عباده - فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى، وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركاً، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركاً إلا في الأذهان، ولا يوجد في الخارج إلا معيناً مختصاً. فيثبت في كل منهما كما يليق به. بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة - لم يجب أن يكون مماثلاً لكيفية غضب آدميين، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة، حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه، فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك، وقالوا: إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، ليس هو في نفسه متصفاً بشيء من ذلك!!

وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً، وجميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته، قديمة أزلية، فلا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت.

كما قال في حديث الشفاعة: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله».

وفي الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**:
**«إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في
يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط
أحدا من خلقك! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء
أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».**

فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم
يسخط، كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضواناً لا يتعقبه
سخط) اهـ.

قال ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٢/٢٩-٣٢): (ما وجه تفسير المغضوب عليهم
باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفى الغضب والضلال، فالجواب أن يقال
هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى، فإن كل
مغضوب عليه ضال، وكل ضال مغضوب عليه، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفها،
وأحقها به وألصقه بها، وأن ذلك هو الوصف الغالب عليهما، وهذا مطابق لوصف
الله اليهود بالغضب في القرآن، والنصارى بالضلال، فهو تفسير للآية بالصفة التي
وصفهم بها في ذلك الموضع، أما اليهود فقال تعالى في حقهم: **﴿يَسْمَأُ أَشْتَرُوا بِوَهْ
أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** [البقرة: ٩٠]، وفي تكرار
هذا الغضب هنا أقوال:

أحدها: أنه غضب متكرر في مقابلة تكرار كفرهم برسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**
والبغي عليه ومحاربتة، فاستحقوا بكفرهم غضبا، وبالبغي والصد عنه غضبا آخر
ونظيره قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ**

العَذَابِ ﴿النحل: ٨٨﴾، فالعذاب الأول بكفرهم والعذاب الذي زادهم إياه بصددهم الناس عن سبيله.

القول الثاني: أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء، والغضب الثاني بكفرهم بالمسيح.

القول الثالث: أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح والغضب الثاني بكفرهم بمحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، والصحيح في الآية أن التكرار هنا ليس المراد به التثنية التي تشفع الواحد؛ بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرار كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء وكفرهم بالمسيح وبمحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ومعاداتهم لرسول الله إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضباً على حدته وهذا كما في قوله: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝﴾ [الملك: ٣-٤]؛ أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط، وقصد التعدد في قوله:

﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، أظهر ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضباً، وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضباً آخر، وقتلهم إياهم يستدعي غضباً آخر، وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضباً وتكذيبهم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يستدعي غضباً ومحاربتهم له، وأذاهم لأتباعه يقتضي غضباً وصددهم من أراد الدخول في دينه عنه؛ يقتضي غضباً، فهم الأمة الغضبية أعادنا الله من غضبه فهي الأمة التي باءت بغضب الله المضاعف المتكرر وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى وقال تعالى في شأنهم: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ

الْفَرْدَةَ وَالْحُنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ [المائدة: ٦٠]، فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسوخ وهو أشد ما يكون من الغضب وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝﴾ كانوا

لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٦﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧٧﴾ [المائدة: ٧٨-٨٠]، وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧]، فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٢- ٧٧]، فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولاً ثم أضلوا كثيراً وهم أتباعهم فهذا قبل مبعث النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حيث ضلوا في أمر المسيح وأضلوا أتباعهم، فلما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به، فتضاعف الضلال في حقهم هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره، وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات:

إحداها: أنهم قد ضلوا من قبلهم.

والثانية: أضلوا أتباعهم.

والثالثة: أنهم ضلوا عن سواء السبيل.

فهذه صفات لأسلافهم الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم، فلا يصح أن يكون وصفاً للموجودين في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم فتأمل، وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالاً بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود، ووجه تكرار هذا الضلال أن

الضلال قد أخطأ نفس مقصوده؛ فيكون ضالاً فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبد، وقد يصيب مقصوداً حقاً لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه، فالأول ضلال في الغاية، والثاني ضلال في الوسيلة، ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله، وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي، وأنه قتل وصلب وصنع، فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتموا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيراً فكانوا أدخلوا في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإنهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كما يعرفون أبناءهم ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعههم إلا بإراداتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غير عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضاً وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوباً عليهم ضالين ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لا تبعاعه فيخرج بذلك عن طريقة

المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال كان السلف يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى وهذا كما قالوا فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود من الكفر واللي والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبس الحق بالباطل فهذا شبهه باليهود ظاهر وأما من فسد من العباد فعبد الله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين إنه قريب مجيب) اهـ.



بعض أسباب الضلال

ونذكر هنا بعض أسباب الضلال والانحراف ومن أعظمها اتباع سنن اليهود والنصارى، فعن أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «لتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن»، رواه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (السَّنَنُ بفتح السين والنون، وهو الطريق، والمراد بالشبر والذراع وحجر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر) اهـ.

وفي صحيح البخاري (٧٣١٩): عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع» فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: «ومن الناس إلا أولئك».

قال محمد بن الحسن الأجري رَحِمَهُ اللَّهُ في "الشریعة" بعد رقم (٣٥): (من تصفح أمر هذه الأمة من عالم عاقل، علم أن أكثرهم والعام منهم تجري أمورهم على سنن أهل الكتابين، كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أو على سنن كسرى وقيصر، أو على سنن الجاهلية، وذلك مثل السلطنة وأحكامهم في العمال والأمراء وغيرهم، وأمر المصائب والأفراح والمسكن واللباس والحلية، والأكل والشرب والولائم، والمراكب والخدام والمجالس والمجالسة، والبيع والشراء، والمكاسب من جهات كثيرة، وأشبه لما ذكرت يطول شرحها تجري بينهم على خلاف السنة والكتاب، وإنما تجري بينهم على سنن من قبلنا، كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، والله

المستعان، ما أقل من يتخلص من البلاء الذي قد عم الناس، ولن يميز هذا إلا عاقل عالم قد أدبه العلم) اهـ.

أقول هذا في زمنه **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى فكيف لو رأى حال الناس في هذه الأعصار وفي كثير من الأمصار؛ وقد تسلط الكفار وقويت شوكتهم وقلدهم الناس في الملبس والمأكل والمشرب وأمور الدُّول في الجيوش والألعاب، والله المستعان من غربة الزمان، ومع ذلك لن يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً يحفظه الله **عَزَّوَجَلَّ** إنجازاً لوعده بالطائفة المنصورة والفرقة الناجية.

ومن أسباب الوقوع في الضلال أيضاً اتباع المتشابه من الأدلة لغرض رد الكتاب والسنة بدعوى التعارض وقد حذرنا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من هذا الصنف كما في حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: تلا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** هذه الآية: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: آمنّا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب قالت: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ»، رواه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

وقد ضل المبتدعة في باب الأسماء والصفات وباب الإيمان باليوم الآخر من هذا الباب حيث زعموا أن أدلته من باب المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله **عَزَّوَجَلَّ**، والصحيح من الأقوال أن آيات وأحاديث الصفات من باب المحكم البين الواضح. ومن أسباب الضلال والانحراف عن طريق أهل الحق وعن سبيل السلف؛ الجدل بالباطل، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤]، وفي حديث أبي أمامة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «ما ضل قوم بعد

هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم تلا رسول الله هذه الآية **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]، أخرجه الترمذي (٣٢٥٣). ويدخل في هذا الاختلاف في الكتاب والتخاصم بالباطل، ففي مسلم (٢٦٦٦) عن عبد الله بن عمرو **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قال: هجرت إلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يوما، قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنا هلك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (المراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم في الدين بكفرهم وابتداعهم، فحذر رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من مثل فعلهم) اهـ. ومنها الغلو في الدين فإنه سبب للهلاك والانحراف عن طريق السلف وطريق الاستقامة إلى طريق الخلف، ففي مسلم (٢٦٧٠) عن عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** هلك المتنطعون، أي المتعمقون الغالون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم) اهـ. والأدلة في النهي عن الغلو كثيرة؛ لما فيه من الهلكة على صاحبه لانقطاعه بعد ذلك، وعلى غيره لأنه سبب لتفكيرهم وصددهم عن الخير والغلو يكون بالتفريط والإفراط، قال الله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧]، وأهل الكتاب يشمل اليهود والنصارى وكلهم غلا في عيسى **عَلَيْهِ السَّلَام**، فالنصارى ألوهة واليهود اتهموه أنه ولد زنا والله المستعان.

ومن أسباب الهلكة الفتور عن السنة والطريقة السلفية، ففي حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لكل عمل شرة، ولكل شرة فترة، فمن

كانت فترته إلى ستي، فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»، رواه الترمذي (٢٤٥٣)، وأحمد (٢/٢١٠) واللفظ له.

ومن أسبابها علماء السوء وأصحاب الرأي والأقيسة الفاسدة، ففي البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، عن عبد الله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إن الله لا يقبض هذا العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»، وفي رواية للبخاري (٧٣٠٧): «يفتون برأيهم».

فيجب علينا لزوم السنة، قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، والأسوة القدوة، والأسوة ما يتأسى به، أي: يتعزى به فيقتدي به في جميع أفعاله، ويتعزى به في جميع أحواله.

واختلف في هذه الأسوة بالرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** هل هي على الإيجاب أو على الاستحباب؟ على قولين:

أحدهما: على الإيجاب حتى يقوم دليل على الاستحباب.

والثاني: على الاستحباب حتى يقوم دليل على الإيجاب.

ويحتمل أن يحمل على الإيجاب في أمور الدين، وعلى الاستحباب في أمور الدنيا، أفاده القرطبي.

والحق أن أمر النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يدل على الوجوب حتى يصرفه صارف إلى الاستحباب وغيره، ففي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «ما نهيتكم عنه، فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم» أخرجاه في الصحيحين، البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) واللفظ له.

وفي حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** في الصحيحين البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨) قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رد»، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الرّدّ هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير معتدّ به. وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فإنه صريح في ردّ كل البدع والمخترعات.

وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول أنا ما أحدثت شيئاً، فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها، وفي الحديث دليل لمن يقول من الأصوليين أن النهي يقتضي الفساد، ومن قال لا يقتضي الفساد قال هذا خبر واحد ولا يكفي في إثبات هذه القاعدة المهمة، وهذا جواب فاسد. وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به) اهـ.

ومن هذه الآية علمنا انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام:

قسم أهل هدى: وهم الذين أنعم الله عليهم فأعانهم ووفقهم وسددهم لكل خير ورضي فعلهم ودافع عنهم وحارب من حاربهم وهم أهل الإسلام عامة وأهل السنة خاصة، ولو تأملنا سبب إنعام الله **عَزَّ وَجَلَّ** على هؤلاء بالهداية وتجنّبهم طريق الغواية لوجدنا ذلك يتلخص في أمرين قد أشير إليهما قبل وهما: العلم والعمل.

فالعلم أجل نعمة في الإسلام، إذ به يعرف التوحيد من الشرك والسنة من البدعة والطاعة من المعصية، وهو المفتاح الذي يفتح به باب الإسلام العظيم، وقد علمنا أن أول ما أنزل الله **عَزَّ وَجَلَّ** على نبيه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خمس آيات من أول سورة العلق حثه فيها على العلم، قال تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ**

عَلَيْكَ ﴿٢﴾ أَقْرَأَ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴿[العلق: ١-٥]، وامتن الله على نبيه به فقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وأمره بالاستزادة منه، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٧٤﴾﴾ [طه: ١٧٤]، وأخبر تعالى أن أهل خشيته حقًا وعبادته صدقًا هم أهل العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: ٢٨]، وأخبر أنه سبب الرفعة في الدارين: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]، والمهم أن أصحابه لهم المنزلة الرفيعة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ٩]، وكفى به أنه علامة إرادة الله عز وجل الخير للعبد، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين» أخرجاه عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ذم الله عز وجل في كتابه من لا يعمل بعلمه، وضرب له أسوأ الأمثال، حيث شبهه بالكلب والحمار، قال تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥]، وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مررت ليلة أسري بي على أناس، تقررهم بمقاريض من نار، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك»، أخرجه أبو يعلى، وما كان الله عز وجل ليعذب من يدل على الخير إلا لتقصيره ومخالفة القول بالعمل.

قال الخطيب البغدادي في "اقتضاء العلم العمل" (١٥٨): (ثم إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً، وقيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل، والرواية مع الدراية فلا تأنس بالعمل ما دمت مستوحشا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل ولكن اجمع بينهما، وإن قل نصيبك منهما) اهـ.

فإن العالم والداعي إلى الله **عَزَّجَلَّ** إذا عمل بعلمه كان عمله ذلك دعوة في حد ذاته، ومحبباً للداعي إلى الناس، بينما إذا كان الداعي من المقصرين في هذا الجانب فسيكون حال المدعو لو كان خيراً لسبقونا إليه، وكم من جاهل أتبع بسبب عبادته في جهله.

وقال الخطيب: (وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقته، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته) اهـ.

ولا وصل إلى الله **عَزَّجَلَّ** على طريقة مرضية إلا بالعمل بالعلم، يدل على ذلك حديث أسامة بن زيد عند الشيخين قال: قال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية».

قال ابن القيم في "طريق الهجرتين" (١٨٣): (قاعدة: السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدتها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشى به في ليلة عظيمة مظلمة

شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعطباها، وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر) اهـ.

ولا فلاح ولا نجاح لأي إنسان عالمًا أو داعيًا إلا بالإيمان والعمل الصالح، والإيمان كما تقدم يكون بالعلم النافع، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

قال ابن القيم في "المدارج" (٦/١): (أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما) اهـ.

وقد أخبر الله عزَّجَلَّ؛ بل وأقسم أن الفلاح يقع لمن زكى نفسه، والتزكية إنما تكون بالعلم والعمل، فإذا فعل ذلك أفلح دنيا وأخرى، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ ۝١ وَضُحَاهَا ۝٢ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ۝٣ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ۝٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٥ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَدَهَا ۝٦ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا ۝٧ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٨ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٩ قَدْ أَفْلَحَ مَن رَّكَدَهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١-٩].

قال الخطيب البغدادي رحمه الله في "اقتضاء العلم العمل" (١٥٩): (وكما لا تنفع الأموال إلا بإنفاقها، كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها، وراعى واجباتها فلينظر امرؤ لنفسه، وليغتتم وقته، فإن الشواء قليل والرحيل قريب، والطريق مخوف، والاعتزاز غالب، والخطر عظيم، والناقد بصير، والله تعالى بالمرصاد، وإليه المرجع

والمعاد: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۗ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۗ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨] اهـ.

ولو لم يكن من مساوي عدم العمل بالعلم إلا أنه شبه صاحبه باليهود، كما قال سفيان: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى.

قال ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/١١١): (ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به، ومن هنا كان اليهود أحق به، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى في حقهم: ﴿بِسْمَا آسْتَرُوا بِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْحَتَايِرَ وَعَبَدَ الظُّلُومَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]، والجاهل بالحق أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] اهـ.

والذي لا يعمل بعلمه قد أقيمت عليه الحجة، فما عذره أمام الله عز وجل كما في الحديث: «والقرآن حجة لك أو عليك»، حجة لك إذا عملت به، وحجة عليك إن هجرته ولم تعمل به، والذي لا يعمل بعلمه من أوائل المعذبين.

وكما قيل:

وعالم بعلمه لم يعملن ❀❀ معذب قبل عباد الوثن
واستدل على هذا القول بحديث أبي هريرة عند مسلم: «أول ما يقضى يوم القيامة بين العباد ثلاثة»، وفي لفظ النسائي «أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة، وذكر

منهم: ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتى به فعرفه نعمه، فعرفها، فقال: ما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب» قال أبو عبد الرحمن: ولم أفهم تحب كما أردت «أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكن ليقال إنه جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، فألقي في النار.»

وقد علم السلف رضوان الله عليهم أن العمل بالعلم من أسباب السيادة والريادة، ومن أسباب النصر والتمكين.

فهاك بكر بن حماد كما في "جامع بيان العلم" رقم (١٢١٧): يقول في إمام أهل السنة

أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني:

وإذا امرؤ عملت يدها بعلمه ❀❀ نودي عظيمًا في السماء مسودًا
وروي عن عبد الله بن مسعود قوله: إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن أخطأ قوله فعله، فإنما يوبخ نفسه، أخرجه ابن عبد البر في "جامع بيان العلم وفضله" (١٢٣٣).

وقد تقدم أن الدعوة بالعمل أبلغ من الدعوة بالقول، قال المأمون: نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال.

وقد تقدم ﴿وَالْعَلْقَبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٧٨)، وإنما تكون تقوى العبد بقدر علمه، فكلما زاد علمه زاد تقواه، كما في الحديث: «إني أتقاكم لله»، قال أبو الدرداء: لا تكون تقياً حتى تكون عالماً، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً، أخرجه الخطيب في

"اقتضاء العلم العمل" (١٦-١٧)، وذكر ابن عبد البر في "جامع بيان العلم" (١٢٤٢):
عن سفيان الثوري أنه كان يتمثل بقول الشاعر سائق البربري:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ❀❀ ولم تعذر بما أنت جاهله
فإن كنت قد أتيت علمًا فإنما ❀❀ يصدق قول المرء ما هو فاعله
وقال أيضًا رقم (١٢٤٤): وأنشد الرياشي **رَحِمَهُ اللهُ:**

ما من روى أدبا فلم يعمل به ❀❀ ويكف عن زيغ الهوى بأديب
حتى يكون بما تعلم عاملاً ❀❀ من صالح فيكون غير معيب
ولقلمما تجدي إصابة عالم ❀❀ أعماله أعمال غير مصيب
قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ في "صيد الخاطر" (٣٨٥): (رأيت أكثر العلماء مشغولين
بصورة العلم دون فهم حقيقته ومقصوده).

وقال: (وليس العلم صور الألفاظ؛ إنما المقصود فهم المراد منه، وذاك يورث
الخشية والخوف، ويرى المنة للمنعم بالعلم، وقوة الحججة له على المتعلم.
نسأل الله **عَزَّوَجَلَّ** يقظة تفهمنا المقصود، وتعرفنا المعبود، ونعوذ بالله من سبيل
رعاع يتسمون بالعلماء، لا ينهاتهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبرون
على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى، وقد نهوا عما يأخذون، غلبتهم
طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أحس حالًا من العوام الذين
يجهلون، ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾
[الروم:٧] اهـ.

وكلما كان الداعي إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** عاملاً بعلمه انتفع الناس بمواعظه والعكس.
قال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل زالت موعظته من القلوب كما يزل
القطر عن الصفاء.

وقال زياد بن أبي سفيان: إذا خرج الكلام من القلب يقرع القلب، وكلام اللسان يمر على القلب سفاحا.

والداعي الذي لم يعمل بعلمه يزهّد الناس في دعوته، ورحم الله ابن القيم إذ يقول في «**الفوائد**» (٢٤٩): (علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق) اهـ.

وقد بين هذه الأوصاف رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كما في حديث حذيفة عند الشيخين: «**دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها**»، قال يا رسول الله: صفهم لنا، قال: «**قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا**».

وما قلناه من أن العمل بالعلم من أسباب نصرّة الدعوة الحقّة، عليه العلماء سابقا ولاحقا كما تقدمت النقول.

ورحم الله ابن القيم إذ يقول في "مدارج السالكين" (٤٤٦/١): (النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لا يعمل بعلمه ولا ينتفع به) اهـ.

وقال الزهري: لا يرضين الناس قول عالم لا يعمل ولا عامل لا يعلم، أخرجّه الخطيب في «**اقتضاء العلم العمل**» (١٤).

وقال أيضًا (٤٤٧/١): (وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له، المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء، فكن أول المنتهين عنه) اهـ.

ويدل على كل ما تقدم حديث النّوّاس بن سمعان عند مسلم قال: سمعت النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة، وآل عمران»، وضرب لهما رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** ثلاثة

أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»، والله المستعان وعليه التكلان، وهو حسبي ونعم الوكيل.

والقسم الثاني: المغضوب عليهم؛ وهم اليهود على الإطلاق ويدخل فيهم كل من عرف الحق وخالفه عمدا وقصدا فهو معرض لغضب الله **عَزَّجَلَّ** عليه، ومن غضب الله عليه انتقم منه، وربما كان ذلك في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اٰتَقَمْنَا مِنْهُمُ فَاَعْرَفْنَاهُمْ اٰجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥]، وأعظم مسببات غضب الرب تعالى (الشرك بالله)، فإنه الذنب العظيم الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿اِنَّ اِلٰهَ اللّٰهِ لَا يَغْفِرُ اَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّٰهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلٰلًا بَعِيْدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦]، ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا وُجِدَ النَّارُ وَمَا لِلظّٰلِمِيْنَ مِنْ اَنْصَارٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣]، ﴿اِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ١٣]، ومن مغضبات الله **عَزَّجَلَّ** البدعة ومخالفة هدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِيْنَ يُخَالِفُوْنَ عَنْ اَمْرِىْ اَنْ يُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ اَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنٰفِقِيْنَ وَالْمُنٰفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِيْنَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَالظّٰلِمِيْنَ بِاللّٰهِ ظَلَمَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَعَصِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَاَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ سَآءَتْ مَصِيْرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦]، ومنها قتل النفس المحرمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خٰلِدًا فِيْهَا وَعَصِبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَاَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيْمًا ﴿١٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]، ومنها موالاتة الكفار والسعي انشراح صدورهم بالكفر وغيره من العظائم، قال تعالى: ﴿وَلٰكِنْ مِّنْ شَرَحٍ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّٰهِ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦]، ومنها الكذب لاسيما فيما يتعلق بالأعراض، قال تعالى: ﴿وَالْحٰمِصَةُ اَنَّ غَضَبَ اللّٰهِ عَلَيْهَا

إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ [النور:٩]، ومنها الجدل بالباطل قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ وَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾ [الشورى:١٦]، ومنها الطغيان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه:٨١]، وما ترى من أسباب زوال الأمم وتدمير الشعوب وتغير الأحوال إلا لغضب الله **عَزَّوَجَلَّ** على من أعرض عن طاعته وتوحيده واتباع سنة نبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وحاربه بالشرك والتنديد وغير ذلك، وقد أغرق الله قوم نوح بالطوفان، وأهلك قوم عاد بالريح العاتية، وقوم ثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف، وقوم مدين بالظلة، وقوم فرعون بالإغراق في اليم، وقريش بالقتل يوم بدر لما غضب الله عليهم؛ بسبب ما هم عليه من البغي والكبر والشرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ذلك ما دمر الله به على قوم سبأ لما أعرضوا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ:١٥-١٧]، ولا يغير الله **عَزَّوَجَلَّ** حال العبد إلى الخير حتى يغير ما بنفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١٨].

والقسم الثالث: الضالون، وهم عند الإطلاق النصارى، ويدخل فيهم كل من ترك العلم وزهد فيه، ولهذا السبب يرتكب البدع والمحدثات، ومن ضلال هذه الأمة الخوارج الذين يأخذون ظاهرًا من القرآن والسنة -زعموا- بعيدًا عن الفهم الصحيح، ويقع منهم ما يقع من القتل والقتال في المسلمين، وهكذا القول في كل مسألة، تجد الناس ثلاثة أصناف: أصحاب غلو، وجفاء، وهدى مستقيم، فالزم

الهدى تفلح أيها المسلم ولن تجده إلا في الكتاب والسنة الصحيحة، بعيدا عن الأفيسة الفاسدة والآراء الكاسدة وبالله التوفيق.

والناس في هذه الأقسام بين مستقل ومستكثر، فعلى المسلم أن يبذل قصارى جهده في أن يكون من المنعم عليهم في الدارين، فكلما زاد علمه وعمله به؛ كان إلى المنعم عليهم أقرب، وكلما زاد جهله وإعراضه؛ كان إلى الضلال أقرب، وكلما علم وأعرض عن العمل؛ كان إلى المغضوب عليهم أقرب.

وفي الآية تحريم مشابهة الكفار سواء كان ذلك في معتقداتهم أو أفعالهم، فمن تشبه بقوم فهو منهم، وذلك مأخوذ من قوله: ﴿عَبْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)، فإن التشبه بمن غضب الله عليه والضالين يكون من أسباب حصول الضلال للبعد والغضب عليه من الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٣١) [الروم: ٣١] - [٣٢]، فليحذر العبد على نفسه لاسيما في زمننا هذا، إذ قد ظهر التشبه بهم بالأقوال والأفعال والمعتقدات إلا من رحم الله تعالى.

قال شيخ الإسلام في "اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم": (ومع أن الله قد حذرنا سبيلهم، فقضاؤه نافذ بما أخبر به رسوله، مما سبق في علمه، حيث قال فيما خرجاه في الصحيحين: عن أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لتبعن سنن من كان قبلكم حدو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن».

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون، شبرا بشبر، وذراعا بذراع»، فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ قال: «ومن الناس إلا أولئك؟».

فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخباراً عن جميع الأمة، بل قد تواتر عنه: أنه قال «لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة».

وأخبر **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة وأن الله لا يزال يغرّس في هذا الدين غرساً يستعملهم فيه بطاعته».

فعلم بخبره الصدق أنه في أمته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضاً، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف، بل وقد لا يفسق أيضاً، بل قد يكون الانحراف كفراً، وقد يكون فسقاً، وقد يكون معصية وقد يكون خطأً.

وهذا الانحراف أمر تتقاضاه الطباع ويزينه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلاً اهـ.

وقد تنوعت مشابهة الكفار، فتابعهم كثير من الناس في الغلو؛ فغلو في قبور من يسمونهم بالأولياء حتى صرفوا لها العبادات، وبنوا عليها القباب تشبهاً بالنصارى ومن إليهم، ففي الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين، أن أم حبيبة، وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فقال: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة».

وشابهوهم في أعيادهم؛ فأحدثوا الموالد وغير ذلك، وفي حديث ثابت بن الضحاك: «هل كان فيها عيد من أعيادهم»، نهياً عن التشبه بهم في ذلك، وشابهوهم في ملابسهم وصح عن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عند مسلم: عن عبد الله بن عمرو،

قال: رأى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** علي ثوبين معصفرين، فقال: «أملك أمرتك بهذا؟» قلت: أغسلهما، قال: «بل أحرقهما».

وشابهوهم في لغتهم، قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» نقلا عن الشافعي **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ولهذا نقول: ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها؛ لأنه اللسان الأولى بأن يكون مرغوبا فيه من غير أن يحرم على أحد أن ينطق بأعجمية، فقد كره الشافعي لمن يعرف العربية، أن يسمي بغيرها، وأن يتكلم بها خالطاً لها بالعجمية، وهذا الذي قاله الأئمة متأثر عن الصحابة والتابعين).

ومن أعظم ما شابهوهم فيه الأخذ بالديموقراطية؛ التي هي حكم الشعب نفسه بنفسه، وفيها إزاحة لدين الله **عَزَّوَجَلَّ** من حياة الإنسان، فهي دعوى إلى المساواة بين الرجال والنساء، والمؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، وفيها إزاحة لحكم الله **عَزَّوَجَلَّ** وتقديم حكم الشعب، وفيه كل بلاء، على ما بيته في كتابي: «الأدلة الرضية في حكم الديموقراطية».

ومنه التحزبات التي فرقت الأمة إلى طرق شتى، لا يجتمعون على قول، والسبب أنهم تركوا شرع الله الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ وأخذوا بزبالة أفكار الأمم قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ ﴿٨٥﴾ [النساء: ٨٢]، والحمد لله.



الخاتمة

وبهذا أكون قد انتهيت مما أردت تسطيره هنا، وإلا فالكلام عليها يطول لما تقدم من جمعها للجمل العظيمة في الدين.

قال ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ: (اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات، على حمد الله وتمجيده والثناء عليه، بذكر أسمائه الحسنی المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاده عبيده إلى سؤاله والتضرع إليه، والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالألوهية **بَبَارِكْ وَتَعَالَى**، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم ذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة، ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل؛ لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون.

وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى: ﴿**غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ**﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**﴾ الآية [المجادلة: ١٤]، وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به، وإن كان هو الذي أضلهم بقدره، كما قال تعالى: ﴿**مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا**﴾ [الكهف: ١٧]، وقال: ﴿**مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٦]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه

هو المنفرد بالهداية والإضلال، لا كما تقوله الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم، من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه، ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن، ويتركون ما يكون فيه صريحا في الرد عليهم، وهذا حال أهل الضلال والغي، وقد ورد في الحديث الصحيح: **«إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمي الله فاحذروهم»**، يعني في قوله تعالى: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾** [آل عمران:٧]، فليس -بحمد الله- لمبتدع في القرآن حجة صحيحة؛ لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل مفرقا بين الهدى والضلال، وليس فيه تناقض ولا اختلاف؛ لأنه من عند الله، تنزيل من حكيم حميد) اهـ.

وهذه الآية دلت بمفهومها على إثبات الرسل؛ فإن المغضوب عليهم والضالون هم المخالفون للرسل، والمنعم عليهم أصحاب الصراط المستقيم هم الرسل والأنبياء ومن سار على سيرهم كما تقدم، والإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة.

قال ابن أبي العزيم رحمه الله في "شرح الطحاوية": (وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمي الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص، وقد قال تعالى: **﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾** [النساء:٦٤]، وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾** [غافر:٧٨].

وعلىنا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه، قال تعالى: **﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾** [النحل:٣٥]، **﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾** [٣٦]

[النحل: ٨٢]، ﴿وَإِنْ نُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [النور: ٥٤]،
 ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٦٢﴾﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً) اهـ.

وتدل كذلك بمفهومها على الإيمان بالكتب المنزلة على رسل الله وأنبيائه وهي كثيرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال ابن أبي العز في "شرح الطحاوية": (وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزيور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى).

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله،

وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء، قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾
إلى قوله: ﴿وَمَا أَوْحَىٰ التَّيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقوله: ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [٥] إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل
عمران: ١]، وقوله: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ
الْفُرْعَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]،
إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده، وفي ذلك
إثبات صفة الكلام والعلو، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ
مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ
لَّا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]،
وقال: ﴿وَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]،
وقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]،
وقال: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، وأمثال ذلك كثيرة في
القرآن) اهـ.

فتضمنت السورة البيان والإشارة إلى أركان الإيمان الستة، وبالله التوفيق والحمد

لله.



القول في: (آمين)

قال ابن كثير رَحْمَةُ اللَّهِ: (يستحب لمن قرأ الفاتحة أن يقول بعدها: آمين مثل: ﴿يس﴾ [يس: ١]، ويقال: آمين، بالقصر أيضًا مثل: يمين، ومعناه: اللهم استجب، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داود، والترمذي، عن وائل بن حجر، قال: سمعت النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ فقال: «آمين»، مد بها صوته، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وروي عن علي، وابن مسعود وغيرهم.

وعن أبي هريرة، قال: كان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إذا تلا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧﴾ قال: «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول، رواه أبو داود، وابن ماجه، وزاد: «يرتج بها المسجد»، والدارقطني وقال: هذا إسناد حسن. وعن بلال أنه قال: يا رسول الله، لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود، ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من «آمين»، مثل: ﴿وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].

قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفردًا أو إمامًا أو مأمومًا، وفي جميع الأحوال، لما جاء في الصحيحين، عن أبي هريرة، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غفر له ما تقدم من ذنبه»، ولمسلم: أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداها الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه».

قيل: بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل: في الإجابة، وقيل: في صفة الإخلاص، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعًا: «إذا قال، يعني الإمام:

﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)، فقولوا: آمين، يجبكم الله»، وقال جوير، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: قلت: يا رسول الله، ما معنى آمين؟ قال: «رب افعل».

وقال الجوهري: (معنى آمين: كذلك فليكن، وقال الترمذي: معناه: لا تخيب رجاءنا، وقال الأكثرون: معناه: اللهم استجب لنا، وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن كيسان: أن آمين اسم من أسماء الله تعالى وروي عن ابن عباس مرفوعا ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي، وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المأموم، لما رواه مالك عن سمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وإذا قال، يعني الإمام: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)، فقولوا: آمين»، الحديث.

واستأنسوا -أيضا- بحديث أبي موسى: «وإذا قرأ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)، فقولوا: آمين».

وقد قدمنا في المتفق عليه: «إذا أمن الإمام فأمنا»، وأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يؤمن إذا قرأ، ﴿غَيْرِ الْمَعْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧) وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأموم في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأموم به قولاً واحداً، وإن أمن الإمام جهراً، فالجديد أنه لا يجهر المأموم وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك؛ لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة، والقديم أنه يجهر به، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل، والرواية الأخرى عن مالك، لما تقدم: «حتى يرتج المسجد».

ولنا قول آخر ثالث: إنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأموم، لأنهم يسمعون قراءة الإمام، وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده، عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ذكرت عنده اليهود، فقال: «إنهم لن يحسدونا على شيء كما يحسدونا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين»، ورواه ابن ماجه، ولفظه: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»، وله عن ابن عباس أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول: آمين، فأكثرُوا من قول: آمين»، وفي إسناده طلحة بن عمرو، وهو ضعيف، اهـ.

هذا أكون قد ذكرت المهمات عن هذه السورة العظيمة التي يحفظها كل مسلم، ويقرؤها في كل صلاة، ويحتاج إلى فهمها، وتوسعت فيها لهذا المقصد، فالله أسأل العون والسداد والقبول.

كتبه:

عبد الحميد بن يحيى بن زيد الحجوري الرُّعكري
 مكة المكرمة - حرسها الله - الشرايع مخطط سبعة
 الثلاثاء: ٩ / ربيع الثاني / (١٤٣٧هـ)؟
 وكانت المراجعة في منتصف ذي القعدة (١٤٣٧هـ)



إتحاف البررة بتفسير خواتم سورة البقرة

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمد عبده ورسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** تسليماً كثيراً.

أما بعد:

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

[البقرة: ٢٨٤ - ٢٨٦].

وقد طلب مني بعض من تعينت إجابته تفسير هذه الآيات فلم أجد بُدًّا من ذلك فعلقت عليها تعليقة صوتية؛ فخطها جزاه الله خيرا ثم شرح الله تعالى صدرى لبيان بعض معانيها وما فيها على الله تعالى أن ينفعني بها قبل غيري.

فهي من أذكار الليلة ويحتاج المسلم أن يعلم معنى ما يقول ويفعل؛ زد على ذلك ما سيأتي من حديث ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وفيه: (وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ) والحرف هنا الكلمة التي لها معنى.

قال العلامة علي القاري **رَحِمَهُ اللهُ** في مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٤٦٤): (لَنْ تَقْرَأَ) الْخُطَابُ لَهُ - **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** - وَالْمَرَادُ هُوَ وَأُمَّتُهُ إِذِ الْأَصْلُ مُشَارَكَتُهُمْ لَهُ فِي كُلِّ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ إِلَّا مَا اخْتَصَّ بِهِ (بِحَرْفٍ مِنْهُمَا)، أَي بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْ الْفَاتِحَةِ وَالْخَوَاتِيمِ، قَالَ الثَّوْرِبَشْتِيُّ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ يُقَالُ: أَخَذْتُ بِيَمَامِ النَّاقَةِ وَأَخَذْتُ زِمَامَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْإِصْبَاقِ الْقِرَاءَةَ بِهِ وَأَرَادَ بِالْحَرْفِ الطَّرْفَ مِنْهَا فَإِنَّ حَرْفَ الشَّيْءِ طَرْفُهُ وَكُنِيَ بِهِ عَنْ جُمْلَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ وَقَوْلُهُ (إِلَّا أُعْطِيَتْهُ) حَالٌ وَالْمُسْتَشْتَى مِنْهُ مُقَدَّرٌ، أَي مُسْتَعِينًا بِهِمَا عَلَى قَضَاءِ مَا يَسْخُ مِنْ الْحَوَائِجِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُ، أَي أُعْطِيَتْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْجُمْلَةُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ كَقَوْلِهِ " **أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴿٦﴾ " [الفاتحة: ٦] " كَقَوْلِهِ " **عُفْرَانِكَ رَبَّنَا** ﴿٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥] " وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْمَسْأَلَةِ فِيمَا هُوَ حَمْدٌ وَثَنَاءٌ أُعْطِيَتْ ثَوَابُهُ... وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِالْحَرْفِ حَرْفُ التَّهْجِي وَمَعْنَى قَوْلِهِ أُعْطِيَتْهُ حِينَئِذٍ أُعْطِيَتْ مَا تَسَأَلُ مِنْ حَوَائِجِكَ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ. انتهى

ثم إن ما تضمنته من الدعاء به صلاح الحال والمآل والدنيا والآخرة والنصر والظفر فالحمد لله تعالى الذي شرع لنا ما يكون سببا لحفظنا في الدارين.

والناظر في معاني هذه الآيات وما يتعلق بها من أسباب النزول وما فيها من الفضل يجد أنها قد تضمنت جميع نواحي الدين العلمية والعملية، وبيان ذلك فيما يلي:

- ١- فيها بيان أركان الإيمان الستة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.
- ٢- فيها بيان ركن الإحسان وحسن مراقبة الله تعالى.
- ٣- فيها بيان أركان الإسلام الخمسة وإن لم يكن ذلك صريحا فهو باللزوم.
- ٤- فيها بيان أهمية الدعاء.
- ٥- فيها بيان فضل المسارعة إلى الخيرات وما عليه الصحابة من الفضل في هذا الباب وغيره.

٦- فيها بيان فضل طاعة الله وطاعة النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وطاعة أولياء الأمر.

- ٧- فيها بيان شفقة النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** على أمته ورحمته لهم وحرصه عليهم.
- ٨- فيها بيان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضله وأنه سبب السلامة في الدارين.
- ٩- فيها بيان أهمية النصيحة وما يتحقق على إثرها من المصالح لاسيما مع الاستجابة لها والعمل بها.
- ١٠- فيها خطر الاعتراض على شرع الله تعالى وأنه سبب هلاك كثير من الأمم السلفية أسأل الله تعالى السلامة.
- ١١- فيها بيان رحمة الله تعالى بعباده وأنه لا يكلف العبد إلا وسعه وقدرته ولا يؤاخذة إلا بعمله وهذا من تمام عدله تعالى وفضله.
- ١٢- فيها بيان رفع المؤاخذة بالجهل والخطأ والنسيان وبيان أن ذلك من موانع التكفير.
- ١٣- فيها بيان يسرية هذا الدين وتمييزه على غيره فهو دين الله تعالى الحق البعيد عن غلو الغالين وجفاء المبطلين فهو الدين الوسط العدل الخيار.
- ١٤- فيها بيان التوسل المشروع ومن ذلك ما يكون بأسماء الله تعالى وصفاته.
- ١٥- فيها بيان أن للعبد قدرة محدودة وما فرض الله **عَزَّوَجَلَّ** عليه وشرع هو في حدود قدرته وطاقته فلا عذر لمفرط.
- ١٦- فيها فضيلة سؤال الله تعالى العفو والمغفرة والرحمة والفرق بينها وبحصول العبد على هذه الثلاثة من الله تعالى يصلح حاله ومآله.
- ١٧- فيها عظم ولاية الله تعالى للعبد فمن تولاه الله تعالى حفظه ونصره وأعاناه وهداه واصطفاه واجتباها.
- ١٨- فيها أن النصر من الله تعالى على الكافرين وغيرهم من المخالفين.

١٩- فيها أن الإسلام هو دين الله تعالى الحق وأي دين سواه فهو كفر وضلال والعياذ بالله.

٢٠- وفيها إشارة إلى جهاد الكفار والمخالفين للشرع. إلى غير ذلك من المعاني الجليلة العظيمة التي قد تذكر عند التفصيل، وسيمت هذا المبحث اليسير: (إتحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة) وأسأل الله تعالى أن يغفر لي ولوالديّ ولمشايخي وللمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه:

أبو محمد عبدالحميد بن يحيى الزُّعكري الحجوري

٢٢ / رجب / ١٤٣٨هـ في مكة حرسها الله تعالى.



بعض فضائل الآيتين من آخر سورة البقرة

قد جاء بفضل الآيتين عدة أحاديث ثوابت عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** منها:
 - حديث **أبي مسعود البدرِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**:
«الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ» متفق عليه البخاري (٤٠٠٨)
 ومسلم (٨٠٧).

قال ابن بطال في شرح صحيح البخارى (٢٤٧/١٠): إذا كان من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه، ومن قرأ آية الكرسي كان عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، فما ظنك بمن قرأها كلها من كفاية الله له وحرزه وحمايته من الشيطان وغيره، وعظيم ما يدخر له من ثوابها. وقد روى هذا المعنى عن النبي **(صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ)** وروى معمر، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله: **«تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ شَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَعَلَّمُوا الْبَقْرَةَ وَالْ عِمْرَانَ تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوِينَ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأُمَّهَاتِنِ أَوْ غَيَاتِنِ أَوْ كَأُمَّهَاتِنِ فِرْقَانٍ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا تَعَلَّمُوا الْبَقْرَةَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبُطْلَةُ»**. وقال ابن مسعود: إن الشيطان يخرج من البيت الذى يقرأ سورة البقرة فيه. انتهى

- **وحديث ابن عباس**، قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: **«هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَتَزَلَّ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْنَسُ بِنُورَيْنِ أَوْ تَيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ»** أخرجه مسلم (٨٠٦).

- وفي مسلم (١٧٣): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: "لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيُقْبَضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيُقْبَضُ مِنْهَا"، قَالَ: ﴿إِذْ يَنْشَى﴾ [النجم: ١٦] السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى"، قَالَ: «فَرَأَسُ مِنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: " فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَعُفِّرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحَمَاتُ " .

- وفي مسند أحمد (٤٤٦ / ٣٥): عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي» .

- وفي مسنده (٢٨٧ / ٣٨): عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: «فُضِّلَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ لَهَا الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُهَا عَلَى صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ»، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ذَا: «وَأُعْطِيَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي»، قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: كَلَّمَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

- وفي معجم الطبراني الكبير (٢١١ / ٩) بسند صحيح: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: "أَنْزِلَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ "

- وفيه بسند حسن (٢٠٣ / ١٧): عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ، أَنَّ أَبَا مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ خَاتِمَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَجْزَأَتْ عَنْهُ قِرَاءَةُ لَيْلَةٍ» وَقَالَ: «أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ» .

- وأخرج الإمام أحمد في المسند (٥٦١ / ٢٨): عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرِ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنِّي أُعْطِيْتُهُمَا مِنْ

تَحْتِ الْعَرْشِ»، وفي الحديث عن عنة ابن إسحاق لكنه متابع زد على ذلك أنه يشهد له حديث أبي مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** المتقدم.

- وفي سنن الترمذي (٢٨٨٢) وأخرجه أحمد (١٨٤١٤) وغيره: عَنْ التُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِي عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ». قال الترمذي هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ قُلْتُ: وَأَسْنَادُهُ حَسَنٌ وَأَخْرَجَهُ الطبراني في المعجم الكبير (٢٨٥ / ٧) بنفس عن أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِي عَامٍ، وَأَنْزَلَ فِيهِ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ» وكان في الحديث اختلاف والله أعلم.

- وفي تفسير ابن أبي حاتم (٣٠٧٠): عن حكيم ابن جابر، قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ قَالَ جِبْرِيلُ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ. فَسَلْ. تُعْطَى فَسَأَلَ اللَّهُ لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وأخرجه ابن جرير.

وفي المعجم الكبير للطبراني (١٣٧/٩): قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: "مَنْ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْيَبَ".

وغير ذلك في الباب من الأحاديث والأثار مما لم أطلع عليه أو لم يثبت سنده والتي تدل في مجموعها على ما دلت عليه هذه الأحاديث الثابتة عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**.

معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «كفتاه»:

قال النووي في شرح مسلم (١٥٣ / ٢): قيل: كفتاه من قِيَامِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَقِيلَ كَفْتَاهُ الْمَكْرُوهَ فِيهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

وقال في شرح مسلم (٩١ / ٦): قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْآيَاتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفْتَاهُ قِيلَ مَعْنَاهُ كَفْتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ وَقِيلَ: مِنَ الشَّيْطَانِ وَقِيلَ مِنَ الْآفَاتِ وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْجَمِيعِ. انتهى

وفي الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٣٩ / ٢) قال: وأخرج ابن الضريس عن أبي مسعود البديري قال: من قرأ خاتمة سورة البقرة في ليلة أجزأت عنه قيام ليلة وقال: أعطي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش. انتهى.

وقال القرطبي في المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦٧ / ٧): وقوله: «من قرأ هاتين الآيتين في ليلة كفتاه»: أي: من قيام الليل، [أو] من حربه، إن كان له حزب من القرآن، وقيل: وقتاه شر كل شيطان، وكل ذي شر؛ كما جاء في أن: «من قرأ آية الكرسي لم يزل عليه من الله تعالى حافظ، ولم يقربه شيطان حتى يصبح»، أو لكثرة ما يحصل له بقراءتهما من الثواب والأجر، والله أعلم. انتهى

وسبب كفايتها له ما فيهما من معاني الإيمان والإسلام والالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ والاستعانة به والتوكل عليه وطلب المغفرة والرحمة منه وغير ذلك مما تضمنته من المعاني والله أعلم.

والشاهد: أن لهاتين الآيتين فضل عظيم وكان نزولهما بعد نزول قول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ

يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٦﴾

ففي صحيح مسلم صحيح مسلم (١٢٥): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ

عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قَالَ: فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ، فَقَالُوا:

أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، كُلُّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ

أُنزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ

تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا

اِقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ

مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا

فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] "

قَالَ: نَعَمْ " ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾

[البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: نَعَمْ " ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ:

نَعَمْ " ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

﴾ [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: نَعَمْ " .

في الحديث: فضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومسارعتهم إلى الخير فلا رحم الله من يطعن فيهم أو يتنقصهم من الرافضة والباطنية والخوارج ومن إليهم فهم أبر الناس قلوبًا وأشدهم مسارعة إلى مرضاة الله تعالى وأكثرهم عملاً بالكتاب والسنة اصطفاهم الله تعالى لنصرة نبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فمن دونهم مقصر ومن فوقهم محسر وإنهم لعلى صراط مستقيم، وقد ذكرت جملة من فضائلهم على الإجمال والتفصيل في كتابي (سلامة الخلف في طريقة السلف) وبالله التوفيق.

وفيه (١٢٦): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِنْ بُدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا»، قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ " ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ " ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] " قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ " .

مسألة تسمية سورة البقرة بهذا الاسم:

في البخاري (١٧٥٠) ومسلم (١٢٩٦): عَنِ الْأَعْمَشِ، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَجَّاجَ بْنَ يُونُسَ، يَقُولُ: وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ: أَلْفُوا الْقُرْآنَ كَمَا أَلْفَهُ جِبْرِيلُ، السُّورَةُ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا الْبَقْرَةَ وَالسُّورَةَ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا النِّسَاءَ، وَالسُّورَةَ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا آلَ عِمْرَانَ. قَالَ: فَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِهِ، فَسَبَّهُ وَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَأَتَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، فَاسْتَبْطَنَ الْوَادِي، فَاسْتَعْرَضَهَا، فَرَمَاهَا مِنْ بَطْنِ الْوَادِي بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ

النَّاسَ يَرْمُونَهَا مِنْ فَوْقَهَا فَقَالَ: هَذَا، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، «مَقَامُ الَّذِي أُنزِلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ».

والصحيح: جواز التسمية؛ لهذا الحديث قال النووي في شرح مسلم (٤/ ١٨٢): قَوْلُهُ (فَانْتَحَى بِسُورَةِ الْبَقَرَةِ) فِيهِ جَوَازُ قَوْلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَسُورَةِ النَّسَاءِ وَسُورَةِ الْمَائِدَةِ وَنَحْوِهَا وَمَنْعُهُ بَعْضَ السَّلَفِ وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يُقَالُ إِلَّا السُّورَةُ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا الْبَقَرَةَ وَنَحْوُ هَذَا وَهَذَا خَطَأٌ صَرِيحٌ وَالصَّوَابُ جَوَازُهُ فَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ. انتهى

مسألة هل هذه الآية منسوخة أم محكمة:

اختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة بما بعدها أم أنها على عمومها وحكمها.

وفي مسند أحمد (٣٠٧٠٩): عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَبَكَى. قَالَ: آيَةٌ آتَتْ؟ قُلْتُ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ أُنزِلَتْ، غَمَّتْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ غَمًّا شَدِيدًا، وَغَاطَتْهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا، يَعْنِي، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكْنَا، إِنَّ كُنَّا نُوَاخِذُ بِمَا تَكَلَّمْنَا، وَبِمَا نَعْمَلُ، فَأَمَّا قُلُوبُنَا فَلَيْسَتْ بِأَيْدِينَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ: فَنَسَخْتُهَا هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إِلَى ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَتَجَوَّزَ لَهُمْ عَنِ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأَخَذُوا بِالْأَعْمَالِ.

وقال بالنسخ ابن عباس وابن مسعود وعائشة وأبو هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**، والشعبي وعطاء ومحمد بن سيرين ومحمد بن كعب وموسى بن عبيدة وجماعة من الصحابة والتابعين.

ومن روي عنه القول بأنها محكمة: ابن عباس قلت: لكنه يخالف الثابت عنه كما ترى وروي عن عكرمة والشعبي ومجاهد: إنها محكمة مخصوصة، وهي في معنى الشهادة التي نهى عن كتمها، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لها المخفي ما في نفسه محاسب. ذكره القرطبي في تفسيره (٤٢١/٢).

قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٧٦٢ / ١٠): وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ قَدْ قَالَ طَائِفٌ مِنَ السَّلَفِ إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ مَرْوَانَ الْأَصْفَرِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** - وَهُوَ ابْنُ عَمَرَ - إِنَّهَا نُسِخَتْ فَالْنَسْخُ فِي لِسَانِ السَّلَفِ أَعْمٌ مِمَّا هُوَ فِي لِسَانِ الْمُتَأَخِّرِينَ يُرِيدُونَ بِهِ رَفْعَ الدَّلَالَةِ مُطْلَقًا وَإِنْ كَانَ تَخْصِيصًا لِلْعَامِّ أَوْ تَقْيِيدًا لِلْمُطْلَقِ وَغَيْرَ ذَلِكَ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي عُرْفِهِمْ وَقَدْ أَنْكَرَ آخَرُونَ نَسْخَهَا لِعَدَمِ دَلِيلِ ذَلِكَ وَزَعَمَ قَوْمٌ: أَنَّ ذَلِكَ خَبْرٌ وَالْخَبْرُ لَا يُنْسَخُ. وَرَدَّ آخَرُونَ بِأَنَّ هَذَا خَبْرٌ عَنْ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ. كَالْخَبْرِ الَّذِي بِمَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَالْقَائِلُونَ بِنَسْخِهَا يَجْعَلُونَ النَّاسِخَ لَهَا الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: **﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا﴾** كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَيَكُونُ الْمَرْفُوعُ عَنْهُمْ مَا فَسَّرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ وَهُوَ مَا هَمُّوا بِهِ وَحَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأُمُورِ الْمُقَدَّرَةِ مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ وَرَفَعَ عَنْهُمْ الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أُسْتُكِرَ هُوَا عَلَيْهِ. كَمَا رَوَى ابْنُ مَاجَةَ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ حَسَنِ **«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أُسْتُكِرَ هُوَا عَلَيْهِ»**. وَ " حَقِيقَةُ الْأَمْرِ " أَنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: **﴿وَإِنْ تَبَدَّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾** لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْمُؤَاخَذَةِ بِذَلِكَ؛ بَلْ دَلَّ عَلَى الْمُحَاسَبَةِ بِهِ وَلَا يَلْزَمُ

مَنْ كَوْنِهِ يُحَاسِبُ أَنْ يُعَاقَبَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُ قَدْ يَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ بِلَا سَبَبٍ وَلَا تَرْتِيبٍ وَلَا أَنَّهُ يَغْفِرُ كُلَّ شَيْءٍ أَوْ يُعَذِّبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ إِلَّا مَعَ التَّوْبَةِ. وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَالْأَصْلُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ مَا كَانَ مُجَامِعًا لِأَصْلِ الْإِيمَانِ وَمَا كَانَ مُتَافِيًا لَهُ وَيُفَرِّقُ أَيْضًا بَيْنَ مَا كَانَ مَقْدُورًا عَلَيْهِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَبَيْنَ مَا لَمْ يُتْرَكْ إِلَّا لِلْعَجْزِ عَنْهُ. انتهى وسيأتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

تفاضل القرآن والأسماء والصفات:

ويدل فضل الآيتين على مسألة مهمة وهي القول بتفاضل القرآن وكذا تفاضل الأسماء والصفات وهذا هو القول المعتبر الذي تدل عليه أدلة الكتاب والسنة وقد قلت في كتابي (القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن): تفاضل أسماء الله تعالى وصفاته، قال البخاري (٤٤٧٤): حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ: حَدَّثَنِي حُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى، قَالَ: كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةَ هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ، قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةَ هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟»، قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] «هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ».

قال الإمام مسلم (٨١٠): حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْأَعْلَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، عَنْ الْجَرِيرِيِّ، عَنْ أَبِي السَّلِيلِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَبَاحِ الْأَنْصَارِيِّ، عَنْ أَبِي بِنِ بْنِ

كَعْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا الْمُثَنِّرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «يَا أَبَا الْمُثَنِّرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُثَنِّرِ».

قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ (٥٠١٣): حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يَرُدُّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالَّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّمَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ كما في "مجموع الفتاوى" (٢١١/١٧): فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات. اهـ

* **قلت:** ومن هذا الباب القول في الاسم الأعظم:
وقد ورد في خصوص (اسم الله الأعظم) عدة أحاديث أشهرها:
حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اسمُ الله الأعظمُ في سورِ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثٌ: فِي (الْبَقْرَةِ) وَ(آلِ عِمْرَانَ) وَ(طه)».
رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وفي سنده غيلان بن أنس مجهول.

وحديث أنسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ)، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ».

رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبو داود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨) وهو حديث صحيح وخرجه الوادي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين.

وحديث بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، فَقَالَ: **«لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ»**.

رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧) وهو حديث صحيح وخرجه الوادي **رَحْمَةُ اللَّهِ** في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين.

وقد اختلف العلماء في الاسم الأعظم والذي عندي أنه اسم الجلالة (الله) لأن عليه مدار جميع الأسماء، وهو الجامع لمعانيها، وكل الأسماء تابعة له، وللعلماء أقول في هذا الاسم ذكرتها نقلاً عن الحافظ مع التعقيب على بعض الأدلة التي لم تثبت في كتابي (القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن) وبالله التوفيق.

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٧ / ١٢٩): فنقول: قَدْ عَلِمَ أَنَّ تَفَاوُلَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ لَيْسَ بِإِعْتِبَارِ نِسْبَتِهِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ وَلَكِنْ بِإِعْتِبَارِ مَعَانِيهِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا وَبِإِعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَعَانِيهِ. وَالَّذِي قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أَنَّهُ فَضَّلَ مِنَ السُّورِ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَقَالَ: **«إِنَّهُ لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا»** وَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ... وَفَضَّلَ مِنْ الْآيَاتِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ. وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لِأَبِي بِنِ كَعْبٍ: **«أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»**، قَالَ: **«اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»** فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: **«لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»**، وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ

آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَآخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ عِدَّةَ آيَاتٍ لَا آيَةَ
وَاحِدَةً. انتهى



تفسير الآيات وبيان معانيها وبعض أحكامها

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

فمها: بيان عموم ملك الله تعالى فكل موجود سواه تعالى فالله مالكة والمتصرف فيه وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ مَنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٧]، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنْ يَدْعُوهُ مَلَائِكَةٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩] يُقَرَّرُ تَعَالَى وَحْدَانِيَّتَهُ، وَاسْتِقْلَالَهُ بِالْخَلْقِ وَالتَّصَرُّفِ وَالْمُلْكِ، لِيُرْشِدَ إِلَىٰ أَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَنْبَغِي الْعِبَادَةُ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وغير ذلك في القرآن كثير فهو تعالى صاحب الملك المطلق.

وهذا يدل على غناه تعالى عن عباده قال تعالى: ﴿* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ

إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ويدل أيضاً على وجوب عبادة الله تعالى وإفراده بذلك فهو المالك للعبد فيجب

على العبد أن يطيعه ويعبده ويتقرب إليه بما شرع **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

وفي الآية: دلالة أنه لا يجوز التصرف في شيء من ملك الله تعالى إلا بإذنه وكما

شرع فالحلال ما أحله والحرام ما حرمه قال تعالى: ﴿أَمْرٌ لَهُمْ شُرَكَؤُا شَرَعُوا لَهُمْ

مِنَ الَّذِينَ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ [الشورى: ٢١].

وفي صحيح مسلم (٥٦٥): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: لَمْ نَعُدْ أَنْ فُتِحَتْ خَيْبَرُ فَوَقَعْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي تِلْكَ الْبَقْلَةِ الثُّومِ وَالنَّاسُ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْلًا شَدِيدًا، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الرِّيحَ فَقَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْحَبِيثَةِ شَيْئًا، فَلَا يَقْرَبُنَا فِي الْمَسْجِدِ» فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمٌ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا».

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

وهذا التقسيم لا بد أن يفهم فهمًا دقيقًا؛ وذلك لأن أهل البدع المخالفون لهذا الباب ينكرونه، وهو أشد عليهم من ضرب المطارق على الرؤوس، والسبب في ذلك: أن أغلب الطوائف تعتقد أن توحيد الله تعالى هو إفراده بالخلق، والرزق، والملك، والتدبير فقط، ولا يبالون بباب العبادة وإفراده بها.

بل أغلب من في الأرض من المشركين والمنددين يقرون بإفراذ الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، وقد أخبر الله تعالى عنهم بذلك في مواطن من كتابه على ما يأتي، بما فيهم اليهود والنصارى، ولا ينكر ذلك إلا شواذ من البشرية كفرعون حين قال: (أنا ربكم الأعلى) وقال (ما علمت لكم من إله غيري) وهذا على سبيل المكابرة فقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وكم قصَّ الله تعالى علينا في القرآن من خبر المشركين: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهذا الاعتراف منهم والإقرار بالربوبية لم

يدخلهم في الإسلام، بل قاتل النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كل من أبى أن يقول: لا إله إلا الله.

وأكثر الناس من عبّاد القبور يشركون وينددون، وإذا سألتهم عن التوحيد وعن معنى (لا إله إلا الله)؟ قالوا: لا معبود إلا الله، وربما قالوا: لا موجود إلا الله، وربما قالوا: لا خالق إلا الله، وكل هذه التعاريف لـ (لا إله إلا الله) غير صحيحة، مخالفة لدلالة الكتاب والسنة، ومعناها الحق: لا معبود بحق إلا الله، وغير الله إن عُبدَ فباطل، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

فإن قال قائل ما دليلكم على تقسيم التوحيد؟ فالجواب على ذلك أنه علم بالاستقراء لأدلة الكتاب والسنة، فأول سورة افتتح الله **عَزَّوَجَلَّ** بها كتابه دالة على ذلك، قال تعالى فيها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة: ١-٥].

فهذه الآيات تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير، وتوحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إفراد الله **عَزَّوَجَلَّ** بما يجب له في أسمائه وصفاته.

والتوحيد هو أساس الدين ولبه وأول ما يُدعى إليه، وهو الركن الأول من أركان الإسلام بل والإيمان فعن ابن عباسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى» أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم، وجاء في بعض الروايات: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله».

وفي حديث ابن عمر في الصحيحين: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: أركان الإسلام خمسة: «أن يوحد الله ولا يشرك به شيء، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة»، وهذا لفظ مسلم (١٦).

وفي صحيح مسلم (٨٣٢): عن عمرو بن عبسة السلمي: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى صَلَاةٍ، وَأَنْتُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُسْتَخْفِيًا جُرَاءً عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللَّهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ، قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصَلَاةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ» والله عز وجل يقول: ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبُدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.

فيها: بيان أن الله تعالى مطلع على السرائر والضمائر وأنه لا تخفى عليه خافية فعلمه محيط بكل شيء كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيضَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَتَّبِعُوا لِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿* وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومفاتيح الغيب خمسة وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]، وفي البخاري (٤٦٢٧) عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: ﴿١﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٢﴾»، إلى غير ذلك من الأدلة على سعة علمه تعالى، فعلى العبد أن يستحضر مثل هذه الأدلة فتكون زاجرة له عن الوقوع فيما يغضب الرب تعالى وفي حديث عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: "اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَتَقْفِيٌّ - أَوْ ثَقْفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ - كَثِيرَةٌ شَحْمُ بَطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فَفَقَهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢] الآية متفق عليه.

وهذا الذي جعل الصحابة يتعاضمون شأن هذه الآية من أن الله عَزَّ وَجَلَّ سيحاسبهم على ما أسروا وأعلنوا أسأل الله العافية.

قال ابن كثير في تفسيره (٧٢٨/١): يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَىٰ مَا فِيهِنَّ، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ الظَّوَاهِرُ وَلَا السَّرَائِرُ وَالضَّمَائِرُ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَىٰ مَا فَعَلُوهُ وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنْ تَخْفَوُا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَىٰ ﴿٧﴾﴾ [طه: ٧]، وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ: الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَةِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَخَافُوا مِنْهَا، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى جَلِيلِ الْأَعْمَالِ وَحَقِيرِهَا، وَهَذَا مِنْ شِدَّةِ إِيمَانِهِمْ وَإِيقَانِهِمْ. انتهى

وفي حلية الأولياء (١/ ٣٠٥): عن نافع مولى ابن عمر قال: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] الآية ثم يقول: «إِنَّ هَذَا لِإِحْصَاءٍ شَدِيدٍ».

قوله تعالى: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾.

فهما: بيان أن الله تعالى خلق العباد ولم يتركهم هملاً بل أرسل إليهم رسلاً وأمر بطاعته وعبادته قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].
ويعني تعالى بقوله ﴿يُحَاسِبْكُمْ﴾: يَحْتَسِبُ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ أَعْمَالِهِ، فَيَجَازِي مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُسِيئِينَ بِسُوءِ عَمَلِهِ، وَغَافِرٌ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ مِنَ الْمُسِيئِينَ أَفَادَهُ الطبري.

وهو تعالى سريع الحساب ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم: ٥١].

وفي الصحيحين: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسِبُ إِلَّا هَلَكَ» قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨] قَالَ: «ذَلِكَ الْعَرُضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ»، وفي هذا تحذير للعباد من التماذي في السيئات والله المستعان.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ نَجَّازٌ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» متفق عليه، وفي لفظ مسلم (١٢٩): «قَالَ اللَّهُ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ، مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِنْ

عَمَلِهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، وَإِنَّ عَبْدَكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمَلَهَا فَارْقُبُوا لَهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَارْقُبُوا لَهَا حَسَنَةً، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَاي». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ عَزَّجَلَّ».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمٍ (٢/ ١٥٢): قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَفِظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ وَعَقْدَهَا خِلَافًا لِمَنْ قَالَ إِنَّهَا لَا تُكْتَبُ إِلَّا الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

ومما يدل على أن الله تعالى لا يؤاخذ بما في الصدور من الخواطر الزائلة غير المستقرة ما في مسلم (١٣٢): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».

وأخرج (١٣٣): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوَسْوَسةِ، قَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ عَلَى مُسْلِمٍ (٢/ ١٥٤): فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ وَمَحْضُ الْإِيمَانِ مَعْنَاهُ اسْتِعْظَامُكُمْ الْكَلَامَ بِهِ هُوَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ فَإِنَّ اسْتِعْظَامَ هَذَا وَشِدَّةَ الْخَوْفِ مِنْهُ وَمِنَ النَّطْقِ بِهِ فَضْلًا عَنِ اعْتِقَادِهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ اسْتِكْمَالًا مُحَقَّقًا وَأَنْتَمَّتْ عَنْهُ الرَّيْبَةُ وَالشُّكُوكُ وَأَعْلَمُ. انتهى

فدل على أن ما في النفس لا يؤاخذ به المكلف إلا إذا كان عازمًا عليه قال العيني في عمدة القاري (٢٠/ ٢٥٥).

قوله: «ما لم تعمل»، أي: في العمليات «أو تتكلم» في القوليّات. وَقَالَ الْكُرْمَانِيُّ: قَالُوا: مَنْ عَزَمَ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فَعَلَ مُحْرَمًا وَكَوَّ بَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً مِثْلًا عَصَى فِي

الْحَالِ. وَأَجَابَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِحَدِيثِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَبْلُغْ إِلَى حَدِّ الْجَزْمِ وَلَمْ يَسْتَقِرَّ. أَمَا إِذَا عَقَدَ قَلْبُهُ بِهِ وَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ فَهُوَ مُؤَاخَذُهُ بِذَلِكَ الْجَزْمِ، نَعَمْ لَوْ بَقِيَ ذَلِكَ الْخَاطِرُ وَلَمْ يَتْرَكْهُ يَسْتَقِرُّ لَا يُؤَاخَذُ بِهِ بَلْ يَكْتَسِبُ لَهُ بِهِ حَسَنَةٌ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانُوا يُؤَاخَذُونَ بِذَلِكَ، وَقَدْ اختلف أيضا: هَلْ كَانَ ذَلِكَ يُؤَاخَذُ بِهِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ؟ ثُمَّ نَسَخَ وَخَفَّفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، أَوْ هُوَ تَخْصِيصٌ وَلَيْسَ بِنَسْخٍ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٤٨٢] فقد قَالَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ: أَبُو هُرَيْرَةَ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ عَسَاكِرَ: إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٦٨٢].
انتهى

قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ﴾

الغفر هو: الستر والتجاوز ومعلوم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو تعالى قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لَغْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ أِهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿* نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وقال **جَلَّ جَلَالُهُ:** ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ومن أسباب مغفرة الذنوب لزوم الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى كما تقدم دليله ومنها طلب المغفرة من الله تعالى والتضرع إليه كما هو حال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فكان من دعائه الكثير فعَنْ حُدَيْفَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كَانَ يَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي» أخرجه ابن ماجه وغيره.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: إِنَّ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»، مِائَةً مَرَّةً أخرج ابن ماجه وغيره.

ومن أسباب المغفرة: التقرب إلى الله بالعمل الصالح فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، متفق عليه.

وقد ذكر ابن أبي العزفي شرح الطحاوية (٢/ ٤٥١): أن سُقُوطَ الْعُقُوبَةِ عَنِ الْمُسِيءِ تَكُونُ بِأَحَدٍ عَشَرَ سَبَبًا فَقَالَ **رَحِمَهُ اللَّهُ** تَعَالَى: فَإِنَّ فَاعِلَ السَّيِّئَاتِ تَسْقُطُ عَنْهُ عُقُوبَةُ جَهَنَّمَ بِنَحْوِ عَشْرَةِ أَسْبَابٍ، عُرِفَتْ بِالِاسْتِقْرَاءِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [مَرْيَمُ: ٦٠، وَالْفُرْقَانِ ٧٠]. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة: ١٦٠].

والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ الْخَالِصَةُ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا ذَنْبٌ دُونَ ذَنْبٍ، لَكِنْ هَلْ تَتَوَقَّفُ صِحَّتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عَامَّةً؟ حَتَّى لَوْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ وَأَصَرَ عَلَى آخَرَ لَا تُقْبَلُ؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تُقْبَلُ. وَهَلْ يَجِبُ الْإِسْلَامُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَّرِكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنْ لَمْ يَتَبَّ مِنْهَا؟ أَمْ لَا بُدَّ مَعَ الْإِسْلَامِ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ غَيْرِ الشَّرِكِ؟ حَتَّى لَوْ أَسْلَمَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الزُّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ مَثَلًا، هَلْ يُؤَاخَذُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي كُفْرِهِ مِنَ الزُّنَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ؟ أَمْ لَا بُدَّ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ مَعَ إِسْلَامِهِ؟ أَوْ يَتُوبُ تَوْبَةً عَامَّةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ؟ وَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّوْبَةِ مَعَ الْإِسْلَامِ، وَكَوْنِ التَّوْبَةِ سَبَبًا لِغُفْرَانِ الذُّنُوبِ وَعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا - مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ

يَكُونُ سَبَبًا لِغُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ إِلَّا التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَرِ: ٥٣] وَهَذَا لِمَنْ تَابَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣] وَقَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤].

السَّبَبُ الثَّانِي: الْإِسْتِغْفَارُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]. لَكِنَّ الْإِسْتِغْفَارَ تَارَةً يُذَكَّرُ وَحَدَهُ، وَتَارَةً يُفْرَنُ بِالتَّوْبَةِ،

فَإِنْ ذُكِرَ وَحَدَهُ دَخَلَ مَعَهُ التَّوْبَةُ، كَمَا إِذَا ذُكِرَتِ التَّوْبَةُ وَحَدَهَا شَمَلَتْ الإِسْتِغْفَارَ. فَالتَّوْبَةُ تَتَّصَمَنُ الإِسْتِغْفَارَ، وَالإِسْتِغْفَارُ يَتَّصَمَنُ التَّوْبَةَ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَى الآخِرِ عِنْدَ الإِطْلَاقِ، وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِالْآخَرَى، فَالإِسْتِغْفَارُ: طَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَى، وَالتَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ وَطَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي المُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ. وَنَظِيرُ هَذَا: الْفَقِيرُ وَالْمَسْكِينُ، إِذَا ذُكِرَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ شَمِلَ الْآخَرَ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَعْنَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة:

١٨٩]. ﴿إِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. ﴿وَأَنْ تَخْشَوْهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. لَا خِلَافَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الإِسْمَيْنِ فِي هَذِهِ الآيَاتِ لَمَّا أُفْرِدَ شَمِلَ الْمُقِلَّ وَالْمُعْدِمَ، وَلَمَّا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية [التوبة: ٦٠]: - كَانَ المُرَادُ بِأَحَدِهِمَا الْمُقِلَّ، وَالْآخَرَ الْمُعْدِمَ، عَلَى خِلَافٍ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ: الإِنَّمُ وَالْعُدْوَانُ، وَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى، وَالفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ. وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى: الْكُفْرُ وَالتَّنْفَاقُ، فَإِنَّ الْكُفْرَ أَعَمُّ، فَإِذَا ذُكِرَ الْكُفْرُ شَمِلَ التَّنْفَاقَ، وَإِنْ ذُكِرَا مَعًا كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَعْنَى. وَكَذَلِكَ الإِيْمَانُ وَالإِسْلَامُ، عَلَى مَا يَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّالِثُ: الْحَسَنَاتُ: فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بَعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارُهُ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا».

السَّبَبُ الرَّابِعُ: الْمَصَائِبُ الدُّنْيَوِيَّةُ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَلَا غَمٍّ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا - إِلَّا كُفِّرَ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». وَفِي الْمُسْنَدِ: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾

[النساء: ١٢٣] - «قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَزَلَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، وَأَيُّنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ يُصِيْبُكَ اللَّأْوَاءُ؟ فَذَلِكَ مَا تُحْزُونَ بِهِ». فَالْمَصَائِبُ نَفْسَهَا، مُكْفَرَةٌ، وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا يُثَابُ الْعَبْدُ، وَبِالتَّسَخُّطِ يَأْتُمُّ. فَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ أَمْرٌ آخَرٌ غَيْرُ الْمُصِيبَةِ، فَالْمُصِيبَةُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ لَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ، وَهِيَ جَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَيُكْفَرُ ذَنْبُهُ بِهَا، وَإِنَّمَا يُثَابُ الْمَرْءُ وَيَأْتُمُّ عَلَى فِعْلِهِ، وَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ مِنْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الثَّوَابُ وَالْأَجْرُ قَدْ يَحْصُلُ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنَ الْعَبْدِ، بَلْ هَدِيَّةٌ مِنَ الْغَيْرِ، أَوْ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِي مِنَ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فَتَنْفُسُ الْمَرَضِ جَزَاءٌ وَكَفَّارَةٌ.

وَكَثِيرًا مَا يُعْهَمُ مِنَ الْأَجْرِ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَدْلُولُهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ لَازِمِهِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: عَذَابُ الْقَبْرِ. وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ السَّادِسُ: دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: مَا يُهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ ثَوَابِ صَدَقَةٍ أَوْ قِرَاءَةٍ أَوْ حَجٍّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَائِدُهُ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: مَا ثَبَتَ فِي (الصَّحِيحَيْنِ): «أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصَّرَاطَ وَقَفُوا عَلَى فَنَظْرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هَدُّبُوا وَنَقُوا أُذُنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

السَّبَبُ الْعَاشِرُ: شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ وَأَقْسَامِهَا.

السَّبَبُ الْحَادِي عَشَرَ: عَفْوُ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ لِلذُّنُوبِ مِنْ غَيْرِ شَفَاعَةٍ، كَمَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ

لَهُ لِعِظَمِ جُرْمِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ دُخُولِهِ إِلَى الْكَبِيرِ، لِيَخْلُصَ طَيْبُ إِيْمَانِهِ مِنْ خَبَثِ مَعَاصِيهِ، فَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، بَلْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**. انتهى

في هذا دليل على أن الذنب المذكور فيما دون الشرك، وأما الشرك فلا يدخل تحت المشيئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي حديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ» وَقُلْتُ أَنَا: «مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وهذا عام في الشركين الأصغر والأكبر إلا أن الأكبر يُخلد صاحبه في النار، والأصغر يُهذب صاحبه ثم يكون ماله الجنة وقد توسعت في بيان هذه المسألة في كتابي (فتح الوهاب شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب).

وفيها: بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات مشيئة الله تعالى النافذة التي لا يخرج عنها شيء مما يقع في هذا الكون علويه وسفليه قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] فيدخل في مشيئته الخير والشر إلا أنه تعالى لا يحب الشر وإنما شاء لحكمة فتفطن لذلك تسلم من مهاوي الردى وتخبط الشيطان.

وفيها: بيان أن الله تعالى: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأنه يتفضل على من شاء من عباده ويعذب من شاء ممن هو مستوجب للعذاب فإن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وقد حرم الظلم على نفسه وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ❖❖ كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ
 إِنَّ عُذْبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نَعْمُوا ❖❖ فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٨٤).

وكل من ألفاظ العموم وفيها دليل على قوة الله تعالى وقدرته وأنه تعالى لا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (٤٤) [فاطر: ٤٤] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤٥) [المائدة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر: ٦٧).

في البخاري (٤٨١١) ومسلم (٢٧٨٦): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَعْبُدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قرأ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٧).

فلا يخرج عن قدرته ومشيئته شيء تعالى الله وتقدس، وإذا كانت قدرته نافذة في كل شيء من ملكوت العالم العلوي والسفلي فكيف بهذا المخلوق الضعيف أسأل الله تعالى السلامة، فهو يصرف القلوب كيف شاء ويهدي إذ شاء شاء ويضل من يشاء ويعذب من شاء ويرحم من شاء وهو القائل إني على ما أشاء قادر.

ففي مسلم (١٨٧): عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَحْرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلًا، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا

التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب، أذني من هذه الشجرة فلاستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلّي إن أعطيتها سألتني غيرها، فيقول: لا، يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، ورثه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيذنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أذني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، فيقول: لعلّي إن أذيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده أن لا يسأله غيرها، ورثه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيذنيه منها فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أذني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، قال: بلى يا رب، هذه لا أسألك غيرها، ورثه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليها، فيذنيه منها، فإذا أذناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب، أذخنيها، فيقول: يا ابن آدم ما يضريني منك؟ أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟، فصحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك، فقالوا: مم تضحك، قال: هكذا ضحك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقالوا: مم تضحك يا رسول الله، قال: «من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر».

والشاهد: أن الصحابة رضي الله عنهم تعاضوا قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَبْذُؤُوا مَا فِي

أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فارشدهم رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى الطريق الصحيح والفعل المناسب فلما ذلت به ألسنتهم بما

أمرهم به رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وأتزموا أمر نبيهم **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وردوا أمرهم إلى خالقهم ومليكمهم الذي لا يعجزه تغيير حالهم ومآلهم أنزل الله **عَزَّ وَجَلَّ** الفرج بعد الشدة وأخبر تعالى بحالهم في الانقياد فقال تعالى: ﴿**ءَأْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأْمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [٤٣]، فهم دعوا الله **عَزَّ وَجَلَّ** متوسلين بسمعهم وطاعتهم وسائلين الله تعالى المغفرة وأن يتجاوز عما قالوه وإن المصير إلى الله **عَزَّ وَجَلَّ** وهو الكريم العظيم الغفور الرحيم يتجاوز عن المؤمنين والمسلمين وهو رحيم بهم قال تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿**ءَأْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**﴾.

وهذا خبر من الله تعالى عن حال رسول الله صل الله عليه وسلم في الإيمان بالله تعالى وما أنزل إليه من الوحي وهو القرآن والسنة فكان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مقرا منقادا لشرع الله تعالى، وفضائل هذا النبي الكريم كثيرة ذكرت منها في كتابي (الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان) جملاً لا يستغني عنها المسلم؛ وذلك لما اختص الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الشمائل والفضائل، فكان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خلقه القرآن ظاهراً وباطناً؛ ولذلك شرح الله له صدره ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره قال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾ [الشرح: ١ - ٤]، وقد ذكرت في كتابي (فتح الحميد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد) جملاً من شمائله، قلت فيه: ومحبته **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** تزداد في قلوب المؤمنين بمعرفتهم لشمائله وسيرته فقد كان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**:

١- رحمة بالمؤمنين ولهم، وسماه الله رؤوفاً رحيمًا، وأسمائه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أعلام وأوصاف ففي «الصحيحين» عن مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءَ، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَائِشِرُ الَّذِي يُخَشِّرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ رُؤُوفًا رَحِيمًا».

٢- حريصًا على هدايتهم وإرشادهم إلى أقوم السبل، وأحسن الطرق، ففي «صحيح مسلم» عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فِي سَفَرٍ، فَتَرْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصَلِّحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَتَّصِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشَرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ هُمْ، وَإِنْ أُمَّتُكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَاقِبَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُتَكْرَمُ وَتُهْتَمُّ، وَنَجِيءٌ فِتْنَةٌ فَيُرْقُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَنَجِيءٌ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَنَجِيءٌ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْخَرَ عَنِ النَّارِ، وَيَدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخِرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ». أخرجه مسلم (١٨٤٤).

٣- ذا خلق عظيم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾﴾ [القلم:٤]، وذلك لتخلقه بالقرآن، قَالَتْ عَائِشَةُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ» أخرجه مسلم، وهو القائل: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أخرجه أحمد، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

٤- شجاعًا، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أَشْجَعَ النَّاسِ». متفق عليه، وقيل للبراء: «أَفَرَزْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يَوْمَ

حَتِّينَ؟ فَقَالَ الْبَرَاءُ: وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَفِرَّ، متفق عليه، وَعَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ - وَزُورَى اشْتَدَّ الْبَأْسُ - وَاحْمَرَّتِ الْحَدَقُ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»، وَقَالَ: «وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا».

وقال القاضي عياض في "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى" (٢٣٥/١): وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمَا بِالْمَكَانِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ قَدْ حَصَرَ الْمَوَاقِفَ الصَّعْبَةَ وَفَرَّ الْكُمَاءَ وَالْأَبْطَالَ عَنْهُ غَيْرَ مَرَّةٍ وَهُوَ ثَابِتٌ لَا يَبْرُحُ وَمُقْبَلٌ لَا يَدْبِرُ وَلَا يَتَزَحَّزَحُ، وَمَا سُجَّاعٌ إِلَّا وَقَدْ أُحْصِيَتْ لَهُ قَرَّةٌ وَحُفِظَتْ عَنْهُ جَوْلَةٌ سِوَاهُ. اهـ.

٥- كريماً، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لَا». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ»، متفق عليه، وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَقْرَ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ.

٦- حياً، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى الْبَنِيَّ فَيَسْتَجِئُ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا» أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٢٠).

٧- بشوشاً، قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاتَّقُفْ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَقَالَ جَرِيرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِ» متفق عليه.

٨- غضبه لله، قَالَتْ عَائِشَةُ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: «وَمَا أَنْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُتْهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا»، متفق عليه، فكان لا يغضب لنفسه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ** إلا أن تُتْهَكَ حرمة الله فيغضب الله **عَزَّ وَجَلَّ**، أخذًا بقول الله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

٩- نظيفًا طيبًا، قَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: «هَذَا عَرَقُكَ نَجَعَلُهُ فِي طِينِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطَّيِّبِ». أخرجاه، وفي حديث جابر بن سمرّة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: «... فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّهَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَّارٍ». أخرجه مسلم (٢٣٢٩).

١٠- جميلًا، فقد تميز بصفات جميلة جليلة خلقية وخلقية **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ** على ما ترى، وكان وجهه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ** كالسيف بريقًا وكالقمر استدارةً ولم يكن بالطويل ولا بالقصير ولكن بين ذلك.

١١- فصيحًا، فقد قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ**: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ». أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣)، وكان إذا تكلم تكلم ثلاثًا، وإذا سلم سلم ثلاثًا.

١٢- شريفًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ**: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ، إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ». أخرجه الترمذي (٣٦٥)، وأصله في مسلم (٢٢٧٦)، وفي قصة أبي سفيان مع هرقل: «... قَالَ هِرَقْلُ: كَيْفَ نَسَبُهُ فَيْكُمْ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ...، فَقَالَ هِرَقْلُ: فَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا»، متفق عليه.

١٣- وفيًا، فهو القائل **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ**: «حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ»، خرجته في تحقيق «الإيمان» لابن أبي شيبة **رَحِمَهُ اللَّهُ**، وهو القائل **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوَسَلَةِ**: «نَفِي هُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ» أخرجه مسلم (١٧٨٧)، عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

١٤- متواضعًا، فقد خيره الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بين أن يكون ملكًا رسولًا أو عبدًا رسولًا، فاختر أن يكون عبدًا رسولًا، وهو القائل: **«إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»**، أخرجه أبو يعلى عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، وله طرق عن غيرها.

١٥- أمينًا، قَالَ تَعَالَى: **﴿مُطَاعٍ ذَمَّ أَمِينٍ﴾** ﴿٥١﴾، على تفسير من فسرها بأنه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، وهو القائل **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«أَلَا تَأْمَنُونِي، وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ»**. أخرجه عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وكانت قريش تلقبه بالأمين قبل مبعثه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**.

١٦- عادلاً، فقد قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **«وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ»**. متفق عليه، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

١٧- صادقًا، فقد كانت قريش تلقبه بالصادق، وهو الذي قال لهم: هل جربتم عليّ كذبًا؟ قالوا: لا. وقال هرقل لابي سفيان: **«... هَلْ كُتِّمْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟»** قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَذَكَرْتُ أَنْ لَا، قَالَ هِرَقْلُ: فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ...»، الحديث. أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

١٨- وأما خوفه من ربه وحسن عبادته فهو القائل: **«قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَنْتَقِئُكُمْ لِلَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبْرَكُكُمْ»** فكان متصفاً بكل خلق نبيل متزهاً عن كل رذيل.

١٩- صبورًا شكورًا، فقد كان يصلي، **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حَتَّى تَفْطَرَ قَدَمَاهُ، وَيَقُولُ: **«أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»**. أخرجه عن الْمُغِيرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، وانفرد به مسلم عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** وفيه كلام، وعن عبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَذَمُّوهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»**، أخرجه البخاري (٣٤٧٧).

٢٠- وكاملاً متميزاً بجميع صفات الكمال الخلقية والخلقية.

ودراسة حياة رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** القولية، والفعلية، والاعتقادية، و الخلقية، والخلقية، هي دراسة لدين الإسلام الذي أنزله الله **عز وجل** على محمد الكريم **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** والتابعين. انتهى

بيان أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق:

وفيه بيان: أن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** غير مخلوق منه بدأ قولاً وسمعه منه جبريل **عليه السلام** وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والذي أنزل إليه من ربه تعالى هو القرآن قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ١﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ [فصلت: ٢].

فالقرآن صفة لله تعالى والأدلة على هذه المسألة أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر نذكر مما في القرآن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ١٦٦﴾ [النساء: ١٦٦]. وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ٣١﴾ [النمل: ٣١]، ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ١٤﴾ [طه: ١٣-١٤].

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَكُونُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: ٣٠]. وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ٥٠﴾ [النحل: ٤٠]. وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩].

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتَيْهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

﴿١١٥﴾ [الأنعام: ١١٥]. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]،

وقوله: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِرٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥].

وقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ

ثُمَّ يَخْرِفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وقوله: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ

أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

وغيرها في القرآن كثير جدًا.

والأحاديث في السنة بلغت حد التواتر في إثبات صفة الكلام لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** نذكر

منها قطعاً تكون نوراً للمستبصر وحجة على الزانغ المتكبر.

ومنها: ما أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٨) ومسلم رقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «**اِحْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ، فَقَالَ مُوسَىٰ: يَا آدَمُ**

أَنْتَ أَبُوْنَا خَيْبَتِنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَىٰ، اضْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ،

وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُوْمُنِي عَلَىٰ أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟». فَقَالَ

النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَىٰ».

وما أخرجه أحمد وغيره (٣٩٠/٣): من حديث جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:** أن رسول

الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «**هَلْ مِنْ رَجُلٍ**

يَحْمِلُنِي إِلَىٰ قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلَغَ كَلَامَ رَبِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ»، الحديث

صحيح وهو في «**الصحيح المسند**».

ومنها: حديث أبي أمامة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند ابن حبان وغيره (٢٠٨٥): أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قال: **«نَعَمْ، مُعَلَّمٌ مُكَلَّمٌ»**، الحديث صحيحه شيخنا الوادعي في صحيحه المسند.

ومنها: حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري رقم (٣١٧٠) ومسلم رقم (٢٢٢): أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: **«يَقُولُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةَ وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا»**، الحديث.

ومنها: حديث أنس عندهما، البخاري رقم (٣١٦٢) ومسلم رقم (١٩٣): أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال في حديث الشفاعة الطويل: **«فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ازْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعُ لَكَ، وَاسْأَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ...»**، الحديث. وحديث عدي بن حاتم: **«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ»**، متفق عليه.

والنصوص عن السلف الصالح من الصحابة وغيرهم على إثبات كلام الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** كثيرة جداً نذكر منها ما تيسر:

منها: ما أخرجه البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: "والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيًّا يتلى، ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى..."، الحديث.

وأخرج الدارمي في رده على الجهمية عن عمرو بن دينار (٨٨) قال: "أدرت أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود".

قال إسحاق بن راهويه بعد ذكر قول عمرو بن دينار كما عند البيهقي في الأسماء والصفات: "وقد أدرك عمرو بن دينار أجلة أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من

البدرين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأجلة التابعين وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة".

وإنما خالف في هذه المسألة الجهمية والرافضة والمعتزلة والخوارج حيث زعموا أن القرآن كلام الله مخلوق؛ وزعم الأشاعرة ومن إليهم قولاً آخر من أفسد الأقوال وأن القرآن عبارة عن كلام الله تعالى أو حكاية عنه وأن كلامك الله تعالى نفساني والعجب أنهم يستدلون على إثبات الكلام النفسي بيت قاله الأخطل النصراني، قال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَاكَ قَوْلُ قَالِهِ ❀❀ فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطَلُ النَّصْرَانِي
وهذا البيت هو:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا ❀❀ جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا
ومما يدل على أن ما في النفس لا يسمى كلاماً ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ»، أخرجه البخاري (٢٥٢٨) ومسلم (١٢٧)، فلو كان ما في النفس كلاماً لكتب عليهم، ولو حدث أحدهم نفسه بطلاق امرأته وقع الطلاق قبل التلفظ، وهكذا الظهار والعتاق وغير ذلك.

وعند أهل السنة أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود والنقوليات على هذه المسألة مدونة في غير ما كتاب وقد ذكرتها بتفصيل قول أهل السنة فيها والرد على شبه المخالفين بتوسع في كتابي سلامة الخلف في طريقة السلف والله الحمد والمنة.

وقد قال اللالكائي: وهو أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري **رَحْمَةُ اللَّهِ** في كتابه «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١/ ٣١٢) رقم (٣٩٣) بعد أن ذكر **رَحْمَةُ اللَّهِ** العلماء الذين قالوا: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق من البلخين والنيسابورين وأهل خراسان وأهل الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها من البلدان، قال: قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفسًا أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام.

وقد أفتى كثير من العلماء بقتل من قال: إن القرآن مخلوق، نقل ذلك أبو القاسم هبة الله اللالكائي عن جماعة منهم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومفتيها، قال: "من قال القرآن مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه".

وأفتى به أيضًا سفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح وغيرهم كثير.

وقد أفتى أيضًا غير واحد من أهل العلم: أن امرأته تحرم عليه لأنه كافر وامرأته مسلمة، كعبد الله بن المبارك وأبو الوليد الطوسي.

وقد أفتى أيضًا جمع منهم أحمد بن حنبل وسفيان بن عيينة وحماد بن زيد والثوري ويزيد بن هارون، وأبو معاوية الضرير والربيع بن سليمان المرادي وغيرهم أنهم لا يورثون ولا يصلون خلفهم ولا تعاد مرضاهم ولا تشهد جنازتهم وإن موالاته الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين. اهـ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (٨) ان تؤمن بالقدر خيره وشره وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]

الإيمان بالله عزَّ وجلَّ أفضل الأعمال:

قَالَ اللهُ عَزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ ءَالْمَلَائِكَةِ ءَالْكِتَابِ ءَالنَّبِيِّينَ...﴾ [البقرة: ١٧٧].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَعُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ ءَأُولَئِكَ هُمُ ءَالْقَائِرُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ءَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ءَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على وجوب الإيمان بالله تعالى وما جاء عن الله عزَّ وجلَّ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ ءَالْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى ءَالِهِ وَسَلَّمَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى

عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحِجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمُسَوُّوْلُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْخُفَاءَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَشِينَا مَلِيًّا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَمْرُؤُ أَتَدْرُونَ مِنَ السَّائِلِ؟». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ». أخرجَه مسلم (١٨).

وجاء نحوه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخرجه البخاري (٥١)، ومسلم (٩).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ». أخرجَه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

أركان الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ:

والإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ يتضمن أربعة أركان دل عليها القرآن والسنة والإجماع، فلا يتحقق الإيمان به على الوجه الصحيح إلا بذلك.

الأول: الإيمان بوجود الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا الركن لا يعارضه أحد إلا شواذ من البشرية والأدلة عليه حسية وعقلية وفطرية وشرعية قال أبو العتاهية:

وَكُلُّ يَدْعِي وَضَلَّ لِلْيَلَى ❀❀ وَيَلَيْ لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَاكَ
 أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهَ ❀❀ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
 وَوَلَّهُ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ❀❀ وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
 وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ❀❀ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

الثاني: الإيمان بربوبية الله **عَزَّجَلَّ** وهذا التوحيد فطري، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي اللهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَّمِ كَانَتْ مُقَرَّةً بِالصَّانِعِ، وَلَكِنْ تَعَبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنْ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَظُنُّونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللهِ زُلْفَى. «تفسير القرآن العظيم» (٤/٤٨٢).

ولم ينكر الربوبية إلا الشواذ من البشرية، ومع ذلك بيّنها الله في القرآن بيانًا شافيًا كافيًا مزيلاً لكل لبس وشك، وألزم من اعتقده وآمن به أن يقرّ بألوهيته لأنه الخالق الرازق المالك المدبر فهو المستحق للعبادة على ما يأتي، ولا يجوز أن تصرف إلى غيره بحالٍ.

قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

الثالث: الإيمان بألوهية الله **عَزَّجَلَّ**، وهو إفراد الله **عَزَّجَلَّ** بالعبادة أو قل: إفراد الله **عَزَّجَلَّ** بأفعال المكلفين، وهو التوحيد الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل، وشرع من أجله الجهاد، ومن أجل تحقيقه خلقت الجنة والنار، وانقسم الناس بسببه إلى مؤمنين وفجار، وهو حق الله **عَزَّجَلَّ** على العباد كما صح عن رسولنا الكريم محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». أخرجه البخاري (٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠).

ولما كان هذا التوحيد هو الحق العظيم فقد بينه الله **عَزَّوَجَلَّ** في كتابه على أكمل وأوضح بيان، فأخبر أنه خلق العباد لتحقيقه فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأمر به جميع الناس فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأرسل من أجله الرسل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأنزل الله **عَزَّوَجَلَّ** به جميع الكتب قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأعظم القسط ملازمة التوحيد.

الرابع: الإيمان بأسماء وصفات الله **عَزَّوَجَلَّ** حيث أن المذهب الحق في هذا الباب وفي غيره من الأبواب هو مذهب أهل السنة والجماعة فإنهم يثبتون لله **عَزَّوَجَلَّ** ما أثبتته

لنفسه وما أثبتته رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل بل هو سبحانه **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: ١١].

وطريقة أهل السنة والجماعة فيه، ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ** وغيره.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفته به رُسُلُهُ: نفيًا وإثباتًا؛ فيثبت لله ما أثبتته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه.

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبتته من الصفات من غير

تكييف ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه

مع إثبات ما أثبتته من الصفات من غير إلحاد؛ لا في أسمائه ولا في آياته فإن الله تعالى

ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: **﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا**

وَذُرُوا الَّذِينَ يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ [١٧]، وقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ**

يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خبيرا أم من يأتي آمنا يوم القيمة

اعملوا ما شئتم﴾ الآية. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة

المخلوقات: إثباتا بلا تشبيه وتنزيها بلا تعطيل كما قال تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ**

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١١]. ففي قوله: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** ردٌ للتشبيه والتمثيل وقوله:

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [١١]. ردٌ للإلحاد والتعطيل. انتهى

وقوله تعالى: **﴿وَمَلَئِكْتِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن**

رُسُلِهِ﴾.

* **قلت في كتابي:** (سلامة الخلف في طريق السلف): ومن عقيدة أهل السنة

والجماعة الإيمان بالملائكة والرسل والكتب المنزلة، والإيمان بها من أصول

الإيمان التي اتفقت عليها الشرائع، قال تعالى: **﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**

وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن

رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيات، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾
[البقرة: ١٧٧] الآية.

فجعل الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه
الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. وقال
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء
والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل؛
انتهى من شرح ابن أبي العز على الطحاوية.

الإيمان بالملائكة:

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي
ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿قَالَمْ يَذَرُوا أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، ﴿قَالَمْ يَسْجُدُوا
أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون
بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف
المخلوقات، وأنه سبحانه وكلّ بالجبال ملائكة، ووكّل بالسحاب والمطر ملائكة،
ووكّل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكلّ بالعبد ملائكة لحفظ
ما يعمل وإحصائه وكتابته، ووكّل بالموت ملائكة، ووكّل بالسؤال في القبر ملائكة،
ووكّل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكّل بالشمس والقمر ملائكة، ووكّل بالنار

وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آياتها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفاً، والناشرات نشرًا، والفارقات فرقاً، والملقيات ذكراً. ومنهم: النازعات غرقصاً، والناشطات نشطاً، والسابحات سبحاً، والسابقات سبقاً. ومنهم: الصافات صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً.

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: (فرقة) و(طائفة) و(جماعة)، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكِّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وُكِّلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ (المَلَك) يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْتَفْتُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٧-٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل: ٥٥] فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به. لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلام الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكَّلون بالحياة، فـجبريل موكَّل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكَّل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكَّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السماوات بهم، وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راعع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفيهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

قال تعالى: ﴿كُلُّ عَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [٦٦] [الأنبياء: ٢٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [٣٦] [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [٣٨] [فصلت: ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَتِيبِينَ﴾ [١١] [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [١٦] [عبس: ١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [١١] [المطففين: ٢١]، ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَخْلَى﴾ [الصافات: ٨].

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان؛ انتهى من "شرح الطحاوية".

والملائكة خلقت من نور؛ ففي مسلم (٢٩٩٦): عن عائشة قالت: قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

وهم مخلوقات عظيمة؛ ففي البخاري (٣٢٣٥): عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: فَأَيْنَ قَوْلُهُ ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾**﴾ [النجم: ٨-٩]، قَالَتْ ذَلِكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ الْأَفُقَ.

وأخرج (٣٢٣٢): فقال حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ زَرَّ بْنَ حَبِيشٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿**فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾**﴾ [النجم: ٩-١٠]. قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحَ.

وأخرج أبو يعلى (٣٣٩/٢): عن أبي سعيد قال: قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «**كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ النَّقَمَ الْقَرْنَ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ وَأَضْغَى بِسَمْعِهِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ**». قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: كَيْفَ تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا**».

وأخرج أبو داود (٣٦/١٣): عن جابر بن عبد الله: عن النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعَ مِائَةِ عَامٍ**».

وقد سقت شيئاً من أوصافهم في كتاب الإيمان عجل الله تعالى أمره.

الإيمان بالأنبياء:

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.

ومن كفر برسول واحد فقد كفر بهم جميعاً لما تقدم من قول الله تعالى: ﴿لَا نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد قال الله تعالى في شأن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما كان الرسول إليهم نوح **عَلَيْهِ السَّلَامُ**.

الإيمان بالكتب:

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فتؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزيبور، وتؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى، وقد حرفت وبدلت إلا القرآن فإن الله تعالى ذكره حفظه وصانه عن ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب.

فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله وأنها أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، إلى قوله: ﴿وَمَا أَوْحَى النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]، إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٤]. ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [١١] ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤١﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]

الإيمان باليوم الآخر والقدر:

وقد دلت الآيات على الإيمان باليوم الآخر والقدر وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا

فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فإن الحساب يكون في ذلك اليوم أسأل الله تعالى السلامة قال ابن عثيمين في عقيدة أهل السنة والجماعة (ص: ٢٣) ونؤمن باليوم الآخر وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده، حين يبعث الناس أحياء للبقاء، إما في دار النعيم وإما في دار العذاب الأليم. فنؤمن بالبعث، وهو: إحياء الله تعالى الموتى حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ فَمُرُّ نَفْخٍ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة بلا نعال، عراة بلا ثياب، غرلاً بلا ختان: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

ونؤمن بصحائف الأعمال تعطى باليمين أو من وراء الظهر بالشمال، قال

تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَّسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ

مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقال: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَهُ لَطْفُورُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرُجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا

﴿١٣﴾ أَفْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

ونؤمن بالموازين توضع يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾، وقال: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٤﴾﴾، وقال: ﴿مَنْ جَاءَهُ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍهَا وَمَنْ جَاءَهُ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

ونؤمن بالشفاعة العظمى لرسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** خاصة، يشفع عند الله تعالى بإذنه ليقضي بين عباده حين يصيبهم من الهم والكرب ما لا يطيقون، فيذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، حتى تنتهي إلى رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**.

ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين ليخرجوا منها، وهي للنبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** وغيره من النبيين والمؤمنين والملائكة. وبأن الله تعالى يخرج من النار أقواماً من المؤمنين بغير شفاعة، بل بفضله ورحمته.

ونؤمن بحوض رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، طوله شهر، وعرضه شهر، وأنيته كنجوم السماء حسناً وكثرة، يردّه المؤمنون من أمته، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك.

ونؤمن بالصراط المنصوب على جهنم، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فيمر أولهم كالبرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، ثم كشد الرحال، والنبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قائم على الصراط يقول: «يارب سلم سلم» حتى تعجز أعمال العباد، فيأتي من يزحف. وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة، تأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكردس في النار.

ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأحواله أعاننا الله عليها.

ونؤمن بشفاعة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لأهل الجنة أن يدخلوها، وهي للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خاصة.

ونؤمن بالجنة والنار، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين المتقين، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر: ﴿**قَلَّا نَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (١٧)

والنار دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين الظالمين، فيها من العذاب والنكال ما لا يخطر على البال: ﴿**إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاوُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ (١٨).

وهما موجودتان الآن ولن تفتنيا أبد الأبدین، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا**﴾ (١٩)، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَاعْتَدَ لَهُمْ سَعِيرًا**﴾ (٢٠) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿**يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ**﴾ (٢١). انتهى

ويدخل نعيم وعذاب القبر في الإيمان باليوم الآخر؛ فقد أخرج الترمذي (٢٣٠٨): عن هاني مولى عثمان قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! قال: إن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: ﴿**إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِن نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِن لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**﴾. قال: وقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: ﴿**مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ**﴾.

الإيمان بالقدر:

ودلت الآية على إثبات علم الله تعالى بعباده وأنه مطلع عليهم وأنهم سائرون إلى ما أراد وقدر وقلت في كتابي سلامة الخلف: ومن عقيدة أهل السنة الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، والمراد بالقدر هو تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أزلًا قبل وجودها.

قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيَانُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥١﴾﴾

[الحجر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ

﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وفي حديث عمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عن مسلم (٨) في أركان الإيمان وفيه: «وَتَوْثُومَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرُّهُ»، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدْرِ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ»، والقدر سر الله **عَزَّجَلَّ** لم يُطلع عليه نبيًا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه حسبما اقتضت الحكمة؛ قاله الراغب.

قال القرطبي في "المفهم" (١/١٤٥): والإيمان بالقدر: هو التصديق بما تقدّم ذكره،

وحاصله: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصفات: ٩٦]،

وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، وإجماع السلف والخلف على صدق قول القائل: ما شاء الله كان،

وما لم يشأ لم يكن. اهـ

قال النووي **رَحِمَهُ اللَّهُ** في شرح كتاب القدر من "صحيح مسلم": سبيل معرفة هذا

الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل

عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها. والله أعلم. انتهى

وذكرت هذه إشارات لأهمية البيان لعقيدة أهل السنة والجماعة.

ركن الإحسان:

تقدم حديث عمر رضي الله عنه وفيه: قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» وقد دلت الآية على هذا الركن الذي يتضمن كمال المراقبة لله تعالى في جميع الأحوال والأقوال في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فالله مطلع على العبد عالم بحاله فحري به أن يكون مراقبا لله تعالى فيما يفعل ويذر قال ابن رجب رحمة الله في جامع العلوم والحكم (١/ ١٢٩).

فَأَشَارَتْ إِلَى الْمَقَامَيْنِ.. أَحَدُهُمَا: مَقَامُ الْإِخْلَاصِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى اسْتِحْضَارِ مُشَاهَدَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِ وَقُرْبِهِ مِنْهُ، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدُ هَذَا فِي عَمَلِهِ وَعَمِلَ عَلَيْهِ، فَهُوَ مُخْلِصٌ لِلَّهِ، لِأَنَّ اسْتِحْضَارَهُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِ يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ بِالْعَمَلِ. وَالثَّانِي: مَقَامُ الْمُشَاهَدَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى مُقْتَضَى مُشَاهَدَتِهِ لِلَّهِ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ أَنْ يَتَنَوَّرَ الْقَلْبُ بِالْإِيمَانِ، وَتَنْفُذَ الْبَصِيرَةَ فِي الْعِرْفَانِ، حَتَّى يَصِيرَ الْعَيْبُ كَالْعِيَانِ. وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عليه السلام، وَيَتَفَاوَتْ أَهْلُ هَذَا الْمَقَامِ فِيهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ نُفُوزِ الْبَصَائِرِ....

وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعٍ مُتَعَدِّدَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] (البقرة: ١٨٦) وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] (المجادلة: ٧) وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتَلَوْنَهَا مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] [يونس: ٦١] وَقَوْلِهِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنْ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]. انتهى

أركان الإسلام:

دل عليها ما تقدم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» متفق عليه.

ودلالة الآية على هذه الأركان مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح وأعظمها الأركان الخمسة التي اتفقت على فرضها الشرائع.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

وهذا شأن المؤمن أنه يسمع ويستجيب بخلاف ما عليه اليهود والنصارى ومن تشبه بهم قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِشِمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]

وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَتَأْتِيَ بِلِسَانِهِمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلُوا أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وطاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب لكل فوز في الدنيا والأخرة قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وحذر تعالى من عدم طاعته فقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

في كثير من ذلك فالغاية التي خلقنا من أجلها هي عبادته وطاعته قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [٥٦] مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]. فأعظم الطاعة التوحيد، كما أن أعظم ذنب هو الشرك بالله تعالى، وقد ذكرت بحمد الله فضل التوحيد وخطر الشرك في كتابي فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد.

وفي مسلم (٨٧٠): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشَدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا، فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ".

وقال تعالى محذراً من معصيته: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾ [النساء: ١٣-١٤].

ويدخل في طاعة الله **عَزَّوَجَلَّ** وطاعة رسوله السمع والطاعة لولاة أمر المسلمين في المعروف قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعِصَنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعِصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» أخرجه مسلم (١٨٣٥) وفي حديث عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالذُّخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ حَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» متفق عليه.

قوله تعالى: ﴿عُقْرَانِكَ رَبَّنَا﴾.

قال الراغب في المفردات: والعُقْرَانُ والمَغْفِرَةُ من الله هو أن يصون العبد من أن

يمسه العذاب. انتهى

والدعاء بالمغفرة وسؤال الستر من المتعينات على العباد لكثرة ما يتعطونه من

الذنوب أسأل الله تعالى السلامة؛ وفي صحيح مسلم (٢٥٧٧): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ



قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فيما يرويه عن ربه تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ».

وفي مسلم (٢٧٤٨): عَنْ أَبِي أَيُّوبَ، أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، يَقُولُ: «لَوْلَا أَنْكُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ».

وفيه (٢٧٤٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

وقد أمر الله تعالى بالاستغفار فقال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَسَيِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۝﴾ [غافر: ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۝﴾ [محمد: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝﴾ [النساء: ١٠٦] قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤْبَأُ إِلَيْهِ يَمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝﴾ [هود: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْبَأُ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ۝﴾ [هود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝﴾ [نوح: ١٠]، وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن بسرٍ يقول: قَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا» أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨) وغيرهما.

وكان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ملازمًا للاستغفار؛ فعن الأغر المزني، وكانت له صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، قَالَ: «إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

وكان إذا انتهى من الصلاة استغفر؛ ففي مسلم (٥٩١)؛ عَنْ ثُوْبَانَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِأَوْرَاعِي: " كَيْفَ الْأَسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ " .

وقبل موته أمره الله تعالى بالاستغفار؛ ففي مسلم (٤٨٤): عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْكَ تَكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟» فَقَالَ: " خَيْرِنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فَتُح مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [٢] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾ [النصر: ٣] " .

والشاهد: أن سؤال الله تعالى مغفرة الذنوب من أسباب تكفيرها وعند الترمذي (٣٥٤٠): أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». وهو حديث حسن بطرقه وشواهد.

إلى غير ذلك مما يضيق المجال بذكره والله المستعان.

قوله: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [٣٥].

تقد بيان ما يتعلق بذلك وأن العباد صائرون إلى الله تعالى يوم القيامة ومجازيهم على أعمالهم قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوَاهِرِهَا لَا

يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ [فاطر: ١٨] وفي هذا من الرجاء
والتهديد ما يعلمه أولوا الألباب فإذا كان مصير المؤمن إلى الله ففي ذلك البشارة
العظيمة برحمة الله تعالى له وعفوه عنه، بينما في ذلك للكافر البشارة بالغضب
والسخط أسأل الله السلامة والعافية.

ويدل على ذلك ما أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في المصنف (٣/٣٨٠): عن البراء
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلسنا حوله كأنما على
رؤسنا الطير وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر»،
ثلاث مرات أو مرتين، ثم قال: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع عن الدنيا وإقبال من
الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، حتى يجلسوا
منه مد البصر معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، ثم يجيء ملك الموت
فيقعد عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان،
فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فإذا أخذوها لم يدعوها في يده طرفة عين
حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط، فيخرج منها كأطيب نفحة
مسك وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملك من الملائكة إلا
قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: هذا فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كان يسمى
بها في الدنيا، حتى يتتهون بها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، قال
فيقول الله: أكتبوا كتاب عبدي في عليين في السماء الرابعة، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها
خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان
فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث
فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان: ما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، وآمنت
به، وصدقت به، فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه

من الجنة، وافتحوا له باب إلى الجنة، فيأتيه من طيبها وروحها، ويفتح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت فوجهك الذي يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة، رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي، وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح حتى يجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: يا أيتها النفس الخبيثة، أخرجي إلى سخط الله وغضبه، قال: فتفرق في جسده، قال: فتخرج فينقطع معها العروق والعصب كما تُنزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذوها فإذا أخذوها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في تلك المسوح، فيخرج منها كائن ريح جيفة وجدت على ظهر الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾، فيقول الله عز وجل: أكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى قال: فتطرح روحه طرحاً: قال: ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيقٍ﴾ [الحج: الآية ٣١]، قال: فتعاد روحه في جسده ويأتيه الملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ها ها لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ها ها لا أدري، فينادى مناد من السماء أفرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف عليه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، وقبيح الثياب، فيقول: أبشر بالذي يسؤك، هذا يومك الذي كنت

توعد، فيقول: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمك الخبيث، فيقول: ربي لا تقم الساعة ربي لا تقم الساعة».

قال الوادي رحمه الله: في الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين هذا حديث

حسن.

وفي البخاري (٢٤٤١) ومسلم (٢٧٦٨): عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرَزِ الْمَازِنِيِّ، قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي، مَعَ ابْنِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَخَذَ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].»

وفي صحيح مسلم (١٩٠): عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةِ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيَقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيَقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا»، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ.

وفي الحديث المتفق عليه: عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّكَلُمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ

تُرْجَمَانُ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قَدَّامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّبِعِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وفي البخار (٤٧٤٠): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حَفَاةَ عُرَاءَ غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [١٧٤]، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا إِنَّهُ مُجَاءٌ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿شَهِيدِينَ﴾ [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءَ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ».

فعلى المسلم أن يكون مشفقاً من مثل هذا المصير والله المستعان، فإن المؤمن مشفق من الله تعال وخائف منه قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْسَبُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [٤١] ﴿[الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [٥٧] ﴿[المؤمنون: ٥٧]، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا آتِيَةٌ آتِيَةٌ لِلَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَمَّا كَفَرَ بِهَا رَبُّهُمْ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَوْ أَنَّ لَهُمْ أَمْثَلُ مِثْلِ بَابِ الْمَكَّةَ لَمَلَتْ بِهِنَّ وَأَخَذَتْهُنَّ أَصْفَادًا﴾ [١٨] ﴿[الشورى: ١٨].

فقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

هذا من رحمة الله تعالى بعباده وأنه لا يكلف العبد إلا ما أستطاع و هذا كقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِيهَا﴾ [الطلاق: ٧] وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] ومثله قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَعُونِي مَا

تَرَكْتُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا تَهَيَّيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وقول الله **عَزَّوَجَلَّ** ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ**﴾ [آل عمران: ١٠٢] محمولة على ما يستطيعه الانسان فهذه الآية عانده إلى قوله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿**فَأْتُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه الآية وما في بابها دالة على رحمة الله **عَزَّوَجَلَّ** بالعباد وأنه لا يكلفهم ما يعجزهم بل هو **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يسر القرآن والعمل به كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ**﴾ [القمر: ١٧]، ومن زعم أن الإسلام دين شاق فهذا لجهله بالإسلام فهو دين يسر كما قال تعالى: ﴿**مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ**﴾ [المائدة: ٦] وقال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قُلَّةَ أَيْكُمْ إِبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ [الحج: ٧٨] وقال عز في علاه: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى غير ذلك من الآيات وقال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ**» أخرجه البخار (٣٩) عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وفي سنن الترمذي (٧١١ / ٥).

عن أبي بن كعب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالَ لَهُ: «**إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ**»، فَقَرَأَ عَلَيْهِ ﴿**لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [البينة: ١] وَقَرَأَ فِيهَا: «**إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْخَنِيفَةُ الْمُسْلِمَةُ لَا الْيَهُودِيَّةُ وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ وَلَا الْمَجُوسِيَّةُ، مَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ**» وَقَرَأَ عَلَيْهِ: «**لَوْ أَنَّ لِبْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ كَانَ لَهُ ثَانِيًا، لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**» وهذا

مما يدل على فضيلة الإسلام على غيره من الأديان وقد توسعت بحمد الله في بيان فضله في كتابي الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان.

قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

قوله: ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ أي من خير، وقوله ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ أي: من شر.

قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ (ص: ١٢٠): وفي الإتيان بـ "كسب" في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ "اكتسب" في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه. انتهى

واعلم أن كل نفس تؤاخذ بما كسبت وما عملت من خير أو شر، قال الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

﴿البقرة: ٢٨١﴾، وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ

عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ [غافر: ٤٠] بل إن الله تعالى يضاعف الحسنات كما قال: ﴿مَنْ جَاءَ

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧﴾

[الأنعام: ١٦٠] فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ

الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ [آل عمران:

١٨١، ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْزُوءِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾

وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَلَّتْهُ أَلَّتِي تُوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَأُنْظَى

﴿١٥﴾ [المعارج: ١١ - ١٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾

وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ [عبس: ٣٣ -

وكل أحد من المكلفين يؤاخذ بعمله لا غير قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٦﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٦] وفي حديث أبي رُمثة، عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: **«يَدُ الْمُعْطَى الْعُلْيَا، أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأُخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ»**. وَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ لِأَيِّ بَنُو يَرْبُوعَ قَتَلَهُ فَلَانٍ؟ قَالَ: **«أَلَا لَا تَجْنِي نَفْسٌ عَلَىٰ أُخْرَىٰ»** أخرجه أحمد (٧١٥).

وأما قول الله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَاتَّقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْتَنْنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣] فإن هذا من سعيهم حيث دعوا إلى الباطل، ومع ذلك لا ينقص من عمل العامل شيء؛ ففي مسلم (٢٦٧٤): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**، قَالَ: **«مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»**.

وأما ما أخرجه مسلم (٢٧٦٧): "عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ اللَّهُ **عَزَّ وَجَلَّ** إِلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَائِكَ مِنَ النَّارِ"، فلا يدل على أن أحداً يعذب بغير جرمه وتوجيهه ما قاله النووي **رَحِمَهُ اللَّهُ** تعالى في شرح مسلم (٨٥ / ١٧) قال: قَوْلُهُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ هَذَا فِكَائِكَ مِنَ النَّارِ) وَفِي رِوَايَةٍ لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَفِي رِوَايَةٍ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الْفِكَائُ بِفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِهَا الْفَتْحُ أَفْصَحُ وَأَشْهَرُ وَهُوَ الْخَلَاصُ وَالْفِدَاءُ وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ

أَبِي هُرَيْرَةَ لِكُلِّ أَحَدٍ مَنَزَلٌ فِي الْجَنَّةِ وَمَنَزَلٌ فِي النَّارِ فَالْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ خَلَفَهُ الْكَافِرُ فِي النَّارِ لِاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِكُفْرِهِ وَمَعْنَى فَكَأَنَّكَ مِنَ النَّارِ أَنَّكَ كُنْتَ مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّارِ وَهَذَا فَكَأَنَّكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهَا عَدَدًا يَمَلُؤُهَا فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّارُ بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ صَارُوا فِي مَعْنَى الْفَكَائِكِ لِلْمُسْلِمِينَ وَأَمَّا رَوَايَةُ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ فَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيُسْقِطُهَا عَنْهُمْ وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ فَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا بِدَمْنِ هَذَا التَّأْوِيلِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَقَوْلُهُ وَيَضَعُهَا مَجَازٌ وَالْمُرَادُ يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ كَمَا ذَكَرْنَاهُ لَكِنْ لَمَّا أَسْقَطَ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ سَيِّئَاتِهِمْ صَارُوا فِي مَعْنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ لِكُونِهِمْ حَمَلُوا الْإِثْمَ الْبَاقِي وَهُوَ إِثْمُهُمْ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّمَا كَانَ لِلْكَفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا بِأَنَّ سُنُّهَا فَتَسْقُطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بِعَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُوضَعُ عَلَى الْكُفَّارِ مِثْلَهَا لِكُونِهِمْ سُنُّهَا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ سَيِّئَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

فيه: ما عليه المؤمنون من سؤال ربهم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أن لا يؤاخذهم أو يعاقبهم على ما فعلوه نسياناً أو خطأ وفي "الصَّحِيحَيْنِ" عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ» وجاء في حديث ابن عباس عند ابن ماجه وغيره «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»، مع أن الحديث ضعيف قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٦١): وَقَدْ أَنْكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ جِدًّا، وَقَالَ: لَيْسَ يُرَوَى فِيهِ إِلَّا عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا. وَقِيلَ لِأَحْمَدَ: إِنَّ

الْوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ رَوَى عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ، فَأَنْكَرَهُ أَيُّضًا. انتهى
لكن عمومات الأدلة تدل على ثبوت معنى هذا الحديث.

فالمخطئ والناسي غير مأزور فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلَيْتَمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ» أخرجه مسلم (١١٥٥).

وعن أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَاتَى شَجْرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

فلم يعاقبه الله **عَزَّ وَجَلَّ** على هذا الخطأ مع انه لو قال إنسان متعمدًا هذا القول لكفر، وكذلك الناسي لا يؤاخذ لو ترك الصلاة ناسيًا لا يؤاخذ أو فعل فعلًا ناسيًا من المحرمات لا يؤاخذ إنما يؤاخذ على العمد والقصد وهذا من رحمة الله **عَزَّ وَجَلَّ** فعن أنس بن مالك، عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٤﴾ [طه: ١٤] متفق عليه.

وهكذا المكروه على الكفر وغيره لا يؤاخذ، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢ / ٣٧٠): فِي حُكْمِ الْمُكْرَهِ. وَهُوَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ لَا اخْتِيَارَ لَهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، كَمَنْ حُمِلَ كَرْهًا وَأُدْخِلَ إِلَى مَكَانٍ حَلَفَ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْ دُخُولِهِ، أَوْ حُمِلَ كَرْهًا، وَضُرِبَ بِهِ غَيْرُهُ حَتَّى مَاتَ ذَلِكَ الْغَيْرُ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، أَوْ أَضْجَعَتْ، ثُمَّ زُنِيَ بِهَا مِنْ غَيْرِ قُدْرَةِ لَهَا عَلَى

الإمتناع، فهذا لا إثم عليه بالاتفاق، ولا يترتب عليه حنث في يمينه عند جمهور العلماء. وقد حكى عن بعض السلف - كالنخعي - فيه خلاف، ووقع مثله في كلام بعض أصحاب الشافعي وأحمد، والصحيح عندهم أنه لا يحنث بحال. وروى عن الأوزاعي في امرأة حلفت على شيء، واحتثها زوجها كرهاً أن كفارتها عليه، وعن أحمد رواية كذلك، فيما إذا وطئ امرأته مكرهه في صيامها أو إخراجها أن كفارتها عليه. والمشهور عنه أنه يفسد بذلك صومها وحجها. والنوع الثاني: من أكره بضرب أو غيره حتى فعل، فهذا الفعل يتعلق به التكليف، فإنه يمكنه أن لا يفعل فهو مختار للفعل، لكن ليس غرضه نفس الفعل، بل دفع الضرر عنه، فهو مختار من وجه، غير مختار من وجه، ولهذا اختلف الناس: هل هو مكلف أم لا؟ وانفق العلماء على أنه لو أكره على قتل معصوم لم يباح له أن يقتله، فإنه إنما يقتله باختياره افتداءً لنفسه من القتل، هذا إجماع من العلماء المعتد بهم، وكان في زمن الإمام أحمد يخالف فيه من لا يعتد به، فإذا قتله في هذه الحال، فالجمهور على أنهما يشتركان في وجوب القود: المكره والمكره؟ لا شترأكيهما في القتل، وهو قول مالك والشافعي في المشهور وأحمد، وقيل: يجب على المكره وحده، لأن المكره صار كالألة، وهو قول أبي حنيفة وأحد قولي الشافعي، وروى عن زفر كالأول، وروى عنه أنه يجب على المكره لمباشرته، وليس هو كالألة، لأنه إثم بالاتفاق، وقال أبو يوسف: لا قود على واحد منهما، وخرجه بعض أصحابنا وجهاً لنا من الرواية لا توجب فيها قتل الجماعة بالواحد، وأولى. ولو أكره بالضرب ونحوه على إتلاف مال الغير المعصوم، فهل يباح له ذلك؟ فيه وجهان لأصحابنا. فإن قلنا: يباح له ذلك، فضمنه المالك، رجع بما ضمنه على المكره، وإن قلنا: لا يباح له ذلك، فالضمنان عليهما معاً كالقود. وقيل: على المباشر المكره وحده وهو ضعيف.

وَلَوْ أَكْرَهَ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ، فَبِي إِبَاحَتِهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْرَهُوا قِتَابَتَكُمْ عَلَى الْبِغْيَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَخَصُّبًا لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣] [الثور: ٣٣]، وَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بْنِ سَلُولٍ، كَانَتْ لَهُ أُمَّتَانِ يُكْرَهُهُمَا عَلَى الزَّانَا، وَهَمَّا يَأْبِيَانِ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ كَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ، وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ وَمَكْحُولٍ، وَمَسْرُوقٍ وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ. انتهى

وتسمى هذه بموانع التكفير، ويضاف إليها الجهل فإن الجاهل لا يؤخذ إلا بعد العلم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وفي مسند أحمد (٢٩ / ٦٤) عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبَادَ بْنَ شَرْحِبِيلٍ - وَكَانَ مِنَّا مِنْ بَنِي عَبْرٍ -، قَالَ: أَصَابَتْنَا سَنَةٌ، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا، فَأَخَذْتُ سُنْبُلًا فَفَرَكْتُهُ، وَأَكَلْتُ مِنْهُ وَحَمَلْتُ فِي ثُوبِي، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ، فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثُوبِي، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا، وَلَا أَطَعْتَهُ إِذْ كَانَ سَاعِيًا، أَوْ جَائِعًا». فَزَدَ عَلَيَّ الثُّوبَ، وَأَمَرَ لِي بِنِصْفِ وَسْقٍ أَوْ وَسْقٍ.

وقد تكلم الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى على مسألة العذر بالجهل بكلام نفيس عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، "يراجعه من أراد الزيادة"، فإن العذر بالجهل هو الموافق للرحمة، والموافق لمقاصد الشريعة فتنبه لهذه المسألة المهمة.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾.

يقولون: ربنا لا تحملنا آصار وأغلال لا نستطيعها ولا نطبقها، وقيل في معنى الإصر: أنه العهد المؤكد، وقيل: هو العهد والميثاق الذي لا يطاق ولا يستطاع القيام

بالوفاء به وقيل هو العبء الثقيل الذي يأصر حامله أي: يحبسه عن الحركة والتصرف لثقله، وقد أخبر الله تعالى عن رحمته بهذه الأمة بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾.

أي: اليهود والنصارى أخذت عليهم العهود والمواثيق فضيعوها وذلك بسبب تعنتهم على أنبيائهم وشدد عليهم ولا أدل على ذلك من كثرة مسائلهم على أنبيائهم، كما تقدم في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرْتَهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتَلْتَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥].
وقال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضْتَهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].
وكما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَعْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وتأمل ما قصه الله تعالى من شأن البقرة وما وقعوا فيه من التعنت حتى شدد عليهم بعد ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا

بَقْرَةً قَالُوا اتَّخَذْنَا هُزُؤًا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَأُ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَامَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا أَفَلَنْ جِئْت بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴿البقرة: ٦٧-٧١﴾.

وما وقع عليهم في شأن دخول الأرض المقدسة قال تعالى: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا يَمْوَسِيٰ اٰتٍ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٦٨﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَانكروا عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا يَمْوَسِيٰ اٰتَا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٢١ - ٢٦].

إلى غير ذلك مما يعلمه عوام أهل الإسلام فضلاً عن خواصهم وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾.

أي: أنهم توسلوا إلى الله عز وجل ألا يفرض عليهم ما لا طاقة لهم به ويسألون الله عز وجل أن يوفقهم لما افترضه عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

﴿الفاتحة: ٥﴾

وقد ترك رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** كثيرا من الأعمال مخافة أن تفرض على أمته فيعجزوا عنها ومن ذلك الوصال وقيام رمضان في المسجد؛ ففي المسند: عَنْ عَائِشَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، زَوْجِ النَّبِيِّ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قَالَتْ: كَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** فِي رَمَضَانَ بِاللَّيْلِ أَوْ زَاعِمًا، يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ الشَّيْءُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ مَعَهُ النَّقْرُ الْخَمْسَةُ أَوْ السِّتَّةُ أَوْ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ، يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، قَالَتْ: فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لَيْلَةً مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ حَصِيرًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي، فَفَعَلْتُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** بَعْدَ أَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْأَخْرَةَ، قَالَتْ: فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لَيْلًا طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، فَدَخَلَ، وَتَرَكَ الْحَصِيرَ عَلَى حَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ تَحَدَّثُوا بِصَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** بِمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، قَالَتْ: وَأَمْسَى الْمَسْجِدُ رَاجًا بِالنَّاسِ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** الْعِشَاءَ الْأَخْرَةَ، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُ وَثَبَتَ النَّاسُ، قَالَتْ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: «مَا شَأْنُ النَّاسِ يَا عَائِشَةُ؟» قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ النَّاسُ بِصَلَاتِكَ الْبَارِحَةَ بِمَنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ، فَحَشَدُوا لِذَلِكَ لِتَصَلِّيَ بِهِمْ، قَالَتْ: فَقَالَ: «اطْوِ عَنَّا حَصِيرَكَ يَا عَائِشَةُ» قَالَتْ: فَفَعَلْتُ. وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** غَيْرَ غَافِلٍ، وَثَبَتَ النَّاسُ مَكَانَهُمْ حَتَّى خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** إِلَى الصُّبْحِ، فَقَالَتْ: فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَمَا وَاللَّهِ مَا بَثُّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْلَتِي هَذِهِ غَافِلًا، وَمَا خَفِيَ عَلَيَّ مَكَانِكُمْ، وَلَكِنِّي تَخَوَّفْتُ أَنْ يُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَالْكُلُّوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: «إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» والحديث أصله في الصحيحين.

وفي مسلم (١١٠٤): عَنْ أَنَسٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**، يُصَلِّي فِي رَمَضَانَ، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ وَجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَامَ أَيضًا حَتَّى كُنَّا رَهْطًا

فَلَمَّا حَسَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ خَلَفَهُ جَعَلَ يَتَجَوَّزُ فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ دَخَلَ رَحْلَهُ، فَصَلَّى صَلَاةً لَا يُصَلِّيهَا عِنْدَنَا، قَالَ: قُلْنَا لَهُ: حِينَ أَصْبَحْنَا أَفْطَنْتَ لَنَا اللَّيْلَةَ قَالَ: فَقَالَ: «نَعَمْ، ذَاكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى الَّذِي صَنَعْتُ» قَالَ: فَأَخَذَ يُوَاصِلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، فَأَخَذَ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يُوَاصِلُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يُوَاصِلُونَ، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِثْلِي، أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ تَمَادَى الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ».

وما زال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يتردد بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين ربه تعالى في تخفيف الصلاة؛ فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَىٰ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّىٰ مَرَزْتُ عَلَىٰ مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَارْجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ، فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَارْجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْ، فَارْجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي» متفق عليه.

وفي مسلم (٨٢١): عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ أَصَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَاتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ آتَاهُ الثَّانِيَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ حَرْفَيْنِ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَحْرَافٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»،

ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأْتَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا.

* **وهنا تنبيه:** فقد قال الطحاوي في عقيدته: (وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ. فرد عليه ابن أبي العز في شرح الطحاوية (٢/ ٦٥٦) وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ، لِإِنَّهُمْ يُطِيقُونَ فَوْقَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ، لِكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ بِعِبَادِهِ الْيُسْرَ وَالتَّخْفِيفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فَلَوْ زَادَ فِيهَا كَلَّفَنَا بِهِ لِأَطْقَانَاهُ، وَلِكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا وَرَحِمَنَا، وَخَفَّفَ عَنَّا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. ففِي الْعِبَارَةِ قَلْبٌ، فَتَأَمَّلْهُ. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾.

سألو الله **عَزَّوَجَلَّ** العفو والتجاوز قال ابن زيد: "اعْفُ عَنَّا إِنْ قَصَرْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ مِمَّا أَمَرْتَنَا بِهِ"، والله **عَزَّوَجَلَّ** هو العفو الذي يعفو عن عباده ويتجاوز عنهم. ومهما حرص العبد على الإتيان بالعبادة على الوجه الأكمل فقد يقع منه نوع تقصير إما لسهو أو نسيان أو عجز أو جهل إلا ما رحم الله وقليل ما هم؛ ولهذا شرع الله تعالى الاستغفار في أدبار كثير من العبادات كالصلاة والحج. وطلب العفو من الله تعالى من أجمع الدعاء فعن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ، فَاعْفُ عَنِّي» أخرجه أحمد وغيره.

ومن صفات النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** العفو والصفح والتجاوز؛ ففي صحيح البخاري (٢١٢٥): عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قُلْتُ: أَحْبَبْتَنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: "أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتِكَ الْمَتَوَكَّلَ لَيْسَ بِقَطُّ وَلَا غَلِيظٌ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفِرُ وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمِيًّا، وَأَذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا، تَابَعَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ هِلَالٍ، وَقَالَ سَعِيدٌ: عَنْ هِلَالٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ سَلَامٍ غُلْفٌ: كُلُّ شَيْءٍ فِي غِلَافٍ، سَيْفٌ أَغْلَفُ، وَقَوْسٌ غُلْفَاءُ، وَرَجُلٌ أَغْلَفٌ: إِذَا لَمْ يَكُنْ مَخْتُونًا.

وما رفع إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعتو وأجره عظيم كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾.

يقولون: "وَاسْتُرْ عَلَيْنَا زَلَّةً إِنْ أَتَيْنَاهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَلَا تُكْشِفْهَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِإِظْهَارِهَا" أفاده الطبري، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فالله تعالى هو الغفور المتجاوز والساتر لذنوب عباده وكم من الأدعية عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في سؤال ذلك فمنها: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يقول في سبقة الموت «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ» متفق عليه وعن ابن أبي موسى، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ

اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، متفق عليه.

وفي حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم اللهم اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخَّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم وما تأخر ولكنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ متواضعا للربه معلما لأُمَّته.

وأدلة القرآن والسنة متكاثرة على طلب المغفرة من الغفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فعلى العبد أن يكون كثير الإلحاح على الله تعالى في التجاوز عنه فالذنوب كثيرة أسأل الله العفو والمغفرة.

قوله: ﴿وَأَرْحَمَنًا﴾

يسألون الله تعالى الرحمة وهو تعالى الرحمن الرحيم والرحمة أعم من مغفرة الذنوب وستر العيوب بل يدخل فيها التوفيق للهداية وسلوك سبيل المؤمنين.

قال الطبري رحمه الله تعالى: يَعْنِي بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: تَعَمَّدْنَا مِنْكَ بِرَحْمَةٍ تُنَجِّينَا بِهَا مِنْ عِقَابِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ عِقَابِكَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ إِيَّاهُ دُونَ عَمَلِهِ، وَلَيْسَتْ أَعْمَالُنَا مُنْجِيَتِنَا إِنْ أَنْتَ لَمْ تَرْحَمْنَا، فَوَفَّقْنَا لِمَا يُرْضِيكَ عَنَّا. انتهى

وفعلًا لن ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى؛ فعن أبي هريرة، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ».

وأما قوله تعالى: ﴿أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:

٤٣] أي: بسبب أعمالكم.

قال ابن أبي العز **رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي شَرْحِ الطَّحَاوِيَةِ (٢/ ٦٤٣)**: فَإِنَّ الْبَاءَ الَّتِي فِي النَّفْيِ عَيْرُ الْبَاءِ الَّتِي فِي الْإِثْبَاتِ، فَالْمَنْفِي فِي قَوْلِهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: " **لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ** " بَاءُ الْعَوْضِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كَالثَّمَنِ لِدُخُولِ الرَّجُلِ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْعَامِلَ مُسْتَحِقُّ دُخُولِ الْجَنَّةِ عَلَى رَبِّهِ بِعَمَلِهِ! بَلْ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالْبَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ **جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ﴿١٧﴾ [فُصِّلَتْ: ١٧] وَنَحْوَهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَيِّ بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلَّ إِلَى مَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. انتهى

وسؤال الرحمة متضمن لسؤال الجنة ففي الصحيحين عن أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: « **نَحَاجَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُورِثْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمْتِي أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَسَاءَ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّهَا أَنْتِ عَذَابِي أَعْدَبُ بِكَ مَنْ أَسَاءَ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَلُؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلُهُ فَتَمُوتُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا لِكَ تَمْتَلِي وَيُزَوِّي بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ عَزَّجَلَّ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا** ».

قوله تعالى: ﴿ **أَنْتَ مَوْلَانَا** ﴾.

يقولون: أنت ولينا والولاية ضد العداوة وفي الدعاء المأثور وتولني فيمن توليت.

قال ابن رجب في **جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٣٥)**: وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ الْقُرْبُ، وَأَصْلُ الْعَدَاوَةِ الْبُعْدُ، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِمَا يُقَرِّبُهُمْ مِنْهُ، وَأَعْدَاؤُهُ الَّذِينَ أَبْعَدَهُمْ عَنْهُ بِأَعْمَالِهِمُ الْمُقْتَضِيَةَ لِطَرْدِهِمْ وَإِبْعَادِهِمْ مِنْهُ، فَقَسَمَ أَوْلِيَاءَهُ الْمُقَرَّبِينَ

قَسَمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ الَّتِي افْتَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ.

وَالثَّانِي: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ بِالنَّوَافِلِ، فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ يُوَصِّلُ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَوَلَايَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ سِوَى طَاعَتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، فَمَنْ ادَّعَى وَلايَةَ اللَّهِ، وَمَحَبَّتَهُ بغيرِ هَذَا الطَّرِيقِ، تَبَيَّنَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ، كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادَةِ مَنْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وَكَمَا حَكَى عَنِ

الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَنْبِيَاؤُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَاهُ﴾ [المائدة: ١٨] مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ رَسُولِهِ، وَارْتِكَابِ نَوَاهِيهِ، وَتَرَكَ فَرَائِضِهِ. فَلِذَلِكَ ذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَهَذِهِ دَرَجَةُ الْمُفْتَصِّدِينَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ آدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ، وَالْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، وَصِدْقُ النِّيَّةِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ **عَزَّ وَجَلَّ**. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي خُطْبَتِهِ: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ آدَاءُ الْفَرَائِضِ، وَاجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ **عَزَّ وَجَلَّ** إِنَّمَا افْتَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ هَذِهِ الْفَرَائِضَ لِيُقَرِّبَهُمْ مِنْهُ، وَيُوجِبَ لَهُمْ رِضْوَانَهُ وَرَحْمَتَهُ. وَأَعْظَمُ فَرَائِضِ الْبَدَنِ الَّتِي تُقَرَّبُ إِلَيْهِ: الصَّلَاةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْجُدْ﴾ [العلق: ١٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، وَقَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَإِنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ رَبُّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ». وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ».

وَمِنَ الْفَرَائِضِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَدْلُ الرَّاعِي فِي رَعِيَّتِهِ، سِوَاءِ كَانَتْ رَعِيَّتُهُ عَامَّةً كَالْحَاكِمِ، أَوْ خَاصَّةً كَعَدْلِ أَحَادِ النَّاسِ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، كَمَا قَالَ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». وَفِي "صَحِيحِ مُسْلِمٍ"، عَنْ

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الْمُفْسِدِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ - وَكَلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُثِقُوا». وَفِي "التِّرْمِذِيِّ" عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ». الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: دَرَجَةُ السَّابِقِينَ الْمُتَقَرَّبِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ بِالْاجْتِهَادِ فِي نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ، وَالْإِنْكَفَافِ عَنْ ذَفَاتِقِ الْمَكْرُوهَاتِ بِالْوَرَعِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ مَحَبَّةَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، رَزَقَهُ مَحَبَّتَهُ وَطَاعَتَهُ وَالْإِسْتِعَالَ بِذِكْرِهِ وَخِدْمَتِهِ، فَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْقُرْبَ مِنْهُ، وَالزُّلْمَى لَدَيْهِ، وَالْحِظْوَةَ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَزِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة: ٥٤]. انتهى

ومن كان الله تعالى وليه دافع عنه ورعاه ونصره وأعزه وكفى بها ولاية قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦] ومن عادى أولياء الله تعالى فهو محارب من الله تعالى ففي البخاري (٦٥٠٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

وتجد من يدعي الولاية وليس من أهلها فقد يكون صوفياً قبورياً أو رافضياً
زنديقاً، ولا عجب إن حصل منهم ذلك فقد حصلت هذه الدعوى من اليهود
والنصارى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواهُ قُلْ فَلِمَ
يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ [المائدة: ١٨].

وقد ألفت العلماء في التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان تمييزاً بين أهل
الحق والضلال

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"
(ص: ٣): فمن شهد له محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء
الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أعداء الله وأولياء الشياطين.
وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن لله أولياء من
الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٤﴾ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٢٥﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا
تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢٦﴾﴾ وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم
مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ وقال
تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ
فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢٨﴾ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي
أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ
حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿١٣٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ

يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَوَةٌ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَلِيُّونَ ﴿٥٦﴾ [المائدة: ٥١-٥٦].

وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٥٤﴾﴾.

وذكر أولياء الشيطان فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَفَتِنَا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنَ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ لَهُمْ عَدُوٌّ يَشَسُّ لِلظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ بَدَلًا ﴿٥١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٦﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فَآخِشُوهُمْ فَزَادَهُمُ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٢٣﴾ فَأَنقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَن اللَّهُ وَفَضْلِ لَّمْ يَمَسَّ سَهُمُ سُوءٍ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٢٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴿٣٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّهُمْ أَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِّن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوَكُمْ﴾، وقال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَتَأْتِي إِيَّيْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ الآيات إلى قوله ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. انتهى.

وقد ذكر رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى في ذلك الكتاب ما يحتاجه المسلم في التفريق بين أولياء الله تعالى حقا وصدقا وبين مدعي الولاية من الدجالين والكذابين المبتدعين الضالين.

قال الشوكاني رَحْمَةُ اللَّهِ تعالى في قطر الولي على حديث الولي (ص: ٢٣٧): وإذا عرفت أنه لا بُدَّ للوَلِيِّ من أن يكون مقتدياً في أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة، وأن ذلك هو المعيار الذي يعرف به الحق من الباطل، فمن ظهر منه شيء مما يخالف هذا المعيار فهو رد عليه، ولا يجوز لأحد أن يعتقد فيه أنه ولي الله، فإن أمثال هذه الأمور تكون من أفعال الشياطين، كما نشاهده في الذين لهم تابع من الجن. فإنه قد يظهر على يده ما يظن من لم يستحضر هذا المعيار أنه كرامة. وهو في الحقيقة مخاريق شيطانية وتلبسات إبليسية.

ولهذا تراه يظهر من أهل البدع، بل من أهل الكفر وممن يترك فرائض الله سبحانه ويتلوث بمعاصيه. لأن الشيطان أميل إليهم للاشتراك بينه وبينهم في مخالفة ما شرعه الله سبحانه لعباده.

وقد يظهر شيء مما يظن أنه كرامة من أهل الرياضة وترك الاستكثار من الطعام والشراب على ترتيب معلوم، وقانون معروف. حتى ينتهي حاله إلى أن لا يأكل إلا في أيام ذوات العدد، ويتناول بعد مضي أيام شيئاً يسيراً. فيكون له بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية، فيدرك ما لا يدركه غيره، وليس هذا من الكرامات في شيء. ولو كان من الكرامات الربانية، والتفضلات الرحمانية، لم يظهر على أيدي

أعداء الله، كما يقع كثيراً من المرتاضين من كفره الهنْد الذين يسمونهم الآن (الجوكية).

وقد يظهر شيء مما يظن أنه كرامة على لسان بعض المجانين. وسبب ذلك كما ذكره الحكماء أنه قد ذهب عنه ما يصنعه الفكر من التفصيل والتدبير، اللذين يستمران للعقلاء. فيكون لعقله إدراك لا يكون للعقلاء، فيأتي في بعض الأحيان بمكاشفات صحيحة، وهو مع ذلك متلوث بالنجاسة مرتبك في القادورات قاعد في المزابل، وما يشابهها فيظن من لا حقيقة عنده أنه من أولياء الله، وذلك ظن باطل، وتخيل مختل، وهو في الحقيقة مجنون قد رفع الله عنه قلم التكليف، ولم يكن وليا لله، ولا عدوا. انتهى

قوله تعالى: ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٦٦﴾.

يقول تعالى ذكره مخبراً عنهم أنهم يستنصرون الله تعالى على القوم الكافرين وقد قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١٦٦﴾ [آل عمران: ١٢٦] ومن أسباب النصر طاعة الله تعالى فقد قال جل في علاه ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخْرِجْ أَيْدِيَكُمْ مِنْ قَبْضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [محمد: ٧] وهو تعالى خير الناصرين ونعم المولى ونعم النصير قال تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ [آل عمران: ١٦٠] وقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ ﴿٤٠﴾ [الأنفال: ٤٠]. وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يستغيث بالله تعالى كثيراً قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْسِلِينَ﴾ ﴿١٠﴾ [الأنفال: ٩].

وفي المسند (١٩٩٧): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو: «رَبِّ أَعْيُنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَرًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوْاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَتَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

وفي المسند (١٨٩٤٠): عَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَيَّامَ حُنَيْنٍ يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِشَيْءٍ، لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ يَفْعَلُهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ، تَفْعَلُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي تُحْرِكُ شَفْتَيْكَ؟ قَالَ: «إِنَّ نَبِيًّا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَعْجَبْتُهُ كَثْرَةُ أُمَّتِهِ، فَقَالَ: لَنْ يَرُومَ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ خَيْرٌ أُمَّتِكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَيْحِهُمُ، أَوْ الْجُوعَ، وَإِمَّا أَنْ أُرْسِلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَشَاوَرَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا الْعَدُوُّ، فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ سَبْعُونَ أَلْفًا»، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنَا أَقُولُ الْآنَ، حَيْثُ رَأَى كَثْرَتَهُمْ: اللَّهُمَّ بِكَ أَحَاوِلُ، وَبِكَ أَصَاوِلُ، وَبِكَ أَقَاتِلُ».

والناظر في غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وسراياه يجد بيان ذلك في كثير من المواطن؛ ففي صحيح مسلم (١٧٦٣): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، ح وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَاللَّفْظُ لَهُ، حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُوسُفَ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ، حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكُ الْحَنْفِيُّ، حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنَّ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ

الإسلام لا تُعبَد في الأرض»، فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه مُستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فاتاه أبو بكرٍ فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مُناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله عزَّ وجلَّ:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ٩﴾

[الأنفال: ٩] فأمدَّ الله بالملائكة، قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد حطم أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فقال: «صدقت، ذلك

من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسرُوا سبعين، قال أبو زميل، قال ابن

عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لأبي بكر، وعمر: «ما ترون في هؤلاء الأسارى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن

تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «ما ترى يا ابن الخطاب؟» قلت: لا والله يا رسول الله، ما

أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن علينا من

عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيباً لعمر، فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة

الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما

قلت، فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وأبو بكر قاعدان

بيكيان، قلت: يا رسول الله، أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت

بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تبكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: "

أبكي للذي عرَّض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرَّض علي عذابهم أدنى

من هذه الشجرة - شجرة قريبة من نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا

كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُبَيِّنَ فِي الْأَرْضِ ﴿[الأنفال: ٦٧] إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَكُلُوا
 وَمِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ.



الخاتمة

فتضمنت هذه الثلاث الآيات معاني عظيمة وجليية من مهمات الدين:

ففيها: الجمع بين الترغيب والترهيب، **وفها:** بيان أصول الدين وقواعده العظام بل فيها مهمات العقيدة والتوحيد، وبيان حال المؤمنين في الرجوع إلى الله والتوسل إليه بصالح القول والعمل، **وفها:** بيان لرحمة الله تعالى الواسعة، وبيان لشفقة رسول الله صلى عليه وسلم على أمته ودلائلهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وفها: أن الله تعالى ينسخ ما شاء قال تعالى: ﴿ * مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٧٦]، قال ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِهِ** (١/ ٣٧٥): وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿ * مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ ﴾ * مَا يُنْقَلُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَبَدَّلَهُ وَتَغَيَّرَهُ، وَذَلِكَ أَنْ يُحَوَّلَ الْحَلَالُ حَرَامًا وَالْحَرَامُ حَلَالًا وَالْمُبَاحُ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورُ مَبَاحًا. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحَظَرِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْمَنْعِ وَالْإِبَاحَةِ. فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ. وَأَصْلُ النَّسْخِ مِنْ نَسَخِ الْكِتَابِ، وَهُوَ نَقْلُهُ مِنْ نُسْخَةٍ أُخْرَىٰ إِلَىٰ غَيْرِهَا، فَكَذَلِكَ مَعْنَىٰ نَسْخِ الْحُكْمِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، إِنَّمَا هُوَ تَحْوِيلُهُ وَنَقْلُ عِبَادَةِ إِلَىٰ غَيْرِهَا. وَسَوَاءٌ نَسَخُ حُكْمِهَا أَوْ حَطَّهَا، إِذْ هِيَ فِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا مَنْسُوخَةٌ. وَأَمَّا عُلَمَاءُ الْأُصُولِ فَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ فِي حَدِّ النَّسْخِ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ قَرِيبٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَىٰ النَّسْخِ الشَّرْعِيِّ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَلِخَصِّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَفْعُ الْحُكْمِ بِدَلِيلٍ شَرْعِيِّ مُتَأَخِّرٍ. فَانْدَرَجَ فِي ذَلِكَ نَسْخُ الْأَخْفِ بِالْأَثْقَلِ، وَعَكْسِهِ، وَالنَّسْخُ لَا إِلَىٰ بَدَلٍ. وَأَمَّا تَفَاصِيلُ أَحْكَامِ النَّسْخِ وَذَكَرُ أَنْوَاعِهِ وَشُرُوطِهِ فَمَبْسُوطٌ فِي فَنَّ أُصُولِ الْفِقْهِ. انتهى

وفي البخاري (٤٥٤٦): عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَحْسِبُهُ ابْنَ عُمَرَ: ﴿وَأَنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قَالَ: «نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا».

وفي الآية: بيان لسعة رحمة الله تعالى واستجابته لدعاء أوليائه وفي ذلك يقول الله **عَزَّوَجَلَّ** قد فعلت قد فعلت كما تقدم؛ حيث دعا المؤمنون ربهم بهذا الدعاء العظيم وذلت به ألسنتهم فأنزل الله **عَزَّوَجَلَّ** الآيات مخبراً عن حالهم وعن تضرعهم اليه فليكنهم وربهم ثم تفضل عليهم بفضله العظيم فاستجاب دعاءهم وحقق رجاءهم وكشف كربتهم وتجاوز عن عما نزل بهم من الشدة لأن الإنسان قد يطرأ في قلبه من الخواطر ما لا قدرة له على رده وإزالته إلا أنه ينبغي له التضرع لله والاستغاثة به، ففي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَسْتَسْتَعِذْ بِهِ». متفق عليه.

وقد قال تعالى في بيان مزية الدعاء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وفي المسند (١٨٣٥٢): عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ"، ثُمَّ قَرَأَ: "﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾" [غافر: ٦٠].

فلا يجوز القنوط من رحمة الله تعالى بحال فهو الرحيم الرحمن الكريم المنان قال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]

وفيها: دلالة كما تقدم على وجوب الاستمرار على الخير وفي دعاء المؤمنين قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

﴿٨﴾ [آل عمران: ٨] وفي مسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُصَرِّفُهَا حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ».

وهذا تعليق مختصر على هذه الآية العظيمة وإلا حقها أكثر من ذلك فهي من كلام الله تعالى المبارك قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] فمن بركته دلالته على العلوم الكثير بأوجز عبارة كيف لا وهو كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله ونوره وهده ورحمته وشفاه على ما بينت ذلك في كتابي "هداية القرآن إلى التوحيد" لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله

وأختم بهذا الكلام الملخص لما فيها، قال شيخ الإسلام - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: كما في مجموع الفتاوى (١٤/١٢٩-١٤١): اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ خَوَاتِيمَ (سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ لَمْ يُؤْتِ مِنْهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَفَهِمَ مَا تَضَمَّتْهُ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْإِيمَانِ الْخَمْسِ وَالرَّدِّ عَلَى كُلِّ مُبْطِلٍ وَمَا تَضَمَّتْهُ مِنْ كَمَالِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتِهِ وَمَحَبَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ فَلْيَهْنِ الْعِلْمَ وَلَوْ ذَهَبْنَا نَسْتَوْعِبُ الْكَلَامَ فِيهَا لَخَرَجْنَا عَنْ مَقْصُودِ الْكِتَابِ وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ كَلِمَاتٍ يَسِيرَةٍ تُشِيرُ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ فَتَقُولُ: لَمَّا كَانَتْ (سُورَةُ الْبَقَرَةِ) سَنَامَ الْقُرْآنِ وَأَكْثَرَ سُورِهِ أَحْكَامًا وَأَجْمَعَهَا لِقَوَاعِدِ الدِّينِ: أَصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَهِيَ مُشْتَمَلَةٌ عَلَى ذِكْرِ "أَقْسَامِ الْخَلْقِ": الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَذَكَرَ أَوْصَافِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ. وَذَكَرَ الْأَدِلَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى إِبْتِاتِ الْخَالِقِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَذَكَرَ نِعْمِهِ وَإِبْتِاتِ نُبُوَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَقْرِيرِ الْمَعَادِ وَذَكَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَمَا فِيهِمَا مِنَ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ.

ثُمَّ ذَكَرَ تَخْلِيْقَ الْعَالَمِ الْعُلُوِّيِّ وَالسُّفْلِيِّ. ثُمَّ ذَكَرَ خَلْقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ
بِالتَّعْلِيمِ وَإِسْجَادِ مَلَائِكَتِهِ لَهُ وَإِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ ثُمَّ ذَكَرَ مِحْنَتِهِ مَعَ إِبْلِيسَ وَذَكَرَ حُسْنَ عَاقِبَةِ
آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ ذَكَرَ " الْمُنَازَعَةَ " مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الْيَهُودِ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ
وَعِنَادِهِمْ ثُمَّ ذَكَرَ النَّصَارَى وَالرَّدَّ عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيرَ عُبُودِيَّةِ الْمَسِيحِ ثُمَّ تَقْرِيرَ النَّسْخِ
وَالْحِكْمَةِ فِي وُقُوعِهِ. ثُمَّ بِنَاءَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَتَقْرِيرَ تَعْظِيمِهِ وَذَكَرَ بَآئِيَهُ وَالشَّانِ عَلَيْهِ ثُمَّ
تَقْرِيرَ الْحَنِيْفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَسْفِيهِ مَنْ رَغِبَ عَنْهَا وَوَصِيَّةَ بَيْنِهِ بِهَا
وَهَكَذَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ فَخَتَمَهَا اللهُ تَعَالَى بِآيَاتِ جَوَامِعِ مُقَرَّرَةٍ لِجَمِيعِ
مَضْمُونِ السُّورَةِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَيَّ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٨﴾. فَأَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُلْكُهُ وَحَدَهُ
لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ مُشَارِكٌ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ انْفِرَادَهُ بِالْمُلْكِ الْحَقِّ وَالْمُلْكِ الْعَامِّ لِكُلِّ مَوْجُودٍ
وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ رَبُوبِيَّتِهِ وَتَوْحِيدَ إِلَهِيَّتِهِ فَتَضَمَّنَ نَفْيَ الْوَالِدِ وَالصَّاحِبَةِ وَالشَّرِيكِ؛
لِأَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانَ مُلْكُهُ وَخَلْقُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِمْ وَكَدٌّ وَلَا
صَاحِبَةٌ وَلَا شَرِيكٌ. وَقَدْ اسْتَدَلَّ سُبْحَانَهُ بِعَيْنِ هَذَا الدَّلِيلِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَسُورَةِ
مَرْيَمَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّي يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿وَمَا يَتَّبِعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤٠﴾﴾
﴿إِنْ كَلَّمْنَا مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٤١﴾﴾ وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ أَنَّ
الرَّغْبَةَ وَالسُّؤَالَ وَالطَّلَبَ وَالِافْتِقَارَ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَيْهِ وَحَدَهُ؛ إِذْ هُوَ الْمَالِكُ لِمَا فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَلَمَّا كَانَ تَصَرُّفُهُ سُبْحَانَهُ فِي خَلْقِهِ لَا يَخْرُجُ عَنِ الْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ تَصَرَّفُ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَأَخْبَرَ أَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُلْكُهُ
فَمَا تَصَرَّفَ خَلْقًا وَأَمْرًا إِلَّا فِي مُلْكِهِ الْحَقِيقِيِّ وَكَانَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ مُشْتَمِلَةً مِنَ الْأَمْرِ

وَالْخَلْقِ عَلَىٰ مَا لَمْ يَشْتَمَلْ عَلَيْهِ سُورَةٌ غَيْرُهَا - أَخْبَرَ تَعَالَىٰ أَنْ ذَلِكَ صَدَرَ مِنْهُ فِي مُلْكِهِ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ﴿١﴾ فَهَذَا مُتَضَمِّنٌ لِكَمَالِ عِلْمِهِ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ** بِسَرَائِرِ عِبَادِهِ وَظَوَاهِرِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمِهِ كَمَا لَمْ يَخْرُجْ شَيْءٌ مِمَّنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَنْ مُلْكِهِ فَعِلْمُهُ عَامٌ وَمُلْكُهُ عَامٌ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ مُحَاسَبَتِهِ لَهُمْ بِذَلِكَ وَهِيَ تَعْرِيفُهُمْ مَا أَبَدُوهُ أَوْ أَخَفَوْهُ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ عِلْمَهُ بِهِمْ وَتَعْرِيفُهُمْ إِيَّاهُ ثُمَّ قَالَ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿٢﴾ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ قِيَامَهُ عَلَيْهِمْ بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ فَضْلًا وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ عَدْلًا وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ الْمُسْتَلْزِمَ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الْمُسْتَلْزِمَ لِلرَّسَالَةِ وَالنَّبْوَةِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٣﴾ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ قُدْرَتِهِ أَلَبَّتَهُ وَأَنَّ كُلَّ مَقْدُورٍ وَقَعَ بِقُدْرِهِ فَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْمَجُوسِ الشُّنُوءَةِ وَالْفَلَاسِيفَةِ وَالْقَدْرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ وَعَلَىٰ كُلِّ مَنْ أَخْرَجَ شَيْئًا مِنَ الْمَقْدُورَاتِ عَنْ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ - وَهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرُونَ. فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ إِبْطَاتِ التَّوْحِيدِ وَإِثْبَاتِ الْعِلْمِ بِالْجُزْئِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ وَإِثْبَاتِ الشَّرَائِعِ وَالنُّبُوءَاتِ وَإِثْبَاتِ الْمَعَادِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَقِيَامِ الرَّبِّ عَلَىٰ خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَإِثْبَاتِ كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَعُمُومِهَا وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُدُوثَ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ؛ لِأَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَكُونُ مَقْدُورًا وَلَا مَفْعُولًا. ثُمَّ إِنَّ إِثْبَاتَ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ سَائِرِ صِفَاتِهِ الْعُلَىٰ وَلَهُ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ اسْمٌ حَسَنٌ فَيَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ فَعَالًا لِمَا يُرِيدُ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَا يُضَادُّ كَمَالَهُ فَيَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنِ الظُّلْمِ الْمُنَافِي لِكَمَالِ غِنَاهُ وَكَمَالِ عِلْمِهِ؛ إِذِ الظُّلْمُ إِنَّمَا يَصْدُرُ عَنْ مُحْتَاجٍ أَوْ جَاهِلٍ وَأَمَّا الْغِنَىٰ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ الْعَالِمِ بِكُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُ يَسْتَحِيلُ مِنْهُ الظُّلْمُ كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ الْمُنَافِي لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَالْجَهْلُ الْمُنَافِي لِكَمَالِ عِلْمِهِ. فَتَضَمَّنَتْ الْآيَةُ هَذِهِ الْمَعَارِفَ كُلَّهَا بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ

وَأَفْصَحَ لَفْظٍ وَأَوْصَحَ مَعْنَى. وَقَدْ عَرَفْتَ بِهَذَا أَنَّ الْآيَةَ لَا تَقْتَضِي الْعِقَابَ عَلَى خَوَاطِرِ
النُّفُوسِ الْمُجَرَّدَةِ؛ بَلْ إِنَّمَا تَقْتَضِي مُحَاسَبَةَ الرَّبِّ عَبْدَهُ بِهَا وَهِيَ أَعْمٌ مِنَ الْعِقَابِ
وَالْأَعْمُ لَا يَسْتَلْزِمُ الْأَخْصَّ وَبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِ بِهَا يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَعَلَى
هَذَا فَالْآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَا نَسْخَ فِيهَا وَمَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: نَسَخَهَا مَا بَعْدَهَا فَمُرَادُهُ بَيَانُ
مَعْنَاهَا وَالْمُرَادُ مِنْهَا وَذَلِكَ يُسَمَّى نَسْخًا فِي لِسَانِ السَّلَفِ كَمَا يُسَمُّونَ الْإِسْتِثْنَاءَ
نَسْخًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ فَهَذِهِ شَهَادَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِيْمَانِهِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ إِعْطَاءَهُ

ثَوَابِ أَكْمَلِ أَهْلِ الْإِيْمَانِ - زِيَادَةَ عَلَى ثَوَابِ الرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ - لِأَنَّهُ شَارَكَ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الْإِيْمَانِ وَنَالَ مِنْهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ وَامْتَارَ عَنْهُمْ بِالرِّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ وَقَوْلُهُ: ﴿أُنزِلَ
إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كَلَامُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ وَمِنْهُ نَزَلَ لَا مِنْ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ وَقَالَ: ﴿نَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وَهَذَا أَحَدُ
مَا اخْتَجَّ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِالْقُرْآنِ قَالُوا: فَلَوْ كَانَ
كَلَامًا لِغَيْرِ اللَّهِ لَكَانَ مُتَزَلًّا مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ لَا مِنْ اللَّهِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ صِفَةٌ لَا تَقُومُ
بِنَفْسِهَا؛ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ فَإِنَّ تِلْكَ
أَعْيَانٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهِيَ مِنْهُ خَلْقًا وَأَمَّا " الْكَلَامُ " فَوَصْفٌ قَائِمٌ بِالْمُتَكَلِّمِ فَلَمَّا كَانَ مِنْهُ
فَهُوَ كَلَامُهُ؛ إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ. ثُمَّ شَهِدَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ
آمَنُوا بِمَا آمَنَ بِهِ رَسُولُهُمْ ثُمَّ شَهِدَ لَهُمْ جَمِيعًا بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ إِيمَانَهُمْ بِقَوَاعِدِ الْإِيْمَانِ الْخَمْسَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ أَحَدٌ مُؤْمِنًا إِلَّا
بِهَا وَهِيَ: الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَدْ ذَكَرَ تَعَالَى هَذِهِ
الْأُصُولَ الْخَمْسَةَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَوَسَطِهَا وَآخِرِهَا فَقَالَ فِي أَوَّلِهَا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾ ﴿١﴾ فَاَلْإِيمَانُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِهِ يَتَّصِمُنُ الْإِيمَانَ بِالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ وَالْمَلَائِكَةِ ثُمَّ قَالَ: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿١﴾﴾ وَالْإِيمَانُ بِاللَّهِ يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ وَفِي الْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ فَتَضَمَّنَتْ الْإِيمَانَ بِالْقَوَاعِدِ الْخَمْسِ. وَقَالَ فِي وَسَطِهَا: ﴿وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ مِنَ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ﴾ ثُمَّ حَكَى عَنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فَنُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ فَلَا يَنْفَعُنَا إِيْمَانُنَا بِمَنْ آمَنَّا بِهِ مِنْهُمْ كَمَا لَمْ يَنْفَعِ أَهْلَ الْكِتَابِ ذَلِكَ؛ بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ وَنُصَدِّقُهُمْ وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ وَقَدْ جَمَعَتْهُمْ رِسَالَةُ رَبِّهِمْ فَنُفَرِّقُ بَيْنَ مَنْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَنُعَادِي رُسُلَهُ وَنَكُونُ مُعَادِينَ لَهُ. فَبَايَنُوا بِهَذَا الْإِيمَانَ جَمِيعَ طَوَائِفِ الْكُفَّارِ الْمُكَذِّبِينَ لِجِنْسِ الرُّسُلِ. وَالْمُصَدِّقِينَ لِبَعْضِهِمْ الْمُكَذِّبِينَ لِبَعْضِهِمْ. وَتَضَمَّنَ إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ إِيْمَانُهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَعُمُومِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَكَمَالِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ فَبَايَنُوا بِذَلِكَ جَمِيعَ طَوَائِفِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْمُنْكَرِينَ لِذَلِكَ أَوْ لِشَيْءٍ مِنْهُ؛ فَإِنَّ كَمَالَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ يَتَّصِمُنُ إِثْبَاتَ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَتَنْزِيهَهُ عَمَّا نَزَّهَ نَفْسَهُ

عَنْهُ فَبَايَنُوا بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعَ طَوَائِفِ الْكُفْرِ وَفَرَّقَ أَهْلَ الضَّلَالِ الْمُلْحِدِينَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فَهَذَا إِقْرَارٌ مِنْهُمْ بِرُكْنِي الْإِيمَانِ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِمَا وَهُمَا السَّمْعُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْقَبُولِ؛ لَا مُجَرَّدَ سَمْعِ الْإِدْرَاكِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ؛ بَلْ سَمْعَ الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ وَ "الثَّانِي" الطَّاعَةُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الْإِنْقِيَادِ وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ وَهَذَا عَكْسُ قَوْلِ الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَمَالَ إِيْمَانِهِمْ وَكَمَالَ قَبُولِهِمْ وَكَمَالَ انْقِيَادِهِمْ ثُمَّ قَالُوا: ﴿عَفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٥٥﴾﴾ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُوقُوا مَقَامَ الْإِيمَانِ حَقَّهُ مَعَ الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مِنْهُمْ وَأَنَّهَمْ لَا بُدَّ أَنْ تَمِيلَ بِهِمْ غَلَبَاتِ الطَّبَاعِ وَدَوَاعِي الْبَسْرِيَّةِ إِلَى بَعْضِ

التَّقْصِيرِ فِي وَاجِبَاتِ الْإِيمَانِ وَأَنَّهُ لَا يَلْمُ شَعْتُ ذَلِكَ إِلَّا مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ سَأَلُوهُ
 عُفْرَانَهُ الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَتِهِمْ وَنَهَايَةُ كَمَالِهِمْ؛ فَإِنَّ غَايَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ الْمَغْفِرَةُ مِنَ اللَّهِ
 تَعَالَى فَقَالُوا: ﴿عُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ ثُمَّ اعْتَرَفُوا أَنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَرَدَّهُمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا
 بُدَّ لَهُمْ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ فَقَالُوا: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٣٨). فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ
 إِيْمَانَهُمْ بِهِ وَدُخُولَهُمْ تَحْتَ طَاعَتِهِ وَعُبُودِيَّتِهِ وَاعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَاضْطِرَارِهِمْ إِلَى
 مَغْفِرَتِهِ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِ وَإِقْرَارِهِمْ بِرُجُوعِهِمْ إِلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا
 يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فَفَنَى بِذَلِكَ مَا تَوَهَّمُوهُ مِنْ أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ بِالْخَطَرَاتِ الَّتِي لَا
 يَمْلِكُونَ دَفْعَهَا وَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ تَكْلِيفِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُهُمْ إِلَّا وُسْعَهُمْ فَهَذَا هُوَ
 الْبَيَانُ الَّذِي قَالَ فِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ فَنَسَخَهَا اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا
 وُسْعَهَا﴾ وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ أَمْرًا وَنَهْيًا فَهُمْ مُطِيقُونَ لَهُ قَادِرُونَ
 عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ وَفِي ذَلِكَ رَدُّ صَرِيحٍ عَلَى مَنْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ.
 وَاللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ وَضَمَّنَ أَرْزَاقَهُمْ فَكَلَّفَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَسْعُونَهُ وَأَعْطَاهُمْ
 مِنَ الرِّزْقِ مَا يَسْعُهُمْ فَتَكْلِيفُهُمْ يَسْعُونَهُ وَأَرْزَاقُهُمْ تَسْعُهُمْ فَهُمْ فِي الْوُسْعِ فِي رِزْقِهِ
 وَأَمْرِهِ: وَسِعُوا أَمْرَهُ وَوَسِعَهُمْ رِزْقُهُ فَفَرَّقَ بَيْنَ مَا يَسَعُ الْعَبْدُ وَمَا يَسْعُهُ الْعَبْدُ وَهَذَا هُوَ
 اللَّائِقُ بِرَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَغَنَاهُ؛ لَا قَوْلٌ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ كَلَّفَهُمْ مَا لَا قُدْرَةَ
 لَهُمْ عَلَيْهِ أَلْبَتَّةَ وَلَا يُطِيقُونَهُ ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَعْمَلُونَهُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿إِلَّا
 وُسْعَهَا﴾ كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَهُ أَنَّهُمْ فِي سَعَةٍ وَمِنْحَةٍ مِنْ تَكَالِيفِهِ؛ لَا فِي ضَيْقٍ وَحَرَجٍ
 وَمَشَقَّةٍ؛ فَإِنَّ الْوُسْعَ

يَقْتَضِي ذَلِكَ فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنَّ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ مَقْدُورٌ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرِ لَهُمْ وَلَا
 ضَيْقٍ وَلَا حَرَجٍ؛ بِخِلَافِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الشَّخْصُ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَقْدُورًا لَهُ وَلَكِنْ فِيهِ
 ضَيْقٌ وَحَرَجٌ عَلَيْهِ وَأَمَّا وُسْعُهُ الَّذِي هُوَ مِنْهُ فِي سَعَةٍ فَهُوَ دُونَ مَدَى الطَّاقَةِ وَالْمَجْهُودِ؛

بَلْ لِنَفْسِهِ فِيهِ مَجَالٌ وَمَتَسَعٌ وَذَلِكَ مُنَافٍ لِلضِّيقِ وَالْحَرَجِ ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
 الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿بَلْ﴾ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ قَالَ سُفْيَانُ
 بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا وَسْعَهَا﴾ ﴿إِلَّا يُسْرَهَا لَا عُسْرَهَا وَلَمْ يُكَلِّفْهَا طَاقَتَهَا وَلَوْ كَلَّفَهَا
 طَاقَتَهَا لَبَلَغَ الْمَجْهُودُ. فَهَذَا فَهْمُ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ إِنَّهُ كَلَّفَهُمْ مَا
 لَا يُطِيقُونَهُ الْبَتَّةَ وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ؟ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا التَّكْلِيفِ وَغَايَتَهُ
 عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَّهُ تَعَالَى يَتَعَالَى عَنِ انْتِفَاعِهِ بِكَسْبِهِمْ وَتَضَرُّرِهِ بِاِكْتِسَابِهِمْ؛ بَلْ لَهُمْ
 كَسْبُهُمْ وَنَفْعُهُ. وَعَلَيْهِمْ اِكْتِسَابُهُمْ وَضَرَرُهُ فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ حَاجَةً مِنْهُ إِلَيْهِمْ؛
 بَلْ رَحْمَةً وَإِحْسَانًا وَتَكَرُّمًا وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ بُخْلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ بَلْ حَمِيَّةٌ
 وَحِفْظًا وَصِيَانَةً وَعَافِيَةً. وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّ نَفْسًا لَا تُعَذِّبُ بِاِكْتِسَابِ غَيْرِهَا وَلَا تُثَابُ بِكَسْبِهِ
 فِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

وَفِيهِ أَيْضًا إِثْبَاتُ كَسْبِ النَّفْسِ الْمُنَافِي لِلْجَبْرِ. وَفِيهِ أَيْضًا اجْتِمَاعُ الْحِكْمَةِ فِيهِ فِيمَا
 كَسَبَ خَيْرًا أَوْ اِكْتَسَبَ شَرًّا لَمْ يُبْطَلِ اِكْتِسَابُهُ كَسْبَهُ كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْاِحْبَاطِ وَالتَّخْلِيدِ؛
 فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ عَلَيْهِ مَا اِكْتَسَبَ وَلَيْسَ لَهُ مَا كَسَبَ فَالْآيَةُ رَدٌّ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ
 الطَّوَائِفِ فَتَأْمَلْ كَيْفَ أَتَى فِيمَا لَهَا بِالْكَسْبِ الْحَاصِلِ وَلَوْ لِأَدْنَى مَثَلِ بَسَةٍ وَفِيمَا عَلَيْهَا
 بِالْاِكْتِسَابِ الدَّالُّ عَلَى الْاِهْتِمَامِ وَالْحِرْصِ وَالْعَمَلِ؛ فَإِنَّ اِكْتَسَابَ اِبْلَغُ مِنْ كَسَبِ فِيهِ
 ذَلِكَ تَنْبِيهُ عَلَى غَلْبَةِ الْفَضْلِ لِلْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ لِلْعُضْبِ. ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عُهُودًا
 مِنْهُ وَوَصَايَا وَأَوَامِرَ تَجِبُ مَرَاعَاتُهَا وَالْمُحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَأَنْ لَا يُخِلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا؛ وَلَكِنَّ
 غَلْبَةَ الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ تَأْتِي إِلَّا النَّسِيَانَ وَالْخَطَأَ وَالضَّعْفَ وَالتَّقْصِيرَ أَرْشَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى
 إِلَى أَنْ يَسْأَلُوهُ مُسَامَحَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَرَفَعَ مُوجِبُهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا لَا
 تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا اِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أَي لَا تُكَلِّفْنَا مِنَ الْاِصْرِ الَّتِي يَتَّقُلُ حَمْلُهَا مَا كَلَّفْتَهُمْ مِنْ قَبْلِنَا؛ فَإِنَّا

أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَأَقْلُ أَحْتِمَالًا. ثُمَّ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْفَكِّينَ مِمَّا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ عَلَيْهِمْ كَمَا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْفَكِّينَ مِمَّا يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَبِنَهَائِهِمْ عَنْهُ سَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ كَمَا سَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ﴿١﴾ فَهَذَا فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدْرِ وَالْمَصَائِبِ وَقَوْلُهُمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ ﴿٢﴾ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّكْلِيفِ فَسَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي النَّوعَيْنِ. ثُمَّ سَأَلُوهُ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ؛ فَإِنَّ بِهِذِهِ الْأَرْبَعَةَ تَبَيَّنَ لَهُمْ النُّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ وَلَا يَصْفُو عَيْشُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِهَا وَعَلَيْهَا مَدَارُ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ فَالْعَفْوَ مُتَضَمِّنٌ لِإِسْقَاطِ حَقِّهِ قَبْلِهِمْ وَمُسَامَحَتِهِمْ بِهِ وَالْمَغْفِرَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِيَوْقَاتِيَّتِهِمْ شَرَّ ذُنُوبِهِمْ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ؛ بِخِلَافِ الْعَفْوَ الْمُجَرَّدِ؛ فَإِنَّ الْعَافِي قَدْ يَعْفُو وَلَا يُقْبَلُ عَلَى مَنْ عَفَا عَنْهُ وَلَا يَرْضَى عَنْهُ فَالْعَفْوَ تَرْكُ مَحْضٍ وَالْمَغْفِرَةُ إِحْسَانٌ وَفَضْلٌ وَجُودٌ وَالرَّحْمَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ مَعَ زِيَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالْعَطْفِ وَالْبِرِّ فَالثَّلَاثَةُ تَتَضَمَّنُ النِّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَوْزَ بِالْخَيْرِ وَالنُّصْرَةَ تَتَضَمَّنُ التَّمَكِينَ مِنْ إِعْلَانِ عِبَادَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ وَشِفَاءِ صُدُورِهِمْ مِنْهُمْ وَإِذْهَابِ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ وَحِزَازَاتِ نَفْسِهِمْ وَتَوَسُّلُوا فِي خِلَالِ هَذَا الدُّعَاءِ إِلَيْهِ بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُمْ سِوَاهُ فَهُوَ نَاصِرُهُمْ وَهَادِيهِمْ وَكَافِيهِمْ وَمُعِينُهُمْ وَمُجِيبُ دَعْوَاتِهِمْ وَمَعْبُودُهُمْ. فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِهَذِهِ الْمَعَارِفِ وَانْقَادَتْ وَذَلَّتْ لِعِزَّةِ رَبِّهَا وَمَوْلَاهَا وَأَجَابَتْهَا جَوَارِحُهُمْ أُعْطُوا كُلَّمَا سَأَلُوهُ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْأَلُوا شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَدْ فَعَلْتُ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ. فَهَذِهِ كَلِمَاتٌ قَصِيرَةٌ مُخْتَصِرَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مَقْدَارِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الشَّانِ الْجَلِيلَةِ الْمَقْدَارِ الَّتِي خَصَّ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتَهُ مِنْ كَثْرَةِ تَحْتِ الْعَرْشِ. وَبَعْدُ فَبَيْهَا مِنَ الْمَعَارِفِ وَحَقَائِقِ الْعُلُومِ مَا تَعَجَّزُ عَقُولُ

الْبَشْرِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَاللَّهُ الْمَرْغُوبُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَحْرِمَنَا الْفَهْمَ فِي كِتَابِهِ إِنَّهُ رَحِيمٌ
وَدُودٌ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ
أَجْمَعِينَ. انتهى

بهذا أرجو أن الله تعالى قد وفقني لذكر المهم في بيان هذه الآيات ولو أردت
التوسع أكثر لخرجت عن المقصود، وبالله التوفيق، والحمد لله على التمام.



تفسير قول الله عزَّجَلَّ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ

مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال سبحانه تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١].

هذا خطاب من الله تعالى ذكره، ودعوة لجميع الناس إلى عبادته سبحانه وإفراده بما يجب له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهذا الخطاب عام يدخل فيه الرجال والنساء والانس والجن من المكلفين؛ ففي صحيح مسلم (٢٢٩٥): عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهَا قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَذْكُرُونَ الْحَوْضَ، وَلَمْ أَسْمَعْ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمًا مِنْ ذَلِكَ، وَالْجَارِيَةُ تَمْشُطُنِي، فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «أَيُّهَا النَّاسُ» فَقُلْتُ لِلْجَارِيَةِ: اسْتَخِرِي عَنِّي، قَالَتْ: إِنَّمَا دَعَا الرَّجَالَ وَلَمْ يَدْعُ النِّسَاءَ، فَقُلْتُ: إِنِّي مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ، فَإِيَّايَ لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيَذُبُّ عَنِّي كَمَا يَذُبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَقُولُ: فِيْمَ هَذَا؟» فَيَقَالُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا».

وفي صحيح مسلم (١٥٧٨): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ بِالْمَدِينَةِ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعَرِّضُ بِالْحُمْرِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ سَيُنزِلُ فِيهَا أَمْرًا، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَبِعْهُ وَلْيُسْتَفِيعْ بِهِ»، قَالَ: فَمَا لَيْشْنَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ الْحُمْرَ، فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلَا يَشْرِبُ، وَلَا يَبِيعُ»، قَالَ: فَاسْتَقْبَلَ النَّاسُ بِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْهَا فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ فَسَفَكُوهَا.

وهذا أول خطاب بعموم الناس في المصحف، وقد جاء في القرآن في عشرين موطناً منها أربعة مواطن أمر فيها رسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** بقولها، وإذا تأملت هذه الخطابات تجد فيها الدلالة على مهمات الأمور كالدعوة إلى التوحيد والأخبار بالبعث والنشور ونحوها، وبلفظ: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الانفطار: ٦] في موطنين فيه التحذير من الاغترار والبعث والنشور، وجاء النداء بلفظ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] في تسعة وثمانين موضعاً من القرآن فيها الحث على العمل الصالح وبيان كثير من أحكام الدين والخطاب بلفظ: ﴿بَيْنِي ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] في خمسة مواضع من القرآن أربعة، منه في سورة الأعراف: والخطاب بقوله: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٣٠] في موطنين وأحدها يكون في الآخرة للتقرير وهي قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

والثاني: للتحدي وهو قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَفَعْتُمْ أَنْ تَتَفَدُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُدُوا لَا تَتَفَدُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ۝٣٣﴾ [الرحمن: ٣٣] والخطاب لرسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وحده بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] في ثلاثة عشر موضعاً من القرآن منها ما هو خاص برسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ومنها ما لفظه خاص ويراد به العموم والخطاب بقوله: ﴿يَلْبَسْنَءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، في موطنين كلاهما في الأحزاب أحدها: يدل على خصوص زوجات النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وهو قوله: ﴿يَلْبَسْنَءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضْلَعُ لَهَا الْعَذَابُ ۖ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] والثاني: خاص اللفظ عام الحكم وهي قوله: ﴿يَلْبَسْنَءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٣ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ

الْبَيْتِ وَيُطَهِّرُهُ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكَرْتَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤] فهذا يدخل في وجوب العمل به جميع نساء الأمة.

والخطاب يدل على أهمية الأمور به أو المنهي عنه، وقد روى ابن أبي حاتم (١٠٣٧): حَدَّثَنَا أَبِي ثنا نَعِيمُ بْنُ حَمَّادٍ ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ ثنا مِسْعَرُ حَدَّثَنِي مَعْنُ وَعَوْنٌ، أَوْ أَحَدُهُمَا: أَنَّ رَجُلًا أَتَى عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَعْهَدُ إِلَيَّ فَقَالَ: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَأَرْعَهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يَأْمُرُهُ أَوْ شَرٌّ يَنْهَى عَنْهُ.

قال ابن كثير (٣/ ٤٨٧): وَمِنْ أَهَمِّ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ، مَا بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَخَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالنَّهْيِ عَنِ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، كَمَا أُرْسِلَ بِهِ جَمِيعَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [التَّحْلِ: ٣٦]. انتهى

والخطاب بـ(يا أيها الناس) قد يُراد به جميع المكلفين وقد يكون من العموم الذي يراد به الخصوص، ومما يدل على ذلك أن خطب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** كانت تتضمن نداء المؤمنين بلفظ (يا أيها الناس) وأي كان فإن المسلم داخل في هذا الخطاب دخولاً أولياً فيجب عليه امثال أمر الله تعالى، والابتعاد عن زجره ونهيه، فإن الله تعالى خلقنا لطاعته والبعد عن معصيته ووعده من أطاعه بالجنة، وحذر من عصاه بالنار.

وذكر عن مجاهد وعلقمة: أن كل آية أولها (يا أيها الناس) فإنما نزلت بمكة، وكل آية أولها (يا أيها الذين آمنوا) فإنها نزلت بالمدينة، وهذا القول غير صحيح؛ فإن هذا النداء في سورة البقرة والنساء والحج والحجرات وكلها مدنية.

قال القرطبي (١/ ٢٢٥): وَهَذَا يُرَدُّهُ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ وَالنِّسَاءَ مَدِينَتَانِ وَفِيهِمَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ. وَأَمَّا قَوْلُهُمَا فِي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فَصَحِيحٌ. وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: مَا كَانَ مِنْ حَدِّ أَوْ فَرِيضَةٍ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ انْتَهَى وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ [البقرة: ٢١].

قال القرطبي (١/ ٢٢٥): وَ"يَا" فِي قَوْلِهِ: "يَا أَيُّهَا" حَرْفُ نِدَاءٍ "أَيُّ" مُنَادَى مُفْرَدٌ مَبْنِيٌّ عَلَى الضَّمِّ، لِأَنَّهُ مُنَادَى فِي اللَّفْظِ، وَ"هَا" لِلتَّنْبِيهِ. "النَّاسُ" مَرْفُوعٌ صِفَةً لِأَيُّ عِنْدَ جَمَاعَةِ النَّحْوِيِّينَ، مَا عَدَا الْمَازِنِيَّ فَإِنَّهُ أَجَارَ النَّصْبَ قِيَاسًا عَلَى جَوَازِهِ فِي: يَا هَذَا الرَّجُلَ. وَقِيلَ: ضُمَّتْ "أَيُّ" كَمَا ضُمَّ الْمَقْصُودُ الْمُفْرَدُ، وَجَاءَ وَابٍ "هَا" عِوَضًا عَنْ يَاءٍ أُخْرَى، وَإِنَّمَا لَمْ يَأْتُوا بِيَاءٍ لِئَلَّا يَنْقَطِعَ الْكَلَامُ فَجَاءَ وَابٍ "هَا" حَتَّى يَبْقَى الْكَلَامُ مُتَّصِلًا. قَالَ سَيِّوِيهِ: كَأَنَّكَ كَرَّرْتَ "يَا" مَرَّتَيْنِ وَصَارَ الْإِسْمُ بَيْنَهُمَا، كَمَا قَالُوا: هَا هُوَ ذَا. وَقِيلَ لَمَّا تَعَدَّرَ عَلَيْهِمُ الْجَمْعُ بَيْنَ حَرْفِي تَعْرِيفٍ أَتَوْا فِي السُّورَةِ بِمُنَادَى مُجَرَّدٍ عَنْ حَرْفِ تَعْرِيفٍ، وَأَجْرُوا عَلَيْهِ الْمُعَرَّفَ بِاللَّامِ الْمَقْصُودَ بِالنِّدَاءِ، وَالتَّزَمُوا رَفْعَهُ، لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالنِّدَاءِ، فَجَعَلُوا إِعْرَابَهُ بِالْحَرَكَةِ الَّتِي كَانَ يَسْتَحِقُّهَا لَوْ بَاشَرَهَا النِّدَاءُ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهُ الْمُنَادَى، فَاعْلَمَهُ. انْتَهَى

قوله تعالى: ﴿التَّائِبِينَ﴾.

ذهب ابن جرير: إلى أن المراد به جنس الكفار والمنافقين الذين ذكر الله شأنهم في أول السورة ونقل هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنه وذهب غيره من المفسرين إلى القول بعموم الآية.

قال القرطبي (١/ ٢٢٥): وَاخْتَلَفَ مِنَ الْمُرَادِ بِالنَّاسِ هُنَا عَلَى قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْكُفَّارُ الَّذِينَ لَمْ يَعْبُدُوهُ، يُدَلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ "وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ". الثَّانِي: أَنَّهُ عَامٌّ فِي

جَمِيعِ النَّاسِ، فَيَكُونُ خِطَابُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِاسْتِدَامَةِ الْعِبَادَةِ، وَلِلْكَافِرِينَ بِإِتْدَائِهَا. وَهَذَا حَسَنٌ. انتهى

وقال العثيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (٧٢/١): النداء هنا وجّه لعموم الناس مع أن السورة مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجّهاً للمؤمنين. والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك - أي عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية، أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت. انتهى

وفي فتح القدير للشوكاني (١/٥٩): لَمَّا فَرَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ أَقْبَلَ عَلَيْهِم بِالْخِطَابِ التَّفَاتَا. انتهى

قوله: ﴿النَّاسِ﴾: تقدم الكلام عليه وأنه من النوس وهو الحركة، وقيل: من النسيان، وقيل: من الاستئناس، على ما تقدم بيانه فيدخل في هذا العموم الجن والإنس.

قوله: ﴿اعْبُدُوا﴾.

أمر بالعبادة، والعبادة هي: التذلل لله تعالى بالطاعة مع الحب والخضوع وتكون بفعل المأمور وترك المحظور.

قال ابن القيم في نونيته الكافية الشافية (ص: ٣٥):

وعبادة الرحمن غاية حبه ❀❀ مع ذل عابده هما قطبان
 وعليهما فلک العبادة دائر ❀❀ ما دار حتى قامت القطبان
 ومداره بالأمر أمر رسوله ❀❀ لا بالهوى والنفس والشيطان
 فقيام دين الله بالإخلاص ❀❀ والإحسان إنهماله أصلان
 لم ينج من غضب الإله وناره ❀❀ إلا الذي قامت به الأصلان
 والناس بعد فمشرك بإلهه ❀❀ أو ذو ابتداع أوله الوصفان
 والله لا يرضى بكثرة فعلنا ❀❀ لكن بأحسنه مع الإيمان

وقال شيخ الإسلام في التدمرية: (ص: ١٦٦): ويجب الإيمان بأن الله تعالى أمر
 بعبادته وحده لا شريك له، كما خلق الجن والإنس لعبادته، وبذلك أرسل رسوله،
 وأنزل كتبه وعبادته تتضمن كمال الدّل له والحب له، وذلك يتضمن كمال طاعته،
 ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا
 لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ
 وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾. انتهى

وقال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٤٢): العبوديّة: إظهار التذلل،
 والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله
 تعالى، ولهذا قال: أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء / ٢٣].

والعبادة ضربان:

عبادة بالتسخير، وهو كما ذكرناه في السجود.

وعبادة بالاختيار، وهي لذوي النطق، وهي المأمور بها في نحو قوله: ﴿اعْبُدُوا

رَبَّكُمْ﴾ [البقرة / ٢١]، ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النساء / ٣٦].

والعَبْدُ يقال على أربعة أضرب:

الأول: عَبْدٌ بحكم الشَّرْع، وهو الإنسان الذي يصحَّ بيعه وابتياعه، نحو: ﴿وَالْعَبْدُ

بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة/ 178]، ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل/ 75].

الثاني: عَبْدٌ بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله، وإيَّاه قصد بقوله: ﴿إِنْ كُلٌّ مِنْ فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم/ 93].

والثالث: عَبْدٌ بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان:

عبد لله مخلص، وهو المقصود بقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا نَائِبًا﴾ [ص/ 41]، ﴿إِنَّهُ وَكَانَ

عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء/ 3]، ﴿نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان/ 1]، ﴿عَلَى عَبْدِهِ

الْكِتَابَ﴾ [الكهف/ 1]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر/ 42]، ﴿كُونُوا

عِبَادًا لِي﴾ [آل عمران/ 79]، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر/ 40]، ﴿وَعَدَ

الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم/ 61]، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾

[الفرقان/ 63]، ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ [الدخان/ 23]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف/

[65].

وَعَبْدٌ للدُّنْيَا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإيَّاه قصد النبي

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بقوله: «تعس عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تعس عَبْدُ الدِّينَارِ»، وعلى هذا النحو يصحَّ

أن يقال: (ليس كلُّ إنسان عَبْدًا لله)، فإنَّ العَبْدَ على هذا بمعنى العَابِدِ، لكن العَبْدَ أبلغ

من العَابِدِ، والناس كلُّهم عِبَادُ الله بل الأشياء كلُّها كذلك، لكن بعضها بالتسخير

وبعضها بالاختيار، وجمع العَبْدِ الذي هو مُسْتَرْقٌ: عَبِيدٌ، وقيل: عِبْدَى، وجمع العَبْدِ

الذي هو العَابِدُ عِبَادٌ، فالعَبِيدُ إذا أضيف إلى الله أعم من العِبَادِ. ولهذا قال: وَمَا أَنَا

بِظُلَامٍ لِّلْعَبِيدِ، فنبه أنه لا يظلم من يختصَّ بِعِبَادَتِهِ ومن انتسب إلى غيره من الذين

تسموا بِعَبْدِ الشَّمْسِ وَعَبْدِ اللَّاتِ ونحو ذلك.

ويقال: طريق مُعَبَّدٌ، أي: مذلَّل بالوطة، وبغير مُعَبَّدٌ: مذلَّل بالقطران، وعبَّدتُ فلانًا: إذا ذلَّلته، وإذا اتَّخذته عبْدًا. قال تعالى: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء/ ٢٢]. انتهى

وروي عن ابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في قوله تعالى ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: وحدوا ربكم ذكر ذلك ابن جرير **رَحِمَهُ اللَّهُ** وهي عامة للتوحيد فما دونه من الطاعات، وشاملة للبعد عن الشرك فما دونه من المعاصي والسيئات، لكن المراد بالعبادة في الآية التوحيد ودالة عليه دلالة واضحة فهو أساس العبادة، فمن وحد الله تعالى وأفرده بما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته فقد تجاوز العقبة الكؤود إذ يقول الله تعالى: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء/ ٤٨] وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء/ ١١٦] ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] ولا تقبل عبادة إلا بوجوده، وأما الكافر فلا يقبل منه عمل قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٣٥﴾ [الكهف: ١٢٣ - ١٣٥]، وقد تكلمت بحمد الله عن أنواع التوحيد في سورة الفاتحة وفي مؤلف بعنوان فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والحمد لله.

قال ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ١٢٩): وَرَحَى الْعُبُودِيَّةِ تَدْوُرُ عَلَى خَمْسِ عَشْرَةَ قَاعِدَةً، مَنْ كَمَلَهَا كَمَلَ مَرَاتِبِ الْعُبُودِيَّةِ.

وَبَيَّانُهَا أَنَّ الْعُبُودِيَّةَ مُتَّفِسِمَةٌ عَلَى الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ، وَعَلَى كُلِّ مِنْهَا عُبُودِيَّةٌ تَخُصُّهُ.

وَالْأَحْكَامُ الَّتِي لِلْعُبُودِيَّةِ خَمْسَةٌ: وَاجِبٌ، وَمُسْتَحَبٌّ، وَحَرَامٌ، وَمَكْرُوهٌ، وَمُبَاحٌ، وَهِيَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ. انتهى

وقد ذكرنا في تفسير سورة الفاتحة ما ذكره ابن الأمير **رَحْمَةُ اللَّهِ** تعالى في تطهير الاعتقاد من العبادات قولية وفعلية واعتقادية ومالية، فكل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأفعال والاعتقادات فهو داخل في هذا المعنى.

وقال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ (ص: ٤٤): الْعِبَادَةُ هِيَ اسْمُ جَامِعٍ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ. فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصَدَقَ الْحَدِيثُ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ وَبِرُّ الْوَالِدِينَ وَصَلَةُ الْأَرْحَامِ وَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادُ لِلْكَفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَانُ لِلْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنَ الْأَدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالِدُّعَاءُ وَالذِّكْرُ وَالْقِرَاءَةُ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَادَةِ.

وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللَّهِ وَالْإِنَابَةُ إِلَيْهِ وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ وَالشُّكْرُ لِنِعْمِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ مِنْ عَذَابِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ مِنَ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ هِيَ الْغَايَةُ الْمَحْبُوبَةُ لَهُ وَالْمَرْضِيَّةُ لَهُ الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ لَهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

وَبِهَا أَرْسَلَ جَمِيعَ الرُّسُلِ كَمَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف].

وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ وَصَالِحٌ وَشُعَيْبٌ وَغَيْرُهُمْ لِقَوْمِهِمْ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ

وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢] كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة المؤمنون: ٥١-٥٢].

وَجَعَلَ ذَلِكَ لَازِمًا لِرَسُولِهِ إِلَى الْمَوْتِ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

وَبِذَلِكَ وَصَفَ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيََاءَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١١﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٩-٢٠].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وَذَمَّ الْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وَنَعَتَ صِفَةَ خَلْقِهِ بِالْعِبُودِيَةِ لَهُ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦] وَقَالَ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

وَلَمَّا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٥﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠] قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

وَقَالَ فِي وَصْفِ الْمَلَائِكَةِ بِذَلِكَ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٣٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٣٩﴾ تَكَادَ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٤٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٤١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٤٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٤٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٤٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٤٥﴾﴾ [٨٨-٩٥ مريم].

وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْمَسِيحِ الَّذِي ادَّعَيْتَ فِيهِ الْإِلَهِيَّةَ وَالْبَنُوَّةَ: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩]. وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «لَا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عَيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

وَقَدْ نَعَتَهُ اللَّهُ بِالْعِبُودِيَّةِ فِي أَكْمَلِ أَحْوَالِهِ فَقَالَ فِي الْإِسْرَاءِ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴿١٧﴾ وَقَالَ فِي الْإِيحَاءِ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧]. وَقَالَ فِي الدَّعْوَةِ ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١٩]. وَقَالَ فِي التَّحْدِي ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

فَالدِّينُ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي الْعِبَادَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي "الصَّحِيحِ": أَنَّ جِبْرِيلَ لَمَّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ أَعْرَابِي الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَوْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَتَوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قَالَ: فَمَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَكُمْ يَعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» فَجَعَلَ هَذَا كُلَّهُ مِنَ الدِّينِ.

وَالَّذِينَ يَتَضَمَّنْ مَعْنَى الْخُضُوعِ وَالذَّلْ يُقَالُ ذُلُّهُ دُتُّهُ فَذَانِ أَيْ أَذَلَّتْهُ فَذُلٌّ وَيُقَالُ يَدِينُ اللَّهُ وَيَدِينُ اللَّهُ أَي يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَطِيعُهُ وَيَخْضَعُ لَهُ فَدِينُ اللَّهِ عِبَادَتُهُ وَطَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ. وَالْعِبَادَةُ أَسْلُ مَعْنَاهَا الذَّلُّ أَيْضًا يُقَالُ طَرِيقُ مَعْبُدٍ إِذَا كَانَ مَذَلًّا قَدْ وَطِئَتْهُ الْأَقْدَامُ. لَكِنَّ الْعِبَادَةَ الْمَأْمُورَ بِهَا تَتَضَمَّنْ مَعْنَى الذَّلِّ وَمَعْنَى الْحَبِّ فَهِيَ تَتَضَمَّنْ غَايَةَ الذَّلِّ لِلَّهِ بِغَايَةِ الْمَحَبَّةِ لَهُ. انْتَهَى

وقال في نفس المرجع (ص: ١٤٨): وجماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع لا نعبد بالبدع.

كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾ [الكهف].

وَذَلِكَ تَحْقِيقُ الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَشَهَادَةَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. فَبِالْأُولَى: أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ. وَفِي الثَّانِيَةِ: أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ رَسُولُهُ الْمُبْلَغُ عَنْهُ فَعَلِينَا أَنْ نَصَدِّقَ خَبْرَهُ وَنَطِيعَ أَمْرِهِ. وَقَدْ بَيَّنَّ لَنَا مَا نَعْبُدُ اللَّهَ بِهِ وَنَهَانَا عَنْ مُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ وَأَخْبَرَ أَنَّهَا ضَلَالَةٌ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ [البقرة].

وَكَمَا أَنَا مَأْمُورُونَ أَلَا نَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَلَا نَرْغَبُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ وَلَا نَسْتَعِينُ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَكُونُ عِبَادَتُنَا إِلَّا لِلَّهِ فَكَذَلِكَ نَحْنُ مَأْمُورُونَ أَنْ نَتَّبِعَ الرَّسُولَ وَنَطِيعَهُ وَنَتَأَسَّى بِهِ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ.

وَالَّذِينَ مَا شَرَعَهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ [التوبة] فَجَعَلَ الْإِيْتَاءَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ كَمَا قَالَ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ

فَأَنْتَهُمْ ﴿٧﴾ [الحشر] وَجَعَلَ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ - كَمَا قَالَ فِي وَصْفِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي آيَةِ الْأُخْرَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَآخِشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٣﴾﴾ [آل عمران] وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال] أَيْ حَسْبُكَ وَحَسْبُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر] - ثُمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولَهُ ﴿٥١﴾﴾ فَجَعَلَ الْإِيْتَاءَ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْفَضْلِ لِلَّهِ لِأَنَّ ﴿الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٦١﴾﴾ وَلَهُ الْفَضْلُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَ: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥١﴾﴾ فَجَعَلَ الرَّغْبَةَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ [٧-٨ الشرح].

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى مِثْلِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ.

فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَجَعَلَ الطَّاعَةَ وَالْمَحَبَّةَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ كَمَا فِي قَوْلِ نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾﴾ [نوح] وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التور] وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

فَالرَّسُلُ أَمَرُوا بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَالرَّغْبَةَ إِلَيْهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَطَاعَتَهُ وَالتَّطَاعَةَ لَهُمْ فَأَضَلَّ الشَّيْطَانُ النَّصَارَى وَأَشْبَاهَهُمْ فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ وَعَصَوْا الرَّسُولَ فَ ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُوبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ فَجَعَلُوا يَرِغِبُونَ إِلَيْهِمْ وَيَتَوَكَّلُونَ عَلَيْهِمْ يَسْأَلُونَهُمْ مَعَ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَمْرِهِمْ وَمَخَالَفَتِهِمْ لِسِتِّهِمْ.

وَهَدَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ أَهْلَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَاتَّبَعُوهُ فَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ فَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ وَأَسْلَمُوا

وَجُوهَهُمْ لِهَيْبَةِ اللَّهِ وَأَنَابُوا إِلَيْهِ رَجِيمًا وَأَحْبَبُوهُ وَرَجَوْهُ وَخَافُوهُ وَسَأَلُوهُ وَرَغَبُوا إِلَيْهِ وَفَوَّضُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَأَطَاعُوا رِسْلَهُ وَعَزَّرُوهُمْ وَوَقَرُّوهُمْ وَأَحْبَبُوهُمْ وَوَالَوْهُمْ وَاتَّبَعُوهُمْ وَاقْتَفَوْا آثَارَهُمْ وَاهْتَدَوْا بِمَنَارِهِمْ.

وَذَلِكَ هُوَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ مِنَ الرُّسُلِ وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا إِلَّا إِيَّاهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ الْعِبَادَةِ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. انتهى.

قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص: ١٧٤): ورأس الإسلام مطلقاً شهادة أن لا إله

إلا الله، وبها بعث الله جميع الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ

رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٥٥﴾، وقال تعالى عن الخليل:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ

﴿٦٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرْجَعُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وقال تعالى عنه: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا

كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦٩﴾ أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾،

وقال تعالى: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ آسُوءَ حَسَنَةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ

مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى

تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ

دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً يُعْبَدُونَ ﴿١٥﴾﴾، وذكر عن رسله: كنوح وهود وصالح وغيرهم أنهم

قالوا لقومهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾.

وقال عن أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرَدَّنْهُمْ هَدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَّنَا

عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ

فَلَّنَا إِذَا شِطَّطَّا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾، وقد قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** ذكر ذلك في موضعين من كتابه.

وقد بين في كتابه الشرك بالملائكة، والشرك بالأنبياء، والشرك بالكواكب، والشرك بالأصنام - وأصل الشرك، الشرك بالشیطان - فقال عن النصارى: **﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَزَهَبَتْ لَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۗ إِلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾**.

وقال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ وَتَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٧٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾**.

وقال تعالى: **﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٥﴾**، فبين أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر.

ومعلوم أن أحداً من الخلق لم يزعم أن الأنبياء والأحبار والرهبان أو المسيح بن مريم شاركوا الله في خلق السموات والأرض، بل ولا زعم أحد من الناس أن العالم له صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، بل ولا أثبت أحد من بني آدم إلهاً مساوياً لله في جميع صفاته، بل عامة المشركين بالله مقرون بأنه ليس شريكه مثله، بل عامتهم مقرون أن الشريك مملوك له سواء كان ملكاً أو نبياً أو كوكباً أو صنماً، كما كان مشركو العرب يقولون في تليبتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما

ملك، فأهل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بالتوحيد، فقال: «ليتك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» .

وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات، فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات، بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية، الذين يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين: أحدهما أنها محدثة، فتكون من جملة المخلوقات له، والثاني أنها قديمة، لكنها لم تفعل إلا الشر، فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور.

وقد أخبر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** عن المشركين من إقرارهم بأن الله خالق المخلوقات ما بيّنه في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِيهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ .

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٠﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩١﴾ [سورة المؤمنون: ٨٤-٨٩]. إلى قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ وقد قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٣٦﴾ . انتهى

قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾.

تقدم الكلام على معنى الرب في سورة الفاتحة ولما في هذا الاسم من المعاني الجليلة، والصفات الجميلة، والرب هو الخالق المدبر المالك لمخلوقاته وجاء بهذا الاسم دون غيره في هذا الموطن إظهاراً وبياناً لاستحقاق الله تعالى للعبادة فهو الرب الخالق للعالم والملك له والمدبر لعلويه وسفليه فكيف تصرف العبادة لغيره تعالى، وهذا الاسم من الأسماء التي عليها مدار الأسماء الحسنى.

قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٤/ ١٣٢) في قوله: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾: فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمة وإحسانه وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا وكل ذرة من العبد فمملوكه له ملكاً خالصاً حقيقياً، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه بعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل إلهكم والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له. انتهى

وقال في بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٩): وأما الملك فهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار الحكيم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى؛

فهو الرب الحق الملك الحق الإله الحق خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه استعبدهم بإلهيته فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنته هذه الألفاظ الثلاثة على أبداع نظام وأحسن سياق رب الناس، ملك الناس، إله الناس.

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنی، أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنی؛ فإن الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنی. انتهى

قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾.

أي: الذي أو جدكم من العدم واستدل بهذه الصفة لما تقدم من القول في الرب قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٤/ ١٣٢) في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فنبه بهذا أيضًا على وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واختراعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم كما قال في غير موضع من القرآن ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود وكيف يجعلون معه شريكًا في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق. انتهى

قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٩٦): الخَلْقُ أصله: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، قال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: أبداعهما، بدلالة قوله: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧]، ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]،

﴿حَاقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُظْفَتِهِ﴾ [النحل: ٤]، ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝١٥﴾ [الرحمن: ١٥]، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧]، وأمّا الذي يكون بالاستحالة، فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال، كعيسى حيث قال: ﴿وَإِذْ نَخَلُّ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، والخلق لا يستعمل في كافة الناس إلا على وجهين: أحدهما في معنى التقدير كقول الشاعر:

فلأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري
والثاني: في الكذب نحو قوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، إن قيل: قوله تعالى: ﴿مَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]، يدل على أنه يصح أن يوصف غيره بالخلق؟ قيل: إن ذلك معناه: أحسن المقدرين، أو يكون على تقدير ما كانوا يعتقدون ويزعمون أن غير الله يبدع، فكأنه قيل: فاحسب أن هاهنا مبدعين وموجدين، فالله أحسنهم إيجادا على ما يعتقدون، كما قال: ﴿خَلَقُوا كَلْبَةَ الْخَالِقِ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦]. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

أي: وخلق الذين تقدموكم من الأمم.

قال العثيمين رحمه الله في تفسير الفاتحة والبقرة (١/ ٧٣): وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ صفة كاشفة تبين بعض معنى الربوبية؛ وليست صفة احترازية؛ لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق، والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق. انتهى
 قال القرطبي (١/ ٢٢٦): خَصَّ تَعَالَى خَلْقَهُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ صِفَاتِهِ إِذْ كَانَتْ الْعَرَبُ مُقِرَّةً بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا، فَذَكَرَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيعًا لَهُمْ. وَقِيلَ: لِيُذَكِّرَهُمْ

بِذَلِكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ. وَفِي أَصْلِ الْخَلْقِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: التَّقْدِيرُ، يُقَالُ: خَلَقْتُ الْأَدِيمَ لِلسَّقَاءِ إِذَا قَدَّرْتَهُ قَبْلَ الْقَطْعِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ❀❀ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
وَقَالَ الْحَجَّاجُ: مَا خَلَقْتُ إِلَّا فَرَيْتُ، وَلَا وَعَدْتُ إِلَّا وَفَيْتُ. الثَّانِي: الْإِنْشَاءُ
وَالِاخْتِرَاعُ وَالْإِبْدَاعُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]. قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فَيُقَالُ إِذَا ثَبَتَ عِنْدَهُمْ خَلْقُهُمْ ثَبَتَ عِنْدَهُمْ خَلْقُ غَيْرِهِمْ،
فَالجَوَابُ: أَنَّهُ إِنَّمَا يَجْرِي الْكَلَامُ عَلَى التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكِيرِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي الْعِظَةِ، فَذَكَرَهُمْ
مَنْ قَبْلَهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ الَّذِي آمَنَ مِنْ قَبْلَهُمْ وَهُوَ خَلَقَهُمْ يُمِيتُهُمْ، وَلِيُفَكِّرُوا فِي مَنْ
مَضَى قَبْلَهُمْ كَيْفَ كَانُوا، وَعَلَى أَيِّ الْأُمُورِ مَضَوْا مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ أَهْلَكَ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ
يُتَبَلَوْنَ كَمَا ابْتُلُوا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

ومن هذا تعلم أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ولا مناص من ذلك فإن
المستحق للعبادة هو الخالق المالك الرازق المدبر ولهذا كان تعالى يقرر المشركين

بهذا كثيراً قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ فَذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]، وقد كانت طريقة الرسل

صلوات الله عليهم بالاستدلال على توحيد الألوهية بالربوبية قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾
[العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ
أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِيهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ
﴿٧٢﴾ [الزمر: ٣٨]، وقال تعالى عن موسى في قوله لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ

هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرٌ ﴿١٧٩﴾ [الإسراء: ١٧٩]، ومنه قوله: ﴿قَاتِلُوا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الشعراء: ١٦].

ثم ليُعلم أن أكثر المتكلمين قد غلطوا في مسمى التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب فتجد أن غالبيتهم يقررون توحيد الربوبية غافلين أو متغافلين عن توحيد الألوهية قال شيخ الإسلام في التدمرية (ص: ١٧٩): فإن عامة المتكلمين الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر - غايتهم أن يجعلوا التوحيد ثلاثة أنواع، فيقولون: هو واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صفاته لا شبيه له، وواحد في أفعاله لا شريك له، وأشهر الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث: وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد، وهم يحتجون على ذلك بما يذكرونه من دلالة التمانع وغيرها، ويظنون أن هذا هو التوحيد المطلوب، وأن هذا هو معنى قولنا: لا إله إلا الله، حتى قد يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع.

ومعلوم أن المشركين من العرب الذين بُعث إليهم محمد **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** أولاً - لم يكونوا يخالفونه في هذا، بل كانوا يقرّون بأن الله خالق كل شيء، حتى إنهم كانوا مقرين بالقدر أيضًا، وهم مع هذا مشركون.

وقد تبين أن ليس في العالم من ينازع في أصل هذا الشرك، ولكن غاية ما يقال: إن من الناس من جعل بعض الموجودات خلقًا لغير الله، كالقدرية وغيرهم، لكن هؤلاء يقرّون بأن الله خالق العباد وخالق قدرتهم، وإن قالوا: إنهم خالقوا أفعالهم.

وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور، فهم مع الإقرار بالصانع يجعلون هذه الفاعلات مصنوعة مخلوقة، لا يقولون إنها غنيّة عن الخالق، مشاركة له في الخلق.

فأما من أنكر الصانع فذلك جاحد معطل للصانع، كالقول الذي أظهره فرعون، والكلام الآن مع المشركين بالله المقرّين بوجوده، فإذًا هذا التوحيد الذي قرّوه لا

ينازعهم فيه هؤلاء المشركون، بل يقرون به مع أنهم مشركون، كما ثبت بالكتاب والسنة كذلك النوع الثاني، وهو قولهم: لا شبيه له في صفاته، فإنه ليس في الأمم من أثبت قديمًا مماثلًا له في ذاته سواء قال: إنه مشارك، أو قال: إنه لا فعل له، بل من شبهه به شيئًا من مخلوقاته وإنما يشبّهه به في بعض الأمور.

إلى أن قال رحمه الله: كذلك النوع الثالث، وهو قولهم: هو واحد لا قسيم له في ذاته، أو لا جزء له، أو لا بعض له - لفظ مجمل، فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفورًا أحد، فيمتنع أن يتفرق، أو يتجزأ، أو يكون قد رُكّب من أجزاء، لكنهم يدرجون في هذا اللفظ نفي علوه على عرشه، ومباينته لخلقه، وامتنازه عنهم، ونحو ذلك من المعاني المستلزمة لنفيه وتعطيله، ويجعلون ذلك من التوحيد.

فقد تبين أن ما يسمونه «توحيدًا» فيه ما هو حق وفيه ما هو باطل، ولو كان جميعه حقًا، فإن المشركين إذا أقرّوا بذلك كله لم يخرجوا فيه من الشرك الذي وصفهم الله به في القرآن، وقاتلهم عليه الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، بل لا بدّ أن يعترفوا بأنه لا إله إلا الله.

وليس المراد «بالإله» هو القادر على الاختراع، كما ظنّه من ظنّه من أئمة المتكلمين، حيث ظن أن الإلهية هي القدرة على الاختراع، وأن من أقر بأن الله هو القادر على الاختراع دون غيره فقد شهد أنه لا إله إلا هو، فإن المشركين كانوا يقرّون بهذا وهم مشركون كما تقدم بيانه. بل الإله الحق هو الذي يستحق أن يُعبّد فهو إلهٌ بمعنى مألوه، لا إله بمعنى آله. والتوحيد أن يعبد الله وحده لا شريك له، والإشراك أن يجعل مع الله إلهًا آخر. انتهى

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١١).

قال النحاس في إعراب القرآن (١/ ٣٦): لَعَلَّكُمْ الكاف والميم اسم لعل. تَتَّقُونَ فعل مستقبل علامة رفعه النون وهو في موضع خبر لعل. انتهى ولعل من حروف الترجي لكنها في حق الله تعالى تفيد التحقيق.

قال القرطبي (١/ ٢٢٦): وَهَذَا وَمَا كَانَ مِثْلَهُ فِيمَا وَرَدَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَوْلِهِ:

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٥٢) ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢)،
﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٥٢) فيه ثلاث تأويلات.

الأول: أَنَّ "لَعَلَّ" عَلَى بَابِهَا مِنَ التَّرَجِّي وَالتَّوَقُّعِ، وَالتَّرَجِّي وَالتَّوَقُّعُ إِنَّمَا هُوَ فِي حَيْزِ الْبَشَرِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: أَفْعَلُوا ذَلِكَ عَلَى الرَّجَاءِ مِنْكُمْ وَالطَّمَعِ أَنْ تَعْقِلُوا وَأَنْ تَذَكَّرُوا وَأَنْ تَتَّقُوا. هَذَا قَوْلُ سَبِيوَيْهِ وَرُؤَسَاءِ اللِّسَانِ قَالَ سَبِيوَيْهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّوَجَلَّ:
﴿أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (٣٣) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤) [طه: ٤٤-٤٣]
قَالَ مَعْنَاهُ: أَذْهَبَا عَلَى طَمَعِكُمَا وَرَجَائِكُمَا أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ يَخْشَى. وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ أَبُو الْمَعَالِي.

الثاني: أَنَّ الْعَرَبَ اسْتَعْمَلَتْ "لَعَلَّ" مُجَرَّدَةً مِنَ الشَّكِّ بِمَعْنَى لَامِ كَيْ. فَالْمَعْنَى لَتَعْقِلُوا وَلَتَذَكَّرُوا وَلَتَتَّقُوا، وَعَلَى ذَلِكَ يَدُلُّ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا ❖❖ نَكْفُ وَوَتَّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مُوْتِقٍ
فَلَمَّا كَفَفْنَا الْحَرْبَ كَانَتْ عُهُودِكُمْ ❖❖ كَلَمَعَ سَرَابٍ فِي الْمَلَامُتَالِقِ
الْمَعْنَى: كُفُّوا الْحُرُوبَ لِنَكْفُ، وَلَوْ كَانَتْ "لَعَلَّ" هُنَا شَكًّا لَمْ يُوْتَقُوا لَهُمْ كُلَّ مُوْتِقٍ، وَهَذَا الْقَوْلُ عَنْ فُطْرِبٍ وَالطَّبْرِيِّ.

الثالث: أَنَّ تَكُونَ "لَعَلَّ" بِمَعْنَى التَّعَرُّضِ لِلشَّيْءِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَفْعَلُوا ذَلِكَ مُتَعَرِّضِينَ لِأَنْ تَعْقِلُوا، أَوْ لِأَنْ تَذَكَّرُوا أَوْ لِأَنْ تَتَّقُوا. وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١١) أَي

لَعَلَّكُمْ أَنْ تَجْعَلُوا بِقَبُولِ مَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِهِ وَقَايَةً بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ النَّارِ. وَهَذَا مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ: اتَّقَاهُ بِحَقِّهِ إِذَا اسْتَقْبَلَهُ بِهِ، فَكَأَنَّهُ جَعَلَ دَفْعُهُ حَقَّهُ إِلَيْهِ وَقَايَةً لَهُ مِنَ الْمُطَالَبَةِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَلِيِّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ اتَّقَيْنَا بِالنَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، أَيْ جَعَلْنَاهُ وَقَايَةً لَنَا مِنَ الْعَدُوِّ. وَقَالَ عَنَتْرَةُ:

وَلَقَدْ كَرَزْتُ الْمُهْرَ يَدْمِي نَحْرُهُ ❀ ❀ حَتَّى اتَّقَيْتَنِي الْخَيْلُ بَابِنِي حَزِيمٍ

انتهى

قال الطبري (١/ ٣٦٤): وتأويل ذلك: لعلمكم تتقون بعبادتكم ربكم الذي خلقكم، وطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه، وإفرادكم له العبادة؛ لتتقوا سَخَطَهُ وَغَضَبَهُ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ، وتكونوا من المتقين الذين رضي عنهم ربهم.

وكان مجاهدٌ يقول في تأويل قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: تُطِيعُونَ. انتهى

وقال شيخ الإسلام في "الاستغاثة" (١٣٣): وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ متعلق

بقوله ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ لعل التقوى تحصل لكم بعبادته كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:

١٨٣] ومن قال إن هذا مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات: ٥٦] وأن المعنى خلقكم لعلمكم تتقون فقول ضعيف لأن الله أمرهم بالعبادة

التي خلقوا لها كما ذكره في تلك الآية ولو أراد هذا المعنى لقال ليتقوا كما قال هنا

ليعبدون وقد قال لعلمكم تتقون ولا يفعل الشيء مترجياً لعاقبته فإنه عالم بالعواقب

ولكن يأمر العباد بفعل الشيء لما يرجون من عاقبته كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا

لَيْنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤] فهما قالا ذلك راجين منه التذكرة والخشية لا

أن الله يرجو ذلك مع علمه تعالى بأنه لا يتذكر ولا يخشى. انتهى

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: لعل هنا للتعليل أي تصلوا إلى التقوى.

واختار السعدي **رَحْمَةُ اللَّهِ** القولين أي: لعلكم تصلون إلى التقوى بالعمل الصالح ولعلكم تتقون عذاب الله وسخطه، فقال **رَحْمَةُ اللَّهِ** في تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥): وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٦١) يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة، كان من المتقين، ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه. انتهى

والمعنى العام للآية: أن الله تعالى ذكره أمر جميع الناس بعبادته وحده لا شريك له فكما أنه تعالى قد أفرد بالخلق والملك والتدبير وكونه رب هذا العالم المتصرف فيه خلقاً وملكاً وتدبيراً فلا بد أن يُفرد بالعبادة فلا يشرك معه تعالى غيره لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا وتطلق العبادة على فعل العابد وعلى كل قول وفعل واعتقاد يتعبد به العباد إلى خالقهم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وبينها وبين التقوى عموم، كما جاء في حديث أبي أمامة عند أحمد (٢٢٢٥٨) قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَوْمِيذٍ عَلَى الْجَدْعَاءِ وَاضِعُ رِجْلَيْهِ فِي الْغُرْزِ يَتَطَاوَلُ يُسْمِعُ النَّاسَ، فَقَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**أَلَا تَسْمَعُونَ؟**» فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ طَوَائِفِ النَّاسِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**» وفي بعض ألفاظه: «**انقوا ربكم**».

إذ المعنى العام للتقوى هو: العمل بما يرضي الله تعالى قولاً وفعلًا واعتقادًا، والبعد عما يغضب الله تعالى قولاً وفعلًا واعتقادًا.

ويدخل في قوله: ﴿**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**﴾ ابتداء التوحيد إذ هو حق الله تعالى على العباد ولأجله خلقهم قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (٥٦) [الذاريات].

وفي صحيح البخاري (٢٨٥٦) ومسلم (٣٠): عَنْ مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَكَلَّمُوا»، ومن المعلوم أن الله تعالى لا يقبل من مشرك عملاً قدمه قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي جامع معمر بن راشد المطبوع ضمن مصنف عبدالرزاق (١١ / ١٣٠): عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ: آتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: مَا آيَةُ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: «تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتُفَارِقُ الشُّرْكَ، وَأَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ عَنْ مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ، أَخَوَانٍ نَصِيرَانِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ أَشْرَكَ بَعْدَ إِسْلَامِهِ عَمَلًا».

وفي صحيح مسلم (٢١٤): عَنْ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدَعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

وفي الآية: دلالة واضحة على أهمية الإخلاص في العمل فإن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ومن السنة حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرِي مَا نَوَى». متفق عليه.

بل والمتابعة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا توفر في العمل سواء كان فعلاً أو تركاً الإخلاص والمتابعة كان مقبولاً وإلا فلا، وبدل على ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم (١٢٩): عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرَ

أَحَادِيثَ مِنْهَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمَلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِذَا عَمَلَهَا، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا» وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ، فَقَالَ: ازْقُبُوهُ فَإِنْ عَمَلَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاتَّكَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَلِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ».

وأدلة وجوب المتابعة في العمل كثيرة في الكتاب والسنة، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، ومن السنة عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَدَّثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ» متفق عليه.

وفي هذه الآية: معنى الإثبات من كلمة الإخلاص إذ أنها تتكون من ركنين أساسيين فقول (لا إله) نفي الألوهية عما سوى الله وقول (إلا الله) إثبات الألوهية لله إذ أن النفي وحده عدم والإثبات وحده لا يمنع المشاركة والجمع بينهما هو التوحيد كما دل عليه القرآن والسنة فمن القرآن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]، في آيات كثيرات، ومن السنة في البخاري ومسلم (١٦) عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»

وفي الآية قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] هو معنى الإثبات، وفي الآية التي تليها قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢] هو معنى النفي فدلّت الآيتان على معنى لا إله إلا الله، وهذا في القرآن كثير يذكره الله تعالى ويبيّنه ويكرر لبيان عظم هذه الكلمة وبيان شروطها وأركانها، وشروطها ثمانية علمت بالاستقراء كما جمعها الشيخ حافظ في قوله:

وبشروط سبعة قد قيدت ❀❀ وفي نصوص الوحي حقًا وردت
فإنه لم ينتفع قائلها ❀❀ بالنطق إلا حيث يستكملها
والعلم واليقين والقبول ❀❀ والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة ❀❀ وفقك الله لما أحبه
وبعضهم نظمها بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ❀❀ محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما ❀❀ سوى الإله من المخلوق قد ألها
الأول: (العلم المنافي للجهل): والعلم بلا إله إلا الله: معرفتها بحقيقتها. وهو: أن
تعلم بمعناها نفيًا وإثباتًا علما منافيًا للجهل.

ومعناها: البراءة من كل ما يعبد من دون الله، وإخلاص العبادة لله وحده باللسان
والقلب وسائر الجوارح.

وقد دلّ الكتاب والسنة على ذلك. فمن الكتاب:

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...﴾ الآية.

الثاني: (اليقين المنافي للشك): أن يكون قال لا إله إلا الله مُستيقنًا قلبه بمدلول
هذه الكلمة يقينًا جازمًا منافيًا للشك.

فَمَنْ قَالَهَا وَهُوَ شَاكٌ فِي شَيْءٍ مِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَاهَا لَمْ يَتَحَقَّقْ لَدَيْهِ هَذَا الشَّرْطُ، وَالْأَدْلَةُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

فَمَنْ الْكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وَمِنَ السُّنَّةِ: مَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَا يَلْقَى اللَّهُ بِهَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍ فِيهَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: «أَذْهَبْ بِنَعْلِي هَاتَيْنِ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاءَ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبَهُ فَبَشْرَهُ بِالْجَنَّةِ».

الثالث: (الإخلاص): فَمَنْ الْكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٢﴾﴾ الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٦﴾﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ...﴾ الْآيَةَ.

وَمِنَ السُّنَّةِ مَا يَضِيقُ عَنْهُ الْمَقَامَ مِنْهَا: مَا يَلِي:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشَّرَكَاءِ مِنْ عَمَلِ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتَهُ وَشَرَكَهُ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنْ أَسْعَدِ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوْلَ مِنْكَ لَمَا رَأَيْتَ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدِ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «خَالِصَةً مِنْ قَلْبِهِ».

وَعَنْ عَثْبَانَ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اللَّهُ حَرَمٌ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَّبِعِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ».

الرابع: (الصدق المنافي للكذب): قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [العنكبوت: ١-٣].

ومن السنة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَعَاذٍ: «.. مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ صَدَقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ..»، الْحَدِيثُ.

الخامس: (المحبة المنافية للبعث): قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾ [الآية].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴿٥١﴾﴾ [الآية].

ومن السنة: عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ» متفق عليه.

السادس: (الانقياد المنافي للترك): قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسِئُوا لَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ومن السنة: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَجِلُّ دَمٌ مِنْ أَمْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا بِأِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيْبُ الرَّانِي وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِذِينِهِ الْمَفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» متفق عليه.

السابع: (القبول المنافي للرد): دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾. **وجه الدلالة:** أن الله تعالى وعد في هاتين الآيتين بالنجاة والنصر للمؤمنين الذين قبلوا ما تضمنته الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ آيَاتِنَا لَتَأْرِكُوهُنَّ الْهَتَاتِ لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَكَّهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتٍ الْتَعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الصافات: ٣٥-٤٣].

وأما من السنة فمنها: ما روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشرّبوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً. فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» متفق عليه.

والشاهد: قوله: «.. ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

الثامن: (الكفر بالطاغوت): قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفصامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي مسلم (٢٣): عن طارق بن أشيم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يقول: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرّم ماله، ودمه، وحسابه على الله».

وهذه الكلمة هي العروة الوثقى وكلمة التقوى وكلمة الإخلاص والمثل الأعلى وفضائلها أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر نذكر.

منها ما أخرجه أحمد (٦٩٩٤) وغيره: عن عبد الله بن عمرو بن العاص، يقول: قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم:** «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيشتر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتتكر من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ قال: لا، يا رب، فيقول: ألك عذر، أو حسنة؟ فيبته الرجل، فيقول: لا، يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك، فتخرج له بطاقة، فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم»، قال: «فتوضع السجلات في كفة»، قال: «فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يتقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم».

وعند أحمد أيضاً (٦٥٨٣): عن عبد الله بن عمرو، قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم:** «إن نبي الله نوحاً **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: أمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، أمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بين لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة، قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر»، قال: قلت: أو قيل يا رسول الله: هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شرآكان حسنان قال: «لا» قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا» قال: الكبر هو أن يكون

لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: ﴿لَا﴾ قَالَ: أَفَهُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟
قَالَ: ﴿لَا﴾ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْكَبِيرُ؟ قَالَ: ﴿سَفَهُهُ الْحَقُّ، وَغَمَّصُ النَّاسِ﴾.

ومنها ما جاء في أحاديث الشفاعة؛ من أن الله يخرج من النار من قال لا إله إلا الله.
ومما يدل على منزلتها الرفيعة: أن كل الأنبياء يدعون إلى تحقيقها والعمل بها بل
ما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل وشرع الجهاد إلا لتحقيقها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٢٢]
هذا بيان لما تقدم ذكره من قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] و ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً﴾.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى (١/ ٣٦٥): وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾
مردود على ﴿الَّذِي﴾ الأولى في قوله ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، وهما جميعاً من
نعت ﴿رَبَّكُمُ﴾، فكأنه قال: اعبدوا ربكم الخالقكم، والخالق الذين من قبلكم،
الجاعل لكم الأرض فراشاً. يعني: بذلك أنه جعل لكم الأرض مهاداً موطأً وقراراً
يُستقرُّ عليها. انتهى

وجعل هنا بمعنى خلق وتأتي بمعنى صير والفرق بينهما أن المتعدية إلى مفعول
واح بمعنى خلق والمتعدية إلى مفعولين بمعنى صير.

قال القرطبي (١/ ٢٢٨): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ مَعْنَاهُ هُنَا: صَيَّرَ لِتَعَدِّيهِ إِلَى
مَفْعُولَيْنِ: وَيَأْتِي بِمَعْنَى خَلَقَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾
[المائدة: ١٠٣] وقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الانعام: ١] وَيَأْتِي بِمَعْنَى سَمَّى، وَمِنْهُ
قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حَمَّ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ②﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ

تَعْقُلُونَ ﴿٣﴾ [الزخرف: ٣-١]. وقوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]،
 ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩] أَيْ سَمَوْهُمْ. وَيَأْتِي
 بِمَعْنَى أَخَذَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي تَطِيبُ لِضَغْمَةٍ ❀❀ لِضَغْمِهِمَا هَا يَقْرَعُ الْعِظْمَ نَابِهَا
 وَقَدْ تَأْتِي زَائِدَةٌ، كَمَا قَالَ الْآخَرُ:

وَقَدْ جَعَلْتُ أَرَى الْإِثْنَيْنِ أَرْبَعَةً ❀❀ وَالوَاحِدَ اثْنَيْنِ لَمَّا هَدَّنِي الْكِبْرُ
 وَقَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾: إِنَّهَا زَائِدَةٌ. وَجَعَلَ وَاجْتَعَلَ
 بِمَعْنَى وَاحِدٍ، قَالَ الشَّاعِرُ:

نَاطَ أَمْرَ الضُّعَافِ وَاجْتَعَلَ اللَّيْئِي ❀❀ لَ كَحَبْلِ الْعَادِيَّةِ الْمُمْدُودِ
 انتهى

* **ومن باب الفائدة:** فقد زعم المعتزلة القول بخلق القرآن ومن حججهم أن
 جعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] بمعنى: خلق، وقد
 تقدم رد هذه الشبهة في أول السورة والحمد لله، فالقرآن كلام الله غير مخلوق منه بدأ
 وإليه يعود.

قال الكناني في الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن (ص: ٦١): قال
 عبد العزيز: "فأقبلت على بشر فقلت: أخبرني عن جعل هذا حرف محكم لا يحتمل
 غير الخلق، فقال بشر: نعم هو حرف محكم لا يحتمل معنى غير الخلق وما بين
 جعل وخلق فرق عندي ولا عند غيري من سائر الناس، ولا عند أحد من العرب، ولا
 من العجم، ولا يتعارفون الناس ولا يعقلون غير هذا في كلامهم ولغاتهم سواء عندهم
 قالوا: خلق أو جعل.

فقلت لبشر: "أخبرني عن نفسك ودع ذكر العرب وسائر الناس فأنا من الناس ومن الخلق ومن العرب أخالفك على هذا وكذلك سائر العرب تخالفك".

فقال بشر: "هذا باطل منك ودعوى تدعيها على العرب وغيرهم وليس يخالف في هذا أحد من خلق الله غيرك خوفاً على نفسك مما هو نازل بك لا محالة".

قال عبد العزيز: "أخبرني بإجماع الخلق بزعمك على أن جعل وخلق واحد لا فرق بينهما في هذا الحرف وحده أو في سائر القرآن من الجعل، قال. بل في سائر القرآن من ذلك وفي سائر الكلام والأخبار والأشعار".

قال عبد العزيز: "فقلت: حفظ عليك أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلت وشهد به عليك".

فقال بشر: "أنا أعيد هذا القول عليك متى سألتني عنه ولا أخالفه ولا أرجع عنه".

قال عبد العزيز: فقلت لبشر: "زعمت أن معنى جعلناه خلقناه قرآناً عربياً، قال: نعم هكذا قلت وهكذا أقول أبدأ" فقلت: "الله **عَزَّوَجَلَّ** تفرد بخلقه ولم يشاركه فيه أحد، أو شاركه في خلقه أحد"، قال: "بل الله خلقه وتفرد بخلقه ولم يشاركه في خلقه أحد".

قال عبد العزيز: "أخبرني عن من قال: إن بعض ولد آدم خلقوا القرآن من دون الله أمؤمن هو أم كافر؟ فقال: بل كافر حلال الدم. فقلت: وأنا أقول أيضاً هكذا كافر حلال الدم.

قلت: "فأخبرني عن من قال من أن التوراة خلقها اليهود من دون الله تعالى أمؤمن هو أم كافر؟" قال: "بل كافر حلال الدم"، فقلت: "وأنا أقول أيضاً هكذا كافر حلال الدم". قلت: "فأخبرني عن من قال: إن بني آدم خلقوا الله، وأن الله أخبر بذلك. أمؤمن هو أم كافر؟" قال: بل كافر حلال الدم قلت: "وأنا أقول أيضاً مثل ذلك".

فأخبرني يا بشر أليس الله خلق الخلق كلهم أجمعين؟ قال: بلى. قلت: فهل شاركه في خلقهم أحد؟ قال: لا. قلت: فمن قال إن بعرض بني آدم خلقوا الله أمؤمن هو أم كافر؟ قال: بل كافر حلال الدم. قلت: وأنا هكذا أقول "... إلى أن قال عبد العزيز: "يا أمير المؤمنين اسمع قولي فإن "كنت" قلت حقاً وإن بشراً قد كفر نفسه ومن قال بمقالته وأحل دمه ودماءهم وانتزعت على كل حرف من كلامي بآية من كتاب الله **عَزَّجَلَّ**، وإلاّ فدمي حلال وليأمر أمير المؤمنين بضرب عنقي الساعة على رؤوس الأشهاد وإن أتيت على ما قلت ولفظت به بنص الكتاب والتنزيل في كل لفظة وأقمت الشهادة على بشر من كتاب الله وسعني عدل أمير المؤمنين". قال: "فقال لي: هات ما عندك ولا تطل الكلام بغير حجة".

قال عبد العزيز: فقلت: "قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ وقد خلقتم الله عليكم كفيلًا، لا معنى لذلك عنده غيره، وإنه ومن قال بقوله ومن خالفه وسائر العرب والعجم يقولون هذا. ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وقد كذب في القول الأول، وصدق في قوله إن من قال هذا حلال الدم بإجماع الأمة".

وقال **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ ولا تخلقوا الله عرضة لأيمانكم، لا معنى له عنده ولا عند من قال بقوله، ومن خالفه وسائر الخلق جميعاً غير هذا أن الله قال لبني آدم، ولا تخلقوا الله، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم، وأمير المؤمنين يشهد عليه بهذا اللفظ، وقد كذب في قوله، إن معنى ولا تجعلوا ولا تخلقوا، وصدق في قوله، إن من قال هذا فهو كافر حلال الدم بقوله وقولي وقول الناس جميعاً.

فقال المأمون: "ما أقبح هذا وأشنع وأعظم القول به". فقلت: "قال الله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾"، فزعم بشر يا أمير المؤمنين إن بني

آدم يخلقون لله البنات، ويخبر بذلك عن الله **عَزَّوَجَلَّ** وإنه هو قاله وشهد به على نفسه، ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة".

قلت: "وقال **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ٤ فزعم بشر يا أمير المؤمنين إن معني وجعلوا وخلقوا، ولا معني له عنده ولا عند من قال بقوله غير هذا فزعم عن الله **عَزَّوَجَلَّ** إنه قال وخلقوا لله أندادا ثم قال: من قال هذا فهو كافر حلال الدم بإجماع الأمة". انتهى

قوله: ﴿فِرَاشًا﴾ أي: مهادا توطأ وقرار يستقر عليها.

قال القرطبي (١/ ٢٢٨): ﴿فِرَاشًا﴾ أي وطاء يفترشونها ويستترئون عليها. وما ليس بفراش كالجبال والأوعار والبحار فهي من مصالح ما يفترش منها، لأن الجبال كالأوتاد كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۖ﴾ [النبا: ٦٧]. والبحار تُركب إلى سائر منافعها كما قال: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. انتهى

وقد سخر الله تعالى الأرض لمصالح العباد ومعاشهم قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ ۗ فِيهَا فَلَكُمُ النَّخْلُ ذَاتُ الْكَمَامِ ۗ وَاللُّبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالزَّيْتَانُ ۗ﴾ [الرحمن: ١٠ - ١٢] كما يأتي بيانه إن شاء الله عند قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

قال الطبري (١/ ٣٦٦): وإنما سُميت السماء سماءً لعلوها على الأرض وعلى سكانها من خلقه، وكل شيء كان فوق شيء آخر فهو لما تحته سماءً. ولذلك قيل لسقف البيت: سماءة، لأنه فوقه مرتفع عليه. ولذلك قيل: سماء فلان لفلان، إذا أشرف له وقصد نحوه عاليًا عليه، كما قال الفرزدق:

سَمَوْنَا لِنَجْرَانَ الْيَمَانِي وَأَهْلِهِ ❖❖ وَنَجْرَانُ أَرْضٌ لَمْ تُدَيْتْ مَقَاوِلُهُ
وكما قال نابغة بني ذبيان:

سَمَتَ لِي نَظْرَةٌ، فَرَأَيْتُ مِنْهَا ❖❖ تُحَيَّتَ الْخِذْرَ وَاضْعَةَ الْقِرَامِ
يريد بذلك: أشرفت لي نظرة وبدت، فكذاك السماء سُميت للأرض: سماء،
لعلوها وإشرافها عليها. انتهى

والسما والارض من آيات الله العظام وفيها من الآيات والعبير ما يدل على
وحدانية الله تعالى وفيهما الحياة فعمار السماء الملائكة وعمار الأرض الأنس
والجن وأصناف الحيوان والنبات وقد تصرف الله تعالى فيهما بالخلق والتدبير وقد
أمر الله بجول الفكر فيهما لتقع بذلك العبر ويزداد الإيمان قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى
الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، وقال جل ذكره: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى
السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَافَعْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوْسًا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَزَلْنَا مِنْ
السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾
رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٦ - ١١]، تفسير ابن كثير ت
سلامة (١/ ١٩٧).

فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتِ السُّفْلِيَّةَ وَالْعُلُويَّةَ وَاخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا
وَطِبَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا وَوَضْعِهَا فِي مَوَاضِعِ النَّفْعِ بِهَا مُحْكَمَةً، عِلْمَ قُدْرَةِ خَالِقِهَا وَحِكْمَتَهُ
وَعِلْمَهُ وَإِتْقَانَهُ وَعَظِيمَ سُلْطَانِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ، وَقَدْ سُئِلَ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى
وُجُودِ الرَّبِّ تَعَالَى؟ فَقَالَ: يَا سُبْحَانَ اللَّهِ، إِنَّ الْبُعْرَةَ لَتَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَإِنَّ أَثَرَ الْأَقْدَامِ

لَتَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فَجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ؟ أَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى وُجُودِ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ؟.

وَحَكَى فَخْرُ الدِّينِ عَنِ الْإِمَامِ مَالِكٍ أَنَّ الرَّشِيدَ سَأَلَهُ عَنِ ذَلِكَ فَاسْتَدَلَّ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ وَالْأَصْوَاتِ وَالنَّعْمَاتِ، وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ بَعْضَ الزَّنَادِقَةِ سَأَلُوهُ عَنِ وُجُودِ الْبَارِي تَعَالَى، فَقَالَ لَهُمْ: دَعُونِي فَإِنِّي مُفَكِّرٌ فِي أَمْرٍ قَدْ أُخْبِرْتُ عَنْهُ ذَكَرُوا لِي أَنَّ سَفِينَةً فِي الْبَحْرِ مُوقَرَةٌ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الْمَتَاجِرِ وَلَيْسَ بِهَا أَحَدٌ يَحْرُسُهَا وَلَا يَسُوقُهَا، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ تَذْهَبُ وَتَجِيءُ وَتَسِيرُ بِنَفْسِهَا وَتَخْتَرِقُ الْأَمْوَاجَ الْعِظَامَ حَتَّى تَتَخَلَّصَ مِنْهَا، وَتَسِيرُ حَيْثُ شَاءَتْ بِنَفْسِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسُوقَهَا أَحَدٌ. فَقَالُوا: هَذَا شَيْءٌ لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ، فَقَالَ: وَيَحْكُمُ هَذِهِ الْمَوْجُودَاتُ بِمَا فِيهَا مِنَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمُحْكَمَةِ لَيْسَ لَهَا صَانِعٌ!! فَبُهِتَ الْقَوْمُ وَرَجَعُوا إِلَى الْحَقِّ وَأَسْلَمُوا عَلَى يَدَيْهِ.

وَعَنِ الشَّافِعِيِّ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ وُجُودِ الصَّانِعِ، فَقَالَ: هَذَا وَرَقُ الثُّوتِ طَعْمُهُ وَاحِدٌ تَأْكُلُهُ الدُّودُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْإِبْرَيْسِمُ، وَتَأْكُلُهُ النَّحْلُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْعَسَلُ، وَتَأْكُلُهُ الشَّاةُ وَالْبَعِيرُ وَالْأَنْعَامُ فَتَلْقِيهِ بَعْرًا وَرَوْتًا، وَتَأْكُلُهُ الطَّبَّاءُ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمِسْكُ وَهُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ.

وَعَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ ذَلِكَ فَقَالَ: هَاهُنَا حِصْنٌ حَصِينٌ أَمْلَسُ، لَيْسَ لَهُ بَابٌ وَلَا مَنْفَذٌ، ظَاهِرُهُ كَالْفِضَّةِ الْبَيْضَاءِ، وَبَاطِنُهُ كَالذَّهَبِ الْإِبْرِيزِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ انْصَدَعَ جِدَارُهُ فَخَرَجَ مِنْهُ حَيَوَانٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذُو شَكْلِ حَسَنِ وَصَوْتِ مَلِيحٍ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْبَيْضَةَ إِذَا خَرَجَ مِنْهَا الدَّجَاجَةُ.

وَسُئِلَ أَبُو نُوَّاسٍ عَنِ ذَلِكَ فَأَنْشَدَ:

تَأْمَلُ فِي نَبَاتِ الْأَرْضِ وَانظُرْ ❀❀ إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ الْمَلِيكُ

عِيُونَ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ❀❀ بِأَخْدَاقٍ هِيَ الدَّهْبُ السَّيِّئُ
عَلَى قُضْبِ الزَّبْرَجِدِ شَاهِدَاتٌ ❀❀ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ
وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ:

فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهِ ❀❀ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ❀❀ تَدُلُّ عَلَيَّ أَنَّهُ وَاحِدُ

وَقَالَ آخَرُونَ: مَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ السَّمَاوَاتِ فِي اِرْتِفَاعِهَا وَاتِّسَاعِهَا وَمَا فِيهَا مِنْ
الْكَوَاكِبِ الْكِبَارِ وَالصَّغَارِ الْمُبِيرَةِ مِنَ السَّيَّارَةِ وَمِنَ الثَّوَابِتِ، وَشَاهَدَهَا كَيْفَ تَدُورُ مَعَ
الْفَلَكَ الْعَظِيمِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ دَوِيرَةً وَلَهَا فِي أَنْفُسِهَا سَيْرٌ يَخْصُهَا، وَنَظَرَ إِلَى الْبِحَارِ
الْمُلْتَمَّةِ لِلْأَرْضِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَالْجِبَالِ الْمُؤْصُوعةِ فِي الْأَرْضِ لِتَقَرَّرَ وَيَسْكُنَ
سَاكِنُهَا مَعَ اخْتِلَافِ أَشْكَالِهَا وَأَلْوَانِهَا كَمَا قَالَ: ❀❀ **وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَّدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ**
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَابِيْبٌ سُودٌ ❀❀ وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ
إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ❀❀ [فاطر: ٤٧، ٤٨] وَكَذَلِكَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ السَّارِحَةُ مِنْ
قَطْرِ إِلَى قَطْرِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ وَمَا زَرَأَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْمُتَنَوِّعةِ وَالنَّبَاتِ
الْمُخْتَلِفِ الطُّعُومِ وَالْأَرَايِحِ وَالْأَشْكَالِ وَالْأَلْوَانِ مَعَ اتِّحَادِ طَبِيعَةِ التُّرْبَةِ وَالْمَاءِ، عِلْمٌ
وَجُودٌ الصَّانِعِ وَقُدْرَتُهُ الْعَظِيمَةُ وَحِكْمَتُهُ وَرَحْمَتُهُ بِخَلْقِهِ وَلُطْفُهُ بِهِمْ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِمْ
وَبِرَّهُ بِهِمْ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَالآيَاتُ فِي الْقُرْآنِ
الدَّالَّةُ عَلَيَّ هَذَا الْمَقَامِ كَثِيرَةٌ جِدًّا. انتهى

قال ابن جرير رحمه الله تعالى (١/ ٣٦٧): وإنما ذكر تعالى ذكره السماء والأرض فيما
عدّد عليهم من نعمه التي أنعمها عليهم، لأنّ منهنّما أقواتهم وأرزاقهم ومعايشهم،
وبهما قوامُ دُنْيَاهُمْ. فأعلمهم أنّ الذي خلقهما وخلق جميع ما فيهما وما هم فيه من

النعم، هو المستحق عليهم الطاعة، والمستوجب منهم الشكر والعبادة، دون الأصنام والأوثان، التي لا تضر ولا تنفع. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المراد بالسماء هنا العلو وليست الأجرام المعروفة وكل ما على الشيء فهو له سماء والماء ينزل من السحاب وهو مسخر بين السماء والأرض قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى اللَّهَ يُنزِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ يَكَاذِبُونَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣]، وهذا في القرآن كثير. وهذا لما أنزله الله لمصالح العباد إذ أن الحياة متوقفة عليه قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٠] فيحصل من نزول المطر ما ذكره الله هنا بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢٢] وجعله طهوراً قال تعالى: ﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِيُنحَىٰ بِهِ بَلَدَةٌ مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

قال القرطبي (١/ ٢٢٩): وَأَصْلُ الْمَاءِ مَوْءٌ، فَلَبَّتِ الْوَاوُ أَلْفًا لِتَحَرُّكِهَا وَتَحَرُّكِ مَا قَبْلَهَا فَقُلْتُ مَاءٌ، فَالْتَمَى حَرْفَانِ خَفِيَّانِ فَأَبْدَلْتُ مِنَ الْهَاءِ هَمْزَةً، لِأَنَّهَا أَجْلَدُ، وَهِيَ بِالْأَلْفِ أَشْبَهُ، فَقُلْتُ: مَاءٌ، الْأَلْفُ الْأَوْلَى عَيْنُ الْفِعْلِ، وَبَعْدَهَا الْهَمْزَةُ الَّتِي هِيَ بَدَلٌ مِنَ الْهَاءِ، وَبَعْدَ الْهَمْزَةِ أَلْفٌ بَدَلٌ مِنَ التَّنْوِينِ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَّا

بِالْفَيْنِ عِنْدَ الْبَصْرِيِّينَ، وَإِنْ شِئْتَ بِثَلَاثٍ، فَإِذَا جَمَعُوا أَوْ صَغَرُوا رَدُّوا إِلَى الْأَصْلِ فَقَالُوا: مُؤْيَةٌ وَأَمْوَاهُ وَمِيَاهُ، مِثْلُ جِمَالٍ وَأَجْمَالٍ. انتهى

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢] أي أنبت الأشجار والزرورع وأخرج منها الثمار فإذا أراد الله تعالى الإنعام على عباده بمعاش الدنيا كان من أهم ذلك إنزال المطر من السماء قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٤٤ ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٤٥ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ٤٦ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٤٧ ﴿وَعَبْنَا وَقَصَبْنَا﴾ ٤٨ ﴿وَرَبَّوْنَا وَمَخَلَّا﴾ ٤٩ ﴿وَحَدَّايِقَ غَلْبًا﴾ ٥٠ ﴿وَفَلَكَمَهَ وَأَبَا﴾ ٥١ ﴿مَتَلَعَا لَكُمُ وَالْأَنْعَامُ﴾ ٥٢ ﴿[عبس: ٢٤ - ٣٢].

قال القرطبي (١/ ٢٢٩): الثَّمَرَاتُ جَمْعُ ثَمْرَةٍ. وَيُقَالُ: ثَمْرٌ مِثْلُ شَجَرٍ. وَيُقَالُ ثُمْرٌ مِثْلُ حُشْبٍ. وَيُقَالُ: ثُمْرٌ مِثْلُ بُدْنٍ. وَثِمَارٌ مِثْلُ إِكَامٍ جَمْعُ ثَمِيرٍ. وَسَيَاتِي لِهَذَا مَزِيدٌ بَيَانٍ فِي "الْأَنْعَامِ" إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَثِمَارُ السَّيَاطِ: عُقْدُ أَطْرَافِهَا. وَالْمَعْنَى فِي الْآيَةِ أَخْرَجْنَا لَكُمْ أَلْوَانًا مِنَ الثَّمَرَاتِ، وَأَنْوَاعًا مِنَ النَّبَاتِ. "رِزْقًا" طَعَامًا لَكُمْ، وَعَلَفًا لِدَوَابِّكُمْ وَذَكَرَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ آيَاتِ سُورَةِ عَبَسَ.

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: تقدم الكلام على معنى الرزق والرزق العطاء، وما من مخلوق إلا وقد كتب الله رزقه وقدره على أكمل تقدير

وأخبر أن الرزق منه لا من غيره قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُٗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]

وفي صحيح البخاري (٧٤٥٤) ومسلم: عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «أَنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يُبْعَثُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَيُؤَدِّنُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَكْتُبُ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَسَقِيَّ أَمْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ

عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا».

وعند ابن حبان (٣٢٣٩): وغيره عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، فَإِنَّهُ لَنْ يَمُوتَ الْعَبْدُ حَتَّى يَبْلُغَهُ آخِرُ رِزْقِ هَوَاهُ، فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ: أَخَذَ الْحَلَالَ وَتَرَكَ الْحَرَامَ».

وأَسباب الرزق كثيرة ذكرت بعضها في كتابي الدر المكنون في أحكام الديون والحمد لله.

منها: التوحيد، والأخذ بالكتاب والسنة علماً وعملاً ومنها المحافظة على الصلاة والذكر والدعاء والضرب في الأرض وطلب العلم وغير ذلك من الأسباب وأدلتها مذكورة هنالك والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، أي لا تصيروا لله تعالى نظراء ومثلاً ومشابهين فهو تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وهو القائل تعالى عن نفسه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، والقائل: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، وهذا من النفي المجمل وهو دال على عموم الكمال فإن النفي في حق الله تعالى يؤتى به مجملاً ومفصلاً، فالمجمل لما ذكر والمفصل يؤتى به لأمر:

الأول: رد ما ادعاه في حقه المبطلون كدعواهم أن له صاحبة وولدا قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

الثاني: دفع توهم نقص كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، حيث قد يظن من لم يقدر الله تعالى حق قدره أنه ما خلقها في هذه الأيام الستة إلا لما لحق من التعب والنصب تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وروى الطبري (٣٧٦ / ٢٢): عن قتادة، قوله ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية، أكذب الله اليهود والنصارى وأهل الفري على الله، وذلك أنهم قالوا: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح يوم السابع، وذلك عندهم يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة. انتهى

والنفي في حق الله تعالى لا يكون محضاً بل متضمناً لكمال الضد فقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لبيان كمال حياته وقيوميته، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، لبيان كمال عدله، وقد تتضمن الصفة المنفية أكثر من صفة كمال كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، فنفي تعالى عن نفسه العجز لبيان كمال علمه وقدرته، والله تعالى أعلم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في التدمرية (ص: ٥٧): الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي. فالإثبات كإخباره أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، والنفي كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال. ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال.

فلهذا كان عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنًا لإثبات مدح كقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَؤُدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾.

فنفي السِنَّة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم. وكذلك قوله: ﴿وَلَا يَؤُدُّهُ حِفْظُهُمَا﴾ أي: لا يكرثه ولا يثقله، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها. بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته، وعيب في قوته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فَإِنَّ نَفْيَ الْعَزُوبِ مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾، فَإِنَّ نَفْيَ مَسِّ اللُّغُوبِ الذي هو التعب والإعياء دل على كمال القدرة، ونهاية القوة.

بخلاف المخلوق الذي يلحقه من النصب والكلال ما يلحقه.

وكذلك قوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾، إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء. ولم ينف مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا يُرى، وليس في كونه لا يُرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحًا، وإنما المدح في كونه لا يُحاط به وإن رُئي، كما أنه لا يُحاط به وإن عُلم، فكما أنه إذا عُلم لا يحاط به علمًا، فكذلك إذا رُئي لا يحاط به رؤية.

فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمتها ما يكون مدحًا وصفة كمال، وكان ذلك دليلًا على إثبات الرؤية لا على نفيها، لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتاً هو مما لم يصف الله به نفسه، فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب لم يثبتوا في الحقيقة إلهاً محموداً، بل ولا موجوداً. انتهى

قال أبو جعفر الطبري (١/ ٣٦٨): والأنداد جمع ندّ، والنّدّ: العِدْلُ والمِثْلُ، كما قال حسان بن ثابت:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِنَدٍّ ❀❀ فَشَرُّكُمْ لِخَيْرِكُمْ أَلْفِدَاءُ
يعني بقوله: "ولست له بند"، لست له بمثلٍ ولا عدلٍ. وكل شيء كان نظيراً
لشيء وله شبيهاً فهو له ند. انتهى

ثم ذكر **رَحْمَةُ اللَّهِ** ما رُيَّ عن قتادة قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، أي عدلاء، وعن ابن مسعود وابن عباس أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله، وعن ابن عباس، في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، قال: أشباهاً وروى أيضاً عن ابن زيد في قول الله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، قال: الأنداد: الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها مثل ما جعلوا له.

وعن عكرمة: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، أن تقولوا: لولا كلبنا لدخل علينا اللصّ الدار، لولا كلبنا صاح في الدار، ونحو ذلك.

فنهاهم الله تعالى أن يُشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريك لي في خلقكم، وفي رزقكم الذي أرزقكم وملكي إياكم، ونعمي التي أنعمتها عليكم - فكذلك فأفردوا لي الطاعة، وأخلصوا لي العبادة، ولا تجعلوا لي شريكاً ونداً من خلقي، فإنكم تعلمون أن كلّ نعمة عليكم فمني. انتهى

وقال ابن كثير (١/ ١٩٤): شَرَعَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي بَيَانِ وَحْدَانِيَّةِ أُلُوْهِتِيهِ، بِأَنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُنْعِمُ عَلَى عِبِيدِهِ، بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ وَإِسْبَاغِهِ عَلَيْهِمُ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ

وَالْبَاطِنَةَ، بِأَنْ جَعَلَ لَهُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا، أَي: مَهْدًا كَالْفِرَاشِ مُقَرَّرَةً مُوَطَّأَةً مُثَبَّتَةً بِالرَّوَاسِي الشَّامِحَاتِ، ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وَهُوَ السَّقْفُ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢] وَأَنْزَلَ لَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً - وَالْمُرَادُ بِهِ السَّحَابُ هَاهُنَا - فِي وَفْتِهِ عِنْدَ احتِياجِهِمْ إِلَيْهِ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ بِهِ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّرُوعِ وَالثَّمَارِ مَا هُوَ مُشَاهِدٌ؛ رِزْقًا لَهُمْ وَلَا نِعَامِهِمْ، كَمَا قَرَّرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ. وَمِنْ أَشْبَهِ آيَةٍ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ وَأَحْسَنَ صُورَكُمُ وَرَزَقَكُمُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاذْكُرُوا اللَّهَ الَّذِي تَدْعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر: ٦٤] وَمَضْمُونُهُ: أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ مَالِكُ الدَّارِ، وَسَاكِنِيهَا، وَرَازِقُهُمْ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ غَيْرُهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً، وَهُوَ خَلْقُكَ» الْحَدِيثُ. وَكَذَا حَدِيثٌ مَعَاذٍ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟ أَنْ يَعْبُدُوهُ لَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» الْحَدِيثُ وَفِي الْحَدِيثِ الْأُخْرَى: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ».

وَقَالَ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ، عَنْ رَبِيعِ بْنِ حِرَاشٍ، عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ سَخْبَرَةَ، أَحِي عَائِشَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ لِأُمَّهَا، قَالَ: رَأَيْتُ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ، كَأَنِّي آتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ فَقَالُوا: نَحْنُ الْيَهُودُ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لِأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ: عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لِأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. قَالَ: ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ النَّصَارَى. قُلْتُ: إِنَّكُمْ لِأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لِأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْتُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ آتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا

أَحَدًا؟» فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَامَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَتَاهَاكُمْ عَنْهَا، فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ». هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ حَدِيثِ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ، بِهِ. وَأَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ مِنْ وَجْهِ آخَرَ، عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ بِهِ، بِنَحْوِهِ.

وَقَالَ سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ الْأَجَلِحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْكِنْدِيِّ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ. فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ». رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَةَ مِنْ حَدِيثِ عَيْسَى بْنِ يُونُسَ، عَنِ الْأَجَلِحِ، بِهِ. وَهَذَا كُلُّهُ صِيَانَةٌ، وَحِمَايَةٌ لِجَنَابِ التَّوْحِيدِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

يقول كما تعلمون أنه لا ند له في خلقكم وإنزال المطر وخلق الأرض ورفع السماء وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته فأفردوه بالعبادة.

وقد اختلف أهل التأويل في المراد بهذا الخطاب على قولين ذكرهما ابن جرير وغيره، **أولهما**: المروي عن ابن عباس وقتادة وأنه عنى بها جميع المشركين من مشركي العرب وأهل الكتاب.

والثاني: أنه عنى به أهل التوراة والإنجيل وهذا مروي عن مجاهد.

قال الطبري (١/ ٣٧١): وأحسب أن الذي دعا مجاهدًا إلى هذا التأويل، وإضافة ذلك إلى أنه خطاب لأهل التوراة والإنجيل دون غيرهم - الظنُّ منه بالعرب أنها لم تكن تعلم أن الله خالقها ورازقها، بجحودها وحدانية ربِّها، وإشراكها معه في العبادة غيره. وإن ذلك لَقَوْلٌ! ولكنَّ الله جلَّ ثناؤه قد أخبرَ في كتابه عنها أنها كانت تُقر

بوحدايته، غير أنها كانت تُشرك في عبادته ما كانت تُشرك فيها، فقال جل ثناؤه:
﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة الزخرف: ٨٧]، وقال: **﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
 الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾** [سورة يونس: ٣١]. انتهى

قال ابن كثير (١ / ١٩٦): ذكُرَ حَدِيثٌ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: قَالَ الْإِمَامُ
 أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا أَبُو خَلْفٍ مُوسَى بْنُ خَلْفٍ، وَكَانَ يُعَدُّ مِنَ الْبُدَلَاءِ، حَدَّثَنَا
 يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ جَدِّهِ مَمْطُورٍ، عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ
 نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **«إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ، أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِخَمْسِ
 كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَكَانَ يُنطَعُ بِهَا، فَقَالَ لَهُ
 عِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّكَ قَدْ أَمَرْتَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ
 يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِنَّمَا أَنْ تُبْلِغَهُنَّ، وَإِنَّمَا أَنْ أُبْلِغَهُنَّ. فَقَالَ: يَا أَخِي، إِنِّي أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي أَنْ
 أُعَذَّبَ أَوْ يُحْسَفَ بِي»**. قَالَ: **«فَجَمَعَ يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، حَتَّى
 امْتَلَأَ الْمَسْجِدَ، فَقَعَدَ عَلَى الشَّرَفِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ
 كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَمَرَكُمُ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، وَأَوْهَنُ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا،
 فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ مِثْلَ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بَوْرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ
 وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيْتَكُمْ يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟ وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ
 فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَكُمُ بِالصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ
 يَلْتَفِتْ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَفِتُوا. وَأَمَرَكُمُ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ مَعَهُ صُرَّةٌ
 مِنْ مِسْكِ فِي عِصَابَةٍ، كُلُّهُمْ يَحْدُ رِيحَ الْمِسْكِ. وَإِنَّ حُلُوفَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ أَطْيَبُ مِنْ
 رِيحِ الْمِسْكِ. وَأَمَرَكُمُ بِالصَّدَقَةِ؛ فَإِنَّ مِثْلَ ذَلِكَ كَمِثْلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيْهِ إِلَى
 عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ لَهُمْ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ**

مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ. وَأَمَرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا؛ وَإِنْ مَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ أَحْصَنُ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ». قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا أَمُرُّكُمْ بِخَمْسٍ اللَّهُ أَمَرَنِي بِهِنَّ: الْجَمَاعَةَ، وَالسَّمْعُ، وَالطَّاعَةَ، وَالهِجْرَةَ، وَالْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِلَّا أَنْ يُرَاجَعَ وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ فَهُوَ مِنْ جِثِّي جَهَنَّمَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى؟ فَقَالَ: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ؛ فَادْعُوا الْمُسْلِمِينَ بِأَسْمَائِهِمْ عَلَى مَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ».

هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَالشَّاهِدُ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: «وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا».

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى تَوْحِيدِهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ. انتهى

قال الشنقيطي في أضواء البيان (١٧/١): أشار في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت، وبينها مُفَصَّلَةٌ في آياتٍ أُخَرَ: الأَوَّلُ: خَلَقَ النَّاسَ أَوَّلًا الْمُسَارِّ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ لِأَنَّ الْإِبْجَادَ الْأَوَّلَ أَعْظَمَ بُرْهَانٍ عَلَى الْإِبْجَادِ الثَّانِي، وَقَدْ أَوْضَحَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الآية ٣٠، ٢٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [١٠٤، ١٠١]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٧٩، ٣٦]، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ [الآية ١٥٠، ١٥٠]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [٥١، ٢٤]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ [الآية ١٥٦]

لِأَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْأَعْظَمِ فَهُوَ عَلَى غَيْرِهِ قَادِرٌ مِنْ بَابٍ أُخْرَى. وَأَوْضَحَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْبُرْهَانَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [٤٠ / ٥٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [٣٦ / ٨١]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ الْمَوْتُ بَلَىٰ﴾ [٤٦ / ٣٣]، وَقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [١٧ / ٩٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿ءَأَنْتُمْ أَشْدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٣٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَاهَا﴾ [٧٩ / ٢٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٧] [البقرة: ٢٣].

بعد أن أقام الله تعالى البراهين على ثبوت ربوبيته وألوهيته محتجاً عليهم بما تقرر في الفطر من أن الله تعالى هو الخالق المالك المدبر فلزم من ذلك أن يكون الإله الحق الذي تصرف إليه جميع أنواع العبادات، ذكر هذه الحجة لنيبه **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** أي إن كنتم يا معشر كفار قريش ومن يعارض وحي الله تعالى في ريب وشك من الوحي الذي أنزلناه على محمد **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** حيث زعمت أنه قول البشر كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَىٰ ﴿٤١﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥]، أو أنه علمه بشر كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وزعموا أنه أساطير الأولين وجدها مكتوبة في صحف من قبله كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فِيهِ تُمَلِّ عَلَيْهِ

بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ [الفرقان: ٥]، وغير ذلك من الدعاوى فتحداهم أن يأتوا بسورة مثله وقد تحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات مكذوبات كما زعموا فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣]، وفي هذه الآية وما في سورة يونس تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاَدْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس: ٣٨]، وفي جميع هذه الحالات ظهر عجزهم لأن القرآن كلام الله تعالى ووحيه ونوره وتنزيله.

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٦٢): لِمَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمَا يُثْبِتُ الْوَحْدَانِيَّةَ وَيُطِيلُ الشُّرْكَ عَقْبَهُ بِمَا هُوَ الْحُجَّةُ عَلَىٰ إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ وَمَا يَدْفَعُ الشُّبْهَةَ فِي كَوْنِ الْقُرْآنِ مُعْجِزَةً، فَتَحَدَّاهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِنْ سُوْرِهِ. وَالسُّوْرَةُ: الطَّائِفَةُ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُسَمَّاءِ بِاسْمٍ خَاصٍّ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَىٰ كَلِمَاتِهَا كَأَشْتِمَالِ سُوْرِ الْبَلَدِ عَلَيْهَا. انتهى

قال الطبري (١/ ٣٧٣): وهذا من الله عزَّ وجلَّ احتجاجٌ لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ علىٰ مشركي قومه من العرب ومنافقيهم، وكفار أهل الكتاب وضلالهم، الذين افتتح بقصصهم قوله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾، وإياهم يخاطب بهذه الآيات، وضرباءهم يعني بها، قال الله جل ثناؤه: وإن كنتم أيها المشركون من العرب والكفار من أهل الكتابين، في شكٍّ - وهو الريب - مما نزلنا علىٰ عبدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ من النور والبرهان وآيات الفرقان: أنه من عندي، وأني الذي أنزلته إليه، فلم تؤمنوا به ولم تصدقوه فيما يقول، فأتوا بحجة

تدفع حُجته، لأنكم تعلمون أن حجة كل ذي نبوة على صدقه في دعواه النبوة: أن يأتي برهان يعجز عن أن يأتي بمثله جميع الخلق. ومن حجة محمد **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** على صدقه، وبرهانه على حقيقة نبوته، وأن ما جاء به من عندي - عجز جميعكم وجميع من تستعينون به من أعوانكم وأنصاركم، عن أن تأتوا بسورة من مثله. وإذا عجزتم عن ذلك - وأنتم أهل البراعة في الفصاحة والبلاغة والذراية - فقد علمتم أن غيركم عما عجزتم عنه من ذلك أعجز. كما كان برهان من سلف من رُسلي وأنبيائي على صدقه، وحجته على نبوته من الآيات، ما يعجز عن الإتيان بمثله جميع خلقي. فيتقرر حينئذ عندكم أن محمدًا لم يتقوله ولم يختلقه، لأن ذلك لو كان منه اختلافًا وتقولًا لم تعجزوا وجميع خلقي عن الإتيان بمثله. لأن محمدًا **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** لم يعد أن يكون بشرًا مثلكم، وفي مثل حالكم في الجسم وبسطة الخلق وذراية اللسان - فيمكن أن يُظنَّ به اقتدارٌ على ما عجزتم عنه، أو يتوهم منكم عجزٌ عما اقتدر عليه. انتهى

ومما تقدم يُعلم شدة الاضطراب الذي بلغ بالمشركين من هذا الوحي العظيم، والصرات المستقيم واللفظ يدل على ذلك فإنه تعالى ذكره قال: ﴿ **إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ** ﴾ ولم يقل في شك وإن كان المعنى متقارب فإن الريب يدل على الشك المصاحب بالاضطراب.

وفي هذه الآية فضيلة لرسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** عظيمة من قوله تعالى: ﴿ **عَلَى عَبْدِنَا** ﴾ فأضافه إلى نفسه والإضافة هنا للتشريف كما هو معلوم في موطنه. وفيها الحذر من الغلو فإن رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** عبد فلا يجوز أن تصرف له شيء من العبادات، ولا أن يرفع إلى مراتب الإلهية كما فعل كثير من غلاة الصوفية، وقد وصف الله نبيه **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** بالعبودية في مواطن تقدم ذكرها.

وفي صحيح مسلم (٢٨): عن عبادة بن الصّاميت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: " مَنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ، وَابْنُ أُمَّتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الْجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ " وأخرجه البخاري (٣٤٣٥)، وفي صحيح البخاري (٣٤٤٥) عن عمر رضي الله عنه، يقول على المنبر: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».

وفي قوله تعالى: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾: أي: من الذي نزلنا والمراد به القرآن الكريم ففيه دلالة كما تقدم بيانه في أول السورة على أن القرآن كلام الله منه بدأ قال تعالى: ﴿حَمَّ نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢١] وقال: ﴿حَمَّ نَزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢١] وهكذا في غير موطن.

وفيه: دلالة على علو الله تعالى فإن النزول يكون من أعلى إلى أدنى وسيأتي الكلام على علو الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾، فقال مجاهد وقتادة: يقول: بسورة مثل هذا القرآن. وقد قال قوم آخرون: إن معنى قوله: ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾، من مثل محمد من البشر، لأن محمداً بشر مثلكم.

قال الطبري (١/ ٣٧٤): والتأويل الأول، الذي قاله مجاهد وقتادة، هو التأويل الصحيح. لأن الله جل ثناؤه قال في سورة أخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [سورة يونس: ٣٨]، ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيهه، فيجوز أن يقال: فأتوا بسورة مثل محمد. انتهى

وزاد الشوكاني قولاً آخر فقال في فتح القدير (١/٦٢): فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَالصَّمِيرُ فِي مِثْلِهِ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَقِيلَ عَائِدٌ عَلَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِنْ كِتَابٍ مِثْلِهِ فَإِنَّهَا تُصَدِّقُ مَا فِيهِ. وَقِيلَ يَعُودُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَالْمَعْنَى: مِنْ بَشَرٍ مِثْلِ مُحَمَّدٍ: أَيَّ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ. انتهى

قال تفسير ابن كثير سلامة (١/١٩٩): وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّ التَّحَدِّيَّ عَامٌّ لَهُمْ كُلُّهُمْ، مَعَ أَنَّهم أَفْصَحُ الْأُمَمِ، وَقَدْ تَحَدَّاهُمْ بِهَذَا فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ مَرَّاتٍ عَدِيدَةٍ، مَعَ شِدَّةِ عِدَاوتِهِمْ لَهُ وَبُغْضِهِمْ لِدِينِهِ، وَمَعَ هَذَا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ "وَلَنْ": لِتَفْيِي التَّأْيِيدِ أَيُّ: وَلَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا. وَهَذِهِ -أَيْضًا- مُعْجِزَةٌ أُخْرَى، وَهُوَ أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ لَا يُعَارِضُ بِمِثْلِهِ أَبَدًا وَكَذَلِكَ وَقَعَ الْأَمْرُ، لَمْ يُعَارِضْ مِنْ لَدُنْهُ إِلَى زَمَانِنَا هَذَا وَلَا يُمَكِّنُ، وَأَتَى يَتَأْتَى ذَلِكَ لِأَحَدٍ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ خَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ؟ وَكَيْفَ يُشْبِهُ كَلَامَ الْخَالِقِ كَلَامَ الْمَخْلُوقِينَ؟!.

وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ فُنُونًا ظَاهِرَةً وَخَفِيَّةً مِنْ حَيْثُ اللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فَأُحْكِمَتْ أَلْفَاظُهُ وَفُصِّلَتْ مَعَانِيهِ أَوْ بِالْعَكْسِ عَلَى الْخِلَافِ، فَكُلُّ مَنْ لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ فَصِيحٌ لَا يُجَارَى وَلَا يُدَانَى، فَقَدْ أَخْبَرَ عَنْ مَغِيبَاتٍ مَاضِيَةٍ وَآتِيَةٍ كَانَتْ وَوَقَعَتْ طَبَقَ مَا أَخْبَرَ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَأَمَرَ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَنَهَى عَنْ كُلِّ شَرٍّ كَمَا قَالَ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أَيُّ: صِدْقًا فِي الْأَخْبَارِ وَعَدْلًا فِي الْأَحْكَامِ، فَكُلُّهُ حَقٌّ وَصِدْقٌ وَعَدْلٌ وَهُدًى لَيْسَ فِيهِ مُجَازَفَةٌ وَلَا كَذِبٌ وَلَا افْتِرَاءٌ، كَمَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَكَاذِبِ وَالْمُجَازَفَاتِ الَّتِي لَا يَحْسُنُ شِعْرُهُمْ إِلَّا بِهَا، كَمَا قِيلَ فِي الشُّعْرِ: إِنَّ أَعْدَبَهُ أَكْذَبُهُ، وَتَجِدُ الْقَصِيدَةَ الطَّوِيلَةَ الْمَدِيدَةَ قَدْ اسْتُعْمِلَ غَالِبُهَا فِي وَصْفِ النِّسَاءِ أَوْ الْحَيْلِ أَوْ الْحَمْرِ، أَوْ فِي مَدْحِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ أَوْ فَرَسٍ أَوْ نَاقَةٍ أَوْ حَرْبٍ أَوْ كَائِنَةٍ أَوْ مَخَافَةٍ أَوْ سَبْعٍ، أَوْ شَيْءٍ مِنَ الْمُشَاهَدَاتِ الْمُتَعَيَّنَةِ

الَّتِي لَا تُفِيدُ شَيْئًا إِلَّا قُدْرَةَ الْمُتَكَلِّمِ الْمُعَبَّرِ عَلَى التَّعْبِيرِ عَلَى الشَّيْءِ الْخَفِيِّ أَوْ الدَّقِيقِ
أَوْ إِبْرَازِهِ إِلَى الشَّيْءِ الْوَاضِحِ، ثُمَّ تَجِدُ لَهُ فِيهَا بَيِّنًا أَوْ بَيِّنِينَ أَوْ أَكْثَرَ هِيَ بَيُّوتُ الْقَصِيدِ
وَسَائِرُهَا هَذَرٌ لَا طَائِلَ تَحْتَهُ.

وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَجَمِيعُهُ فَصِيحٌ فِي غَايَةِ نَهَايَاتِ الْبَلَاغَةِ عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ تَفْصِيلًا
وَإِجْمَالًا مِمَّنْ فَهَمَ كَلَامَ الْعَرَبِ وَتَصَاريفَ التَّعْبِيرِ، فَإِنَّهُ إِنْ تَأَمَّلْتَ أَحْبَارَهُ وَجَدْتَهَا فِي
غَايَةِ الْحَلَاوَةِ، سَوَاءٌ كَانَتْ مَبْسُوطَةً أَوْ وَجِيزَةً، وَسَوَاءٌ تَكَرَّرَتْ أَمْ لَا وَكُلَّمَا تَكَرَّرَ حَلَا
وَعَلَا لَا يَخْلُقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا يَمَلُّ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَإِنْ أَخَذَ فِي الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ جَاءَ
مِنْهُ مَا تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجِبَالُ الصُّمُّ الرَّاسِيَاتُ، فَمَا ظَنُّكَ بِالْقُلُوبِ الْفَاهِمَاتِ، وَإِنْ وَعَدَ
أَتَى بِمَا يَفْتَحُ الْقُلُوبَ وَالْأَذَانَ، وَيُسَوِّقُ إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَمُجَاوِرَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، كَمَا
قَالَ فِي التَّرْغِيبِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

﴿١٧﴾ [السَّجْدَةِ: ١٧] وَقَالَ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَكْفُرُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ [الزُّخْرُفِ: ٧١]، وَقَالَ فِي التَّرْهيبِ: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ

الْبَرِّ﴾ ﴿٦٨﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٦٨]، ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١٦﴾ أَمِنْتُمْ
مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ﴿١٧﴾ [الْمُلْكِ: ١٦، ١٧] وَقَالَ فِي

الزَّجْرِ: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وَقَالَ فِي الْوَعظِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ
مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ مَا أَخَعَّنَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ

﴿٣٧﴾ [الشُّعْرَاءِ: ٢٥-٢٧] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَالْحَلَاوَةِ، وَإِنْ
جَاءَتْ الْآيَاتُ فِي الْأَحْكَامِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، اشْتَمَلَتْ عَلَى الْأَمْرِ بِكُلِّ مَعْرُوفٍ

حَسَنٍ نَافِعٍ طَيِّبٍ مَحْبُوبٍ، وَالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ قَبِيحٍ رَذِيلٍ ذَنِيءٍ؛ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ
وغيره من السلف: إِذَا سَمِعْتَ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

فَأَوْعَهَا سَمْعَكَ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَّا يُأْمُرُ بِهِ أَوْ سَرُّ يُنْهَى عَنْهُ. وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴿١٥٧﴾، وَإِنْ جَاءَتِ
الْآيَاتُ فِي وَصْفِ الْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَهْوَالِ وَفِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ
فِيهِمَا لِأَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ النَّعِيمِ وَالْجَحِيمِ وَالْمَلَاذِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ، بَشَّرَتْ بِهِ
وَحَدَّرَتْ وَأَنْذَرَتْ؛ وَدَعَتْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ وَاجْتِنَابِ الْمُنْكَرَاتِ، وَرَهَّدَتْ فِي الدُّنْيَا
وَرَعَّبَتْ فِي الْأُخْرَى، وَبَيَّنَّتْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى، وَهَدَّتْ إِلَى صِرَاطِ اللَّهِ الْمُسْتَقِيمِ
وَشَرَعِهِ الْقَوِيمِ، وَنَفَتْ عَنِ الْقُلُوبِ رِجْسَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ
عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ» لَفْظُ مُسْلِمٍ. وَقَوْلُهُ: «وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ وَحِيًّا» أَي: الَّذِي اخْتَصَصْتُ بِهِ مِنْ
بَيْنِهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُعْجِزَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُعَارِضُوهُ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، فَإِنَّهَا
لَيْسَتْ مُعْجِزَةً عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَهُ **عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ** مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ
عَلَى نُبُوَّتِهِ، وَصِدْقِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَضْرٍ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ.

وَقَدْ قَرَّرَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْأَعْجَازَ بِطَرِيقٍ يَشْمَلُ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَوْلَ الْمُعْتَزَلَةِ
فِي الصُّوفِيَّةِ، فَقَالَ: إِنْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنَ مُعْجِزًا فِي نَفْسِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ الْإِنْتِيَانِ بِمِثْلِهِ
وَلَا فِي قُوَاهُمْ مُعَارَضَتَهُ، فَقَدْ حَصَلَ الْمُدَّعَى وَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ كَانَ فِي إِمْكَانِهِمْ
مُعَارَضَتُهُ بِمِثْلِهِ وَلَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ مَعَ شِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ لَهُ، كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ؛ لِصَرْفِهِ إِيَّاهُمْ عَنْ مُعَارَضَتِهِ مَعَ قُدْرَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ
مَرْضِيَّةً لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي نَفْسِهِ مُعْجِزٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَشَرُ مُعَارَضَتَهُ، كَمَا قَرَّرْنَا، إِلَّا أَنَّهَا
تَصْلُحُ عَلَى سَبِيلِ التَّنَزُّلِ وَالْمُجَادَلَةِ وَالْمُنَافَحَةِ عَنِ الْحَقِّ وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَجَابَ فَخْرُ
الدِّينِ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ سُؤَالِهِ فِي السُّورِ الْقِصَارِ كَالْعَصْرِ وَ﴿ **إِنَّا أَنْعَمْنَاكَ الْكَوْثَرَ**

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٦٣): وَقَدْ وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ هَلْ وَجْهُ
 الْإِعْجَازِ فِي الْقُرْآنِ هُوَ كَوْنُهُ فِي الرُّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ مِنَ الْبَلَاغَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ طَوْقِ الْبَشَرِ، أَوْ
 كَانَ الْعَجْزُ عَنِ الْمُعَارَضَةِ لِلصَّرْفَةِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ عَنِ أَنْ يُعَارِضُوهُ، وَالْحَقُّ
 الْأَوَّلُ، وَالْكَلامُ فِي هَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوَاطِنِهِ. انتهى
 قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣].

قال الطبري (١/ ٣٧٧): وقوله ﴿وَادْعُوا﴾، يعني: استنصروا واستغيثوا، كما قال
 الشاعر:

فَلَمَّا التَّقَتْ فُرْسَانُنَا وَرِجَالُهُمْ ❀❀ دَعَوْا: يَا لَكَعْبِ! وَاعْتَزَيْنَا لِعَامِرِ

يعني بقوله: "دعوا يالكعب"، استنصروا كعباً واستغاثوا بهم. انتهى
 الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر والقائم بالشهادة أو المعاون والمراد بها هنا
 الآلهة قاله الشوكاني، والصحيح: أنها أعم من ذلك والمعنى فادعوا كل من ينصركم.
 قال شيخ الإسلام في النبوات (٢/ ٨٦٠): أي: ادعوا كل من يشهد لكم، فيوافقكم
 على أن هذا ليس من عند الله؛ ادعوا كل من لم يُقرَّ بأن هذا منزل من الله، فهذا تعجيزٌ
 لكل من لم يؤمن به. ومن آمن به، وبقي في ريب، بل قد علم أنه من عند الله.

وهذا التحدي في البقرة، وهي مدنية بعد يونس وهود. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ
 فِي رَيْبٍ﴾، وهناك؟ قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾؛ فهذا تحدي لكل مرتاب، وذاك؛ تحدي
 لكل مثل مكذب. ولهذا قيل في ذلك: ﴿مَنْ اسْتَطَعْتُمْ﴾ فإنه أبلغ، وقيل في هذا:
 ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾.

وقد قال بعض المفسرين: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾: آلهتكم، وقال بعضهم: من يشهد أن
 الذي جئتم به مثل القرآن.

والصواب: أن شهداءهم الذين يشهدون لهم؛ كما ذكره ابن اسحق بإسناده المعروف عن ابن عباس، قال: ﴿شُهَدَاءَكُمْ﴾: من استطعتم من أعوانكم على ما أتمت عليه.

وقال السدي، عن أبي مالك: ﴿شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾: أي شركاءكم؛ فإن هؤلاء هم الذي يُتصوّر منهم المعارضة إذا كانوا في ريب منه.

أما من أيقن أنه من عند الله، فإنه يمتنع أن يقصد معارضته؛ لعلمه بأن الخلق عاجزون عن ذلك. والله تعالى شهد لمحمد بما أظهره من الآيات، فادعوا من يشهد لكم. وهؤلاء يشهدون من دون الله، لا يشهدون بما شهد الله به، فتكون شهادتهم مضادة لشهادة الله؛ كما قال: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ وقال: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٥٣﴾﴾.

كما قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾. انتهى
وفيمًا: دليل على الإتيان بما يدل على ثبوت الدعوى حيث طالبهم تعالى أن يأتوا بسورة حين قالوا: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

قال العنيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١/ ٨٨): إذا قال قائل: ما وجه الإعجاز في القرآن؟ وكيف أعجز البشر؟..

الجواب: أنه معجز بجميع وجوه الإعجاز؛ لأنه كلام الله، وفيه من وجوه الإعجاز ما لا يدرك؛ فمن ذلك:

أولاً: قوة الأسلوب، وجماله؛ والبلاغة، والفصاحة؛ وعدم الملل في قراءته؛ فالإنسان يقرأ القرآن صباحاً، ومساءً. وربما يختمه في اليومين، والثلاثة. ولا يمله إطلاقاً؛ لكن لو كرر متناً من المتون كما يكرر القرآن ملّ..

ثانياً: أنه معجز بحيث إن الإنسان كلما قرأه بتدبر ظهر له بالقراءة الثانية ما لم يظهر له بالقراءة الأولى..

ثالثاً: صدق أخباره بحيث يشهد لها الواقع؛ وكمال أحكامه التي تتضمن مصالح الدنيا، والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَتَّ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

رابعاً: تأثيره على القلوب، والمناهج؛ وآثاره، حيث ملك به السلف الصالح مشارق الأرض، ومغاربها.

وأما كيفية الإعجاز فهي تحدي الجن، والإنس على أن يأتوا بمثله، ولم يستطيعوا. انتهى

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي: من غير الله.

قال الشوكاني: وَمَعْنَى دُونٍ: أَدْنَى مَكَانٍ مِنَ الشَّيْءِ وَاتَّسَعَ فِيهِ حَتَّى اسْتُعْمِلَ فِي تَخْطِي الشَّيْءِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ، وَمِنْهُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَهُ مَعَانٍ أُخْرَى، مِنْهَا التَّقْصِيرُ عَنِ الْغَايَةِ وَالْحَقَارَةُ، يُقَالُ: هَذَا الشَّيْءُ دُونُ، أَيْ حَقِيرٌ، وَمِنْهُ:

إذا ما علا المرء رام العلاء ❀❀ ويقنع بالدون من كان دوناً
والقرب، يُقال: هذا دون ذلك، أي أقرب منه، ويكون إغراءً، تقول: دونك زيداً:
أي خذهُ مِنْ أَدْنَى مَكَانٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ مُتَعَلِّقٌ بِأَدْعَا: أَي ادْعُوا الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لَكُمْ مِنْ
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِيمَا قُلْتُمْ مِنْ أَنْكُمْ تَقْدِرُونَ عَلَى الْمَعَارِضَةِ، وَهَذَا تَعْجِيزٌ
لَهُمْ وَبَيَانٌ لِإِنْقِطَاعِهِمْ. وَالصَّدُوقُ: خِلَافُ الْكَذِبِ، وَهُوَ مُطَابَقَةُ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ أَوْ
لِلْإِعْتِقَادِ أَوْ لَهُمَا، عَلَى الْخِلَافِ الْمَعْرُوفِ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي. انتهى

وفي هذا بيان ودليل واضح على عجز الآلهة التي يعبدونها من دون الله تعالى فقد ظهر من عجزهم عن معارضة القرآن وعجز آلهتهم ما يبين أنها ليست آلهة وإنما هي حجارة صماء بكماء لا تنفع نفسها فضلاً عن غيرها وقد ذكر الله تعالى هذه الحجة في مواطن من كتابه فمنها: ﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٥٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٥٧﴾ أَمْ لَهُمْ

سَأْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبُنُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُمْقِلُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٣١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [الطور: ٣٥ - ٤٣].

وقوله تعالى ذكره: ﴿يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدٰى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰمِتُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَأْتِ الْيَهُودَ بِنُورٍ بَاطِنٍ أَمْ لَهُمْ آيٰتٌ يَنْظُرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ آيٰتٌ يُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُمْ آيٰتٌ يَنْظُرُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا وَلَا يَبْصُرُونَ بَصِيرًا وَأَنَّ لَهُمْ آيٰتٌ يَنْظُرُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا وَلَا يَبْصُرُونَ بَصِيرًا ﴿٤١﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا وَلَا يَبْصُرُونَ بَصِيرًا ﴿٤٢﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٨]

وقال تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ عَجَلُوهُ وَكَيْرُهُمْ هٰذَا فَسَعَوْا لَهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٥﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَكُمْ آلِهَةٌ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلَمْ نَقُلْ لَكُمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿٣٨﴾ وَتَقُولُونَ حَسْبُنَا اللَّهُ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُعْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٣٩﴾ [مريم: ٤٢]

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ ﴿٣٣﴾: أي: فيما قلتُم أنكم تقدرُونَ على المعارضة، والصدق ضد الكذب وهو مطابقة الخبر للواقع قولاً أو اعتقاداً.

قال القرطبي (١/٢٣٣): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ ﴿٣٣﴾: فِيمَا قُلْتُمْ مِنْ أَنَّكُمْ تَقْدِرُونَ عَلَىٰ الْمُعَارَضَةِ، لِقَوْلِهِمْ فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَمَلَأْنَا مِثْلَ هٰذَا﴾ [الأنفال: ٣١] وَالصِّدْقُ: خِلَافُ الْكُذْبِ، وَقَدْ صَدَقَ فِي الْحَدِيثِ. وَالصِّدْقُ: الصُّلْبُ مِنْ

الرَّمَّاحِ. وَيُقَالُ: صَدَقُوهُمْ الْفِتَالَ. وَالصَّدِيقُ: الْمُلَازِمُ لِلصَّدِيقِ. وَيُقَالُ: رَجُلٌ صِدْقٌ، كَمَا يُقَالُ: نِعَمَ الرَّجُلِ. وَالصَّدَاقَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الصَّدْقِ فِي النِّصْحِ وَالْوَدِّ. انْتَهَى

وهذا من أعظم دلائل صدق الأنبياء عليهم السلام فإنهم يتحدون أقوامهم المكذبين لهم مع كثرتهم وشدة عداوتهم ومخالفتهم ومع ذلك يبقى الكفار عاجزون عن صنع شيء وتختلف وسائل التحدي من قوم إلى قوم فلما كانت معجزة رسول الله تعالى القرآن تحداهم أن يأتوا بمثله أو بعض من ذلك على ما تقدم، ونوح

عَلَيْهِ السَّلَامُ يتحدى قومه بقوله: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِعَايَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢]، وهود عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول:

﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٤ -

٥٦] وفي كل حالة يبقى الكفار عاجزون أمام الدلائل النبوية والمعجزات الربانية.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

أي: فإن عجزتم عن الإتيان بمثله ولم تفعلوا ذلك في الماضي، ولن تفعلوا في المستقبل.

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٦٣): فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا يَعْنِي فِيمَا مَضَى وَلَنْ تَفْعَلُوا أَي تَطِيقُوا ذَلِكَ فِيمَا يَأْتِي وَتَبَيَّنَ لَكُمْ عَجْزُكُمْ عَنِ الْمُعَارَضَةِ فَاتَّقُوا النَّارَ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْفِيَامِ بِفِرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَنَاهِيهِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْإِثْيَانِ بِالْفِعْلِ لِأَنَّ الْإِثْيَانَ فِعْلٌ مِنَ الْأَفْعَالِ لِقَصْدِ الْإِخْتِصَارِ، وَجُمْلَةٌ لَنْ تَفْعَلُوا: لَا مَحَلَّ لَهَا مِنَ الْإِعْرَابِ لِأَنَّهَا اعْتِرَاضِيَّةٌ، وَلَنْ لِلنَّفْيِ الْمُؤَكَّدِ لِمَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنَ الْغُيُوبِ الَّتِي أَخْبَرَ بِهَا الْقُرْآنُ

قَبْلَ وُقُوعِهَا، لِأَنَّهَا لَمْ تَتَّعِ الْمَعَارِضَةَ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْكُفَرَةِ فِي أَيَّامِ النَّبُوَّةِ وَفِي مَا بَعْدَهَا
وَإِلَى الْآنِ. انْتَهَى

قال شيخ الإسلام في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٤٢٥): فَذَكَرَ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤].

يَقُولُ: إِذَا لَمْ تَفْعَلُوا فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ حَقٌّ، فَخَافُوا اللَّهَ أَنْ تُكَذِّبُوهُ، فَيَحِيقُ بِكُمْ
الْعَذَابُ، الَّذِي وَعَدَ بِهِ الْمُكذِّبِينَ، وَهَذَا دُعَاءٌ إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، بَعْدَ أَنْ
دَعَاهُمْ بِالْحِكْمَةِ، وَهُوَ جِدَالُهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤]، وَ (لَنْ) لِنَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَثَبَّتَ الْخَبَرَ
أَنَّهُمْ فِي مَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ، لَا يَأْتُونَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ كَمَا أَخْبَرَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَأَمْرُهُ أَنْ
يَقُولَ فِي سُورَةِ (سُبْحَانَ)، وَهِيَ سُورَةُ مَكِّيَّةٌ، افْتَتَحَهَا بِذِكْرِ الْإِسْرَاءِ، وَهُوَ كَانَ بِمَكَّةَ
بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَالْخَبَرِ الْمُتَوَاتِرِ، وَذَكَرَ فِيهَا مِنْ مُحَاطَبَتِهِ لِلْكَفَّارِ بِمَكَّةَ مَا يُبَيِّنُ بِذَلِكَ
بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ

وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فَعَمَّ بِالْخَبَرِ جَمِيعَ الْخَلْقِ مُعْجِزًا لَهُمْ، قَاطِعًا بِأَنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ، لَا يَأْتُونَ
بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَلَوْ تَظَاهَرُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ ذَلِكَ، وَهَذَا التَّحَدِّيُّ وَالِدُّعَاءُ هُوَ لِجَمِيعِ
الْخَلْقِ، وَهَذَا قَدْ سَمِعَهُ كُلُّ مَنْ سَمِعَ الْقُرْآنَ وَعَرَفَهُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ، وَعَلِمَ - مَعَ ذَلِكَ -
- أَنَّهُمْ لَمْ يُعَارِضُوهُ، وَلَا أَتَوْا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَمِنْ حِينِ بُعِثَ، وَإِلَى الْيَوْمِ، الْأَمْرُ عَلَىٰ
ذَلِكَ، مَعَ مَا عَلِمَ مِنْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ كَانُوا كُفَّارًا قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ، وَلَمَّا بُعِثَ إِنَّمَا تَبِعَهُ
قَلِيلٌ. انْتَهَى

وفي هذا: بيان لمعتقد أهل السنة والجماعة حيث أخبرهم أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله حالاً ومستقبلاً وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾: أي اتقوا عذابها بطاعة الله ولزوم رضوانه وقد تقد الكلام على معنى التقوى، وهو أن تجعل بينك وبين ما تخاف وقاية، والنار علم على جهنم ولها أسماء غير ذلك نعوذ بالله منها ومن أعظم ما تتقى به النار التوحيد لأن الله قد أخبر في مواطن من كتابه أنه أعدها للكافرين كما في هذا الموضع، ومنها الدعاء وفي دعاء المؤمنين المذكور في القران ما يبين ذلك قال تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ أَرْبَعِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ» أخرجه مسلم (٥٨٨)، وعند أحمد في مسنده (١٢٤٣٩): عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا يَسْأَلُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ اللَّهَ الْجَنَّةَ ثَلَاثًا، إِلَّا قَالَتْ الْجَنَّةُ: اللَّهُمَّ أَدْخِلْهُ، وَلَا اسْتَجَارَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ اللَّهَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثًا، إِلَّا قَالَتْ النَّارُ: اللَّهُمَّ اجْزِهِ».

ومنها: خوف الله تعالى قال جل ذكره: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِثَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

ومنها: ملازمة العمل الصالح من صلاة وحج وصيام وصدقة وأمر بمعروف ونهي عن منكر إلى غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَلَيْ وَفُودَهَا النَّاسُ وَلِحِجَارَةٌ﴾: التي نعت للنار وهي من الأسماء الموصولة، والوقود الحطب قال القرطبي (١/ ٢٣٥).

والوقود (بالفتح): الحطب، وبالضم: التوقد. و"النَّاسُ" عُمُومٌ، وَمَعْنَاهُ الْخُصُوصُ فِيمَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ أَنَّهُ يَكُونُ حَطْبًا لَهَا، أَجَارَنَا اللَّهُ مِنْهَا. "انتهى والحجارة معلومة إلا أن العلماء اختلفوا في المراد بالحجارة فذهب بعضهم إلى أنها أحجار الكبريت وذلك لشدة حرارتها ولكونها تخزن الحرارة فيقع بها الزيادة في عذاب الكافرين، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ وروى عن عبدالله بن مسعود قوله: هي حجارة من كبريت، خَلَقَهَا اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، يُعَدُّهَا لِلْكَافِرِينَ. وسنده صحيح، وروى أنها حجارة الكبريت عن ابن عباس وابن جريج.

وقال بعضهم: المراد بها الأصنام كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وقال بعضهم يراد بها عموم الحجارة ولا يمنع دخول كل ما ذكر في أنه من وقود النار أعادنا الله منها.

قال القرطبي (١/ ٢٣٥): وَالْحِجَارَةُ "هِيَ حِجَارَةُ الْكِبْرِيَّتِ الْأَسْوَدِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَالْفَرَّاءِ وَخُصَّتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَزِيدُ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْجَارِ بِخَمْسَةِ أَنْوَاعٍ مِنَ الْعَذَابِ: سُرْعَةَ الْإِتْقَادِ، نَتْنِ الرَّائِحَةِ، كَثْرَةَ الدُّخَانِ، شِدَّةَ الْإِلْتِصَاقِ بِالْأَبْدَانِ، قُوَّةَ حَرِّهَا إِذَا حَمِيَتْ. وَكَيْسَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَفُودَهَا النَّاسُ وَلِحِجَارَةٌ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كَيْسَ فِيهَا غَيْرَ النَّاسِ وَالْحِجَارَةِ، بِدَلِيلِ مَا ذَكَرَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كَوْنِ الْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ فِيهَا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْحِجَارَةِ الْأَصْنَامُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أَيْ حَطْبُ جَهَنَّمَ. وَعَلَيْهِ فَتَكُونُ الْحِجَارَةُ وَالنَّاسُ وَقُودًا لِلنَّارِ، وَذَكَرَ ذَلِكَ تَعْظِيمًا لِلنَّارِ أَنَّهَا تَحْرُقُ الْحِجَارَةَ مَعَ إِحْرَاقِهَا لِلنَّاسِ، وَعَلَى

التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ يَكُونُونَ مُعَذِّبِينَ بِالنَّارِ وَالْحِجَارَةِ. وَقَدْ جَاءَ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ مُؤَذِّي النَّارِ». وَفِي تَأْوِيلِهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: - أَنْ كُلَّ مَنْ آذَى النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَذَّبَهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ. الثَّانِي: - أَنْ كُلَّ مَا يُؤَذِّي النَّاسَ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّبَاعِ وَالْهَوَامِّ وَغَيْرِهَا فِي النَّارِ مُعَذِّ لِعُقُوبَةِ أَهْلِ النَّارِ. وَذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ إِلَى أَنَّ هَذِهِ النَّارَ الْمَخْصُوصَةَ بِالْحِجَارَةِ هِيَ نَارُ الْكَافِرِينَ خَاصَّةً. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْصُرُكَ، فَهَلْ نَفَعَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ وَجَدْتُهُ فِي غَمْرَاتٍ مِنَ النَّارِ فَأَخْرَجْتُهُ إِلَى صَحْضَاحٍ - فِي رِوَايَةٍ - وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» انتهى وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤﴾: أي جهزت للكافرين وفي هذا دليل على وجودها الآن على ما يأتي.

قال القرطبي (١ / ٢٣٦): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤﴾ ظَاهِرُهُ أَنَّ غَيْرَ الْكَافِرِينَ لَا يَدْخُلُهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بِدَلِيلٍ مَا ذَكَرَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْوَعِيدِ لِلْمُذْنِبِينَ وَبِالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ فِي الشَّفَاعَةِ. انْتَهَى قُلْتُ أَمَا أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ يَخْلُدُونَ فِيهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ٣٦﴾ [البقرة: ١٦٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ٦٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ أَدْخَلَهُ اللَّهُ فِيهَا فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا فَقَدْ أَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (١٨٥) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمْ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُتُوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ

الْجَنَّةِ، أَيْضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ تَكُونُ فِي حِمِلِ السَّيْلِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ،
كَانَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ.

وفي مسلم (١٨٦): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةِ، رَجُلٌ يُخْرَجُ مِنَ
النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيَحِيلُ إِلَيْهِ أَهْلُهَا مَلَأَى،
فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ»،
قَالَ: «فَيَأْتِيهَا، فَيَحِيلُ إِلَيْهِ أَهْلُهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ
لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ إِنَّ لَكَ عَشْرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا
- ، قَالَ: " فَيَقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي - أَوْ أَتَضْحَكُ بِي - وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ »، قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، قَالَ: «فَكَانَ يُقَالُ: ذَلِكَ أَدْنَى
أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً».

وفي الآية: دليل على أن النار موجودة الآن وخالف في ذلك المعتزلة ومن صار
على قولهم من أهل البدع حيث زعموا أن وجودها الآن عبث ويرد مذهبهم الباطل
الكتاب والسنة والإجماع.

قال ابن أبي العزفي شرح الطحاوية - (ص: ٤٢٠) في قول الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالْجَنَّةُ
وَالنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ، لَا تَفْنِيَانِ أَبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ
الْخَلْقِ، وَخَلَقَ لَهُمَا أَهْلًا، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ فَضَلًّا مِنْهُ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إِلَى
النَّارِ عَدْلًا مِنْهُ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِعَ لَهُ، وَصَائِرٌ إِلَى مَا خُلِقَ لَهُ، وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ
مُقَدَّرَانِ عَلَى الْعِبَادِ):

قال: أَمَّا قَوْلُهُ: «إِنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ» - فَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَنَّةَ
وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ مَوْجُودَتَانِ الْآنَ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ أَهْلُ السُّنَّةِ، حَتَّى تَبَعَتْ نَابِعَةٌ مِنَ
الْمُعْتَزِلَةِ وَالْقَدَرِيَّةِ، فَأَنْكَرَتْ ذَلِكَ، وَقَالَتْ: بَلْ يُنْشِئُهُمَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ!! وَحَمَلَهُمْ

عَلَىٰ ذَٰلِكَ أَصْلُهُمُ الْفَاسِدُ الَّذِي وَضَعُوا بِهِ شَرِيعَةً لِّمَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَفْعَلَ كَذًا، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذًا!! وَقَاسُوهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ فِي أَفْعَالِهِمْ، فَهُم مُمِثُّهُ فِي الْأَفْعَالِ، وَدَخَلَ التَّجَهُُّ فِيهِمْ، فَصَارُوا مَعَ ذَٰلِكَ مُعْطَلَةً! وَقَالُوا: خَلَقَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْجَزَاءِ عَبَثًا! لِأَنَّهَا تَصِيرُ مُعْطَلَةً مُدَدًا مُتَطَاوِلَةً!! فَردُّوا مِنَ النُّصُوصِ مَا خَالَفَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ الْبَاطِلَةَ الَّتِي وَضَعُوهَا لِلرَّبِّ تَعَالَىٰ، وَحَرَّفُوا النُّصُوصَ عَنْ مَوَاضِعِهَا، وَضَلُّوا وَبَدَّعُوا مَنْ خَالَفَ شَرِيعَتَهُمْ.

فَمِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ عَنِ الْجَنَّةِ: ﴿أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾﴾. ﴿أَعَدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾. وَعَنِ النَّارِ: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٤﴾﴾. ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿١١﴾﴾ ﴿لِلظَّالِمِينَ مَعَابًا ﴿٢٤﴾﴾. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ ﴿أُخْرَىٰ﴾ ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾﴾. وَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، وَرَأَى عِنْدَهَا جَنَّةَ الْمَأْوَىٰ. كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فِي قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ، وَفِي آخِرِهِ: «ثُمَّ انْطَلَقَ بِي جِبْرَائِيلُ، حَتَّى أَتَى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَىٰ، فَعَشِيهَا أَلْوَانٌ لَا أُدْرِي مَا هِيَ» قَالَ: «ثُمَّ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا هِيَ جَنَابِدُ اللَّوْزِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ».

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَفِيهِ: «يُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَرْشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيْبِهَا».

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ أَنَسٍ بِمَعْنَى حَدِيثِ الْبَرَاءِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: عَنْ عَائِشَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**، قَالَتْ: «حَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**». فَذَكَرَتِ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعدْتُمْ بِهِ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي أَخْذُ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقْدُمْتُمْ وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأْخُرْتُمْ»

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «انْحَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**». فَذَكَرَ الْحَدِيثَ، وَفِيهِ: فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْتَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْتَاكَ تَكْعَكَعْتَ؟ فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ، وَتَنَاوَلْتُ عُقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمُ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرِ مَنظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْطَعُ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»، قَالُوا: بِمَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ»، قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِاللَّهِ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا، قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ خَيْرًا قَطُّ!!».

أقول: وجاء أيضًا عن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** في صحيح مسلم (٩٠١): ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ، فَأَتَيْتُنِي عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ، لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَافْزِعُوا لِلصَّلَاةِ»، وَقَالَ أَيْضًا: «فَصَلُّوا حَتَّى يُفْرَجَ اللَّهُ عَنْكُمْ»، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعدْتُمْ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُنِي أُرِيدُ أَنْ أَخْذَ قِطْفًا مِنَ الْجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أقدامُ - وَقَالَ الْمُرَادِيُّ: أَتَقَدَّمُ - وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأْخُرْتُمْ، وَرَأَيْتُ فِيهَا ابْنَ لُحْيٍ، وَهُوَ الَّذِي سَبَّ السَّوَابِ».

وعن جابر بن عبد الله **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** في صحيح مسلم (٩٠٤): وذكر خطبة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في الكسوف ومنها: «مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعِدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأْخُرْتُمْ، خِشَاةً أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْجِهَا،

وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِخْجَنِ يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِخْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِخْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهَرَّةِ الَّتِي رَبَطْتَهَا فَلَمْ تُطْعَمْهَا، وَلَمْ تَدْعُهَا تَأْكُلْ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ، حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعِدُونَهُ إِلَّا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلَاتِي هَذِهِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ: «وَأَيْمُ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُمْ، لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ. كَثِيرًا»، قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ».

وَفِي الْمَوْطَأِ وَالسُّنَنِ، مِنْ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ تَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يُرْجِعَهَا اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وَهَذَا صَرِيحٌ فِي دُخُولِ الرُّوحِ الْجَنَّةَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، قُلْتُ: لَيْسَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَالسُّنَنِ وَالْمُسْنَدِ. مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، أَرْسَلَ جِبْرَائِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: أَذْهَبُ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِالْجَنَّةِ، فَحُفَّتْ بِالْمُكَارِهِ، فَقَالَ: ازْجِعْ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. قَالَ: فَانظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: ثُمَّ أَرْسَلَهُ إِلَى النَّارِ، قَالَ: أَذْهَبُ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. قَالَ: فَانظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ، لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ سَمِعَ بِهَا. فَأَمَرَ بِهَا

فَحُمَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: اذْهَبْ فَانظُرْ إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَذَهَبَ فَانظَرَ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي السُّنَّةِ كَثِيرَةٌ.

وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْجَنَّةَ الْمَوْعُودَ بِهَا هِيَ الْجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا - فَالْقَوْلُ بِوُجُودِهَا الْآنَ ظَاهِرٌ، وَالْخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَعْرُوفٌ، قَلتِ وَالصَّوَابُ فِيهِ مَا قَرَّرْتَهُ فِي قِصَّةِ آدَمَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ** مِنْ أَنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي كَانَ فِيهَا هِيَ جَنَّةِ الْخَلْدِ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، وَمَنْ أَظْهَرَ الْأَدْلَةَ قَوْلُهُ **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: وَهَلْ أُخْرِجَكُمْ مِنْهَا إِلَّا خَطِيئَةٌ أَبِيكُمْ.

وَأَمَّا شُبُهَةٌ مَنْ قَالَ: "إِنَّهَا لَمْ تُخْلَقْ بَعْدُ"، وَهِيَ: أَنَّهَا لَوْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً الْآنَ لَوَجِبَ اضْطِرَارًا أَنْ تَفْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَنْ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ فِيهَا وَيَمُوتَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي جَامِعِهِ، مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِي بِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرَأُ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبَرْتُهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَتْمَا قِيَعَانُ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَفِيهِ أَيْضًا: مِنْ حَدِيثِ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنِ جَابِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»، قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، قَالُوا: فَلَوْ كَانَتْ مَخْلُوقَةً مَفْرُوعًا مِنْهَا لَمْ تَكُنْ قِيَعَانًا، وَلَمْ يَكُنْ لِهَذَا الْغِرَاسِ مَعْنَى. قَالُوا: وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى عَنِ امْرَأَةٍ فَرَعُونَ أَنَّهَا قَالَتْ: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾.

- فَالْجَوَابُ: إِنَّكُمْ إِنْ أَرَدْتُمْ بِقَوْلِكُمْ إِنَّهَا الْآنَ مَعْدُومَةٌ بِمَنْزِلَةِ النَّفْخِ فِي الصُّورِ وَقِيَامِ النَّاسِ مِنَ الْقُبُورِ، فَهَذَا بَاطِلٌ، يَرُدُّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَدِلَّةِ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ، وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنَّهَا لَمْ يَكْمُلْ خَلْقُ جَمِيعِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِيهَا لِأَهْلِهَا، وَأَنَّهَا لَا يَزَالُ اللَّهُ يُحْدِثُ فِيهَا شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، وَإِذَا دَخَلَهَا الْمُؤْمِنُونَ أَحَدَثَ اللَّهُ فِيهَا عِنْدَ دُخُولِهِمْ أُمُورًا أُخَرَ - فَهَذَا حَقٌّ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ، وَأَدِلَّتُكُمْ هَذِهِ إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ.

وَأَمَّا احْتِجَاجُكُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، فَأَثْبِتُمْ سُوءَ فَهْمِكُمْ مَعْنَى الْآيَةِ، وَاحْتِجَاجُكُمْ بِهَا عَلَى عَدَمِ وُجُودِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ الْآنَ - نَظِيرُ احْتِجَاجِ إِخْوَانِكُمْ بِهَا عَلَى فَنَائِهِمَا وَخَرَابِهِمَا وَمَوْتِ أَهْلِهِمَا!! فَلَمْ تَوْفَّقُوا أَنْتُمْ وَلَا إِخْوَانُكُمْ لِفَهْمِ مَعْنَى الْآيَةِ، وَإِنَّمَا وُفِّقَ لِذَلِكَ أَيْمَةُ الْإِسْلَامِ.

فَمِنْ كَلَامِهِمْ: أَنَّ الْمُرَادَ "كُلُّ شَيْءٍ" مِمَّا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْفَنَاءَ وَالْهَلَاكَ "هَالِكٌ"، وَالْجَنَّةُ وَالنَّارُ خَلْقَتَا لِلْبَقَاءِ لَا لِلْفَنَاءِ، وَكَذَلِكَ الْعَرْشُ، فَإِنَّهُ سَقْفُ الْجَنَّةِ. انتهى

* **قلت:** وهما مع وجودهما الآن لا تفنيان أبداً ولا تبيدان فهما مما خلق للبقاء لا للفناء وقد نظم بعضهم ما خلق للبقاء بقوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها ❀❀ من الخلق الباقيين في حيز العدم

هم العرش والكرسي نار وجنة ❀❀ وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

وأما من قال بالفناء مستدلاً بقول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ من قوله

تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿١٣٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا

فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٣٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ

إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٣٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنْ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴿١٣٨﴾ [هود: ١٣٥ - ١٣٨]، فلا دلالة لهم

فيه.

قال ابن أبي العزشرح الطحاوية (ص: ٤٢٥): وَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي هَذَا الْإِسْتِنَاءِ:

فَقِيلَ: مَعْنَاهُ إِلَّا مُدَّةً مُكْتَنِهِمْ فِي النَّارِ، وَهَذَا يَكُونُ لِمَنْ دَخَلَ مِنْهُمْ إِلَى النَّارِ ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا، لَا لِكُلِّهِمْ.

وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةً مُقَامِهِمْ فِي الْمَوْقِفِ.

وَقِيلَ: إِلَّا مُدَّةً مُقَامِهِمْ فِي الْقُبُورِ وَالْمَوْقِفِ.

وَقِيلَ: هُوَ اسْتِثْنَاءُ اسْتِثْنَاءِ الرَّبِّ وَلَا يَفْعَلُهُ، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ لِأَضْرِبَكَ شَرْحَ

الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (ص: ٤٢٦).

إِلَّا أَنْ أَرَى غَيْرَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ لَا تَرَاهُ، بَلْ تَجْزِمُ بِضَرْبِهِ.

وَقِيلَ: "إِلَّا" بِمَعْنَى الْوَاوِ، وَهَذَا عَلَى قَوْلِ بَعْضِ النُّحَاةِ، وَهُوَ ضَعِيفٌ. وَمِنْهُمْ مَنْ

يَجْعَلُ "إِلَّا" بِمَعْنَى "لَكِنْ"، فَيَكُونُ الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعًا، وَرَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ

تَعَالَى لَا خُلْفَ لَوَعْدِهِ، وَقَدْ وَصَلَ الْإِسْتِثْنَاءُ بِقَوْلِهِ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُوذٍ﴾. قَالُوا:

وَنَظِيرُهُ أَنْ تَقُولَ: أَسْكَنْتُكَ دَارِي حَوْلًا إِلَّا مَا شِئْتُ. أَيْ سِوَى مَا شِئْتُ، أَوْ لَكِنْ مَا

شِئْتُ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

وَقِيلَ: الْإِسْتِثْنَاءُ لِإِعْلَامِهِمْ، بِأَنَّهُمْ مَعَ خُلُودِهِمْ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ

عَنْ مَشِيئَتِهِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَزِيمَتُهُ وَجَزْمَتُهُ لَهُمْ بِالْخُلُودِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ

شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾، وَقَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتَرْ عَلَى قَلْبِكَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا

أَدْرَاكُمْ بِهِ﴾، وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ، يُخْبِرُ عِبَادَهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِمَشِيئَتِهِ، مَا شَاءَ

كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَقِيلَ: إِنَّ "مَا" بِمَعْنَى "مَنْ" أَيْ: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ دُخُولَهُ النَّارَ بِذُنُوبِهِ مِنَ السُّعْدَاءِ.

وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ، فَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ مِنَ الْمُتَشَابِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوزٍ﴾ (١٧٨) مُحْكَمٌ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ (٥٤). وَقَوْلُهُ: ﴿أَكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلْمًا﴾ وقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٤١).

وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ خُلُودَ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالتَّأْيِيدِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ وَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ مُنْقَطِعٌ، وَإِذَا صَمَّمْتُهُ إِلَى الْإِسْتِثْنَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ - تَبَيَّنَ أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْآيَتَيْنِ اسْتِثْنَاءُ الْوَقْتِ الَّذِي لَمْ يَكُونُوا فِيهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ مُدَّةِ الْخُلُودِ، كَاسْتِثْنَاءِ الْمَوْتَةِ الْأُولَى مِنْ جُمْلَةِ الْمَوْتِ، فَهَذِهِ مَوْتَةٌ تَقَدَّمَتْ عَلَى حَيَاتِهِمْ الْأَبَدِيَّةِ، وَذَلِكَ مُفَارَقَةٌ لِلْجَنَّةِ تَقَدَّمَتْ عَلَى خُلُودِهِمْ فِيهَا. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

لما ذكر الله تعالى النذارة فيما تقدم جاء بالبخارة في هذا الموطن وكثيراً ما يجمع الله تعالى بل ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بين البشارة والنذارة قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]، وقال تعالى عن نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] والبشارة تكون بالخير ويكون معها الترغيب والنذارة تكون من الشر ويكون معها الترهيب والتخويف.

وفي صحيح البخاري (٦٩) ومسلم (١٧٣٤): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا».

وفي مسلم (١٧٣٢): عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ، قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفِرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا».

قال النووي: إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده لأنه قد يفعلهما في وقتين فلو اقتصر على يسروا لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات وعسر في معظم الحالات فإذا قال: ولا تعسروا انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه وهذا هو المطلوب وكذا يقال في بشرًا ولا تنفروا وتطوعًا ولا تختلفًا؛ لأنهما قد يتطوعان في وقت ويختلفان في وقت، وقد يتطوعان في شيء ويختلفان في شيء.

وفي هذا الحديث: الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير. انتهى

وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبشر أصحابه بما لهم عند الله تعالى من منزلة وما فضائل الصحابة إلا من هذا الباب وزد على تبشيرهم بفضل العمل الصالح.

ففي صحيح مسلم (٣١): عَنْ هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَنَا أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ فِي نَفْرٍ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِنَا، فَأَبْطَأَ عَلَيْنَا، وَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا، وَفَزِعْنَا، فَقُمْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى آتَيْتُ حَائِطًا لِلْأَنْصَارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ أَبَا؟ فَلَمْ أَجِدْ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ حَائِطٍ مِنْ بَيْتِ خَارِجَةَ - وَالرَّبِيعُ الْجَدُولُ - فَاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

«أَبُو هُرَيْرَةَ» فَقُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مَا سَأَلْتُكَ؟» قُلْتُ: كُنْتُ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُمْتُ فَأَبْطَأَتْ عَلَيْنَا، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا، فَفَزِعْنَا، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ، فَآتَيْتُ هَذَا

الْحَائِطَ، فَاحْتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وَهَؤُلَاءِ النَّاسُ وَرَائِي، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «أَذْهَبُ بِنَعْلَيْ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرُهُ بِالْجَنَّةِ»، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لَقِيتُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا هَاتَانِ النَّعْلَانِ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلْتُ: هَاتَانِ نَعْلَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَنِي بِهِمَا مَنْ لَقِيتُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، بَشَّرْتُهُ بِالْجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بِيَدِهِ بَيْنَ ثَدْيَيْ فَخَرَزْتُ لِاسْتِي، فَقَالَ: ارْجِعْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَجْهَشْتُ بُكَاءً، وَرَكِبَنِي عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ عَلَيَّ أَتْرِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا لَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قُلْتُ: لَقِيتُ عُمَرَ، فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي بَعَثَنِي بِهِ، فَضَرَبَ بَيْنَ ثَدْيَيْ ضَرْبَةً خَرَزْتُ لِاسْتِي، قَالَ: ارْجِعْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «يَا عُمَرُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ، وَأُمِّي، أَبَعَثْتَ أَبَا هُرَيْرَةَ بِنَعْلَيْكَ، مَنْ لَقِيَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيَقِنًا بِهَا قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَتَكَلَّ النَّاسُ عَلَيْهَا، فَخَلَّهْمُ يَعْمَلُونَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَخَلَّهْمُ».

وفي صحيح البخاري (١٧٩٢): عن عبدالله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «بَشِّرُوا خَدِيجَةَ بَيْتٍ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ».

وفي المقابل كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ينذر قومه النار والعذاب الأليم.

وفي صحيح البخاري (٤٧٧٠) ومسلم: عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ:

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿١١١﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى

الصَّفَا، فَجَعَلَ يُنَادِي: «يَا بَنِي فَهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِبُطُونِ قُرَيْشٍ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ

وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغَيِّرَ عَلَيْكُمْ، أَكُتِّمَ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَتَزَلْتِ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝﴾ [المسد: ٢].

وفي مسند أحمد (١٨٣٦٠): عن النُّعْمَانَ بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ»، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا، سَمِعَ صَوْتَهُ.

وفي مسند أحمد ط الرسالة (٣٠٩ / ٣٠): ١٨٣٦٠ - حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ سِمَاكِ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ يَخْطُبُ، وَعَلَيْهِ خَمِيصَةٌ لَهُ، فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَخْطُبُ وَهُوَ يَقُولُ: «أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ»، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا، سَمِعَ صَوْتَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ﴾: إما أن يكون الخطاب خاص بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أو كل من يتوجه إليه الخطاب، ين أنزلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان هو المخاطب بها ثم دخل جميع من يتولى شيئاً من أمر الدعوة بلزومها فإن الجمع بين البشارة والنذارة بعداً عن القنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله تعالى. والبشارة أصلها الخبر بما يسر وقد تستخدم في غيره مقيدة على ما يأتي.

قال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٦٤): لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى جَزَاءَ الْكَافِرِينَ عَقَبَ بِجَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَجْمَعَ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّوَعُّدِ وَالتَّوَعِيدِ، كَمَا هِيَ عَادَتُهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَنْشِيطِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِطَاعَاتِهِ، وَتَنْشِيطِ عِبَادِهِ الْكَافِرِينَ عَنْ مَعَاصِيهِ. انتهى

قال القرطبي القرطبي (١ / ٢٣٨): وَالتَّبَشِيرُ الْإِخْبَارُ بِمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى الْبَشَرَةِ - وَهِيَ ظَاهِرُ الْجِلْدِ - لِتَغْيِيرِهَا بِأَوَّلِ خَبَرٍ يَرِدُ عَلَيْكَ، ثُمَّ الْغَالِبُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي السُّرُورِ

مُقَيَّدًا بِالْخَيْرِ الْمُبَشِّرِ بِهِ، وَغَيْرِ مُقَيَّدٍ أَيْضًا. وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْعَمِّ وَالشَّرِّ إِلَّا مُقَيَّدًا مَنْصُوصًا عَلَى الشَّرِّ الْمُبَشِّرِ بِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى " فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ " [الانشقاق: ٢٤]. وَيُقَالُ: بَشَّرْتُهُ وَبَشَّرْتُهُ - مُخَفَّفٌ وَمُشَدَّدٌ - بِشَارَةٍ (بِكْسَرِ الْبَاءِ) فَأَبَشَرَ وَاسْتَبَشَرَ. وَبَشَرَ يَبْشُرُ إِذَا فَرِحَ. وَوَجْهٌ بَشِيرٌ إِذَا كَانَ حَسَنًا بَيْنَ الْبَشَارَةِ (بِفَتْحِ الْبَاءِ). وَالْبُشْرَى: مَا يُعْطَاهُ الْمُبَشِّرُ. وَتَبَاشِيرُ الشَّيْءِ: أَوَّلُهُ. انْتَهَى

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

أي: بشر الذين عملوا الأعمال الصالحات وهي الصادرة عن محبة وتعظيم لله عزَّوجلَّ المتضمنة للإخلاص والمتابعة لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

والإيمان في اللغة: الإقرار، وفي الشرع: قول وعمل أو قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالجوار يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وقد تقدم الكلام عليه.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ذهب المبتدعة من المرجئة أن الواو تقتضي المغايرة بين المعطوف عليه والمعطوف وليس كذلك إنما هو من ذكر الخاص بعد العام ومثله قوله تعالى: ﴿وَالصَّلَاةَ الْوَسْطَى﴾.

قال ابن كثير مبيناً أنواع الواوات (١/ ٦٥٢): وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ الْوَاوُ زَائِدَةً، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَيِّنَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥]، ﴿وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أَوْ تَكُونَ لِعَطْفِ الصِّفَاتِ لَا لِعَطْفِ الذَّوَاتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأخزاب: ٤٠]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝﴾ [الأغلى ١-٤] وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ ❀❀ وَلَيْثِ الْكُتَيْبَةِ فِي الْمُرْدَحِمِ

وَقَالَ أَبُو دُوَادٍ الْإِيَادِيُّ:

سَلَطَ الْمَوْتَ وَالْمُنُونَ عَلَيْهِمْ ❀❀ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ
وَالْمَوْتُ هُوَ الْمُنُونُ؛ قَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدِ الْعَبَادِيِّ:

فَقَدَّمْتُ الْأَيْدِيمَ لِرَاهِشِيهِ ❀❀ فَالْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا
وَالْكَذِبُ: هُوَ الْمَيْنُ، وَقَدْ نَصَّ سَبِيؤِيهِ شَيْخُ النَّحَاةِ عَلَيَّ جَوَازِ قَوْلِ الْقَائِلِ: مَرَرْتُ
بِأَخِيكَ وَصَاحِبِكَ، وَيَكُونُ الصَّاحِبُ هُوَ الْأَخُّ نَفْسَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

والأعمال الصالحة هي ما أمر الله **عَزَّوَجَلَّ** به وأمر بها رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**
والآية دليل على دخول الأعمال في مسى الإيمان فالصلاة والصيام والحج والجهاد
وبر الوالدين وصلة الأرحام إلى إزالة الأذى من الطريق كلها داخلة في مسمى
الإيمان ويزيد بوجودها كما يلحقه النقص بارتكاب ضدها أو ترك الواجب منها،
وإخراج هذه الأعمال من الإيمان مذهب ردي قال به أهل الإرجاء وأصبح عندهم
العاصي إيمانه على إيمان جبريل **عَلَيْهِ السَّلَام** وقد تكلم الآجري في الشريعة بكلام
طويل على هذه المسألة. **فقال (٢/ ٦١١):** بَابُ الْقَوْلِ بَأَنَّ الْإِيمَانَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ،
وَإِقْرَارٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا، إِلَّا أَنْ تَجْتَمَعَ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ
الثَّلَاثُ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: اعْمَلُوا رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ عُلَمَاءُ
الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْإِيمَانَ وَاجِبٌ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ، وَهُوَ تَصْدِيقٌ بِالْقَلْبِ، وَإِقْرَارٌ
بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، ثُمَّ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَا تُجْزَى الْمَعْرِفَةُ بِالْقَلْبِ وَالتَّصْدِيقُ إِلَّا أَنْ
يَكُونَ مَعَهُ الْإِيمَانُ بِاللِّسَانِ نُطْقًا، وَلَا تُجْزَى مَعْرِفَةُ بِالْقَلْبِ، وَنُطْقُ بِاللِّسَانِ، حَتَّى
يَكُونَ عَمَلٌ بِالْجَوَارِحِ، فَإِذَا كَمُلَتْ فِيهِ هَذِهِ الثَّلَاثُ الْخِصَالِ: كَانَ مُؤْمِنًا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ
الْقُرْآنُ، وَالسُّنَّةُ، وَقَوْلُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ: فَأَمَّا مَا لَزِمَ الْقَلْبَ مِنْ فَرْضِ الْإِيمَانِ فَقَوْلُ
اللَّهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي

الْكُفْرِ [المائدة: ٤١] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلُوبُنَا لَنْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْمَانَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] الْآيَةُ فَهَذَا مِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ عَلَى الْقَلْبِ الْإِيمَانَ، وَهُوَ التَّصَدِيقُ وَالْمَعْرِفَةُ، وَلَا يَنْفَعُ الْقَوْلُ إِذْ لَمْ يَكُنِ الْقَلْبُ مُصَدِّقًا بِمَا يَنْطِقُ بِهِ اللِّسَانُ مَعَ الْعَمَلِ، فَاعْلَمُوا ذَلِكَ وَأَمَّا فَرَضُ الْإِيمَانِ بِاللِّسَانِ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ﴿قُولُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ بَرَاهِمٍ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُدْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ فَإِنْ ءَأَمَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَأَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ الْآيَةُ وَقَالَ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿قُلْ ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٨٤] الْآيَةُ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمُرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فَهَذَا الْإِيمَانُ بِاللِّسَانِ نُطْقًا فَرَضًا وَاجِبًا وَأَمَّا الْإِيمَانُ بِمَا فَرَضَ عَلَى الْجَوَارِحِ تَصَدِيقًا بِمَا آمَنَ بِهِ الْقَلْبُ، وَنَطَقَ بِهِ اللِّسَانُ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأَمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَقْلُحُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَاقِمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَمِثْلُهُ فَرَضُ الصِّيَامِ عَلَى جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَمِثْلُهُ فَرَضُ الْجِهَادِ بِالْبَدَنِ، وَبِجَمِيعِ الْجَوَارِحِ.

فَالْأَعْمَالُ رَحِمَكُمُ اللَّهُ بِالْجَوَارِحِ: تَصَدِيقٌ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، فَمَنْ لَمْ يُصَدِّقِ الْإِيمَانَ بِعَمَلِهِ وَبِجَوَارِحِهِ: مِثْلُ الطَّهَّارَةِ، وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ، وَأَشْبَاهَ لِهَذِهِ وَرَضِي مِنْ نَفْسِهِ بِالْمَعْرِفَةِ وَالْقَوْلِ لَمْ يَكُنْ مُؤْمِنًا، وَلَمْ يَنْفَعْهُ الْمَعْرِفَةُ وَالْقَوْلُ، وَكَانَ تَرْكُهُ لِلْعَمَلِ تَكْذِيبًا مِنْهُ لِإِيمَانِهِ، وَكَانَ الْعَمَلُ بِمَا ذَكَرْنَاهُ

تَصَدِيقًا مِنْهُ لِإِيْمَانِهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِئْسَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآتَيْنَاهُمُ الْإِيمَانَ لِيَتُوبَ إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النحل: ٤٤] فَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ شَرَائِعَ الْإِيمَانِ أَنَّهَا عَلَى هَذَا النَّعْتِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَبَيَّنَّ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِعَمَلٍ، وَبَيَّنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ خِلَافَ مَا قَالَتِ الْمُزْجِئَةُ، الَّذِينَ لَعِبَ بِهِمُ الشَّيْطَانُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: ١٧٧] إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. انتهى

وقال أيضًا (٢/٦١٨): اعْلَمُوا رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ، وَيَا أَهْلَ الْعِلْمِ، وَيَا أَهْلَ السُّنَنِ وَالْآثَارِ، وَيَا مَعْشَرَ مَنْ فَقَّهَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الدِّينِ، بِعِلْمِ الْحَالِلِ وَالْحَرَامِ أَنْتُمْ إِنْ تَدَبَّرْتُمْ الْقُرْآنَ، كَمَا أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِهِ وَرِسُولِهِ: الْعَمَلَ، وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يُثْنِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَأَنَّهُمْ قَدْ رَضُوا عَنْهُ وَأَثَابَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الدُّخُولَ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ، إِلَّا الْإِيمَانَ وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ وَقَرَنَ مَعَ الْإِيمَانِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، لَمْ يُدْخِلْهُمُ الْجَنَّةَ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ، حَتَّى ضَمَّ إِلَيْهِ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، الَّذِي قَدْ وَفَّقَهُمْ لَهُ، فَصَارَ الْإِيمَانُ لَا يَتِمُّ لِأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ مُصَدِّقًا بِقَلْبِهِ، وَنَاطِقًا بِلِسَانِهِ، وَعَامِلًا بِجَوَارِحِهِ لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَتَصَفَّحَهُ، وَجَدَهُ كَمَا ذَكَرْتُ وَعَلِمُوا رَحِمَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكُمْ أَنِّي قَدْ تَصَفَّحْتُ الْقُرْآنَ فَوَجَدْتُ فِيهِ مَا ذَكَرْتُهُ فِي سِتَّةِ وَخَمْسِينَ مَوْضِعًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ **عَزَّ وَجَلَّ** أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يُدْخِلِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِالْإِيمَانِ وَحَدَهُ، بَلْ أَدْخَلَهُمُ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ

إِيَّاهُمْ، وَبِمَا وَفَّقَهُمْ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهَذَا رَدُّ عَلَيَّ مَنْ قَالَ: الْإِيمَانُ: الْمَعْرِفَةُ، وَرَدُّ عَلَيَّ مَنْ قَالَ: الْمَعْرِفَةُ وَالْقَوْلُ، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ قَائِلِ هَذَا. انتهى

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥].

أي: وبشر المؤمنين وأخبرهم أن لهم جنات يسكنونها جزاء بما كانوا يعملون ودخولهم بفضل الله تعالى يجازيهم بسبب أعمالهم ففي صحيح البخاري (٦٤٦٤) عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخَلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ» وأخرجه مسلم رقم (٢٨١٨) وفي البخاري أيضًا (٦٤٦٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ، سَدُّوا وَقَارِبُوا، وَاعْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبَلَّغُوا» وأخرجه مسلم (٢٨١٦) فالباء هنا لل عوض والباء في قوله بما كنتم تعملون للسبب شرح.

قال النووي على مسلم (١٧ / ١٦١): وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ﴿وَذَلِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ وَنَحْوُهُمَا مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْأَعْمَالَ يُدْخَلُ بِهَا الْجَنَّةَ فَلَا يُعَارِضُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ بَلْ مَعْنَى الْآيَاتِ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ بِسَبَبِ الْأَعْمَالِ ثُمَّ التَّوْفِيقَ لِلأَعْمَالِ وَالْهِدَايَةَ لِلإِخْلَاصِ فِيهَا وَقَبُولَهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ فَيَصِحُّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ بِمُجَرَّدِ الْعَمَلِ وَهُوَ مُرَادُ الْأَحَادِيثِ وَيَصِحُّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيَّ بِسَبَبِهَا وَهِيَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

الجنة البستان وإنما سميت جنة لأنها تجن من فيها وتستره.

وفي المفردات للراغب (ص: ٢٠٤): والجنة: كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]، ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: ٣٩]، قيل: وقد تسمى الأشجار الساترة جنة، وعلى ذلك حمل قول الشاعر:

(من النواضح تسقي جنة سحفا)

وسميت الجنة إما تشبيها بالجنة في الأرض - وإن كان بينهما بون -، وإما لستره نعمها عنا المشار إليها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

قال ابن عباس رضي الله عنه: إنما قال: جَنَاتٍ بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً: جنة الفردوس، وعدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، وجنة المأوى، ودار السلام، وعليين. انتهى

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها وثمارها وغروسها وليس من تحت سطحها قال الطبري (١/ ٣٨٤): لأنه معلوم أنه إنما أراد جل ثناؤه الخبر عن ماء أنهارها أنه جارٍ تحت أشجارها وغروسها وثمارها، لا أنه جارٍ تحت أرضها. لأن الماء إذا كان جارياً تحت الأرض، فلا حظَّ فيها لعيون من فوقها إلا بكشف الساتر بينها وبينه. على أن الذي تُوصف به أنهار الجنة، أنها جارية في غير أخاديد ثم ساق هذا القول بسنده عن مسروق، قال: نخل الجنة نضيدٌ من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما نُزعت ثمرة عادت مكانها أخرى، وماؤها يجري في غير أخدود فإذا كان الأمر كذلك، في أن أنهارها جارية في غير أخاديد، فلا شك أن الذي أريد بالجنات: أشجار الجنات وغروسها وثمارها دون أرضها، إذ كانت أنهارها تجري فوق أرضها وتحت غروسها وأشجارها، على ما

ذكره مسروق. وذلك أولى بصفة الجنة من أن تكون أنهارها جارية تحت أرضها. انتهى

وقوله: "في غير أخدود" قد جاء مقطوعاً كما ترى عن مسروق وله عنه طرق وجاء في صفة الجنة لأبي نعيم الأصبهاني (٣١٦): حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَيَّانَ، ثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَسَنِ، ثنا بِشْرُ بْنُ مُعَاذٍ، ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، ثنا الْجَرِيرِيُّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: «لَعَلَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ خُدُودٌ فِي الْأَرْضِ، لَا وَاللَّهِ، إِنَّمَا لَسَائِحَةٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، حَافَتَاهَا خِيَامُ اللَّؤْلُؤِ، وَطِينُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، قُلْتُ: يَا أَنَسُ، مَا الْأَذْفَرُ؟ قَالَ: الَّذِي لَا خِلْطَ لَهُ».

حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَيَّانَ، ثنا مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الزُّهْرِيُّ، ثنا مَهْدِيُّ بْنُ حَكِيمٍ بْنِ مَهْدِيٍّ، ثنا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، ثنا الْجَرِيرِيُّ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ، وَقَالَ فِيهِ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْأَذْفَرُ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا خِلْطَ لَهُ».

والوقف أرجح، ورجحه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة، لكن هذا له حكم الرفع والله أعلم.

قال القرطبي (١/ ٢٣٩): ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ أَي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا، وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، لِأَنَّ الْجَنَاتِ دَالَّةٌ عَلَيْهَا. ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أَي مَاءُ الْأَنْهَارِ، فَنَسِبَ الْجَرِي إِلَى الْأَنْهَارِ تَوْسَعًا، وَإِنَّمَا يَجْرِي الْمَاءُ وَخَدُهُ فَحَذَفَ اخْتِصَارًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَقَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أَي أَهْلَهَا. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

نَبَّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ ❀❀ ❀❀ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلِيبُ الْمَجْلِسُ
أَرَادَ: أَهْلَ الْمَجْلِسِ، فَحَذَفَ. وَالنَّهْرُ: مَا خُوذُ مِنْ أَنْهَرْتِ، أَي وَسَعْتِ، وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ:

مَلَكَتْ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا ❀❀ يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
 أَي وَسَعْتَهَا، يَصِفُ طَعْنَةً. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: (مَا أَنْهَرَ الدَّمَ وَذَكَرَ
 اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ فَكُلُّهُ). مَعْنَاهُ: مَا وَسَعَ الذَّبْحُ حَتَّى يَجْرِيَ الدَّمُ كَالنَّهْرِ. وَجَمْعُ النَّهْرِ:
 نُهُرٌ وَأَنْهَارٌ. وَنَهْرٌ نَهْرٌ: كَثِيرُ الْمَاءِ، قَالَ أَبُو ذُوَيْبٍ:
 أَقَامَتْ بِهِ فَابْتَنَّتْ خَيْمَةً ❀❀ عَلَى قَصَبٍ وَفِرَاتٍ نَهْرٍ
 انتهى.

وقد بين تعالى نوع هذه الأنهار في سورة محمد فقال تعالى: ﴿تَشْتَلُ الْجَنَّةُ الْآبِي وَعِدَّ
 الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ
 وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وأخرج أحمد في مسنده (٢٢٧٣٨): عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْجَنَّةُ مِائَةٌ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مِنْهَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ. الْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ
 الْعَرْشُ، وَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ».

وفي صحيح البخاري (٢٨٠٩): عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أُمَّ الرَّبِيعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ
 حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ أَتَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ
 حَارِثَةَ، وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرِبَ، فَإِنْ كَانَ فِي الْجَنَّةِ صَبْرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ
 ذَلِكَ، اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي الْبُكَاءِ، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جَنَّانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنِكَ أَصَابَ
 الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى»

وفي صحيح البخاري (٢٧٩٠): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى
 اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، فَقَالُوا: يَا

رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ».

وفي صحيح مسلم (١٨٨٤): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، فَعَجِبَ لَهَا أَبُو سَعِيدٍ، فَقَالَ: أَعِدَّهَا عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ قَالَ: «وَأُخْرَى يُرْفَعُ بِهَا الْعَبْدُ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»، قَالَ: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» وهي أربع جنات قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ

رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَلَكَهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُشْكَبَاتٍ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَلَصِرَاتُ الْفُؤَادِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٦١].

ثم قال تعالى بعد وصفه لهاتين الجنتين: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ﴿٦٤﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَلَكَهَةٌ وَفُخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فِيهَا أَعْلَاقُ رَبِّكُمَا تُكَدِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُشْكَبَاتٍ عَلَى رُفُوفٍ خَضْرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن: ٦٢ -

وفي حديث أبي موسى عبد الله بن قيس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «جَنَّانٍ مِنْ فَضَّةٍ، آيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّانٍ مِنْ ذَهَبٍ، آيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءَ الْكَبِيرِ، عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» أخرجه البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠)

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهٖ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥] الرزق العطاء وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٥﴾

قال القرطبي (١/ ٢٤٠): ﴿رِزْقًا﴾ مُصَدَّرُهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الرِّزْقِ. وَمَعْنَى ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي فِي الدُّنْيَا، وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا - أَنَّهُمْ قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا بِهِ فِي الدُّنْيَا. وَالثَّانِي - هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا الدُّنْيَا، لِأَنَّ لَوْنَهَا يُشْبِهُ لَوْنَ ثَمَارِ الدُّنْيَا، فَإِذَا أَكَلُوا وَجَدُوا طَعْمَهُ غَيْرَ ذَلِكَ وَقِيلَ: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ يَعْنِي فِي الْجَنَّةِ لِأَنَّهُمْ يُرْزَقُونَ ثُمَّ يُرْزَقُونَ، فَإِذَا أَتُوا بِطَعَامٍ وَثَمَارٍ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَأَكَلُوا مِنْهَا، ثُمَّ أَتُوا مِنْهَا فِي آخِرِ النَّهَارِ قَالُوا: هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ، يَعْنِي أَطْعَمْنَا فِي أَوَّلِ النَّهَارِ، لِأَنَّ لَوْنَهُ يُشْبِهُ ذَلِكَ، فَإِذَا أَكَلُوا مِنْهَا وَجَدُوا لَهَا طَعْمًا غَيْرَ طَعْمِ الْأَوَّلِ.

﴿وَأَتُوا﴾ فَعِلُوا مِنْ أَتَيْتُ. وَقَرَأَهُ الْجَمَاعَةُ بِضَمِّ الْهَمْزَةِ وَالتَّاءِ. وَقَرَأَ هَارُونَ الْأَعْوَرُ "وَأَتُوا" بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَالتَّاءِ. فَالضَّمِيرُ فِي الْقِرَاءَةِ الْأُولَى لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، وَفِي الثَّانِيَةِ لِلْخُدَّامِ. ﴿بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي "بِهِ"، أَيُّ يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْمَنْظَرِ وَيَخْتَلِفُ فِي الطَّعْمِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَغَيْرُهُمْ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: يُشْبِهُ ثَمَرِ الدُّنْيَا وَيُبَايِنُهُ فِي جُلِّ الصِّفَاتِ. ابْنُ عَبَّاسٍ: هَذَا عَلَى وَجْهِ التَّعَجُّبِ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ سِوَى الْأَسْمَاءِ، فَكَأَنَّهُمْ تَعَجَّبُوا لِمَا رَأَوْهُ مِنْ حُسْنِ الثَّمَرَةِ

وَعِظَمَ خَلْقِهَا. وَقَالَ قَتَادَةُ: خِيَارًا لَا رَدَّلَ فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَابًا مُتَشَدِّدًا﴾ [الزمر: ٢٣] وَلَيْسَ كَثِمَارِ الدُّنْيَا الَّتِي لَا تَشَابَهُ، لِأَنَّ فِيهَا خِيَارًا وَغَيْرَ خِيَارٍ. انْتَهَى

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾: قال ابن جرير: الهاء واللام اللتان في لهما عائدتان على الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والهاء والألف اللتان في فيها عائدتان على الجنات وتأويل ذلك بشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات فيها أزواج مطهرة. انتهى

قال العنيميين في الفاتحة والبقرة (٩٢/١): قوله تعالى: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى القدر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضًا من الأقدار الباطنة، كالغل، والحقد، والكرهية، والبغضاء، وغير ذلك.

قال القرطبي (١/٢٤٠): وَأَزْوَاجٌ: جَمْعُ زَوْجٍ. وَالْمَرْأَةُ: زَوْجُ الرَّجُلِ. وَالرَّجُلُ زَوْجُ الْمَرْأَةِ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَلَا تَكَادُ الْعَرَبُ تَقُولُ زَوْجَةً. وَحَكَى الْفَرَّاءُ أَنَّهُ يُقَالُ: زَوْجَةٌ، وَأَنْشَدَ الْفَرَزْدَقُ:

وإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي ❀❀ كَسَاعٍ إِلَى أَسَدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا
وَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهَا
زَوْجَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ابْتَلَاكُمْ. ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ، وَاخْتَارَهُ الْكِسَائِيُّ.
انتهى

وقال القرطبي (١/٢٤١): في قوله تعالى: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ قال: نَعَتْ لِلْأَزْوَاجِ. وَمُطَهَّرَةٌ فِي اللُّغَةِ أَجْمَعُ مِنْ طَاهِرَةٍ وَأَبْلَغُ، وَمَعْنَى هَذِهِ الطَّهَارَةُ مِنَ الْحَيْضِ وَالْبِصَاقِ وَسَائِرِ أَقْدَارِ الْآدَمِيَّاتِ. ذَكَرَ عَبْدُ الرَّازِقِ قَالَ أَخْبَرَنِي الثَّوْرِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ

مُجَاهِدٍ: "مُطَهَّرَةٌ" قَالَ: لَا يُبْلَنَ وَلَا يَنْعَوِّطُنَ وَلَا يَلِدُنَ وَلَا يَحِضُنَ وَلَا يُمْنِنَ وَلَا يُبْضُقُنَ. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾: الخلود البقاء ومنه جنة الخلد ومنه قولهم في الدعاء: خلد الله ملكك.

وهذا من تمام السعادة فإنهم مع هذه السعادة والنعيم قد أمنوا من زوالها بموت أو مرض أو تحول أو انقطاع أو منع قال تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٣٣] وقال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ فَجْدُوزٍ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: ٣٨] أي غير ممنوع.

وفي صحيح مسلم (٢٨٣٦): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبَلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» وفيه أيضاً (٢٨٣٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنْ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَشَبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّجَلَّ: ﴿وَلَوْ دُونَ أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

وهذا من الأدلة على أبدية الجنة وقد تقدد الكلام على هذه المسألة في الآية السابقة.

قال ابن عادل في اللباب في علوم الكتاب (٤٤٦ / ١): مَجَامِعُ اللَّذَاتِ: إما الْمَسْكَنُ، أو الْمَطْعَمُ، أو الْمَنَكْحُ.

فَوَصَفَ تَعَالَى الْمَسْكَنَ بِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وَالْمَطْعَمَ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا﴾ وَالْمَنَكْحَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

ثم هذه الأشياء إن حصلت، وقارنَهَا خَوْفُ الزوالِ، كان النَّعِيمُ مُنْعَصًا، فبيّن - تعالى - زوالَ هذا الخَوْفِ بقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١٥؛ فدلت الآية على كَمَالِ النَّعِيمِ والسُّرورِ. انتهى

وفي الآية من الفوائد: بيان إكرام الله تعالى لعباده ومضاعفته لأجورهم، وفيها بيان أن الجزء من جنس العمل، وفيها أهمية تبشير المؤمن بالخير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية ثلاثة أسباب:

الأول: ما رواه ابن جرير تفسير الطبري (١/ ٣٩٩): عن السدي، في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين - يعني قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾، الآيات الثلاث - قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ ١٧.

الثاني: ما رواه أيضًا عن الربيع بن أنس، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾. قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا، إن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سممت ماتت. وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن: إذا امتلأوا من الدنيا رياء أخذهم الله عند ذلك. قال: ثم تلا ﴿فَلَمَّا

نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [سورة الأنعام: ٤٤].

الثالث: ما رواه عن قتادة، قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، أي إن الله لا يستحيي من الحق أن يذكر منه شيئاً ما قل منه أو كثر، إن الله حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ما أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله: الآية.

ورجح ابن جرير ما روِيَ عن ابن مسعود وابن عباس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا**، ولم يثبت شيء يعتمد عليه في سبب النزول كما ترى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَحْيِي﴾: فيه اثبات صفة الحياء لله تعالى.

وفي الصحيحين: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلِ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ» فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ تَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، تَرَبَّتْ يَمِينُكَ، فِيمَ يُشْبِهُهَا وَلَدَهَا»

وعند ابن ماجه (٣٨٦٥): عَنْ سَلْمَانَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ رَبِّكُمْ حَبِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ، فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا، - أَوْ قَالَ: خَائِبَتَيْنِ -».

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَبِّكُمْ حَبِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الْعَبْدُ إِلَيْهِ يَدَهُ أَنْ يَرُدَّهَا صِفْرًا حَتَّى يَجْعَلَ فِيهَا خَيْرًا» أخرجه معمر كما في آخر المصنف لعبدالرزاق (١٩٦٤٨)

وفي الباب: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَبِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا لَيْسَ فِيهِمَا شَيْءٌ»

أخرجه أبو يعلى الموصلي (٣ / ٣٩١) وفي سنده يونس بن مُحَمَّد بن الْمُكْدِرِ ضعيف.

وعند الطبراني في المعجم الكبير (١٢ / ٤٢٣): عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي أَنْ يَرْفَعَ الْعَبْدُ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا صَفْرًا لَا خَيْرَ فِيهِمَا، فَإِذَا رَفَعَ أَحَدُكُمْ يَدَيْهِ فَلْيَقُلْ: يَا حَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ إِذَا رَدَّ يَدَيْهِ فَلْيُفْرغْ ذَلِكَ الْخَيْرَ إِلَيَّ وَجْهَهُ»، وفي سنده الجارود بن يزيد وقد كُذِبَ.

وفي مصنف عبد الرزاق الصنعاني (٦ / ٢٧٧): عَنِ الثَّوْرِيِّ، عَنِ عَاصِمٍ، عَنِ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «الدُّخُولُ، وَالتَّغَشِّي، وَالْإِفْضَاءُ، وَالْمُبَاشَرَةُ، وَالرَّفْتُ، وَاللَّمْسُ، هَذَا الْجَمَاعُ غَيْرَ أَنْ اللَّهَ حَيِّيٌّ كَرِيمٌ يُكْنِي بِمَا شَاءَ عَمَّا شَاءَ».

وصفة الحياة ثابتة لله تعالى على ما يليق بجلاله وليس كحياة المخلوق الذي يصدر مع انكسار، بل حياة الله تعالى دال على كرمه ورحمته وفضله والقاعدة في الصفات: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

قال القرطبي: ومعنى ضربت له مثلا بينت له مثلا. انتهى

قال الطبري (١ / ٤٠٣): وأما معنى قوله: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا﴾، فهو أن يبين ويصف، كما قال جل ثناؤه: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ) [سورة الروم: ٢٨]، بمعنى وصف لكم، وكما قال الكُمَيْت:

وَدَلِكَ ضَرْبُ أَحْمَاسٍ أُرِيدَتْ ❀❀ لَأَسْدَاسٍ، عَسَى أَنْ لَا تَكُونَا
بمعنى: وصف أحماس.

والمثل: الشبه، يقال: هذا مثل هذا ومثله، كما يقال: شَبَّهُهُ وشَبَّهُهُ، ومنه قول

كعب بن زهير:

كَانَتْ مَوَاعِيْدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا ❀❀ وَمَا مَوَاعِيْدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيْلُ
انتهى

قوله: ﴿بَعُوضَةٌ﴾: البعوضة معروفة وهي البق سميت بذلك لصغرها وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال «١»: «لِيَأْتِي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرؤوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا». رواه البخاري في التفسير، ومسلم.

وعند ابن ماجه (٤١١٠): عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِدِي الْحُلَيْفَةِ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيْتَةٍ سَائِلَةٍ بِرِجْلِهَا، فَقَالَ: «أَتُرُونَ هَذِهِ هَيْئَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَرِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا».

قال الدميري في حياة الحيوان الكبرى (١/ ١٨٤): البعوض: دويبة. قال الجوهرى: إنه البق الواحدة بعوضة وهو وهم والحق أنه صنفان، وهو يشبه القراد لكن أرجله خفيفة، ورطوبته ظاهرة ويسمى بالعراق والشأم الجرجس. قال الجوهرى: وهو لغة في القرقس، وهو البعوض الصغار، والبعوض على خلقة الفيل إلا أنه أكثر أعضاء من الفيل فإن للفيل أربع أرجل وخرطوما وذنبا. وله مع هذه الأعضاء رجلان زائدتان، وأربعة أجنحة وخرطوم الفيل مصمت، وخرطومه مجوف نافذ للجوف، فإذا طعن به جسد الإنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم، ولذلك اشتد عضها وقويت على خرق الجلود الغلاظ، قال الراجز:

مثل السَّفَاةِ دَائِمًا طِينِهَا ❀❀ رَكَّبَ فِي خَرطُومِهَا سَكِينِهَا

ومما ألهمه الله تعالى إنه إذا جلس على عضو من أعضاء الإنسان، لا يزال يتوخى بخرطومه المسام التي يخرج منها العرق، لأنها أرق بشرة من جلدة الإنسان فإذا

وجدها وضع خرطومها فيها، وفيه من الشره أن يمص الدم إلى أن ينشق ويموت أو إلى أن يعجز عن الطيران، فيكون ذلك سبب هلاكه. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره، من ذوات الأربع، فيبقى طريحا. انتهى

قال ابن كثير (٢٠٦ / ١): وَقَالَ أَبُو جَعْفَرِ الرَّازِي عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ لِلدُّنْيَا؛ إِذِ الْبُعُوضَةُ تَحْيَا مَا جَاعَتْ، فَإِذَا سَمِنَتْ مَاتَتْ. وَكَذَلِكَ مَثَلٌ هُوَ لِأَنَّ الْقَوْمَ الَّذِينَ ضُرِبَ لَهُمْ هَذَا الْمَثَلُ فِي الْقُرْآنِ، إِذَا امْتَلَأُوا مِنَ الدُّنْيَا رِيًّا أَخَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ تَلَا ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي جَعْفَرٍ، عَنِ الرَّبِيعِ، عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ، بِنَحْوِهِ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قيل ما دونها قاله الكسائي ورجحه القرطبي واختار ابن جرير ما هو اعظم منها قال العثيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١ / ٩٦)

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾: هل المراد بما فوق. أي: فما فوقها في الحقارة، فيكون المعنى أدنى من البعوضة؛ أو فما فوقها في الارتفاع، فيكون المراد ما هو أعلى من البعوضة؟ فأيهما أعلى خلقة: الذباب، أو البعوضة؟ الجواب: الذباب أكبر، وأقوى. لا شك؛ لكن مع ذلك يمكن أن يكون معنى الآية: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: فما دونها؛ لأن الفوقية تكون للأدنى، وللأعلى، كما أن الوراثة تكون للأمام، وللخلف، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] أي كان أمامهم.

وقال ابن كثير (٢٠٧ / ١): وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: فَمَا دُونَهَا فِي الصَّغْرِ، وَالْحَقَارَةِ، كَمَا إِذَا وُصِفَ رَجُلٌ بِاللُّؤْمِ وَالشُّحِّ، فَيَقُولُ السَّامِعُ: نَعَمْ، وَهُوَ فَوْقَ ذَلِكَ، يَعْنِي فِيمَا وَصَفَتْ. وَهَذَا قَوْلُ الْكِسَائِيِّ وَأَبِي عُبَيْدَةَ، قَالَ الرَّازِيُّ: وَأَكْثَرُ

الْمُحَقِّقِينَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَرَزُّنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ».

وَالثَّانِي: فَمَا فَوْقَهَا: فَمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَحَقَرُ وَلَا أَصْغَرُ مِنَ الْبُعُوضَةِ. وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ بْنِ دِعَامَةَ وَاخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ.

وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ، **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَوُحِّيتَ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ».

فَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَسْتَصْغِرُ شَيْئًا يَضْرِبُ بِهِ مَثَلًا وَلَوْ كَانَ فِي الْحَقَارَةِ وَالصَّغَرِ كَالْبُعُوضَةِ، كَمَا لَمْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ خَلْقِهَا كَذَلِكَ لَا يَسْتَنْكِفُ مِنْ ضَرْبِ الْمَثَلِ بِالذُّبَابِ وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣]، وَقَالَ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٥﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٧﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٧٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا تَجَلَّيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٧٦]، كَمَا قَالَ: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ

لَكُمْ مِمَّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿الآيَةَ [الرُّوم: ٢٨] .
 وَقَالَ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا تَجَلَا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَابِهُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ ﴿الآيَةَ [الرُّوم: ٢٩] ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن أمثال كثيرة. انتهى

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أن المؤمنين يعلمون ويستيقنون أن ما جاء من الله تعالى فهو حق ويقع لهم بذلك زيادة الإيمان

قال الطبري (١/ ٤٠٧): عن الربيع بن أنس: "فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم"، أن هذا المثل الحق من ربهم، وأنه كلام الله ومن عنده. وعن قتادة، قوله "فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم"، أي يعلمون أنه كلام الرحمن، وأنه الحق من الله. وقال ابن كثير (١/ ٢٠٨): وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ نَحْوُ ذَلِكَ.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يَعْنِي: هَذَا الْمَثَلُ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَتَّابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [الْمُدَّثِّرِ: ٣١] . انتهى

وهذا بيان لحال المؤمنين مع توارد الأدلة على قلوبهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنَهُمْ مَّن

يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤]، وذلك لأنهم يفقهون الأمثال ويعلمون مراد الله تعالى

منها كما قال تعالى: ﴿وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [إبراهيم:

٢٥] ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الحشر: ٢١] ﴿وَتِلْكَ

الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ [البقرة:

٢٦]، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَكًا وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ

كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَزَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [المدثر: ٣١] أي أن الذين كفروا من مشركي العرب، وأهل

الكتاب والمنافقين يعترضون على هذه الأمثال المضروبة ويقولون لماذا ضرب الله

هذه الأمثال وذلك لقلّة فقههم وسوء رأيهم في القرآن ومن أنزله ومن جاء به.

قال القرطبي (١/ ٢٤٤): وَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: مَا الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا، وَمَعْنَى

كَلَامِهِمْ هَذَا: الْإِنْكَارُ بِلَفْظِ الْإِسْتِفْهَامِ. انتهى فبسبب ذلك الإعراض لم يقع لهم

التعقل والتدبر والتفكر فيفهمون معانيها ويزداد إيمانهم ولكن كما قال الله تعالى:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] وقال تعالى في بيان حالهم مع

الآيات وبما فيه الأمثال المضروبة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى

رِجْسِهِمْ وَمَانُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ

مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ

نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة: ١٢٥ - ١٢٧]، ويقع على قلوبهم الران بذلك قال

تعالى: ﴿إِذَا تَنَالَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٣، ١٤].

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا

الْفٰسِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة: ٢٦] هذا رد الله تعالى على اعتراض المشركين، قال القرطبي

(١/ ٢٤٤): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ قِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ

الْكَافِرِينَ، أَي مَا مَرَادُ اللَّهِ بِهَذَا الْمَثَلِ الَّذِي يُفَرِّقُ بِهِ النَّاسَ إِلَىٰ صَلَاةٍ وَإِلَىٰ هُدًى.

وَقِيلَ: بَلْ هُوَ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ، وَهُوَ أَشْبَهُ، لِأَنَّهُمْ يُقَرُّونَ بِالْهُدَىٰ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ،

فَالْمَعْنَى: قُلْ يُضِلُّ اللَّهُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا، أَي يُوفِّقُ وَيَخِذْلُ، وَعَلَيْهِ فَيَكُونُ فِيهِ

رَدٌّ عَلَىٰ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ مِنَ الْمُعْتَرِزَةِ وَغَيْرِهِمْ فِي قَوْلِهِمْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلُقُ الضَّالَّ وَلَا

الْهُدَىٰ. قَالُوا: وَمَعْنَى "يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا" التَّسْمِيَةُ هُنَا، أَي يُسَمِّيهِ ضَالًّا، كَمَا يُقَالُ:

فَسَقَتْ فُلَانًا، يَعْنِي سَمَّيْتُهُ فَاسِقًا، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ لَا يُضِلُّ أَحَدًا. هَذَا طَرِيقُهُمْ فِي

الِإِضْطِلَالِ، وَهُوَ خِلَافُ أَقَاوِيلِ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ غَيْرٌ مُحْتَمَلٌ فِي اللُّغَةِ، لِأَنَّهُ يُقَالُ:

ضَلَّلَهُ إِذَا سَمَّاهُ ضَالًّا، وَلَا يُقَالُ: أَضَلَّهُ إِذَا سَمَّاهُ ضَالًّا، وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ مَا ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ

أَهْلُ التَّأْوِيلِ مِنَ الْحَقِّ أَنَّهُ يَخِذْلُ بِهِ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ مُجَازَاةً لِكُفْرِهِمْ. وَلَا خِلَافَ أَنْ

قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفٰسِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى. انتهى

قال تفسير الطبري جامع البيان ت شاكر (١/ ٤٠٨): يعني بقوله عَزَّجَلَّ: ﴿يُضِلُّ بِهِ

كَثِيرًا﴾، يضلُّ الله به كثيرًا من خلقه. والهاء في "به" من ذكر المثل. وهذا خبر من

الله جل ثناؤه مبتدأ، ومعنى الكلام: أن الله يضلُّ بالمثل الذي يضره كثيرًا من أهل

النفاق والكفر:-

وذكر عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: **﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾** يعني المنافقين، **﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾**، يعني المؤمنين.

فيزيد هؤلاء ضلالاً إلى ضلالهم، لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله لما ضرب به له، وأنه لما ضرب به له موافق. فذلك إضلال الله إياهم به. و"يهدي به"، يعني بالمثل، كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم. لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما ضرب به الله له مثلاً وإقرارهم به. وذلك هداية من الله لهم به. انتهى

وقد قال تعالى في بيان ذلك: **﴿قُلْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ﴾** [الرعد: ٢٧] وقوله تعالى: **﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾** [النحل: ٣٧] **﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾** [النحل: ٩٣] إلى غير ذلك من الآيات التي فيها أن الهدى والضلال من الله تعالى، فيهدي من يشاء فضلاً ويضل من يشاء عدلاً وما ربك بظلام للعبيد

وهذه الأمثال يضل الله بها كثيراً من الناس وهم الكفار والمنافقون بسبب إعراضهم عنها وعدم فقهاها ويهدي بها كثير من الناس وهم المؤمنون.

قال البغوي (١/ ١٠٠): ثُمَّ أَجَابَهُمْ فَقَالَ: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا مِنَ الْكُفَّارِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَكْذِبُونَ فَيَزِدَادُونَ ضَلَالًا، وَيَهْدِي بِهِ، أَي: بِهَذَا الْمَثَلِ كَثِيرًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَيُصَدِّقُونَهُ. انتهى

قوله تعالى: **﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾** أي والذي يقع عليه الضلال هو الفاسق، المعرض يلحقهم الضلال بسبب اعراضهم عن سبيل الهداية وقد روى

ابن جرير من طريق السُّدِّيِّ في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مُرَّة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَلْسِقِينَ﴾، هم المنافقون.

ومن طريق سعيد، عن قتادة: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَلْسِقِينَ﴾، فسقوا فأضلَّهم الله على فسقهم.

وعن الربيع بن أنس: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَلْسِقِينَ﴾، هم أهل النفاق. قال أبو جعفر: وأصلُ الفسق في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء. يقال منه: فسقت الرُّطبة إذا خرجت من قشرها. ومن ذلك سُميت الفأرة فُوسِقةً، لخروجها عن جحرها، فكذلك المنافق والكافر سُميا فاسقين، لخروجهما عن طاعة ربهما. ولذلك قال جل ذكره في صفة إبليس: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [سورة الكهف: ٥٠]، يعني به خرج عن طاعته واتباع أمره.

ومن طريق ابن إسحاق، عن داود بن الحُصَيْن، عن عكرمة مولى ابن عباس، عن ابن عباس في قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٥٩]، أي بما بعدوا عن أمري. فمعنى قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَلْسِقِينَ﴾، وما يضلُّ الله بالمثل الذي يضره لأهل الضلال والنفاق، إلا الخارجين عن طاعته، والتاركين اتباع أمره، من أهل الكفر به من أهل الكتاب، وأهل الضلال من أهل النفاق. انتهى

وقال ابن كثير (١/ ٢٠٩): وَالْفَاسِقُ فِي اللُّغَةِ: هُوَ الْخَارِجُ عَنِ الطَّاعَةِ أَيضًا. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: فَسَقَتِ الرَّطْبَةُ: إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قَشْرَتِهَا؛ وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْفَأْرَةِ: فُوسِقةٌ، لِخُرُوجِهَا عَنْ جُحْرِهَا لِلْفَسَادِ. وَتَبَّتْ فِي الصَّحِيحِينَ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: "خَمْسُ فَوَاسِقٍ يُقْتَلْنَ فِي الْجِلِّ وَالْحَرَمِ: الْغُرَابُ، وَالْجِدَادَةُ، وَالْعَقْرَبُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، فَالْفَاسِقُ يَشْمَلُ الْكَافِرَ وَالْعَاصِيَّ، وَلَكِنَّ فَسَقَ

الْكَافِرِ أَشَدُّ وَأَفْحَشُ، وَالْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ الْفَاسِقُ الْكَافِرُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٧﴾ انتهى

وقال ابن القيم في مدارج السالكين (١ / ٣٦٧): وَأَمَّا الْفُسُوقُ: فَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ نَوْعَانِ: مُفْرَدٌ مُطْلَقٌ، وَمَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ.

وَالْمُفْرَدُ نَوْعَانِ أَيْضًا: فَسُوقٌ كُفْرٌ، يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَفُسُوقٌ لَا يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَالْمَقْرُونُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ﴿٧﴾ [الحجرات: ٧].

وَالْمُفْرَدُ الَّذِي هُوَ فَسُوقٌ كُفْرٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴿البقرة: ٢٦-٢٧﴾ وَالْقَوْلُ عَرَّجَلٌ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١١﴾ [البقرة: ٩٩] وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا أُولَئِكَ إِلَّا كَلَمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرِجُوا مِنْهَا أَعْبُدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] الْآيَةَ، فَهَذَا كُلُّهُ فَسُوقٌ كُفْرٌ.

وَأَمَّا الْفُسُوقُ الَّذِي لَا يُخْرِجُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنْ تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَهُمْ فَاسِقٌ يَنْبِئُ﴾ [الحجرات: ٦] الْآيَةَ، فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ «نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مَعْطٍ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ بَعْدَ الْوَقْعَةِ مُصَدِّقًا، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عِدَاوَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِمَقْدَمِهِ تَلَقَّوهُ، تَعْظِيمًا لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَحَدَّثَهُ الشَّيْطَانُ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَهَابَهُمْ فَرَجَعَ مِنَ الطَّرِيقِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ بَنِي الْمُصْطَلِقِ مَنَعُوا صِدْقَاتِهِمْ، وَأَرَادُوا قَتْلِي، فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَهَمَّ أَنْ يَغْزَوْهُمْ، فَبَلَغَ الْقَوْمُ رُجُوعَهُ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سَمِعْنَا بِرَسُولِكَ، فَخَرَجْنَا نَتَلَقَاهُ وَنُكْرِمُهُ، وَنُؤَدِّي إِلَيْهِ مَا قَبِلْنَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ، فَبَدَا لَهُ فِي الرَّجُوعِ، فَخَشِينَا أَنَّهُ إِنَّمَا رَدَّهُ مِنَ الطَّرِيقِ كِتَابٌ جَاءَ مِنْكَ لِغَضَبِ غَضَبَتِهِ عَلَيْنَا، وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ، فَأَتَتْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ خُفِيَّةً فِي عَسْكَرٍ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُخْفِيَ عَلَيْهِمْ قُدُومَهُ، وَقَالَ لَهُ: انظُرْ، فَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى إِيَابِهِمْ فَخُذْ مِنْهُمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تَرَ ذَلِكَ فَاسْتَعْمِلْ فِيهِمْ مَا تَسْتَعْمِلُ فِي الْكُفَّارِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ خَالِدٌ، وَوَفَّاهُمْ، فَسَمِعَ مِنْهُمْ أَذَانَ صَلَاتِي الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، فَأَخَذَ مِنْهُمْ صَدَقَاتِهِمْ، وَلَمْ يَرِ مِنْهُمْ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْخَيْرَ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ، فَنَزَلَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦] الآية .

وَالنَّبَأُ هُوَ الْخَبْرُ الْغَائِبُ عَنِ الْمُخْبِرِ إِذَا كَانَ لَهُ شَأْنٌ، وَالتَّبَيُّنُ طَلَبُ بَيَانِ حَقِيقَتِهِ وَالْإِحَاطَةُ بِهَا عِلْمًا.

وَهَاهُنَا فَائِدَةٌ لَطِيفَةٌ، وَهِيَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَأْمُرْ بِرَدِّ خَبَرِ الْفَاسِقِ وَتَكْذِيبِهِ وَرَدِّ شَهَادَتِهِ جُمْلَةً، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِالتَّبَيُّنِ، فَإِنْ قَامَتْ قَرَائِنٌ وَأَدِلَّةٌ مِنْ خَارِجٍ تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ عَمِلَ بِدَلِيلِ الصِّدْقِ، وَلَوْ أَخْبَرَ بِهِ مَنْ أَخْبَرَ، فَهَكَذَا يَنْبَغِي الْإِعْتِمَادُ فِي رِوَايَةِ الْفَاسِقِ وَشَهَادَتِهِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْفَاسِقِينَ يَصْدُقُونَ فِي أَخْبَارِهِمْ وَرِوَايَاتِهِمْ وَشَهَادَاتِهِمْ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَتَحَرَّى الصِّدْقَ غَايَةَ التَّحَرِّيِ، وَفَسَقُهُ مِنْ جِهَاتٍ أُخْرَى، فَمِثْلُ هَذَا لَا يُرَدُّ خَبْرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَلَوْ رُدَّتْ شَهَادَةُ مِثْلِ هَذَا وَرِوَايَتُهُ لَتَعَطَّلَتْ أَكْثَرُ الْحُقُوقِ، وَبَطَلَ كَثِيرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ، وَلَا سِيَّمَا مَنْ فَسَقَهُ مِنْ جِهَةِ الْإِعْتِقَادِ وَالرَّأْيِ، وَهُوَ مُتَحَرِّ لِلصِّدْقِ، فَهَذَا لَا يُرَدُّ خَبْرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ.

وَأَمَّا مَنْ فَسَقَهُ مِنْ جِهَةِ الْكُذِبِ فَإِنْ كَثُرَ مِنْهُ وَتَكَرَّرَ، بِحَيْثُ يَغْلِبُ كَذِبُهُ عَلَى صِدْقِهِ، فَهَذَا لَا يُقْبَلُ خَبْرُهُ وَلَا شَهَادَتُهُ، وَإِنْ نَدَّرَ مِنْهُ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ، فَفِي رَدِّ شَهَادَتِهِ وَخَبْرِهِ بِذَلِكَ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ، وَهُمَا رِوَايَتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَالْمَقْصُودُ ذِكْرُ الْفُسُوقِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ إِلَى الْكُفْرِ.
وَالْفُسُوقُ الَّذِي تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ أَعْمٌ مِنَ الْفُسُوقِ الَّذِي تُرَدُّ بِهِ الرَّوَايَةُ وَالشَّهَادَةُ.
وَكَأَمَّا الْآنَ فِيمَا تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنْهُ، وَهُوَ قِسْمَانِ: فَسُقٌ مِنْ جِهَةِ الْعَمَلِ، وَفَسُقٌ مِنْ
جِهَةِ الْإِعْتِقَادِ.

فَفَسُقُ الْعَمَلِ نَوْعَانِ: مَقْرُونٌ بِالْعِصْيَانِ وَمُفْرَدٌ.
فَالْمَقْرُونُ بِالْعِصْيَانِ: هُوَ اِرْتِكَابُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَالْعِصْيَانُ: هُوَ عِصْيَانُ أَمْرِهِ،
كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحریم: ٦] وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿١٣﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه: ٩٢-
٩٣] وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَمْرُكَ أَمْرًا جَازِمًا فَعَصَيْتَنِي ❖❖ ❖ فَأَصْبَحْتَ مَسْلُوبَ الْإِمَارَةِ نَادِمًا
فَالْفِسْقُ أَحْصُ اِرْتِكَابِ النَّهْيِ، وَلِهَذَا يُطَلَّقُ عَلَيْهِ كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَإِنْ
تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وَالْمَعْصِيَةُ أَحْصُ بِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ كَمَا
تَقَدَّمَ، وَيُطَلَّقُ كُلُّ مِنْهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] فَسَمِيَ مُخَالَفَتَهُ لِلْأَمْرِ فَسُقًا، وَقَالَ ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى
﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٦] فَسَمِيَ اِرْتِكَابَهُ لِلنَّهْيِ مَعْصِيَةً، فَهَذَا عِنْدَ الْإِفْرَادِ، فَإِذَا افْتَرْنَا كَانَ أَحَدُهُمَا
لِمُخَالَفَةِ الْأَمْرِ، وَالْآخَرُ لِمُخَالَفَةِ النَّهْيِ.

وَالتَّقْوَى اتِّقَاءُ مَجْمُوعِ الْأَمْرَيْنِ، وَبِتَحْقِيقِهَا تَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنَ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ،
بِأَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ، يَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَيَتْرُكُ مَعْصِيَةَ اللَّهِ، عَلَى
نُورٍ مِنَ اللَّهِ، يَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ.

وَفَسَقُوا الْإِعْقَادَ كَفَسَقُوا أَهْلَ الْبِدْعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَيُؤْجِبُونَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ، وَلَكِنْ يَنْفُونَ كَثِيرًا مِمَّا أَثَبَتَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ، جَهْلًا وَتَأْوِيلًا، وَتَقْلِيدًا لِلشُّيُوخِ، وَيُثْبِتُونَ مَا لَمْ يُثْبِتْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَذَلِكَ.

وهؤلاء كالأخوارج المارقة، وكثير من الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وكثير من
الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية فكغلاة الرافضة، ليس للطائفتين في الإسلام نصيب. انتهى
وفي الآية بيان لرحمة الله تعالى لعباده المؤمنين حيث يبين لهم الطرق الموصلة
إلى مرضاته بأنواع البيان فتارة بضرب الأمثال وتارة بالقصص لبيان حال المؤمنين
والكافرين وتارة بذكر حبه تعالى لهذا السبيل وبغضه لذلك وكل ذلك من أسباب
هداية أهل الإسلام ثم إن ضرب الأمثال إقامة للحجة على المبطلين المنحرفين عن
دين رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ

بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧﴾ [البقرة: ٢٧].

الذي في موضع نعت للفاسقين فكأنه تعالى يقول: والفاسقون هم الذين ينقضون
عهد الله، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ويجوز أن يكون
خبر لمبتدأ محذوف أي وهم الذين.

وهذا بيان من الله تعالى لبعض صفات الفاسقين وأشهرها وقد أخبر الله عن
مصيرهم إلى النار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ

الدَّارِ ﴿٥﴾ [الرعد: ٢٥]

قوله تعالى: ﴿يَنْقُضُونَ﴾: قال الراغب في المفردات في غريب القرآن (ص:

٨٢١): لَنَقُضُ: انْتِثَارُ الْعَقْدِ مِنَ الْبِنَاءِ وَالْحَبْلِ، وَالْعَقْدُ، وَهُوَ ضِدُّ الْإِبْرَامِ، يُقَالُ: نَقَضْتُ

الْبِنَاءِ وَالْحَبْلِ وَالْعِقْدِ، وَقَدْ انْتَقَضَ انْتِقَاصًا، وَالنَّقْضُ الْمَنْقُوضُ، وَذَلِكَ فِي الشَّعْرِ أَكْثَرُ، وَالنَّقْضُ كَذَلِكَ، وَذَلِكَ فِي الْبِنَاءِ أَكْثَرُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْبَعِيرِ الْمَهْزُولِ: نَقَضُ، وَمُنْتَقِضُ الْأَرْضِ مِنَ الْكَمَاءِ نَقْضٌ، وَمِنْ نَقْضِ الْحَبْلِ وَالْعِقْدِ اسْتَعِيرَ نَقْضُ الْعَهْدِ. انتهى

قوله تعالى: ﴿عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾: قال الحافظ في فتح الباري (١١ / ٥٤٤): (قَوْلُهُ بَابُ عَهْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ): أَي قَوْلُ الْقَائِلِ عَلَيَّ عَهْدُ اللَّهِ لِأَفْعَلَنْ كَذَا قَالَ الرَّاعِبُ الْعَهْدُ حِفْظُ الشَّيْءِ وَمُرَاعَاتُهُ وَمِنْ ثَمَّ قِيلَ لِلْوَيْثِقَةِ عُهُدَةٌ وَيُطْلَقُ عَهْدُ اللَّهِ عَلَيَّ مَا فَطَرَ عَلَيْهِ عِبَادَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ عِنْدَ اخْتِذِ الْمِيثَاقِ وَيُرَادُ بِهِ أَيْضًا مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُؤَكَّدًا وَمَا التَّرَمُّهُ الْمَرْءُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ كَالنَّذْرِ قُلْتُ وَلِلْعَهْدِ مَعَانٍ أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ كَالْأَمَانِ وَالْوَفَاءِ وَالْوَصِيَّةِ وَالْيَمِينِ وَرِعَايَةِ الْحُرْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَاللِّقَاءِ عَنْ قُرْبٍ وَالزَّمَانَ وَالذِّمَّةَ وَبَعْضُهَا قَدْ يَتَدَاخَلُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

وقال ابن كثير (١ / ٢١٠): وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي مَعْنَى الْعَهْدِ الَّذِي وُصِفَ هَؤُلَاءِ الْفَاسِقِينَ بِنَقْضِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ وَصِيَّةُ اللَّهِ إِلَى خَلْقِهِ وَأَمْرُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهِ، وَنَهْيِهِ إِيَّاهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَتِهِ فِي كُتُبِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وَنَقَضُهُمْ ذَلِكَ هُوَ تَرْكُهُمُ الْعَمَلَ بِهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هِيَ فِي كُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ، وَعَهْدُ اللَّهِ الَّذِي نَقَضُوهُ هُوَ مَا أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْعَمَلِ بِمَا فِيهَا وَاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِذَا بُعِثَ وَالتَّصَدِيقِ بِهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، وَنَقَضُهُمْ ذَلِكَ هُوَ جُحُودُهُمْ بِهِ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِمْ بِحَقِيقَتِهِ وَإِنْكَارِهِمْ ذَلِكَ، وَكَيْتْمَانِهِمْ عِلْمَ ذَلِكَ عَنِ النَّاسِ بَعْدَ إِعْطَائِهِمْ اللَّهُ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الْمِيثَاقَ لِيُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ نَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ وَقَوْلُ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانٍ.

وَقَالَ آخِرُونَ: بَلْ عَتَىٰ بِهَذِهِ الْآيَةِ جَمِيعَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ وَالنِّفَاقِ. وَعَهْدُهُ إِلَىٰ جَمِيعِهِمْ فِي تَوْحِيدِهِ: مَا وَضَعَ لَهُمْ مِنَ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ رُبُوبِيَّتِهِ، وَعَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ مَا احتَجَّ بِهِ لِرُسُلِهِ مِنَ الْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ غَيْرُهُمْ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا الشَّاهِدَةَ لَهُمْ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، قَالُوا: وَنَقَضْتُمْ ذَلِكَ: تَرَكْتُمْ الْإِقْرَارَ بِمَا ثَبَتَتْ لَهُمْ صِحَّتُهُ بِالْأَدَلَّةِ وَتَكْذِيبُهُمُ الرُّسُلَ وَالْكِتَابَ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ مَا اتَّوَا بِهِ حَقٌّ، وَرُويَ أَيْضًا عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ نَحْوَ هَذَا، وَهُوَ حَسَنٌ، وَإِلَيْهِ مَالُ الرَّمَخَشَرِيِّ، فَإِنَّهُ قَالَ: فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْمُرَادُ بِعَهْدِ اللَّهِ؟ قُلْتُ: مَا رَكَّزَ فِي عُقُولِهِمْ مِنَ الْحُجَّةِ عَلَىٰ التَّوْحِيدِ، كَأَنَّهُ أَمَرَ وَصَاهُمَ بِهِ وَوَتَّقَهُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ **قَالُوا بَلَىٰ** ﴿[الأعراف: ١٧٢] إِذْ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَيْهِمْ فِي الْكِتَابِ الْمُنْتَزَلَةِ عَلَيْهِمْ لِقَوْلِهِ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

وَقَالَ آخِرُونَ: الْعَهْدُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ هُوَ الْعَهْدُ الَّذِي أَخَذَهُ عَلَيْهِمْ حِينَ أَخْرَجَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ الَّذِي وَصَفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ **قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴿الآيتين [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣] وَنَقَضْتُمْ ذَلِكَ تَرَكْتُمْ الْوَفَاءَ بِهِ. وَهَكَذَا رُويَ عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ أَيْضًا، حَكَى هَذِهِ الْأَقْوَالَ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ، عَنِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ، عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿الْخَاسِرُونَ ﴿٧﴾﴾ قَالَ: هِيَ سِتُّ خِصَالٍ مِنَ الْمُتَنَافِقِينَ إِذَا كَانَتْ فِيهِمْ الظُّهْرَةَ عَلَىٰ النَّاسِ أَظْهَرُوا هَذِهِ الْخِصَالَ: إِذَا حَدَّثُوا كَذِبًا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا أُوتِمُوا خَانُوا، وَنَقَضُوا عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ، وَقَطَعُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَأَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا كَانَتْ الظُّهْرَةُ

عَلَيْهِمْ أَظْهَرُوا الْخِصَالَ الثَّلَاثَ: إِذَا حَدَّثُوا كَذَبُوا، وَإِذَا وَعَدُوا أَخْلَفُوا، وَإِذَا أُؤْتِمِنُوا حَانُوا.

وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ أَيْضًا. وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادِهِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ قَالَ: هُوَ مَا عَهَدَ إِلَيْهِمْ فِي الْقُرْآنِ فَأَقْرَبُوا بِهِ ثُمَّ كَفَرُوا فَتَقَضَوْهُ. انتهى

وقال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢٠/١٥٦): وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَنَ عَهْدَهُ الَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ بِالْوَفَاءِ بِهِ فَاجْتَمَعَ فِيهِ الْوَجْهَانِ: الْعَهْدِيُّ؛ وَالْمِيثَاقِيُّ.

وَفِي الْقُرْآنِ مِنَ الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ عَلَى مَا وَجَبَ بِأَمْرِ اللَّهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ الْآيَةُ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَوْلًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِيَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ﴾ الْآيَةُ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ بَعْدَ ذِكْرِهِ لِلْإِيمَانِ يَقْتَضِي أَنَّهُ الْوَفَاءُ بِمُوجِبِ الْعُقُودِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَنَحْوِهَا كَمَا قَالَ فِي آيَةِ الْبَيْعِ: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِنَ أَمْنَتَهُ﴾ فَادَاءُ الْأَمَانَةِ هُوَ الْوَفَاءُ بِمُوجِبِ الْعُقُودِ فِي الْمُعَامَلَاتِ مِنَ الْقَبْضِ وَالتَّسْلِيمِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ بِعَقْدِهِ فَقَطُّ ثُمَّ قَالَ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ﴾ فَعَهْدُ اللَّهِ مَا عَهَدَهُ إِلَيْهِمْ وَأَيْمَانُهُمْ مَا عَقَدُوهُ مِنَ الْإِيمَانِ. وَسَبَبُ نَزُولِهَا قِصَّةُ الْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ الْتِي فِي

الصَّحِيحِينَ فِي مُحَاكَمَتِهِ مَعَ الْيَهُودِيِّ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ «مَنْ حَلَفَ عَلَىٰ يَمِينٍ فَاجْرَةَ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ» وَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَالَ كَانَ يَجِبُ تَسْلِيمُهُ إِلَىٰ مُسْتَحَقِّهِ بِمُوجِبِ عَهْدِهِ فَإِذَا حَلَفَ بَعْدَ هَذَا عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِهِ دُونَ مُسْتَحَقِّهِ فَقَدْ صَارَ عَاصِيًا مِنْ وَجْهَيْنِ نَظِيرَ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وَضِدُّهُمْ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ. انتهى

قال العنيمين في تفسير الفاتحة والبقرة (١/ ١٠١): وقد بين الله عزَّ وجلَّ هذا العهد في

قوله تعالى: ﴿* وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٢]

قال القرطبي (١/ ٢٤٨): فِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ الْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ وَالْتِزَامَهُ وَكُلَّ عَهْدٍ جَائِزٍ أَلْزَمَهُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ فَلَا يَحِلُّ لَهُ نَقْضُهُ سِوَاءَ أَكَانَ بَيْنَ مُسْلِمٍ أَمْ غَيْرِهِ، لِذَمِّ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ. وقد قال: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] وَقَدْ قَالَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَايُذِئِدْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٨٥] فَتَهَاةٌ عَنِ الْعَدْرِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِنَقْضِ الْعَهْدِ. انتهى

وقال الحافظ في فتح الباري (١١/ ٥٤٥): وَقَالَ بِنِ الْمُنْدَرِ مَنْ حَلَفَ بِالْعَهْدِ فَحَنِثَ

لِزِمَهُ الْكُفَّارَةُ سِوَاءَ نَوَىٰ أَمْ لَا عِنْدَ مَالِكٍ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالْكَوْفِيِّينَ وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ وَطَاوُسٌ وَغَيْرُهُمْ قُلْتُ وَبِهِ قَالَ أَحْمَدُ وَقَالَ عَطَاءٌ وَالشَّافِعِيُّ وَإِسْحَاقُ وَأَبُو عُبَيْدٍ لَا تَكُونُ يَمِينًا إِلَّا أَنْ نَوَىٰ وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَائِلِ كِتَابِ الْإِيمَانِ النَّقْلُ عَنِ الشَّافِعِيِّ فَيَمَنْ قَالَ أَمَانَةُ اللَّهِ مِثْلَهُ وَأَعْرَبَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فَادَّعَىٰ اتِّفَاقَ الْعُلَمَاءِ عَلَىٰ ذَلِكَ وَلَعَلَّهُ

أَرَادَ مِنَ الشَّافِعِيَّةِ وَمَعَ ذَلِكَ فَالْخِلَافُ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ كَمَا حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ وَاحْتَجَّ لِلْمَذْهَبِ بِأَنَّ عَهْدَ اللَّهِ يُسْتَعْمَلُ فِي وَصِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ بِاتِّبَاعِ أَوْامِرِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَمَا ذُكِرَ فَلَا يُحْمَلُ عَلَى الْيَمِينِ إِلَّا بِالْقَصْدِ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ إِذَا قَالَ عَلِيٌّ عَهْدُ اللَّهِ احْتَمَلَ أَنْ يُرِيدَ مَعْهُودَهُ وَهُوَ وَصِيَّتُهُ فَيَصِيرُ كَقَوْلِهِ عَلِيٌّ فَرَضَ اللَّهُ أَيُّ مَفْرُوضُهُ فَلَا يَكُونُ يَمِينًا لِأَنَّ الْيَمِينَ لَا تَنْعَقِدُ بِمُحَدَّثٍ فَإِنْ نَوَى بِقَوْلِهِ عَهْدَ اللَّهِ الْيَمِينَ انْعَقَدَتْ وَقَالَ بِنُ الْمُنْذِرِ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ فَمَنْ قَالَ عَلِيٌّ عَهْدُ اللَّهِ صَدَقَ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدَ فَلَا يَكُونُ ذَلِكَ يَمِينًا إِلَّا أَنْ نَوَاهُ وَاحْتَجَّ الْأَوَّلُونَ بِأَنَّ الْعُرْفَ قَدْ صَارَ جَارِيًا بِهِ فَحَمَلَ عَلَى الْيَمِينِ وَقَالَ بِنُ التَّيْنِ هَذَا لَفْظٌ يُسْتَعْمَلُ عَلَى خَمْسَةِ أَوْجُهٍ الْأَوَّلُ عَلِيٌّ عَهْدُ اللَّهِ وَالثَّانِي وَعَهْدُ اللَّهِ الثَّلَاثُ عَهْدُ اللَّهِ الرَّابِعُ أَعْهَدُ اللَّهُ الْخَامِسُ عَلِيٌّ الْعَهْدُ وَقَدْ طَرَدَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ فِي الْجَمِيعِ وَفَصَّلَ بَعْضُهُمْ فَقَالَ لَا شَيْءَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ قَالَ عَلِيٌّ عَهْدُ اللَّهِ وَنَحْوَهَا وَإِلَّا فَلَيْسَتْ بِيَمِينٍ نَوَى أَوْ لَمْ يَنْوُ ثُمَّ ذَكَرَ حَدِيثَ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ بِنُ مَسْعُودٍ وَالْأَشْعَثُ بِنُ قَيْسٍ فِي نَزْوِلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

انتهى

والغدر في العهود من صفات المنافقين ففي حديث عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «أربعٌ من كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا: إِذَا أَوْثَمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» متفق عليه

قوله تعالى: ﴿وَيَقَطُّونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾: القطع ضد الوصل ولذلك قال الله تعالى في سورة الرعد في وصف المؤمنين: ﴿* أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ لِحْقِ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِمَّا يَنْذَرُكَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْتَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ

صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ
السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٣﴾ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣٤﴾ [الرعد: ١٩ -

. [٢٤]

قال القرطبي (٩ / ٣١٠): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾
ظَاهِرٌ فِي صَلَاةِ الْأَرْحَامِ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ وَأَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ
الطَّاعَاتِ. انتهى

لكن أكثر ما أمر الله به أن يوصل وحذر من قطيعته الرحم قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٣٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]

قال الشنقيطي في أضواء البيان (١ / ١٩): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقَطَّعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ
أَنْ يُوصَلَ﴾: لَمْ يُبَيِّنْ هُنَا هَذَا الَّذِي أَمَرَ بِهِ أَنْ يُوصَلَ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى أَنَّ مِنْهُ الْأَرْحَامَ
بِقَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [محمد: ١
. [٢٢]

وَأَشَارَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ إِلَى أَنَّ مِنْهُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ، فَلَا يَجُوزُ قَطْعُ بَعْضِهِمْ
عَنْ بَعْضٍ فِي ذَلِكَ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضِهِمْ الْآخِرِ. وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُونَ
نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿٣٥﴾ أُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١، ١٥١]. انتهى

وقال الشوكاني في فتح القدير (١ / ٦٩): وَاخْتَلَفُوا مَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِوَصْلِهِ
فَقِيلَ: الْأَرْحَامُ وَقِيلَ: أَمَرَ أَنْ يُوصَلَ الْقَوْلُ بِالْعَمَلِ وَقِيلَ: أَمَرَ أَنْ يُوصَلَ التَّصَدِيقُ
بِجَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ فَقَطَّعُوهُ بِتَّصَدِيقِ بَعْضِهِمْ وَتَكْذِيبِ الْبَعْضِ الْآخِرِ وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ حِفْظُ
سَرَائِعِهِ وَحُدُودِهِ الَّتِي أَمَرَ فِي كِتَابِهِ الْمُتَنَزَّلَةِ وَعَلَى أَلْسِنِ رُسُلِهِ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا فَهِيَ

عَامَّةً، وَبِهِ قَالَ الْجُمْهُورُ، وَهُوَ الْحَقُّ. انتهى وقطيعه الرحم تعتبر من كبائر الذنوب وعظيم الآثام وقد جاءت أحاديث كثيرة في التحذير من ذلك

عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ» متفق عليه، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «الرَّحِمُ مَعْلَقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ» أخرجه مسلم (٢٥٥٥).

وفي البخاري (٤٨٣٠) ومسلم (٢٥٥٤): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَلِكَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "اقْرَأُوا إِنَّ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٣﴾» [محمد: ٢٢].

قال تفسير الطبري (١/ ٤١٥): والذي رَغِبَ اللهُ فِي وَصْلِهِ وَذَمَّ عَلَى قِطْعِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الرَّحِمُ. وقد بين ذلك في كتابه، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿٢٣﴾ [سورة محمد: ٢٢]. وإنما عَنَى بِالرَّحِمِ، أَهْلَ الرَّحِمِ الَّذِينَ جَمَعْتَهُمْ وَإِيَاهِ رَحِمٌ وَالِدَةٌ وَاحِدَةٌ. وقطع ذلك: ظلمه في ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها، وأوجب من برّها. وَوَصَلُّهَا: أداء الواجب لها إليها من حقوق الله التي أوجب لها، والتعطفُ عليها بما يحقُّ التعطفُ به عليها. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾: الفساد ضد الصلاح وأعظم الصلاح التوحيد كما أن اعظم الفساد الشرك بالله تعالى وهذا كقوله تعالى فيما يأتي: ﴿قَالُوا أَنَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]

قال الشوكاني فتح القدير (١ / ٦٩): وَالْمُرَادُ بِالْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ الْأَفْعَالُ وَالْأَقْوَالُ الْمُخَالَفَةُ لِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، كَعِبَادَةِ غَيْرِهِ وَالْإِضْرَارِ بِعِبَادِهِ وَتَغْيِيرِ مَا أَمَرَ بِحِفْظِهِ وَبِالْجُمْلَةِ فِكْلُ مَا خَالَفَ الصَّلَاحَ شَرْعًا أَوْ عَقْلًا فَهُوَ فَسَادٌ. انتهى

قال ابن جرير الطبري (١ / ٤١٦): وفسادهم في الأرض: هو ما تقدم وصفناه قبل من معصيتهم ربهم، وكفرهم به، وتكذيبهم رسوله، وجحدهم نبوته، وإنكارهم ما أتاهم به من عند الله أنه حق من عنده. انتهى

تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (١ / ١٠٤): أن المعاصي والفسوق سبب للفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، ورجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء، وتضرعوا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتابوا إليه، أغاثهم الله عَزَّجَلَّ؛ وقد قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِنَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠-١٢].

فإن قال قائل: أليس يوجد في الأرض من هم صلحاء قائمون بأمر الله مؤدون لحقوق عباد الله ومع ذلك نجد الفساد في الأرض؟

فالجواب: أن هذا الإيراد أوردته أم المؤمنين زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ حيث قال: "ويل للعرب من شر قد اقترب"؛ قالت: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «نعم، إذا كثر الخبث»؛ وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ «إذا كثر الخبث» يشمل معنيين..

أحدهما: أن يكثر الخبث في العاملين بحيث يكون عامة الناس على هذا الوصف..

والثاني: أن يكثر فعل الخبث بأنواعه من فئة قليلة، لكن لا تقوم الفئة الصالحة بإنكاره؛ فمثلاً إذا كثر الكفار في أرض كان ذلك سبباً للشر، والبلاء؛ لأن الكفار نجس؛ فكثرتهم كثرة خبثاً؛ وإذا كثرت أفعال المعاصي كان ذلك سبباً أيضاً للشر، والبلاء؛ لأن المعاصي خبثاً. انتهى

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي الذين تقدم ذكرهم هم الخاسرون والخسارة ضد الربح قال المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٨١)

الْخُسْرُ وَالْخُسْرَانُ: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارتك، قال تعالى: تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خٰسِرَةٌ [النازعات/ ١٢]، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية كالصحة والسلامة، والعقل والإيمان، والثواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين، وقال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلَا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرٰنُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٢١]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ - إلى - ﴿أُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧]. انتهى

وأسباب الخسارة كثيرة على ما تقدم وأعظمها الشرك ويليها البدعة والقتل وهكذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوٰتِهِ ءَ اُولٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٢١] ﴿أَفَأٰمِنُوٓا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمِنُ مَكَرَ اللَّهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ٩٩] ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨] ﴿اَسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطٰنُ فَاَنسٰهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ اُولٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطٰنِ اِلَّا اِنَّ حِزْبَ الشَّيْطٰنِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المجادلة: ١٩] ﴿يٰٓاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوٓا لَا تَلْهَكُمْ اَمْوَالُكُمْ وَلَا اَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩] وأخبر تعالى أن من أعرض عن الإسلام كان من

الخاسرين فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥] وفعل المعاصي من أسباب الخسارة إلا أن يمين الله تعالى بتوبة ومغفرة قال تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ [الأعراف: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ [الأعراف: ١٤٩] إلى غير ذلك وقد أخبر الله تعالى أن الأخسرين عملاً من حبط أجره بسبب شركه قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَوَخَّوْا إِلَيَّ وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٢٦﴾ [الكهف: ١٢٣ - ١٢٦]، بل ومن فسدت دينها وأحراه بسبب الشرك والبدع والعياذ بالله قال تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٥﴾ [الزمر: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الزمر: ٦٥] ومن أسباب الخسارة البخل بفضل الله تعالى.

ففي الصحيحين البخاري (٦٦٣٨) ومسلم (٩٩٠): عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، يَقُولُ: «هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ» قُلْتُ: مَا شَأْنِي أَيْرَىٰ فِي شَيْءٍ، مَا شَأْنِي؟ فَجَلَسْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ، فَمَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَسْكُتَ، وَتَغَشَّانِي مَا شَاءَ اللَّهُ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالًا، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَهَكَذَا»

وفي البخاري: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: " إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ الْعَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا

بَعِيرٍ عَلَيْهِ ﴿﴾ [الأنعام: ١٤٠] إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وخسارتهم في الدنيا بضياح أولادهم وفي الآخرة بالعذاب الأليم.

ومن أسباب الخسارة ترك الطاعة؛ ففي البخاري (٣٦٠٤): عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ «مِنَ الصَّلَاةِ صَلَاةٌ مِّنْ فَاتَتُهُ فَكَانَتْ أَوْتِرَ أَهْلِهِ وَمَالَهُ»، وجاء في الصحيحين البخاري (٥٥٢) ومسلم (٦٢٦): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الَّذِي تَفُوتُهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَانَتْ أَوْتِرَ أَهْلِهِ وَمَالَهُ».

وأعظم سبب لسلامة من الخسارة ما ذكره الله تعالى في سورة العصر بقوله:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١-٣].

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ ءَمَوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ

يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]

هذا استفهام إنكاري من الله تعالى على الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم وتوبيخ منه لهم كيف يحصل منكم الكفر بالله تعالى إما جحودًا أو اشراكا وكنتم أمواتا أي لا ذكر لكم فأحياكم أخرجكم من بطون امهاتكم بعد أن صوركم في الأرحام وجمع بين مني الرجل وماء المرأة فصار مشيجا قال تعالى: ﴿هَلْ أَدَّىٰ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ حِينَ مَنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ١، ٢]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوعًا وَيَسْكُرُمْ مَنَ يَتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمَيِّتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٦٧، ٦٨] فاستدل الله تعالى لهم بخلقه على وجوب افراده بالعبادة، وهذه الطريقة كثيرة في القرآن يخصم الله تعالى بها الكفار من عباد الأصنام وغيرهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَلِجِلَّةِ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]، وقال: ﴿وَمِنْ عَائِدَتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [٥٠] وَمِنْ عَائِدَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١، ٢٠] وقال جل ذكره: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠] إلى غير ذلك.

قال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٧٠): كَيْفَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْفَتْحِ لِخِفَّتِهِ وَهِيَ فِي مَوْضِعٍ نَصَبٍ بِتَكْفُرٍ، وَيُسْأَلُ بِهَا عَنِ الْحَالِ، وَهَذَا الْإِسْتِفْهَامُ هُوَ لِلْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ وَالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِهَمْزَةِ الْإِسْتِفْهَامِ. انتهى

وقد اختلف المفسرون في ترتيب هاتين الموتتين فروى ابن جرير عن السُّدِّيِّ في خبر ذكره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مُرَّةَ، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ، يقول: لم تكونوا شيئًا فخلقكم، ثم يُمِيتُكُمْ، ثم يَحْيِيكُمْ يوم القيامة.

وعن عبد الله في قوله: ﴿أَمْتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [سورة غافر: ١١]، قال: هي كالتي في البقرة: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَحْيِيكُمْ﴾.

وعن أبي مالك، في قوله: "أَمْتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ"، قال: خلقتنا ولم نكن شيئًا، ثم أَمْتَنَا، ثم أَحْيَيْتَنَا.

وعن أبي مالك، في قوله: ﴿أَمْتَنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾، قال: كانوا أمواتًا فأحياهم الله، ثم أماتهم، ثم أحياهم.

عن مجاهد في قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، قال: لم تكونوا شيئاً حين خلقكم، ثم يميتكم الموتة الحق، ثم يحييكم. وقوله: ﴿أَمَتْنَا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾، مثلها.

عن أبي العالية، في قول الله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾، يقول: حين لم يكونوا شيئاً، ثم أحياهم حين خلقهم، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، ثم رجعوا إليه بعد الحياة.

وعن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله: ﴿أَمَتْنَا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾، قال: كنتم تُراباً قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم، فهذه إحياءة. ثم يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى. ثم يبعثكم يوم القيامة، فهذه إحياءة. فهما ميتتان وحياتان، فهو قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

والقول الثاني: ما رواه ابن جرير عن أبي صالح: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، قال: يحييكم في القبر، ثم يميتكم.

والقول الثالث: عن قتادة، قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ الآية. قال: كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله وخلقهم، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان.

والقول الرابع: قول ابن زيد، في قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَمَتْنَا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ﴾. قال: خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق، وقرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، حتى بلغ: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢-١٧٣].

قال: فكسبهم العقل وأخذ عليهم الميثاق. قال: وانتزع ضلعًا من أضلاع آدم القُصيرى فخلق منه حواء - ذكره عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**. قال: وذلك قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ١]، قال: وبثَّ منهما بعد ذلك في الأرحام خلقًا كثيرًا، وقرأ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [سورة الزمر: ٦]، قال: خلقًا بعد ذلك. قال: فلما أخذ عليهم الميثاق أماتهم، ثم خلقهم في الأرحام، ثم أماتهم، ثم أحياهم يوم القيامة، فذلك قول الله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَلْتُنَّيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتُنَّيْنَا فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾، وقرأ قول الله: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧]. قال: يومئذ. قال: وقرأ قول الله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [سورة المائدة: ٧].

وجعل ابن جرير **رَحْمَةً لِلَّهِ** يذكر وجه كل قول واختار القول المروي عن ابن عباس وابن مسعود، فقال **رَحْمَةً لِلَّهِ** تعالى (١/ ٤٢٤): وأولى ما ذكرنا - من الأقوال التي بيننا - بتأويل قول الله جل ذكره: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ الآية، القول الذي ذكرناه عن ابن مسعود وعن ابن عباس: من أن معنى قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أموات الذكر، حمولاً في أصلاب آبائكم نطفًا، لا تُعرفون ولا تُذكرون: فأحياكم بإنشاءكم بشرًا سويًا حتى ذُكرتم وعُرفتم وحييتم، ثم يُميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رُفَاتًا لا تُعرفون ولا تُذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصيحة القيامة، ثم إلى الله ترجعون بعد ذلك، كما قال: "ثم إليه تُرجعون"، لأن الله جل ثناؤه يحييهم في قبورهم قبل حشرهم، ثم يحشرهم لموقف الحساب، كما قال جل ذكره: ﴿يَوْمَ

يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ [سورة المعارج: ٤٣] وقال:
 ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [سورة يس: ٥١].

والعلة التي من أجلها اخترنا هذا التأويل، ما قد قدمنا ذكره للقائلين به، وفساد ما خالفه بما قد أوضحناه قبل. انتهى

وقال ابن كثير (٢١٣/١): وَعَبَّرَ عَنِ الْحَالِ قَبْلَ الْوُجُودِ بِالْمَوْتِ بِجَامِعِ مَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ مِنْ عَدَمِ الْإِحْسَاسِ، كَمَا قَالَ فِي الْأَضْنَامِ: ﴿أَمَوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١]، وَقَالَ ﴿وَأَيُّةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٣]. انتهى

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الرجوع العود وهذا يكون بالبعث بعد الموت قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨١] وقال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِيهِ وَيُمِيتُهُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس: ٥٦] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٥] وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَتَّكُمُ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وهذا الرجوع يكون للمجازة على الأعمال قال تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَن أُوْفِيَٰ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ قَرَأُوا كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾ إِلَىٰ ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَن أُوْفِيَٰ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيَةَ ﴿٢٦﴾ يَلَيْتَنِي كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أُعْطِيَٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ﴿٢٩﴾ خُدُوهُ فَعُلُوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ١٨-٣٢]، وقد انكر البعث الكفار ومن صار على طريقهم من الفلاسفة مع

أن الإيمان بالبعث أحد الأركان الستة كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند الشيخين في سؤال جبريل للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد تقدم في تفسير أول سورة

البقرة أسماء يوم القيامة الذي يبعث الله فيه الأجساد ويرد إليها أرواحها ثم يجازيهم على أعمالهم فريق في الجنة وفريق في السعير ومن عجيب شأن الكافرين مع إقرار كثير منهم بخلق الله تعالى لهم عارضوا البعث فرد الله قولهم وشبهتهم بأن البعث ليس بأمنع من الإيجاد كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّيِّ يُمْنٍ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَجْعَلَ الْمَوْتُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٧ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن نُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّئِنِّي لَكُمْ وَنِقُرٌ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج: ٥].

وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦] وسيأتي مزيد بيان في موطنه إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

لما ذكر تعالى اسمه ما ذكر من الأمر بإفراجه بالعبادة وأنه المستحق ذاكرا ما ذكر من خصائص ربوبيته مستدلاً بها على وجوب عبادته، وأخبار الله تعالى بما أعد للمؤمنين الطائعين لرب العالمين، وما يجازيهم به حين رجوعهم إليه ذكر منته على عبادته بأنواع النعم وسخر هذه الأرض لعيش الإنسان عليها وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال عز وجل: ﴿* اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٢] وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى (١/ ٤٢٦): فأخبرهم جل ذكره أنه خلق لهم ما في الأرض جميعاً، لأن الأرض وجميع ما فيها لبني آدم منافع. أما في الدين، فدليل على وحدانية ربهم، وأما في الدنيا فمعاش وبلاغ لهم إلى طاعته وأداء فرائضه، فلذلك قال جل ذكره: "هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً". انتهى

وهذه الآية عمدة عند كثير من الأصوليين من أن الأصل في الأشياء الإباحة وقد تكلمت عن هذه المسألة في كتابي (فتح ذي الجلال والإكرام شرح منظومة ما يحل ويحرم من الحيون) وسأذكر بعضاً منه مختصراً، إن شاء الله تعالى.

قال القرطبي (١/ ٢٥١): اسْتَدَلَّ مَنْ قَالَ إِنَّ أَصْلَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي يُسْتَفْعُ بِهَا الْإِبَاحَةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَمَا كَانَ مِثْلَهَا - كَقَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِمَّنْ﴾ [البجائية: ١٣] الْآيَةَ - حَتَّى يَقُومَ الدَّلِيلُ عَلَى الْحَظْرِ. انتهى

وقال الشوكاني في فتح القدير (١/ ٧١): وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمَخْلُوقَةِ الْإِبَاحَةُ حَتَّى يَقُومَ دَلِيلٌ يَدُلُّ عَلَى النُّقْلِ عَنْ هَذَا الْأَصْلِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْحَيَوَانَاتِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُسْتَفْعُ بِهِ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ، وَفِي التَّكْيِيدِ بِقَوْلِهِ: جَمِيعًا أَقْوَى دَلَالَةً عَلَى هَذَا. انتهى

وقد اجتهد أئمة الدين من العلماء المحققين في بيان ما هو الحرام والحلال من المطعوم وغيره، ولهم في هذه المسألة ثلاثة أقوال:

الأول: أنها على الإباحة للأدلة التي سقناها ونسوقها قريباً، وهو قول الشافعي.
الثاني: أن الأصل فيها التحريم حتى يرد عليه دليل الإباحة، وهذا قول أبي حنيفة.
الثالث: التوقف عن الحكم في هذا حتى يأتي دليل للحكم فيه.
 ذكر هذه الأوجه الشنقيطي في "المذكرة" (٢٣-٢٤)، **وزاد:** واعلم أن لعلماء الأصول في هذا المبحث تفصيلاً لم يذكره المؤلف ولكنه أشار إليه إشارة خفية وهو أنهم يقولون: (الأعيان مثلاً، لها ثلاث حالات):

- ١- إما أن يكون فيها ضرر محض ولا نفع فيها البتة مثل الأعشاب السامة القاتلة.
- ٢- وإما أن يكون فيها نفع محض ولا ضرر فيها أصلاً.
- ٣- وإما أن يكون فيها نفع من جهة وضرر من جهة، فإن كان فيها الضرر وحده، ولا نفع فيها أو مساوياً له فهي حرام لقوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»**، وإن كان نفعها خالصاً لا ضرر معه أو معه ضرر خفيف، والنفع أرجح منه، فأظهر الأقوال الجواز وقد أشار المؤلف إلى هذا التفصيل بقوله (المنتفع بها). انتهى المراد.

وفي متن "المنهاج": (وما لا نص فيه إن استطابه أهل يسار، و طباخ سليمة من العرب في حال رفاهية حل، وإن استخبثوه فلا).

وعلة الاستخبات لا تحل حرامًا ولا تحرم حلالًا، لكن يقال: ما حرمه الله **عَزَّوَجَلَّ** ورسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فهو حرام، وما أحله الله **عَزَّوَجَلَّ** ورسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فهو الحلال، وما سكت عنه فهو على قاعدة: أن الأصل الإباحة، فعند أبي داود (٣٨٠٠) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرَكُونَ أَشْيَاءَ تَقْدُرًا، فَبَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ، وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَأَحَلَّ حَلَالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ. وَتَلَا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

ويستدل لهذا القول بحديث سعد بن أبي وقاص **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** عند البخاري (٧٢٨٩) ومسلم (٢٣٥٨): «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ».

وما أخرجاه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧): عن أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ».

وبحديث سلمان الفارسي عند ابن ماجه (٣٣٦٧)، والترمذي (١٧٢٦): «الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ بِمَا عَفَا عَنْهُ».

قال الشوكاني في "نبيل الأوطار" (٢١/١٥): وَقَدْ سَأَقَهُ ابْنُ مَاجَهَ بِإِسْنَادٍ فِيهِ سَيْفُ بْنُ هَارُونَ الْبُرْجُمِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ مَثْرُوكٌ. اهـ

لكن له شاهد عند البزار كما في "الكشف" رقم (٢٨٥٥): عَنِ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **عَزَّوَجَلَّ**: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ حَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ

عَنْهُ، فَهُوَ عَفْوٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ، لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤].

وآخر من حديث أبي ثعلبة أخرجه الدارقطني (١٨٣/٤) ولفظه: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرْمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنِ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نَسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا».

* **فائدة:** قوله: (الحلال ما أحلَّ الله في كتابه.. الخ:

قال الشوكاني في "النيل" (٢٢/١٥): الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ وَأَمْثَالِهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حَضْرِ التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ عَلَى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ هُوَ بِاعْتِبَارِ اشْتِمَالِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَحْكَامِ وَلَوْ بِطَرِيقِ الْعُمُومِ أَوْ الْإِشَارَةِ، أَوْ بِاعْتِبَارِ الْأَعْلَبِ لِحَدِيثِ «إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ. اهـ

وقد ذكر شيخ الإسلام الأدلة مع بعض الإفادة كما في "المجموع" (٥٣٥/٢١):

فاعلم أن الأصل في جميع الأعيان الموجودة على اختلاف أصنافها وتباين أوصافها أن تكون حلالاً مطلقاً للأدميين، وأن تكون طاهرة لا يحرم عليهم ملبستها ومباشرتها، ومماستها، وهذه كلمة جامعة، ومقالة عامة، وقضية فاضلة عظيمة المنفعة، واسعة البركة، يفرغ إليها حملة الشريعة، فيما لا يحصى من الأعمال. وحوادث الناس، وقد دل عليها أدلة عشرة مما حضرني ذكره من الشريعة وهي: كتاب الله، وسنة رسوله، واتباع سبيل المؤمنين المنظومة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا وَكَيْتُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]. ثم مسالك القياس، والاعتبار، ومناهج الرأي، والاستبصار.

الصنف الأول: الكتاب: وهو عدة آيات.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والخطاب لجميع الناس. لافتتاح الكلام بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، ووجه الدلالة أنه أخبر، أنه خلق جميع ما في الأرض.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فما لم يجد تحريمه، ليس بمحرم. وما لم يحرم، فهو حل، ومثل هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٣]؛ لأن حرف: [إنما] يوجب حصر الأول في الثاني، فيجب انحصار المحرمات فيما ذكر. وقد دل الكتاب على هذا الأصل المحيط في مواضع آخر.

الصنف الثاني: السنة: قال: والذي حضرني منها حديثان:

الحديث الأول: في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ يَسْأَلُ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ، فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ». دل ذلك على أن الأشياء لا تحرم إلا بتحريم خاص، لقوله: لم يحرم، ودل أن التحريم قد يكون لأجل المسألة، فبين بذلك أنها بدون ذلك ليست محرمة، وهو المقصود.

الثاني: روى أبو داود في سننه عن سلمان الفارسي قال: سئل رسول الله عن شيء من السمن والجبن والفراء فقال: «الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ بِمَاءِ عَفَا عَنْهُ». فمنه دليلان: **أحدهما:** أنه أفتى بالإطلاق فيه.

الثاني: قوله: «وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ بِمَاءِ عَفَا عَنْهُ»، نص في أن ما سكت عنه فلا إثم عليه فيه، وتسميته هذا عفواً كأنه والله أعلم لأن التحليل هو الإذن في تناول بخطاب

خاص، والتحریم المنع من التناول كذلك، والسكوت عنه لم يؤذن بخطاب يخصه، ولم يمنع منه، فيرجع إلى الأصل، وهو ألا عقاب إلا بعد الإرسال، وإذا لم يكن فيه عقاب، لم يكن محرماً وفي السنة دلائل كثيرة على هذا الأصل.

الصف الثالث: اتباع سبيل المؤمنين: وشهادة شهداء الله في أرضه الذين هم عدول الأمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، المعصومين من اجتماعهم على ضلالة، المفروض اتباعهم، وذلك أني لست أعلم خلاف أحد من العلماء السالفين: في أن ما لم يجرى دليل بتحريمه فهو مطلق غير محجور. وقد نص على ذلك كثير ممن تكلم في أصول الفقه وفروعه، وأحسب بعضهم ذكر في ذلك الإجماع يقينا أو ظنا كاليقين. اهـ

قال العثيمين رحمه الله في "الشرح الممتع" (٧/٥٠١): (الأصل فيها الحل) (فيها) أي: في الأطعمة، وهذا أمر مجمع عليه، دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، و(ما) اسم موصول، والاسم الموصول يفيد العموم، كما أنه أكد ذلك العموم بقوله: ﴿جَمِيعًا﴾، فكل ما في الأرض فهو حلالٌ لنا، أكلاً، وشرباً، ولبساً، وانتفاعاً، ومن ادعى خلاف ذلك فهو محجوج بهذا الدليل، إلا أن يقيم دليلاً على ما ادعاه، ولهذا أنكر الله **عَزَّجَلَّ** على الذين يُحَرِّمُونَ ما أحل الله من هذه الأمور فقال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقوله: (الأصل فيها الحل): وهذا الأصل ليس ثابتاً لكل إنسان، بل هو للمؤمن خاصة، أما الكافر فالأطعمة عليه حرام؛ لأن الله يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، فقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، يُخرج غير الذين آمنوا، وكذلك قال - تعالى

- في سورة المائدة: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا﴾،
 فمفهومها أن غيرهم عليهم جناح فيما طعموا، ومع ذلك ليس على الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا بشرط ألا يستعينوا بذلك على المعصية، ولهذا
 قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُرَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُرَّ اتَّقَوْا
 وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

والله ما ندري هل نحن مُطبقون لهذه الشروط، أو أننا نأكل الشيء وعلينا جناح
 فيه؟ وهي سبعة شروط، مؤكدة بـ(ما) الزائدة، فإن (ما) من المتعارف عليه من
 حروف الزيادة، وقد قيل:

يَا طَالِبًا خُذْ فَإِنَّهُ ❀❀ (مَا) بَعْدَ (إِذَا) زَائِدَةٌ^(١)

وكل حروف الزيادة في القرآن، أو في السنة، أو في كلام العرب للتوكيد.
 إذا الأصل في الأطعمة الحل للمؤمنين، أما غيرهم فلا؛ فإن الكافر لن يرفع لقمته
 إلى فمه إلا عوقب عليها يوم القيامة، ولن يتلع جرعة من ماء إلا عوقب عليها يوم
 القيامة، ولن يستتر، أو يدفع نفسه بسلك من قطن، إلا حوسب عليه يوم القيامة.
 وهذه القاعدة العظيمة التي دل عليها الكتاب، ودلت عليها السنة، قال النبي
 عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا،
 وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نَسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»، وقال: «مَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ
 عَفْوٌ»، فهذا الأصل الذي دل عليه الكتاب، والسنة، وأجمع عليه المسلمون في
 الجملة نستفيد منه فائدة، وهي أن كل إنسان يقول: إن هذا الشيء حرام، مما يؤكل،
 أو يشرب، أو يُلبس أيضًا، نقول له: هاتِ الدليل؛ لأن عندنا أدلة تدل على حله.
 فلو قال قائل: الدخان حلال فلا نطالبه بالدليل؛ لأن الأصل الحل.

(١) صواب الشطر الثاني: بَعْدَ (إِذَا) (مَا) زَائِدَةٌ.

فإذا قال الثاني: بل هو حرام، نقول لهذا: هات الدليل، ولا شك أن من تأمل نصوص الكتاب، والسنة، ونظر نظرًا صحيحًا تبين له أن الدخان حرام، وليس هذا موضع ذكر أدلة تحريمه. اهـ

وقال رَحْمَةُ اللَّهِ فِي بَيَانِ الْمَبَاحَاتِ (٧/١٥-): (فَيُبَاحُ كُلُّ طَاهِرٍ لَا مَضْرَةَ فِيهِ)، قوله:

(فيباح) الفاء هنا للتفريع، يعني فبناءً على ذلك يباح كل طاهر لا مضرة فيه.
قوله: (كل طاهر) خرج به ما كان نجسًا أو متنجسًا، فالنجس نجاسته عينية، والمتنجس نجاسته حكمية.

فالنجس مثل: الميتة، والخنزير، والدم المسفوح، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] والضمير عائد على الثلاثة المذكورة، فإذا قال قائل: لو كان كذلك لقال: فإنها رجس. والمراد بالدم هنا الدم المسفوح وهو الذي يكون قبل موت البهيمة أما ما كان بعد الموت فإنه طاهر وحلال قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَحْلَلْنَا لَنَا مَيْتَانَ وَدَمَانَ، أَمَّا الْمَيْتَانِ فَالْجَرَادُ وَالْحَوْتِ وَأَمَّا الدَّمَانِ فَالْكَبِدُ وَالطَّحَالُ».

والجواب: أن قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾، معناه إلا أن يكون ذلك الشيء المحرم على الطاعم الذي يطعمه ﴿مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: ذلك الشيء ﴿رِجْسٌ﴾ أي: نجس.

فإن قال قائل: النجس واضح تحريمه؛ لأنه نجس العين، وكل نجس حرام، وليس كل حرام نجسًا، وهذه القاعدة مرّت علينا في الآنية، فما الدليل على أن المتنجس حرام؟

الجواب: لأن المتنجس متأثر بالنجاسة، مختلط بها، فالنجاسة لم تزل فيه، فإذا أكلته، أو شربته فقد باشرت النجاسة، أكلت النجاسة وشربتها، ولهذا نقول:

المتنجس محرّم؛ لأنه ليس بطاهر، وإذا كان الشرع يأمرنا بإزالة النجاسة من ظاهر أجسامنا، فكيف ندخل النجاسة باطن أجسامنا؟!.

قوله: (لا مضرة فيه) خرج بذلك الطاهر الذي فيه مضرة، فالطاهر الذي فيه مضرة لا يجوز، بل هو حرام، وسواء كانت المضرة في عينه، أو في غيره. في عينه كالسّم، فالسم ضرره في عينه، وكذلك الدخان فإنه ضارٌّ في عينه، وضرره مُجمَعٌ عليه بين الأطباء اليوم، لا يختلف في ذلك اثنان منهم؛ لما يشتمل عليه من المواد السامة المفسدة للدم.

والضار في غيره مثل أن يكون هذا الطعام لا يلتئم مع هذا الطعام، بمعنى أنك إذا جمعت بين الطعامين حصل الضرر، وإذا أكلتهما على انفرادٍ لم يحصل الضرر، ومن ذلك الحُمية للمرضى، فإن المريض إذا حُمي عن نوع معينٍ من الطعام، وقيل له: إن تناول يضرّك، صار عليه حرامًا، ومن ذلك على تمثيل النحويين: (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) بالفتح، ولكننا نقول للنحويين في هذه القاعدة، أو هذا الضابط: ما هذا عِشك فادرجي؛ فإن الأطباء الآن يقولون: إنه لا يضر، وقد رأينا أهل جدة يأكلون السمك، ويشربون اللبن، ولا يضرهم ذلك شيئًا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: وإذا خاف الإنسان من الأكل أذىً أو تخمة حَرَمَ عليه.

اه

وقال (١٢/١٥): قوله ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ

أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٦]، ووجه ذلك أن

الله تعالى أوجب التيمم على المريض حمايةً له عن الضرر. فعدل به عن الماء الذي قد يتضرر باستعماله في البرد والمرض ونحوهما إلى التيمم. اه

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾: ثم حرف عطف قيل يفيد الترتيب وهو

أكثر وقيل لا يفيد كما قال بعضهم:

إن من ساد ثم ساد أبوه = ثم قد ساد قبل ذلك جده.

والاستواء في لغة العرب يأتي على عدة معاني بالنظر إلى تركيب الجمل.

أولها: الكمال وذلك إذا عدي بنفسه مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ أي كمل.

ثانها: المساواة كقولهم استوى الماء والخشبة.

ثالثها: الارتفاع كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وكقوله تعالى: ﴿لِنَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾.

الرابعة: القصد المتضمن للعلو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾.

قال ابن القيم **كما في مختصر الصواعق (ص: ٣٧٢):** أَنَّ لَفْظَ الْإِسْتِوَاءِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الَّذِي خَاطَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى بِلُغَتِهِمْ وَأَنْزَلَ بِهَا كَلَامَهُ نَوْعَانِ: مُطْلَقٌ وَمُقَيَّدٌ، فَالْمُطْلَقُ مَا لَمْ يُوصَلْ مَعْنَاهُ بِحَرْفٍ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤] وَهَذَا مَعْنَاهُ كَمَلٌ وَتَمَّ، يُقَالُ: اسْتَوَى النَّبَاتُ وَاسْتَوَى الطَّعَامُ، وَأَمَّا الْمُقَيَّدُ فَثَلَاثَةٌ أَضْرَابٍ: أَحَدُهَا: مُقَيَّدٌ بِإِلَى كَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وَاسْتَوَى فَلَانٌ إِلَى السَّطْحِ وَإِلَى الْعُرْفَةِ، وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَذَا الْمَعْدَى بِإِلَى فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ: فِي الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] وَالثَّانِي فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وَهَذَا بِمَعْنَى الْعُلُوِّ وَالْإِرْتِفَاعِ بِإِجْمَاعِ السَّلَفِ.

وَالثَّانِي: مُقَيَّدٌ بِعَلَى كَقَوْلِهِ: ﴿وَاسْتَوَى عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] وَقَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩] وَهَذَا أَيْضًا مَعْنَاهُ الْعُلُوُّ وَالْإِرْتِفَاعُ وَالْإِعْتِدَالُ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ اللُّغَةِ، الثَّلَاثُ: الْمُفْرُونَ بِوَاوٍ (مَعَ) الَّتِي تُعَدِّي الْفِعْلَ إِلَى الْمَفْعُولِ مَعَهُ، نَحْوُ: اسْتَوَى الْمَاءُ وَالْخَشْبَةَ بِمَعْنَى سَاوَاهَا، وَهَذِهِ مَعَانِي الْإِسْتِوَاءِ الْمَعْقُولَةِ فِي كَلَامِهِمْ، لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى

اسْتَوَلَى الْبَيْتَةَ، وَلَا تَقْلَهُ أَحَدٌ مِنْ أُمَّةِ اللُّغَةِ الَّذِينَ يُعْتَمَدُ قَوْلُهُمْ، وَإِنَّمَا قَالَهُ مُتَأَخَّرُو
النُّحَاةِ مِمَّنْ سَلَكَ طَرِيقَ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ. انتهى

والسما في اللغة العلو فكل ما علا الشيء فهو سما فتقول سما البيت أي سقفه
وتقول السحاب في السماء وتقصد به ما على الأرض ومنه قوله تعالى: ﴿أَمِنْتُمْ مَنْ فِي
السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴿الملك: ١٦، ١٧﴾ فإن معنى في السماء العلو وللعلماء
قولان في بيان ذلك فإما أن نقول السماء بمعنى العلو فيكون المعنى أأمتتم من في
العلو وهو الله تعالى، وإما أن نقول بأن في هنا بمعنى على وذلك لأن أحرف الجر
تتناوب فيكون المعنى أأمتتم من على السماء وفي هذا بيان لعلو الله تعالى المطلق
على خلقه هذه الصفة العظيمة التي دل عليها الكتاب والسنة والإجماع والعقل
والفطرة فله تعالى علو الذات والقدر والقهر فهو العلي العظيم وهو الأعلى ذاتاً
وصفاتاً وقهراً خلافاً لما عليه أهل البدع من المعتزلة والجهمية والرافضة والصوفية
والخوارج الذين يزعمون أن الله تعالى في كل مكان بذاته تعالى الله عن قولهم علواً
كبيراً.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ فِي الكافية الشافية (ص: ٧٥):

- | | | |
|-----------------------------|----|----------------------------|
| والفوق وصف ثابت بالذات من | ❖❖ | كل الوجوه لفاطر الأكوان |
| لكن نفاة الفوق ما وافوا به | ❖❖ | جحدوا كمال الفوق للديان |
| بل فسروه بأن قدر الله أعـ | ❖❖ | لئ لا يفوق الذات للرحمن |
| قالوا وهذا مثل قول الناس في | ❖❖ | ذهب يرى من خالص العقبان |
| هو فوق جنس الفضة البيضاء لا | ❖❖ | بالذات بل في مقتضى الأثمان |
| والفوق أنواع ثلاث كلها | ❖❖ | لله ثابتة بلا نكران |

هذا الذي قالوا وفوق القهر وال ❀❀ فوقية العليا على الأكون
لكن المراد بقوله في هذه الآية السماء الأجرام العظيمة المعروفة التي هي فوق
الأرض كالقبة ونعود لما ذكره أهل العلم في معنى الآية.

قال ابن جرير رحمه الله تعالى (١/ ٤٢٩): الاستواء في كلام العرب منصرف على

وجوه: منها انتهاء شباب الرجل وقوته، فيقال، إذا صار كذلك: قد استوى الرَّجُلُ.
ومنها: استقامة ما كان فيه أودُّ من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان
أمره. إذا استقام بعد أودٍ، ومنه قول الطِّرِمَّاح بن حكيم:

طَالَ عَلَيَّ رَسْمٌ مَهْدَدٌ أَبْدُهُ ❀❀ وَعَفَا وَاسْتَوَى بِهِ بَلَدُهُ
يعني: استقام به.

ومنها: الإقبال على الشيء يقال استوى فلانٌ على فلان بما يكرهه ويسوءه بعد
الإحسان إليه.

ومنها الاحتياز والاستيلاء، كقولهم: استوى فلان على المملكة. بمعنى احتوى
عليها وحازها.

ومنها: العلو والارتفاع، كقول القائل، استوى فلان على سريره. يعني به علوه
عليه.

وأولى المعاني بقول الله جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ﴾، علا
عليهن وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سموات.

والعجبُ ممن أنكر المعنى المفهوم من كلام العرب في تأويل قول الله: ﴿ثُمَّ
اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، الذي هو بمعنى العلو والارتفاع، هرباً عند نفسه من أن يلزمه
بزعمه - إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك - أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها
- إلى أن تأوله بالمجهول من تأويله المستنكر.

ثم لم يَنْجُ مما هَرَبَ منه! فيقال له: زعمت أن تأويل قوله: "استوى" أقبل، أفكان مُدْبِرًا عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فُقل: علا عليها علوُّ مُلكٍ وسُلطان، لا علوُّ انتقالٍ وزوال.

ثم لن يقول في شيء من ذلك قولًا إلا ألزم في الآخر مثله. ولولا أنا كرهنا إطالة الكتاب بما ليس من جنسه، لأنبأنا عن فساد قول كل قائل قال في ذلك قولًا لقول أهل الحق فيه مخالفًا. وفيما بينا منه ما يُشرف بذي الفهم على ما فيه له الكفاية إن شاء الله تعالى. انتهى

قال ابن كثير (١/ ٢١٣): ﴿تَرَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أَي: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، وَالْإِسْتَوَاءُ هَاهُنَا تَضَمَّنَ مَعْنَى الْقَصْدِ وَالْإِقْبَالَ؛ لِأَنَّهُ عُدِّي بِإِلَى. انتهى

واختار هذا القول العثيمين في تفسيره فقال (١/ ١٠٩): فللعلماء في تفسير

﴿اسْتَوَىٰ إِلَى﴾ قولان: الأول: أن الاستواء هنا بمعنى القصد؛ وإذا كان القصد تامًا قيل: استوى؛ لأن الاستواء كله يدل على الكمال، كما قال تعالى: **﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ،**

وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤] أي كمل؛ فمن نظر إلى أن هذا الفعل عُدِّي بـ **﴿إِلَى﴾** قال: إن **﴿اسْتَوَىٰ﴾** هنا ضَمَّنَ معنى قصد؛ ومن نظر إلى أن الاستواء لا يكون إلا في علوِّ

جعل **﴿إِلَى﴾** بمعنى "على"؛ لكن هذا ضعيف؛ لأن الله تعالى لم يستوِ على السماء أبدًا؛ وإنما استوى على العرش؛ فالصواب ما ذهب إليه ابن كثير **رَحْمَةُ اللَّهِ** وهو أن

الاستواء هنا بمعنى القصد التام، والإرادة الجازمة؛ و**﴿السَّمَاءِ﴾** أي العلو. انتهى

والذي ذكره ابن كثير في الواقع لا يتعارض مع ما ذكره ابن جرير فإن الله تعالى قصد إلى خلق السماء وهو في العلو وقد اختار ابن القيم **رَحْمَةُ اللَّهِ** أن إلى السماء بمعنى على السماء كما تقدم ونقل عليه الإجماع.

وقال ابن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ كَمَا فِي مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى (١٦ / ٣٥٩): وَالسَّلْفُ فَسَّرُوا "

الِاسْتِوَاءَ " بِمَا يَتَّصَمَّنُ الِازْتِفَاعُ فَوْقَ الْعَرْشِ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ قَالَ: اَرْتَفَعَ. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدِهِمْ رَوَاهُ مِنْ حَدِيثِ آدَمَ بْنِ أَبِي إِيَّاسٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ أَبِي الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ قَالَ: اَرْتَفَعَ. اَنْتَهَى

وقال: مَجْمُوعِ الْفَتَاوَى (٥ / ٥٢٢): وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ إِنَّمَا فَسَّرُوهُ

بِأَنَّهُ اَرْتَفَعَ لِأَنَّهُ قَالَ قَبْلَ هَذَا: ﴿أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾﴾، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِجْسًا مِنْ قَوْلِهَا وَيَبْرِكُ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيَالٍ ﴿٢﴾﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿٣﴾﴾، ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي سُورَةِ (حَم) بِمَكَّةَ. ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي الْمَدِينَةِ سُورَةَ الْبَقَرَةِ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَهْوَاتًا فَأَجِلكُمْ ثُمَّ يُمِيطُكُمْ ثُمَّ يُجِيعُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ فَلَمَّا ذَكَرَ أَنَّ اسْتِوَاءَهُ إِلَى السَّمَاءِ كَانَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَخَلَقَ مَا فِيهَا؛ تَتَّصَمَّنُ مَعْنَى الصُّعُودِ لِأَنَّ السَّمَاءَ فَوْقَ الْأَرْضِ فَالِاسْتِوَاءُ إِلَيْهَا اَرْتِفَاعٌ إِلَيْهَا. فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا كَانَ إِنَّمَا اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ فَقَبْلَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ عَلَى الْعَرْشِ؟ قِيلَ: الِاسْتِوَاءُ عُلُوٌّ خَاصٌّ فَكُلُّ مُسْتَوٍ عَلَى شَيْءٍ عَالٍ عَلَيْهِ وَلَيْسَ كُلُّ عَالٍ عَلَى شَيْءٍ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ. وَلِهَذَا لَا يُقَالُ لِكُلِّ مَا كَانَ عَالِيًا عَلَى غَيْرِهِ إِنَّهُ اسْتَوَى عَلَيْهِ وَاسْتَوَى عَلَيْهِ وَلَكِنْ كُلُّ مَا قِيلَ فِيهِ إِنَّهُ اسْتَوَى عَلَى غَيْرِهِ؛ فَإِنَّهُ عَالٍ عَلَيْهِ: وَالَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ " الِاسْتِوَاءَ " لَا مُطْلَقَ الْعُلُوِّ مَعَ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ قَبْلَ

السَّلَفِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " **مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَفْعَدَهُ مِنَ النَّارِ** ". انتهى

وقوله تعالى: ﴿ **فَسَوَّلْهُنَّ** ﴾: يعني هياهن وخلقهن ودبرهن وقومهن. والتسوية في كلام العرب، التقويم والإصلاح والتوطئة، كما يقال: سَوَّى فلان لفلان هذا الأمر. إذا قومه وأصلحه ووطأه له. فكذلك تسوية الله جل ثناؤه سمواته: تقويمه إياهن على مشيئته، وتدبيره لهن على إرادته، وتفتيقهن بعد ارتتاقهن. انتهى من تفسير الطبري (١/ ٤٣١).

ومنه قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ٢** ﴾ [الأعلى: ٢] ومنه قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ٧** فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ٨ ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿ **فَسَوَّلْهُنَّ** ﴾ أي: فخلق السماء سبعة، والسماء هاهنا اسم جنس، فلهذا قال: ﴿ **فَسَوَّلْهُنَّ** ﴾. ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦** ﴾ أي: وعلمه محيط بجميع ما خلق. كما قال: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ١٤** ﴾ [الملك: ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله: ﴿ **قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ١١** وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَدَرَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَمْوَاجَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ١٢ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٣ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ١٤ ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتداءً بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعة، وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعاليه بعد ذلك، وقد صرح المفسرون بذلك، كما سندكره بعد هذا إن شاء الله. فأما قوله تعالى: ﴿ **ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ١٧** رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلَهَا ١٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ١٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا

﴿٣٥﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ﴿٣٦﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَهَا ﴿٣٧﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٧-٣٢] فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ﴿مُرًّا﴾ هَاهُنَا إِنَّمَا هِيَ لِعَطْفِ الْخَبْرِ عَلَى الْخَبْرِ، لَا لِعَطْفِ الْفِعْلِ عَلَى الْفِعْلِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قُلْ لِمَنْ سَادَتْمْ سَادَ أَبُوهُ ❀❀ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ
 وَقِيلَ: إِنَّ الدَّحَى كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ
 عَبَّاسٍ. وَقَدْ قَالَ السُّدِّيُّ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ -وَعَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -
 وَعَنْ مُرَّةَ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَعَنْ نَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي
 الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
 عَلِيمٌ﴾ ﴿٣٨﴾ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا غَيْرَ مَا خَلَقَ
 قَبْلَ الْمَاءِ. فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، أَخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ دُحَانًا، فَارْتَفَعَ فَوْقَ الْمَاءِ فَسَمَّا
 عَلَيْهِ، فَسَمَّاهُ سَمَاءً. ثُمَّ أَيْسَسَ الْمَاءَ فَجَعَلَهُ أَرْضًا وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَّهَا فَجَعَلَهَا سَبْعَ أَرْضِينَ
 فِي يَوْمَيْنِ فِي الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ، فَخَلَقَ الْأَرْضَ عَلَى حُوتٍ، وَالْحُوتُ هُوَ التُّونُ الَّذِي
 ذَكَرَهُ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: ﴿ت وَالْقَلَمِ﴾ وَالْحُوتُ فِي الْمَاءِ، وَالْمَاءُ عَلَى ظَهْرِ صَفَاةٍ،
 وَالصَّفَاةُ عَلَى ظَهْرِ مَلَكٍ، وَالْمَلَكُ عَلَى صَخْرَةٍ، وَالصَّخْرَةُ فِي الرِّيْحِ، وَهِيَ الصَّخْرَةُ
 الَّتِي ذَكَرَ لُقْمَانَ -لَيْسَتْ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، فَتَحَرَّكَ الْحُوتُ فَاضْطَرَبَ،
 فَتَرَزَلَتِ الْأَرْضُ، فَأَرَسَى عَلَيْهَا الْجِبَالَ فَفَرَّتْ، فَالْجِبَالُ تَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ، فَذَلِكَ
 قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النَّحْلِ: ١٥]. وَخَلَقَ الْجِبَالَ
 فِيهَا، وَأَقْوَاتَ أَهْلِهَا وَشَجَرَهَا وَمَا يَنْبَغِي لَهَا فِي يَوْمَيْنِ، فِي الثَّلَاثَاءِ وَالْأَرْبَعَاءِ، وَذَلِكَ
 حِينَ يَقُولُ: ﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَتَّبِعُونَ لَهُمْ آندَادًا ذَلِكَ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَدْرًا فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
 أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلْسَّائِلِينَ ﴿٢﴾ [فُصِّلَتْ: ٩، ١٠]. يَقُولُ: أَنْبَتَ شَجَرَهَا ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا
 أَقْوَاتَهَا﴾ يَقُولُ: أَقْوَاتَهَا لِأَهْلِهَا ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءَ لِلْسَّائِلِينَ﴾ ﴿٣﴾ [فُصِّلَتْ: ١٠]

يَقُولُ: مَنْ سَأَلَ فَهَكَذَا الْأَمْرُ. ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فُصِّلَتْ: ١١] وَذَلِكَ الدُّخَانُ مِنْ تَنْفَسِ الْمَاءِ حِينَ تَنْفَسُ، فَجَعَلَهَا سَمَاءً وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَهَا فَجَعَلَهَا سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ، فِي الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ لِأَنَّهُ جُمِعَ فِيهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فُصِّلَتْ: ١٢] قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ فِي كُلِّ سَمَاءٍ خَلْقَهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْخَلْقِ الَّذِي فِيهَا، مِنَ الْبِحَارِ وَجِبَالِ الْبَرِّ وَمَا لَا نَعْلَمُ، ثُمَّ زَيَّنَ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِالْكَوَاكِبِ، فَجَعَلَهَا زِينَةً وَحِفْظًا تُحْفَظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ. فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِ مَا أَحَبَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الْأَعْرَافِ: ٥٤] وَيَقُولُ ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الْأَنْبِيَاءِ: ٣٠].

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي أَبُو مَعْشَرَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ بَدَأَ الْخَلْقَ يَوْمَ الْأَحَدِ، فَخَلَقَ الْأَرْضَيْنِ فِي الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْأَقْوَاتِ وَالرَّوَاسِي فِي الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَاءِ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ فِي الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ، وَفَرَّغَ فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَخَلَقَ فِيهَا آدَمَ عَلَى عَجَلٍ، فَبَلَكَ السَّاعَةَ الَّتِي تَقُومُ فِيهَا السَّاعَةُ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾

﴿فَسَوَّلَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ، وَسَبْعُ أَرْضَيْنِ، يَعْنِي بَعْضُهُنَّ تَحْتَ بَعْضٍ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ السَّجْدَةِ: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَكَفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُمْ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَدْرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ

لِلسَّيَّالِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٦﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٧﴾ ﴿فُصِّلَتْ: ٩-١٢﴾ فَهَذِهِ وَهَذِهِ دَالَّتَانِ عَلَىٰ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَهَذَا مَا لَا أَعْلَمُ فِيهِ نِزَاعًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا مَا نَقَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ قَتَادَةَ: أَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ السَّمَاءَ خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ، وَقَدْ تَوَقَّفَ فِي ذَلِكَ الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَشَدُّ خَلْقًا أَمَّ السَّمَاءَ بَدَنَهَا ﴿١٧﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿١٨﴾ وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَمَكَهَا ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢١﴾﴾ [النَّازِعَاتِ: ٢٧-٣١] قَالُوا: فَذَكَرَ خَلْقَ السَّمَاءِ قَبْلَ الْأَرْضِ. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عَنْ هَذَا بِعَيْنِهِ، فَأَجَابَ بِأَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ قَبْلَ السَّمَاءِ وَأَنَّ الْأَرْضَ إِنَّمَا دُحِيتْ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ أَجَابَ غَيْرٌ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، وَقَدْ قَرَّرْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّازِعَاتِ، وَحَاصِلُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّحْيَ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا ﴿٢٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٢١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿٢٢﴾﴾ [النَّازِعَاتِ: ٣٠-٣٢] فَفَسَّرَ الدَّحْيَ بِإِخْرَاجِ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا بِالْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ لَمَّا اكْتَمَلَتْ صُورَةُ الْمَخْلُوقَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ثُمَّ السَّمَاوِيَّةِ دَحَى بَعْدَ ذَلِكَ الْأَرْضَ، فَأَخْرَجَتْ مَا كَانَ مُودَعًا فِيهَا مِنَ الْمِيَاهِ، فَنَبَتَتِ النَّبَاتَاتُ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهَا وَصِفَانِهَا وَأَلْوَانِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَكَذَلِكَ جَرَتْ هَذِهِ الْأَفْلَاكُ فَدَارَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الْكَوَاكِبِ الثَّوَابِتِ وَالسَّيَّارَةِ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَمُ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْحَدِيثَ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ فِي التَّفْسِيرِ - أَيْضًا - مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أُمَيَّةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ خَالِدٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَافِعٍ مَوْلَىٰ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِي فَقَالَ: "خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ،

وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ".
 وَهَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَرَائِبِ صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَقَدْ تَكَلَّمَ عَلَيْهِ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ
 وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرَ وَاحِدٍ مِنَ الْحَفَاطِ، وَجَعَلُوهُ مِنْ كَلَامِ كَعْبٍ، وَأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ إِنَّمَا سَمِعَهُ
 مِنْ كَلَامِ كَعْبِ الْأَخْبَارِ، وَإِنَّمَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ الرُّوَاةِ فَجَعَلُوهُ مَرْفُوعًا، وَقَدْ حَرَّرَ
 ذَلِكَ الْبَيْهَقِيُّ. انتهى

قوله تعالى: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي أن عدد السموات سبع سموات وهذا جاء به
 مصرحا في عدة آيات قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ
 غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧] وقال جل ذكره: ﴿فَقَضَيْنَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي
 كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]
 [فصلت: ١٢] ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢] ﴿الَّذِي
 خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفْوُتٍ فَإِرجع الْبَصَرَ هَل تَرَى مِن فُطُورٍ
 ﴿٣﴾ [الملك: ٣] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]

قال تفسير القرطبي (٢٥٨/١): ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ السَّمَاوَاتِ سَبْعٌ. وَلَمْ يَأْتِ لِلْأَرْضِ فِي
 التَّنْزِيلِ عَدَدٌ صَرِيحٌ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ إِلَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]
 [١٢] وَقَدْ اخْتَلَفَ فِيهِ، فَقِيلَ: وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ أَي فِي الْعَدَدِ، لِأَنَّ الْكَيْفِيَّةَ وَالصِّفَةَ
 مُخْتَلَفَةٌ بِالمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ، فَتَعَيَّنَ الْعَدَدُ. وَقِيلَ: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أَي فِي
 غُلْظَتِهَا وَمَا بَيْنَهُنَّ. وَقِيلَ: هِيَ سَبْعٌ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُفَسَّقْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ.

قَالَ الدَّوْدِيُّ: وَالصَّحِيحُ الْأَوَّلُ، وَأَنَّهَا سَبْعٌ كَالسَّمَاوَاتِ سَبْعٌ. رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ
 سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شَبْرًا مِنْ

هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ». قَالَ أَبُو عِيسَى: قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ: لَهَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهُوَ عَلَى عَرْشِهِ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ. قَالَ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَالْحَسَنُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَالْآثَارُ بِأَنَّ الْأَرْضِينَ سَبْعٌ كَثِيرَةٌ، وَفِيمَا ذَكَرْنَا كِفَايَةً.

وَقَدْ رَوَى أَبُو الضُّحَى - وَاسْمُهُ مُسْلِمٌ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قَالَ: سَبْعُ أَرْضِينَ فِي كُلِّ أَرْضٍ نَبِيٌّ كَنَيْبِكُمْ، وَآدَمُ كَادَمَ، وَنُوحٌ كَنُوحٍ، وَإِبْرَاهِيمُ كِإِبْرَاهِيمَ، وَعِيسَى كَعِيسَى. قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: إِسْنَادُ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ صَحِيحٌ، وَهُوَ شَاذٌ بِمَرَّةٍ لَا أَعْلَمُ لِأَبِي الضُّحَى عَلَيْهِ دَلِيلًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى

وقال رحمه الله (١/ ٢٥٥): يَظْهَرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، وَكَذَلِكَ فِي "حَمِ السَّجْدَةِ". وَقَالَ فِي النَّازِعَاتِ: ﴿أَنشَأْتُ خَلْقًا أَمَّ السَّمَاءِ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧] فَوَصَفَ خَلْقَهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]. فَكَأَنَّ السَّمَاءَ عَلَى هَذَا خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ، وَقَالَ تَعَالَى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الانعام: ١] وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ: إِنَّ السَّمَاءَ خُلِقَتْ أَوَّلًا، حَكَاهُ عَنْهُ الطَّبْرِيُّ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّهُ تَعَالَى أَيْسَرَ الْمَاءِ الَّذِي كَانَ عَرْشُهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَهُ أَرْضًا وَثَارَ مِنْهُ دُخَانٌ فَارْتَفَعَ، فَجَعَلَهُ سَمَاءً فَصَارَ خَلْقُ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ، ثُمَّ قَصَدَ أَمْرُهُ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَكَانَتْ إِذْ خُلِقَتْ غَيْرَ مَدْحُوةٍ.

قُلْتُ: وَقَوْلُ قَتَادَةَ يَخْرُجُ عَلَى وَجْهِ صَحِيحٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ أَوَّلًا دُخَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَسَوَّاهَا،

ثُمَّ دَحَا الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ. ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فَعَلَ، فَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِيهِ الْأَقَاوِيلُ، وَلَيْسَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهِ مَدْخَلٌ. انتهى

وذكر السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور مجموعة من الأحاديث لا تخلو من مقال، وأحسن ما في الباب الموقوف عن ابن مسعود لكن له حكم الرفع؛ **فقال رحمه الله (١/ ١٠٧):** وأخرج أحمد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وعثمان بن سعيد الدارمي في الرد على الجهمية وابن أبي الدنيا في كتاب المطر وابن أبي عاصم في السنة وأبو يعلى وابن خزيمة في التوحيد وابن أبي حاتم وأبو أحمد والحاكم في الكنى والطبراني في الكبير وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه واللالكائي في السنة والبيهقي في الأسماء والصفات عن العباس بن عبد المطلب قال كنا عند النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** فقال: هل تدرؤن كم بين السماء والأرض قلنا: الله ورأسه أعلم قال: بينهما مسيرة خمسمائة عام ومن مسيرة سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام وكثف كل سماء خمسمائة سنة وفوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين وركهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه ما بين السماء والأرض والله **سبحانه وتعالى** علمه فوق ذلك وليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء.

وأخرج إسحق بن راهويه فسئله عن مسنده والبرار وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه والبيهقي عن أبي ذر قال قال رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام كذلك إلى السماء السابعة، والأرضون مثل ذلك وما بين السماء السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك ولو حفرتم لصاحبكم ثم دليتموه لوجد الله ثمة يعني علمه، وأخرج الترمذي وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال كنا جلوساً مع رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** فمرت سحابة فقال: «أتدرؤن ما هذه» قالوا:

الله وَرَسُولَهُ أَعْلَمَ فَقَالَ: «هَذِهِ الْغَيْبَةُ هَذِهِ رَوَايَا الْأَرْضِ يَسُوقُهَا اللَّهُ إِلَيَّ بِلَدٍ لَا يَعْبُدُونَهُ وَلَا يَشْكُرُونَهُ، هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءً، هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ مَوْجًا مَكْفُوفًا وَسَقْفًا مَحْفُوظًا؟ هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءً، هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ سَمَاءً أُخْرَى، هَلْ تَدْرُونَ كَمْ مَا بَيْنَهُمَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ، فَهَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَهُمَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «فَإِنَّ بَيْنَ ذَلِكَ كَمَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ» ثُمَّ قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا هَذِهِ؟ هَذِهِ أَرْضٌ، هَلْ تَدْرُونَ مَا تَحْتِهَا؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: «أَرْضٌ أُخْرَى وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ حَتَّىٰ عَدَّ سَبْعَ أَرْضِينَ بَيْنَ كُلِّ أَرْضِينَ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ».

وَأَخْرَجَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ فِي الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَابْنُ الْمُنْذَرِ وَالطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَاللَّالِكَايِيُّ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَصِيرُ كُلِّ سَمَاءٍ - يَعْنِي غَلْظَ ذَلِكَ - مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْكُرْسِيِّ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ. انْتَهَى

وقد اختلف العلماء في أول مخلوق على قولين مشهورين فقال بعض العلماء أن أول مخلوق القلم مستدلين بما أخرج أحمد (٢٢٧٠٥) وغيره: عن عبادة بن الوليد بن عبادة، قال: دَخَلْتُ عَلَىٰ عَبَادَةَ، وَهُوَ مَرِيضٌ أَتَخَايَلُ فِيهِ الْمَوْتَ فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ أَوْصِنِي

وَاجْتَهِدْ لِي. فَقَالَ: أَجْلِسُونِي. فَلَمَّا أَجْلَسُوهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَطْعَمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ، وَلَنْ تَبْلُغَ حَقَّ حَقِيقَةِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ مَا خَيْرُ الْقَدْرِ مِنْ شَرِّهِ؟ قَالَ: تَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ. يَا بُنَيَّ إِنَّنِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»، يَا بُنَيَّ إِنْ مِتَّ وَلَسْتَ عَلَى ذَلِكَ دَخَلْتَ النَّارَ.

وفي الباب عن ابن عباس، قَالَ: «أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ الْقَلَمَ، ثُمَّ خَلَقَ النُّونَ فَكَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى ظَهْرِ النُّونِ» موقوفاً أخرجه ابن أبي شيبة (٧ / ٢٧١)، وجاء عن غيره.

وذهب بعضهم إلى أن أول مخلوق العرش وهذا هو الصحيح لما ثبت عند مسلم (٢٦٥٣) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»، ووجه الدلالة من الحديث أن كتب المقادير كان قبل الخلق بخمسين ألف عام وكان العرش قبل الكتابة على الماء والله أعلم.

قال شيخ الإسلام في الصفدية (٢ / ٧٩): وقد تنازع السلف هل خلق العرش أولاً أو القلم؟ على قولين حكاهما الحافظ أبو نعيم العلاء الهمداني وغيره أصحابهما أن العرش أولاً ومن قال إن القلم خلق أولاً احتج بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه وغيره عن عبادة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

وقد روى عن ابن عباس من عدة أوجه أول ما خلق الله القلم فهذه الأحاديث هي المعروفة عند أهل العلم بالحديث. انتهى

وقال (٢ / ٨٢): وإنما قولنا الصحيح أن العرش خلق أولاً لأن ذلك ثبت في الحديث الصحيح رواه مسلم في صحيحه: **«أنه قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء»** فهذا يدل على أنه قدر إذ كان عرشه على الماء فكان العرش موجوداً مخلوقاً عند التقدير لم يوجد بعده. وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: **«كان الله ولا شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء»** وفي رواية: **«ثم كتب في الذكر كل شيء»** فهو أيضاً دليل على أن الكتابة في الذكر كانت والعرش على الماء. وأما الحديث الذي فيه أول ما خلق الله القلم وأنه أمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فذلك بيان لخلق العالم الذي خلقه في ستة أيام وأن تقدير هذا العالم كان قبل خلقه وأنه أول ما خلق من أسباب هذا العالم القلم لأن تقدير المخلوق سابق لخلق المخلوق.

وهذا ذكر فيه انه كتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة فالمقدر به هو المخلوق الذي خلق القلم قبله ولم يذكر فيه تقدير جميع المخلوقات الكائنة بعد القيامة فلم يجب أن يكون متقدماً على غيره هذه المقدرات المخلوقة مما خلق قبل ذلك. انتهى قوله تعالى: **﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** [البقرة: ٢٩]:

أي: أن الله الذي خلق السموات والأرض بكل شيء عليم والعليم هو الذي يعلم قال تعالى: **﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾** [البقرة: ٧٧] وقال تعالى: **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٢١٦]، **﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾** [البقرة: ٢٢٠]، وكل من ألفاظ العموم فلا تخفى على الله تعالى خافية فهو يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كيف يكون، قال تعالى: **﴿* وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾**

وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْبَسُ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابِ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ [سبأ: ٣] وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾ [النساء: ١١] إلى غير ذلك.

قال القرطبي في تفسيره تفسير القرطبي (١/ ٢٦١): قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ

شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي بما خلق وهو خالق كل شيء، فوجب أن يكون عالمًا بكل شيء، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] فَهُوَ الْعَالِمُ وَالْعَلِيمُ بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ بِعِلْمٍ قَدِيمٍ أَزَلِّيٍّ وَاحِدٍ قَائِمٍ بَدَاتِهِ، وَوَأَفَقْنَا الْمُعْتَزِلَةَ عَلَى الْعَالِمِيَّةِ دُونَ الْعِلْمِيَّةِ. وَقَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ: عَالِمٌ بِعِلْمٍ قَائِمٍ لَا فِي مَحَلٍّ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلَالَاتِ، وَالرَّدُّ عَلَى هَؤُلَاءِ فِي كُتُبِ الدِّيَانَاتِ. وَقَدْ وَصَفَ نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ بِالْعِلْمِ فَقَالَ: ﴿أَنْزَلَهُ وَيُعَلِّمُهُ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿أَنزَلْنَا أَنْزِلًا يُعَلِّمُ اللَّهُ وَأَنْ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وَقَالَ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يُعَلِّمُهُ﴾ [فاطر: ١١]، وَقَالَ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية. انتهى

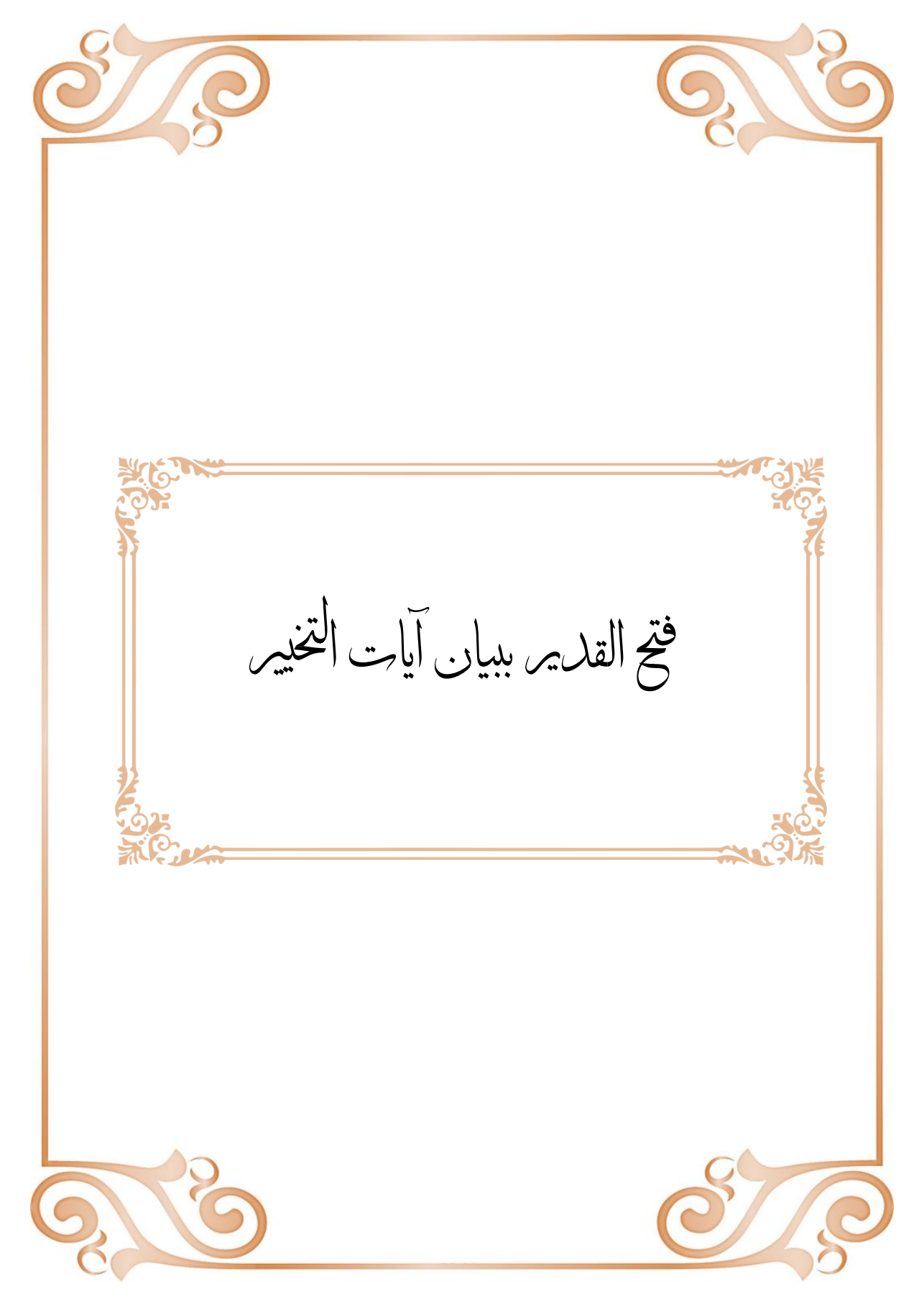
والإيمان بعلم الله تعالى هو من الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته فهو تعالم العالم والعليم الذي يعلم، والعلم صفة له خلافاً لقول المبتدعة من المعتزلة وغيرهم من أنه يعلم بذاته فهو يعلم بعلم والعلم صفة له تعالى العلم الذي لم يسبق بجهل ولا يلحقه نسيان.

والإيمان به أحد مراتب الإيمان بالقدر وهي أربع مراتب مجموعة في قول السفاريني:

علم كتابة مولانا مشيئته ❀❀ وخلقته وهو إيجاد وتكوين

وقد تقدم بيانها في سورة الفاتحة، والحمد لله وسياتي في قصة آدم **عَلَيْهِ السَّلَامُ**





فتح القدير ببيان آيات التخيير

تفسير آيات التخيير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [آل

عمران: ١٣].

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءِالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرِزْقَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرِحَنَّ سَرًا حَيْثُ مَا كُنْتُمْ تَرِيدْنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾ بِنِسَاءِ النَّبِيِّ مَنِ بَأْتٍ مِنْكُنَّ بِفَلْحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ * وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وِعْمَلٌ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ بِنِسَاءِ النَّبِيِّ لَسُنُنٌ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْنَّ فَمَا تَقْوَى الْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَلِينَ وَالْقَلِينَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِتِينَ وَالصَّابِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ [الأحزاب: ٢٨-٣٦].

هذه آيات بينات وأدلة واضحة وحكم وعبرات ذكرها الله عز وجل لنا فيما جرى بين نبي الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وبين أمهات المؤمنين الطاهرات المطهرات؛ فإنهن لما ألححن وضيقن على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في النفقة أمره الله تعالى بتخييرهن. وكانت أول من خيرت عائشة رضي الله عنها؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِيَابِهِ، لَمْ يُؤْذَنَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، قَالَ: فَأُذِنَ لِأَبِي بَكْرٍ، فَدَخَلَ، ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرَ، فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ، فَوَجَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاءُؤُهُ، وَاجِمًا سَاكِتًا، قَالَ: فَقَالَ: لِأَقُولَنَّ شَيْئًا أَضْحِكُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ، سَأَلْتَنِي النَّفَقَةَ، فَقُمْتُ إِلَيْهَا، فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: «هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى، يَسْأَلْنِي النَّفَقَةَ»، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا، كِلَاهُمَا يَقُولُ: تَسْأَلْنِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، فَقُلْنَ: وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا - أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ - ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًّا لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨] حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أُجْرًا عَظِيمًا﴾
 ﴿٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٩]، قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا
 أَحَبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّىٰ تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكَ»، قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا
 الْآيَةَ، قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَشِيرُ أَبَوَيْي؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالِدَارَ
 الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ لَا تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتَ، قَالَ: «لَا تَسْأَلْنِي امْرَأَةً
 مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَبًا، وَلَا مُتَعْتَبًا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مِيسِرًا».

فإنهن لما اخترن الله **عَزَّوَجَلَّ** ورسوله والدار الآخرة بشرهن الله تعالى بالخير
 العظيم والرزق الكريم والحياة السعيدة، وهددهن الله **عَزَّوَجَلَّ** وهنّ المصونات فإنهنّ
 طيبات مطيبات أن من أتت بفاحشة مبينة واضحة جلية ان الله **عَزَّوَجَلَّ** سيضاعف لها
 العذاب ضعفين وهذه الآيات فيها دروس للنساء المؤمنات:

* **منها:** أن المرأة يجب عليها أن تقدم ما من شأنه إرضاء الله **عَزَّوَجَلَّ**.

* **ومنها:** وجوب السير على ما كان عليه رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

* **ومنها:** أن المرأة ينبغي أن تقدم ما من شأنه رفع درجاتها ورفع منزلتها عند الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والحذر كل الحذر من الفواحش؛ لأن ضررها عظيم سواء كانت فاحشة
 الزنا ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ أو كان غير ذلك من
 الفواحش المستقبحة المحرمة في كتاب ربنا وفي سنة نبينا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

* **وفي هذه الآيات:** بيان من الله **عَزَّوَجَلَّ** أن الإنسان كلما علت منزلته وزاد علمه قد
 يعرض للوعيد أكثر غيره من الجهال: فإن المسلمين قد تسلط عليهم الجهل في كثير
 من البلدان، فلا يعرفون الحلال من الحرام، فربما رأيت المرأة تمشي كاشفة بوجهها
 رافعة لثيابها سافرة في ذهابها وإيابها والسبب في ذلك الجهل بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وقد يقع
 من الله **عَزَّوَجَلَّ** تجاوز على مثل هذه النسوة بسبب الجهل وبسبب البعد على العلم
 لكن المتعلمة قد يحلقها من الإثم في نفس المعصية أعظم مما يلحق تلك المرأة

المذنبه الجاهلة؛ لأن من علم قد أقيمت عليها الحجة وثبتت المحجة تسمع في ليلاها ونهارها وفي بيتها وخارجة، والنصائح تلو النصائح، والتوجيهات تلو التوجيهات، ولهذا يقول الله **عَزَّوَجَلَّ** ﴿لَسَنَنْكَأَنَّكَ مِنَ النِّسَاءِ﴾، ويقول: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، ويقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

* ومنها: ما وصى الله **عَزَّوَجَلَّ** وأخبر بما أعدَّ للقانتات من المسلمات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، فتقبل على الطاعة من صلاة، وصيام، وقيام، وذكر، وبر، وطاعة لزوجها، وتربية لأبنائها، وإكرام جيرانها، وحفظ لسانها إلى غير ذلك من الطاعات، وتستمر على ذلك؛ فإن القنوت دوام الطاعة والاستمرار عليها تقنت لله وتلازم العمل الصالح فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** سيؤتيها أجرا عظيمًا، كما أن العذاب يضاعف على زوجات النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إن أئمن بشيء فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد ضاعف لهن الأجور.

وهكذا طالبات العلم ومن يسمعن المواعظ فيستقمن عليها ويلازمن الأعمال الصالحة يرجى لهن الخير، ويرجى لهن الأجر على طلب العلم، والأجر على طاعة الله والأجر على المتابعة للنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، والأجر على العفة، والأجر على القول الحسن، والأجر على الإحسان إلى الأقارب والجيران والأرحام، والأجر على تربية الأبناء والبنات، وهكذا كم من الأجور التي تلحق المرء الصالح القانت المنيب.

* ومنها: ما وصى الله **عَزَّوَجَلَّ** بما من شأنه زيادة الخير لنساء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** خصوصًا ولنساء الأمة عمومًا فقال: ﴿يَنْسَأَنَّ النَّبِيَّ لَسَنَنَّكَ أَحَدٌ

مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٦﴾

فقوله: ﴿إِنْ اتَّقَيْتُنَّ﴾: حث على التقوى وهي المراقبة لله عز وجل، وهي العمل بالكتاب والسنة على نور من الله والبعد عن المعاصي والسيئات على نور من الله، وسمي المتقي بهذا الاسم؛ لأنه يتقي عذاب الله وسخطه سبحانه وتعالى، فالمرأة إذا أرادت أن تكون ملازمة لهذا الطريق طريق التقوى فلتعمل بما من شأنه أن يكون زيادة للتقوى وزيادة البر والإحسان والخير والصلاح.

ومن شأن المتقية: أن "لا تخضع بالقول" أي: تتمايل في قولها أو في مشيها أو في إجابتها؛ فإن الخضوع في القول مؤداه إلى اقتانها وافتتان غيرها بها، وطمع أصحاب القلوب المريضة بها، قال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿٣٦﴾، لكن عليها أن تقول القول الطيب والقول الذي لا خضوع فيه ولا تمايل ولا فتنة.

وفي هذا: بيان أنه لا يحرم كلام النساء مع الرجال مطلقاً، فقد تحتاج ان تتكلم مع من ليس بمحرم ولكن الذي يحرم هو الخضوع بالقول مما يؤدي إلى فتنها وإلى فتنة غيرها بها.

* **ومن أسباب ملازمة التقوى:** القرار في البيت إلا لحاجة، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، والقرار السكون وعدم الخروج لغير حاجة، وسميت الحياة الأخرى بحياة القرار؛ لأنها لا تحول عنها، فكذلك المرأة عليها أن تقرر في البيت وتمكث في البيت ولا تخرج إلا لحاجة، وإذا خرجت لا تخرج متعطرة ولا متمائلة ولا متبرجة ولا شيء من ذلك، فإن ذلك ليس من سمات المسلمين، فقد جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري عن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- قال: «كَانَتْ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَصِيرَةٌ تَمْشِي مَعَ امْرَأَتَيْنِ طَوِيلَتَيْنِ، فَأَتَخَذَتْ رِجْلَيْنِ مِنْ حَشَبٍ، وَخَاتَمًا مِنْ

ذَهَبٍ مُّغْلَقٌ مُّطْبَقٌ، ثُمَّ حَشَتُهُ مِسْكَاً، وَهُوَ أَطْيَبُ الطَّيْبِ، فَمَرَّتْ بَيْنَ الْمَرَاتَيْنِ، فَلَمْ يَعْرِفُوهَا، فَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا» وَنَفَضَ شُعْبَةُ يَدَهُ، رواه مسلم.

ولهذا قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أَيُّ امْرَأَةٍ اسْتَعَطَّرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ»، أخرجها النسائي عن أبي موسى الأشعري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وهو في "الصحيح المسند".

فهذا فعل الزواني وليس بفعل الحرائر المصونات والنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كما ثبت عن زينب الثقفية قال: «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاءَ فَلَا تَطِيبُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ»، وفي رواية: «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طَيْبًا»، رواهما مسلم في صحيحه. فالمرأة مأمورة بالقرار في البيت وعدم الخروج وإن خرجت تخرج لحاجة مع الآداب الشرعية من غض البصر، وكف الأذى، وأخذ جانب الطريق، والستر في اللباس، وعدم التطيب.

* **ومنها**: عدم التبرج؛ لأنه فعل الجاهلية فيه النهي عن التشبه بالكفار، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾، فالتبرج من شأن أهل الجاهلية من شأن الكفار الذين لا يخافون الله ولا يعملون بسنة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، أما المسلمة شأنها عظيم ينبغي أن تقرّ في البيت، وإذا خرجت من البيت أن تلازم ما من شأنه الستر لها والبعد عن فتنتها وفتنة غيرها.

* **ومنها**: إقام الصلاة والمحافظة عليها قال تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾، مع القرار في البيت ومع عدم الخضوع بالقول ومع اصلاح الظاهر والباطن ينبغي لها أن تكون متقربة إلى الله **عَزَّ وَجَلَّ** بالصلاة الركن العظيم الصلاة التي من تركها فقد كفر، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»، أخرج به مسلم.

وأن تصلي كما صلى رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فتتعلم كيف تصلي وكيف تذكر ربها، وكيف تدعوه، وتحسن الوضوء، والخشوع، والركوع، وتكون طاهرة

الثوب والبدن والمكان، وتفعل ما من شأنه أن تصلي كما صلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»، رواه البخاري.

وينبغي لها: أن تتقرب إلى الله بأنواع القربات في هذا الباب من صلاة الضحى، والنوافل القبليّة والبعديّة، ومن قيام الليل، ومن صلاة الاستخارة ومن غير ذلك ففي هذا أجر عظيم.

ومنها: ما أمرهن الله **عَزَّجَلَّ** بإتاء الزكاة: قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَ الزَّكَاةَ﴾، فإن بلغ مالها النصاب تؤدي الزكاة المفروضة؛ فإن لم يكن لها مال نصاب تتصدق مما لا إفساد فيه من مال زوجها؛ فعن عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** قالت: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ، كَانَ لَهَا أَجْرُهَا، وَلَهُ مِثْلُهُ بِمَا اكْتَسَبَ، وَهَذَا بِمَا أَنْفَقَتْ، وَلِلْحَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا»، متفق عليه.

وتتصدق ولو بالمرق، قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لأبي ذر: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»، أخرجهم مسلم، وتؤتي الجيران الأقرب فالأقرب، فإن لم تجد ما تتصدق به؛ فـ«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ»، فالكلمة الطيبة صدقة، تحسن إلى أخواتها المسلمات بالكلمة الطيبة من غير جرح لمشاعرهن ومن كلام في أعراضهن ومن غير اذية للمسلمين؛ كما في حديث أبي ذرٍّ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند مسلم، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ» قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْفُسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا» قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقٍ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «تَكْفُفُ شَرَكَ عَنِ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ».

ومنها: أن على المرأة أن تطيع الله تعالى ورسوله الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وهذا من الإجمال بعد التفصيل.

وأعظم ما يُطاع الله تعالى به: التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، فالله تعالى هو الذي خلقها ورزقها وأنعم عليها وكساها وهداها وأواها، قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصِيهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾، فالطاعات ليست للرجال فقط بل هي مطلوبة من الرجال والنساء قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، لكن قد تجد التقصير عند النساء أكثر فجاءت هذه الآيات البينات الواضحات الجليلات في حث النساء على طاعة الله **عَزَّوَجَلَّ** وإخلاص العمل له والمراقبة له في السر والعلن: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿١٨﴾ وَتَقُوبُكَ فِي السَّجْدِ ﴿١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

ولتحقيق هذا الباب يجب البعد عما يناقضه من الشركيات؛ فإن النساء يقع منهم التعلق بالحرور والتمائم، وربما الذهاب إلى السحرة والمشعوذين أكثر من الرجال. ويدخل في ذلك: طاعة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ومتابعته فيما ليس من خصائص الرجال، فيجب أن تطيعه في ما أمر وتنتهي عن ما نهى عنه وزجر وتصدقه فيما أخبر. ويدخل فيها: طاعة الزوج في طاعة الله **عَزَّوَجَلَّ** وطاعة رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فإن حقه عظيم على ما هو مبين في موطنه.

ومن ذلك الاهتمام بتربية الأبناء على دين الله **عَزَّوَجَلَّ** فإن ذلك من الأمانة. وتحقيق ما تقدم: سبب لطهارة الأنفس وزكاتها وسبب لغفران الذنوب وستر العيوب، فقد بين الله **عَزَّوَجَلَّ** أن طاعة الله ورسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ومع القرار في البيت وملازمة أسباب العفة، من ترك التبرج والخضوع في القول فإنه مما يذهب الرجس وهو الشر والخبث، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيَذْهَبَ عَنْكُمْ الرَّجْسُ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٦﴾، فهذه العبادات الجليلات ليست محصورة على زوجات النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وإنما هي عبادات جليلات يشترك معهن غيرهن فيها.

والذي نستفيده من الآية: أن المرأة التي تريد أن تتجنب الرجز وان تطهر نفسها وقلبها؛ أن تحافظ على ما ذكره الله **عَزَّوَجَلَّ** في هذه الآيات البينات الواضحات الجليلات.

* **ومنها:** وصية الله **عَزَّوَجَلَّ** بما فيه نفع نساء النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وغير من نساء المسلمين، وفيها نفع للرجال: قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿**وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ أي: اذكرن القرآن واذكرن السنة واعملن بالقرآن والسنة، فالحكمة هي السنة والعمل بالقرآن والسنة الصحيحة هو غاية الفلاح وسبب السعادة في الدارين وسبب لصلاح الظاهر والباطن.

ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٧﴾**﴾ فمع علم الله **عَزَّوَجَلَّ** ببواطننا وظواهرنا وإسرافنا في أمرنا وبتقصيرنا لكنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لطيف بعباده فيعاملهم باللطف واللطيف هو الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق، ما لا يدره، ويريه من الأسباب، التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات، وأرفع المنازل.

ومن لطفه: أنه يتجاوز عنهم، ووالله لو يؤاخذنا الله **عَزَّوَجَلَّ** بما نعمل وما تعمل نساؤنا ما بقينا، فإننا نتعاطى ذنوب كثيرة نسأل الله السلامة، ونفرط في شأن عظيم لكن الله تعالى لطيف بعباده مع علمه بهم، فالتخيير بمعنى: العلم وهو المطلع على بواطن الأمور، فالله **عَزَّوَجَلَّ** مع اطلاعه على بواطن الأمور فمن باب أولى ظواهرها إلا أنه لطيف بعباده رحيم بهم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

الوصية الجامعة في هذه الآيات:

ثم قال بعد ذلك مبيناً الأجر العظيم للرجال والنساء ممن يحافظ على ما ذكره الله عزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ وَالْحَفِظِينَ وَالْحَفِظَاتِ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا

﴿٣٥﴾

قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، وعقابهن -لو قدر عدم الامتثال-، وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها. ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾: أي: المطيعين لله ولرسوله، ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾: في مقالهم وفعالهم، ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾، ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على الشدائد والمصائب، ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم، ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ فرضاً ونفلاً، ﴿وَالصَّابِغِينَ وَالصَّابِغَاتِ﴾ شمل ذلك، الفرض والنفل. ﴿وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عن الزنا ومقدماته، ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أي: في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المقيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات، ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر،

وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان فجازاهم على عملهم "بِالْمَغْفِرَةِ" لذنوبهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم. انتهى

فكل هذه الاصناف موعودة بالأجر العظيم من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، سواء كانوا رجالاً أو نساءً، فعلى المسلم أن يستسلم لله بالتوحيد وينقاد له بالطاعة ويبرأ من الشرك وأهله، وعليه أن يراقب الله **عَزَّوَجَلَّ** في أعماله القلبية فيؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره.

وعليه أن يحافظ على الصلاة الصيام والقيام ويلتزم الطاعات ليكون قانتاً لله **عَزَّوَجَلَّ** محبباً ومنيباً إليه، وعليه أن يصدق الحديث، وأن يصدق في قوله ومنقوله، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «وكفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع» صححه الالباني في صحيح ابي داود من حديث ابي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «عَلَيْكُمْ بِالصَّدَقِ فَإِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدَقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِبْرًاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» متفق عليه.

فعلى الرجال والنساء: أن يلازموا الصدق في القول والصدق في العمل، فكما أن هنالك صدق في القول فهناك صدق في العمل وصدق في القلب فصدق القلب الإخلاص ولا يقبل الله **عَزَّوَجَلَّ** من العبد عملاً إلا باجتماع الصديقين: صدق القلب، وصدق المتابعة الظاهر والباطن.

ثم أيضًا: حث على الصبر على أقدار الله الكونية وعلى شرائع الله وعن نواهي الله فإن الانسان لا حياة له إلا بالصبر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿١٠﴾.

ثم أيضًا: يكون خاشعاً لله **عَزَّوَجَلَّ** لعبادته مراقباً له خاشياً إلى غير ذلك. ثم يصوم كما صام النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ويصبر ويذكر الله كثيراً ويحفظ فرجه، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «أَحْفَظُ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، أخرجه الترمذي، وكذلك النساء تحفظ عورتها وتحفظ نفسها وتحافظ كرامتها وعفتها؛ فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** أعزنا بالإسلام وأعزنا بالاستقامة فمن ابتغى العزة في غير الإسلام أذله الله.

ثم قال الله **عَزَّوَجَلَّ** في كتابه من الآيات: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾.

وقد جاء في هذه الآية سبب نزول وهي قصة جلييب.

وفي الآية: إشارة إلى المحافظة على ما تقدم بيانه، فالمؤمن والمؤمنة ليس له الخيرة يقول: أخذ بكذا وأترك كذا، لا نحن عبيد لله والعبد ينبغي أن يكون على مراد سيده لا يجاوز مراد سيده وإلا كان عاقاً وكان أبقاً واستحق البعد بقدر عقوقه. هذ ملخص على ما تضمنته هذه الآيات البينات، وإلا لو استطردها في شرحها لطال المقام لكننا نشكو إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** من قلة العمل وكثرة الإعراض، وقلة الطاعات، وكثرة المعاصي، وقلة الإنابة وكثرة البعد، فالله الله في طاعة الله، والله الله فيما يقربنا إلى الله **عَزَّوَجَلَّ**، (ووالله لو الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا).

فينبغي لنا أن نشكر الله على ما أنعم: ﴿لَيْنَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَيْنَ كَفَرْتُمْ
 إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٥٦﴾﴾، فمن أعظم ما يشكر الله **عَزَّوَجَلَّ** به: المحافظة على الطاعات
 الرجال والنساء جميعاً في لباسهم، وكلامهم، وحركاتهم، وسكناتهم، المرأة مع
 زوجها، مع جاريتها، مع زميلها، مع أختها، حفظ اللسان والفرج، حفظ كذلك الجسم
 من عدم خروج زيتها إلى غير ذلك مما أوجب الله ومما يكرر دائماً في مثل هذه
 الدروس، نسال الله **عَزَّوَجَلَّ** لنا ولكم التوفيق والسداد، والحمد لله رب العالمين.



فتح الرحمن بتفسير سورة السجدة

والإنسان

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، أما بعد:

فكان قد منَّ الله علينا في يوم ٢١/ ربيع الآخرة/ ١٤٤٠ بخطة جمعة في بيان معاني سورة الإنسان وهي إحدى السور التي كان النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يصلي بها في صلاة الفجر يوم الجمعة ففي حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** في الصحيح أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: "كَانَ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ: "الْم تَنْزِيلَ السَّجْدَةِ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ".

قال ابن القيم **رَحِمَهُ اللَّهُ فِي زَادِ الْمَعَادِ (١/ ٦٢)**: السَّابِعُ: أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِيَوْمِ الْجَمْعِ الْأَكْبَرِ، وَالْمَوْقِفِ الْأَعْظَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّ الْقِيَامَةَ تَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»، وَلِهَذَا شَرَعَ اللَّهُ **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لِعِبَادِهِ يَوْمًا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، فَيَذْكُرُونَ الْمَبْدَأَ وَالْمَعَادَ، وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَادَّخَرَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِذْ فِيهِ كَانَ الْمَبْدَأُ وَفِيهِ الْمَعَادُ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يَقْرَأُ فِي فَجْرِهِ سُورَتِي (السَّجْدَةِ) وَ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ لِاسْتِمَالِهِمَا عَلَى مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ فِي هَذَا الْيَوْمِ، مِنْ خَلْقِ آدَمَ، وَذِكْرِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَكَانَ يُدَكِّرُ الْأُمَّةَ فِي هَذَا الْيَوْمِ بِمَا كَانَ فِيهِ وَمَا يَكُونُ، فَهَكَذَا يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ بِأَعْظَمِ مَوَاقِفِ الدُّنْيَا - وَهُوَ يَوْمٌ

عَرَفَةَ - الْمَوْقِفَ الْأَعْظَمَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ بَعِيْنِهِ، وَلَا يَتَنَصَّفُ حَتَّى يَسْتَقِرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَأَهْلُ النَّارِ فِي مَنَازِلِهِمْ. اهـ

وسميت سورة السجدة لأنها ذكرت فيها السجدة لا على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كان يسجد فيها .

قال ابن القيم في زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٢٠٣): وَأَمَّا مَا يُظَنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَالِ أَنْ صُبْحَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَضَّلَ بِسَجْدَةٍ فَجَهَلُ عَظِيمٌ، وَلِهَذَا كَرِهَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ قِرَاءَةَ سُورَةِ السَّجْدَةِ لِأَجْلِ هَذَا الظَّنِّ، وَإِنَّمَا كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَاتَيْنِ السُّورَتَيْنِ لِمَا اشْتَمَلَتَا عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ، وَخَلْقِ آدَمَ، وَدُخُولِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَذَلِكَ مِمَّا كَانَ وَيَكُونُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَكَانَ يَقْرَأُ فِي فَجْرِهَا مَا كَانَ وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تَذْكِيرًا لِلْأُمَّةِ بِحَوَادِثِ هَذَا الْيَوْمِ، كَمَا كَانَ يَقْرَأُ فِي الْمَجَامِعِ الْعِظَامِ كَالْأَعْيَادِ وَالْجُمُعَةِ بِسُورَةِ (ق) وَ (اقْتَرَبَتْ) وَ (سَبَّحْ) وَ (الْغَاشِيَةِ). اهـ

فلم يثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سجد سجود القرآن إلا في سورة ص والنجم والانشقاق والعلق وأما بقية السجديات فلم يثبت أنه سجد فيها ومع ذلك قد نقل الإجماع أو شبه إجماع على السجود في سجود القرآن المذكور وهي أربعة عشر سجدة إلا ما كان من السجدة الثانية من سورة الحج ومع ذلك لو سجد إنسان لا ينكر عليه وإن قال أكتفي بما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فهو أحب إلينا لاسيما في الصلاة فرئى بالاكْتفاء بما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الأربع السجديات سجدة (ص) و(النجم) و(العلق) و(الانشقاق) وما من خير إلا ودلنا عليه وسبقنا إليه فلنكتفي بما ثبت عنه قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "صحيح مسلم": «إِذَا قَرَأَ ابْنُ آدَمَ السَّجْدَةَ فَسَجَدَ اعْتَزَلَ الشَّيْطَانُ بَيْنَكَ، يَقُولُ: يَا وَيْلَى أَمَرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأَمَرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلَئِي النَّارُ».

تفسير سورة السجدة

قال تعالى: ﴿**الْم ١** تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ [سورة

السجدة: ١-٢].

﴿**الْم ١**﴾: اختلف العلماء في معاني الحروف المقطعة فقال بعضهم هي أسماء السور، وقال بعضهم: هي أسماء الله **عَزَّوَجَلَّ**، وقال بعضهم: هي حروف لا معنى لها وإنما تحدى الله بها كفار قريش كأنه يقول هذا القرآن الذي لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله ولم تستطيعوا أن تأتوا بعشر سور مثله ولم تستطيعوا أن تأتوا بسورة مثله متكون من هذه الأحرف الألف واللام والميم؛ ولذلك أغلب السور التي جاء فيها الحروف المقطعة هي السور المكية، وقد جاء في سورة آل عمران، وقبل ذلك في سورة البقرة، وأقرب الأقوال في هذه المسألة والله أعلم أن هذه الأحرف إنما ذكرها الله **عَزَّوَجَلَّ** لبيان أن هذا القرآن متكون منها ومع ذلك يعجز الكفار أن يأتوا بمثله، والحكمة يعلمها الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وبعضهم ذهب إلى أنه من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.

وأفسد الأقوال وأبعده أن هذه الأحرف هي عمر أمة محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، ومعلوم أن الساعة لا يعلمها إلا الله **عَزَّوَجَلَّ** والقول بأن عمر أمة محمد يؤخذ من هذه الحروف إنما أخذ من اليهود و اليهود لا يؤمنون في مثل هذا الباب ولا في غيره من الأبواب.

ثم يقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿**تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢**﴾: أي أن هذا الكتاب الذي أنزل اليكم يا معاشر المسلمين نزل به الروح الأمين على قلب محمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ليكون من المنذرين هو كتاب أنزله الله **عَزَّوَجَلَّ** ﴿**مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢**﴾ من الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** الذي بيده تصريف العالم الفعال لما يريد أنزله

حجة على الناس حتى يعملوا به ويأخذوا به، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝٥﴾.

وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ﴾: دليل على أن القرآن نزل من السماء إلى الأرض وأنه منزل من عند الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن؛ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه ولا مرية ولا اختلاف؛ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ من للابتداء كقوله ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ١-٢]؛ وقوله: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الباقية: ١-٢] إلى غير ذلك.

﴿رَبِّ﴾: الرب على المعنى العام الخالق المالك المدبر وعلى المعنى الخاص المرابي الحافظ لعباده الموفق لهم لكل خير وهذه ربوبية خاصة بالمسلم، ﴿الْعَالَمِينَ ۝١﴾: كل ما سوى الله **عَزَّوَجَلَّ** قيل بأنهم الجن والأنس، والصحيح: أن كل ما سوى الله **عَزَّوَجَلَّ** يسمى عالم؛ لأنه علامة وآية على وجود الله **عَزَّوَجَلَّ** وقدرته، وقد بُعث محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إلى العالمين والمراد بهم الجن والأنس، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾؛ لأنهم هم المكلفون.

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّنْ

نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: كفار قريش ﴿افْتَرَاهُ﴾: أي أن هذا القرآن مفترى ومكذوب على الله **عَزَّوَجَلَّ**، ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أخبر الله **عَزَّوَجَلَّ** أنه الحق الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤﴾ في خبر من قبلنا ونبأ من بعدنا وفيه التوحيد؛ والأحكام والوعظ والإرشاد والترغيب والترهيب إلى غير ذلك لا يأتيه الباطل ولا التحريف حفظه الله **عَزَّوَجَلَّ** كما قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٥﴾.

فهو الحق الذي لا يدخله باطل ولذلك وعلى مرور العصور وتقلبات الدهور ما استطاع المبطلون مع شدة حرصهم أن يحرفوه أن يزيدوا فيه حرفاً فضلاً أن يزيدوا فيه آية بل إنهم لما عجزوا عن تحريف ألفاظه ذهبوا إلى تحريف معانيه فوقف لهم أهل السنة والجماعة بحمد الله **عَزَّوَجَلَّ** وحفظ الله بهم القرآن لفظاً ومعنى فما من آية استدل بها المبطلون في نصر بدعهم إلا كان فيها رد على بدعهم **﴿إِشْدَادٌ﴾** اللام للحكمة أي: أن الله أنزله لإنذار الناس والندارة هي التخويف مما يقدم عليه الإنسان من الشر، والبشارة هي التبشير بما يقدم عليه الإنسان من الخير، هذا في الغالب **﴿قَوْمًا﴾** وهم العرب كما قال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٦﴾﴾** [آل عمران: ١٦٤] مع أن رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أرسل إلى الناس كافة، قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾** [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: **﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** [الأعراف: ١٥٨] **﴿مَا أَنزَلْنَا مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾** إذ أن بني إسرائيل جاءهم نذر كثير من أولاد إسحاق **عَلَيْهِ السَّلَامُ** وأما العرب لم يرسل إليهم أحد لاسيما من بعد أن وقعت النبوة في بني إسرائيل؛ **﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾** لعلهم يأخذون بهذا الكتاب وينقادون له ويوفقون لطريق الحق وفعلاً هدى الله **عَزَّوَجَلَّ** من علمه أهلاً للهداية وخذل الله **عَزَّوَجَلَّ** من علمه أهلاً لذلك وغير صالح للهداية.

قال تعالى: **﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا سَفِيحٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾**.

﴿اللَّهُ﴾: أي الذي انزل القرآن هو الله **﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾** خلق السماوات العظام؛ البناء الشديد الذي

بناه بغير عمد؛ سمك كل سماء خمسمائة عام وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام وبنائها بغير عمد ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾: ومع ذلك خلقها في يومين وخلق الأرض الممدودة بجبالها و وهادها و بحارها و أنهارها في يومين و قدر فيها قواتها في يومين فصارة أربعة أيام هذا هو المعنى و قد ذهب اليهود عليهم لعائن الله أن الله لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام احتاج أن يرتاح في اليوم السابع وهذا لأنهم ما قدروا الله حق قدره وإلا فإن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ ما مسنا من عجز ﴿وَلَا يَعُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ لقوته سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٥٠﴾﴾.

وفي حديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عند الإمام مسلم قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»، هذا الحديث رده العلماء لأنه يعارض ظاهر القرآن وذكر أهل العلم أنه موقوف على كعب بن الأحرار، قوله ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فيه إثبات صفة الاستواء لله عز وجل، ولكن ما معنى استوى على العرش فإن هذه مسألة يجهلها أغلب جماهير المسلمين لأمر:

الأمر الأول: لبعدهم عن سماع ومعرفة تفسير القرآن.

الأمر الثاني: أن المبتدعة حرفوا هذه الآية فزعموا أن استوى بمعنى استولى، قال أهل السنة والجماعة: هذا المعنى باطل؛ لأننا لو قلنا بان الله استولى على العرش لزم أن العرش كان مع غيره حتى استولى عليه بمغالبة.

الأمر الثالث: أن الله مستولٍ على جميع مخلوقاته فالمعنى الحقيقي لقوله: ﴿**تُسَبِّحُ** **أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ أي: علا وارتفع وصعد، وزاد بعضهم استقر، قال ابن القيم في نونيته:

فلهم عبارات عليها أربع ❀❀ ❀❀ ❀❀ ❀❀
 وهي استقر وقد علا وكذلك ❀❀ ❀❀ ❀❀ ❀❀
 وكذلك قد صعد الذي هو أربع ❀❀ ❀❀ ❀❀ ❀❀
 يختار هذا القول في تفسيره ❀❀ ❀❀ ❀❀ ❀❀
 والأشعري يقول تفسير استوى ❀❀ ❀❀ ❀❀ ❀❀
 هو قول أهل الاعتزال وقول ❀❀ ❀❀ ❀❀ ❀❀
 وقد قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** للجارية: «**أين الله؟**» قالت: في السماء قال:

«**فأعتقها فإنها مؤمنة**» أخرجه مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، ويقول الله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿**ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ**﴾ ومعنى في السماء أي: على السماء فهذه عقيدة ينبغي للإنسان أن يتفطن لها.

وقد جاءت آثار في العرش مما خلق فذهب بعضهم إلى أنه من ياقوته وذهب بعضهم إلى غير ذلك، والصحيح: أننا لا نعرف مما خلق العرش إلا أننا نؤمن أنه أول المخلوقات على الصحيح من أقوال أهل العلم أنه أول المخلوقات وأعلى المخلوقات وأعظم المخلوقات، قال الله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾ [التوبة: ١٢٩]، وعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أَرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**»، أخرجه البخاري.

وفي حديث عبد الله بن عمرو في مسلم دلالة على أنه مخلوق قبل القلم، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ».

﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾: أي مالكم عند الله من ولي ولا شفيع من هذه الأنداد والأصنام والأحجار التي تعبدونها فلا تقربهم إلى الله كما زعموا ولا تشفع لهم عند الله وإنما يُشفع عند الله **عَزَّجَلَّ** للمؤمنين ويشفع عند الله **عَزَّجَلَّ** المؤمنون بإذن الله **عَزَّجَلَّ** كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وقال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ حَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٨﴾﴾ وقد عبد الكفار الأصنام والأحجار لأمرين:

الأمر الأول: لتقربهم من الله كما قال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

الأمر الثاني: للشفاعة كما قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤] فقطع الله عنهم القرب والشفاعة من طريق الأصنام.

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾: أفلا يكون في هذا الخبر من الله **عَزَّجَلَّ** انه خلق السماوات العظيمة الواسعة والأرض الشاسعة في ستة أيام يكون لكم فيه ذكرى في الاستجابة لدعوة نبيكم محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** والإقبال على طاعة ربكم؛ بلى وربى، فاذا كان الله **عَزَّجَلَّ** ملكه السماوات وما فيها والأرضين بما فيها فلماذا أنت أيها الإنسان تكابر وتخالف دعوة الله **عَزَّجَلَّ** لك بالهداية إلى الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: أخبر تعالى عن نفسه المقدسة مع أنه مستوٍ على العرش إلا أنه لا يعجزه شيء ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: يتصرف في أمر العالم العلوي والسفلي فتنزل الأوامر من السماء الذي هو العلو إلى الأرض تنزل بها ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ؛ ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ يعرج إليه كذلك ما يتعلق بأمر الأرض عن طريق الملائكة، وعن أبي هريرة، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ، وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»، متفق عليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ أي: أن رجوعهم ونزولهم من السماء ثم رجوعهم إلى السماء كيوم مقداره ألف سنة وهم ينزلون في وقت لا يعلمه إلا الله؛ حتى قال بعضهم: ربما ينزلون في لمح البصر ويرجعون في لمح البصر فالأمر لله عَزَّوَجَلَّ لا يعجزه شيء وهو بكل شيء عليم، لكن اقتضت حكمته أن يأمر الملائكة بتدبير شأن العالم قال تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتُ أَمْرًا ۝﴾ [النازعات: ٥] وإلا ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝﴾.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝﴾.

﴿ذَلِكَ﴾: أي الله عَزَّوَجَلَّ هو ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ وهو ما غاب عن الناظر ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ هو المستوى المحسوس فحتى لا يتبادر إلى الذهن أن الله عَزَّوَجَلَّ حين أوكل إلى الملائكة أن ينزلوا بالأوامر إلى العالم وان يعرجوا له بأمر الأرض إلى السماء أنه يغفل عن مخلوقاته؛ فهو سبحانه عالم الغيب الذي لا يظهر؛

كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ١١﴾، وقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٣٨٣﴾ [النور: ٦٤]، ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ٥٤﴾ [فصلت: ٥٤].

﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٩﴾ وهو سبحانه عزيز لا يقهر ومع ذلك جمع بين عزته ورحمته فالرحيم من أهل الأرض قد تأتيه الذلة من المخلوقين؛ والله عزَّجَلَّ عزيز ومع عزته **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** رحيم كما أنه يجمع بين حكمته وعزته؛ له عزة في ذاته وله عزة في علوه وله عزة في صفاته؛ ﴿الرَّحِيمِ ١٠﴾ أي: الذي يرحم عباده. بخلاف غيره تعالى فالعزيز قد يظلم ويجور ويفعل ما لا يحمد لشدة تسلطه وعدم رادعه .

قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ٧﴾.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ﴾: كما قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ١١﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ١٢﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ١٣﴾ [سورة الملك: ١-٤]. فقد احسن الله عزَّجَلَّ ما خلق؛ خلق الإنسان وصوره وشرفه وكرمه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ﴾ وقال الله عزَّجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ١﴾، وقال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾: كأنه من المقدم والمؤخر الذي أحسن خلق كل شيء من الإنسان والملائكة والجن والسموات والاراضين فخلق الله عزَّجَلَّ على اكمل حال؛ ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ٧﴾ كان مبدأ خلق الإنسان أن الله عزَّجَلَّ خلقه من طين وذلك أن الله عزَّجَلَّ قبض قبضة من الأرض فأخذ من تربتها فكان الناس على تلك التربة منهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر وغير ذلك ومنهم الطيب والخبيث

ومنهم السهل ومنهم الحزن كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «خلقته من تراب ثم بعد ذلك وُضع الماء على التراب فصار طيناً ثم صار الطين لازباً متماسكاً ثم صار صلصالاً كالفخار كما تصنع الفخارة».

قال الشنقيطي في دفع إيهام الاضطراب: وفي حديث أنس **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ جَعَلَ إبليسَ يطوفُ به لا يدري ما هو فلَمَّا رآه أجوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَهُ لَا يَتِمُّ الْكُفَّ».

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ﴾: أي ذريته، ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾: من نطفة سميت سلالة؛ لأنها تسل من الإنسان ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾﴾: أي ضعيف ماء الرجل وماء المرأة حيث يجتمع في رحم المرأة كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ وهذه النطفة من أين تخرج؟ تخرج ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾: الصلب أسفل ظهر الإنسان والترائب بين ثديي المرأة سبحان الله القدير الذي لا يعجزه شيء يجمع ماء الرجل وماء المرأة فيصير نطفة ثم علقه ثم مضغه ثم عظاماً ثم يكسو العظام لحماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦]، ثم يخرج هذا الإنسان المتعجب المتكبر المتغطرس إلا من رحم الله **عَزَّجَلَّ** وهو كما قيل خرج من مجرى البول مرتين والله **عَزَّجَلَّ** له الحكمة لما جعل التناسل بين بني الإنسان حتى يحفظ الجنس البشري ولو أراد الله **عَزَّجَلَّ** أن يكون حال الناس كحال الملائكة لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّلَهُ لِنَفْسِهِ وَمَفْخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴿٥٦﴾ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: أي: بعد أن كان من ماء مهين ضعيف حقير ﴿ثُمَّ﴾: أي: صار جنيناً متشكلاً في أربعة أشهر كما في حديث عبد الله بن مسعود: «يُجْمَعُ خَلْقُ أَحَدِكُمْ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَرْسُلُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ»، الحديث.

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾: أي من الأرواح التي عنده فان الله عزَّوجلَّ لا يوصف بأن له روحاً لأن الروح مخلوقة مربوبه وإنما أضافها إلى نفسه إضافة تشریف أنواع الإضافات إلى الله تعالى.

قال العثيمين رحمه الله في "القول المفيد" (٨٨/١)، ط العاصمة: "اعلم أن ما أضافه الله إلى نفسه ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: العين القائمة بنفسها وإضافتها إليه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة قد تكون على سبيل عموم الخلق كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد تكون على سبيل الخصوص لشرفه كقوله تعالى: ﴿وَظَهَّرَ بَيْتِي لِلظَّالِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، وكقوله: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وهذا القسم مخلوق.

الثاني: أن يكون شيئاً مضافاً إلى عين مخلوقة يقوم بها، مثل قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، فإضافة هذه الروح إلى الله من إضافة المخلوق إلى خالقه تشریفاً، فهي من الأرواح التي خلقها الله، وهذا القسم مخلوقاً.

الثالث: أن يكون وصفاً غير مضاف إلى عين مخلوقه، مثاله: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، فالرسالة والكلام أضيفا إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فإذا أضاف إلى نفسه صفة، فهذه الصفة غير مخلوقة " اهـ .

وقسمها بعضهم إلى قسمين: قال في " القواعد الكلية " (ص ٢١٩-٢٢٠): " المضاف إلى الله نوعان: أعيان وصفات .

فالأعيان هي الذوات المستقلة بنفسها عما سواها، والمراد بها هنا ما نسب إلى الله نسبة خلق وإيجاد .

والصفات هي المعاني القائمة بالذوات، والمراد بها هنا ما نسب إلى الله على أنه وصف قائم بذاته " ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمْ السَّمْعَ﴾ لتسمعوا به كلام الله وكلام رسوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتنظروا به و تتوصلوا به إلى الحق ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وهي القلوب التي فيها العقول التي خالف فيها الإنسان بقية الحيوان كل الحيوان له سمع وبصر وفؤاد ولكن فؤاد لا عقل فيه ولذلك ميز الإنسان عليهم فقد قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فهذه الثلاث الجوارح هي المسؤولة عن هذا الجسم فالسمع يسمع به الحق والبصر يبصر به الحق والفؤاد يتدبر به الحق ومع ذلك الكفار لم ينتفعوا بهذا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾ ؛ لماذا؟ ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ ؛ قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿صُمٌّ بَكْمٌ عُمٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ ليسوا بصم في الواقع هم يسمعون انظروا إلى صنائع الصواريخ إلى صنائع الكمبيوترات إلى صنائع الهواتف النقالة إلى غير ذلك يسمعون

ويبصرون ويعقلون لكن لا يسمعون سمع حق ولا يبصرون بصر الحق ولا يعقلون الحق ﴿يَعْمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي مع أن الله خلقكم وسواكم في أحسن صورة؛ فإن الشاكرين على هذه النعم قليل، كما قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴿١٣﴾﴾ والشكر يكون بالقلب استكانة وخضوعاً وباللسان ذكراً وحمداً وثناءً وبالجوارح انقياداً.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَآءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا﴾: أي: الكفار ﴿لَآءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا تهنا في الأرض وأكلنا ترابها ﴿أِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هل هناك بعثٌ نُخرج و نُجازي على أعمالنا كما تقول يا محمد وهذه علة عليية بل ميتة يحتجون بها دائماً لكن قد رد الله عليهم هذه العلة مراتٍ قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٧٨-٨٢]. وقال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِي يَمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عِلقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتِ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وقد قال الله عزَّجَلَّ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، فعند ذلك ينخسون ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (١٧): هذا هو الحال من أن السبب الذي جعلهم يقولون هذا القول و يستبعدون الحياة بعد الموت أنهم بقاء ربهم كافرون، وهذا الكافر المكذب المتكبر المعرض لا تنفع معه المواعظ والذكرى، وربما سخروا من المسلمين إذا أخبروهم بالبعث وأنهم يكونون أحسن حالاً، قال الله عز وجل: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوَآءَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (الإسراء: ٤٩).

قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَقَّعُ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (١١) [السجدة: ١٨].

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَتَوَقَّعُكُمْ﴾ يقبض أرواحكم ﴿مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ وله أعوان كما في حديث البراء رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلِيَّ رُءُوسَنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، أَخْرَجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ». قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِنْكَ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ» قَالَ: «فَيُصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي بِهَا، عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَتَّهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيَفْتَحُ هُمْ فَيَسْبِعُهُ مِنْ كُلِّ

سَمَاءٍ مُّقْرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُتَمَّهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيْنَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أَعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتَعَادَ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيَنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيْبِهَا، وَيُفْسَخُ لَهُ فِي قَبْرِه مَدَّةَ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يُجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَزْجَعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّةَ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتَها النَّفْسُ الْحَيِيَّةُ، أَخْرِجِي إِلَى سَخَطِ مِنَ اللَّهِ وَغَضَبِ». قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ حَيْفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُدُونَ بِهَا، فَلَا يَمْرُونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْحَيِيَّةُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَفْجِحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُتَمَّهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخَيْطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] «فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى،

فَتَطْرَحُ رُوْحَهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١]، «فَتَعَادُ رُوْحَهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرَشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتِنُّ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيثِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِّ السَّاعَةَ».

ولم يثبت حديث عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في اسمه إلا ما جاء عن قتادة أن اسمه عزرائيل وعليه الجماهير **﴿الَّذِي وَكَّلَ بِكُمْ﴾** أي: وكله الله **عَزَّوَجَلَّ** ومع ذلك ملك الموت هذا لا يمكن أن يُخطئ ويمسك أحد قبل أن يأتي أجله، كما قال تعالى: **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾**؛ وقال: **﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾**؛ وقال: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْفَيْتَمَةِ﴾** وفي هذا رد على الرافضة ومن اليهم الذين.

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٤١﴾﴾: ليست وفاة وانتهت القضية بمجرد ما بل انتقلت إلى حياة أخرى وهي الحياة البرزخية وكان عثمان بن عفان **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** إذا ذكرت له الجنة والنار لا يبكي وإذا ذكر له القبر بكى فقليل له: يا أمير المؤمنين ما شأنك يُذكر لك الجنة والنار ولا تبكي ويذكر القبر فتبكي؟ قال: سمعت النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يقول: **﴿إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلَ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ﴾**؛ وإذا رجعوا إلى الله يخبرهم بما عملتم ويجازيهم على ذلك وهذا في

القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]..

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

ثم قال الله عز وجل مخبراً عن حال الكفار بعد رجوعهم إلى الله عز وجل يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الكافرون ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ حياءً وخزيًا لا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم لشدة ما فعلوا من الجرم العظيم الذي لا يغفره الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [مُطْعِمِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ] ﴿٤٣﴾ [إبراهيم: ٤٢-٤٣].

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾: يقولون يا ربنا ابصرنا وسمعنا الحق الآن ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ أي: إلى الأرض لعمل الصالحات ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ مؤمنون ومصدقون ولكن هيهات كما قال الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾: حقًا: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ أي: رب ارجعون، ﴿هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٣﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١﴾ [المنافقون: ١٠-١١]، أسأل الله السلامة.

ومع ذلك لو ردهم الله لن يسلموا أو يؤمنون كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١٨﴾ لأن الكفر قد استوطن قلوبهم ما تنفع معهم مواظ

ولا تجدي معهم آيات وإلا فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد أنزل من الآيات ما مثله آمن عليه البشر كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَنْزَلَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ».

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾: أي لو شاء الله، وإنما جمع للتعظيم ﴿لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ﴾: من أنفس المكلفين من الجن والإنس، ﴿هُدًىهَا﴾: أي توفيقها بالإسلام كقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾: لكن هذا يخالف الحكمة الإلهية في إيجاد البشرية وفي خلق الجنة والنار؛ فإن الله خلق ذلك للابتلاء والاختبار والافعالملك ملكه فعال لما يريد فلو شاء أن يكون الناس كلهم على قلب رجل واحد في الإيمان لكانوا، ولو شاء أن يكون على قلب واحد في الكفر لكانوا، ولكن الله **عَزَّوَجَلَّ** له الحكمة البالغة والحجج الدامغة؛ ﴿وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾: استدرك لسبب عدم هدايتهم جميعاً، وفيه إثبات صفة الكلام لله **عَزَّوَجَلَّ**؛ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾، وهذا كقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٢٠﴾﴾، وفي حديث أبي سعيد و أبي هريرة، عَنِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «تَحَاجَّتِ النَّارُ، وَالْجَنَّةُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُشْكِرِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فَمَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وَسَقَطُهُمْ، وَعَجْزُهُمْ، فَقَالَ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَعَذَّبُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمْ مَلُؤَهَا، فَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَمْتَلِئُ، فَيَضَعُ قَدَمَهُ عَلَيْهَا، فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ فَهَذَا لَكَ تَمْتَلِئُ وَيُزَوَّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ».

وفي ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا﴾: لأن الله على كل شيء قدير وهو الهادي **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** إلى سواء السبيل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ فاسألوا الهداية من الله لحاجتكم إليها ومن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إذا جاءه رجل بالإسلام علمه: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»، وعلم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّوَادَعَ»، وعلم الحسن أن يقول: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ»، فالهدى من الله يهبه لمن يشاء.

وقد أوجب الله علينا في كل ركعة أن نسأله أيضًا بقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

وفي ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي كلام لا يناقض ولا يرد كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: «يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا فَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ»، لأن الله عَزَّوَجَلَّ له الملك وهو فعال لما يريد ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: وهو اسم من أسماء النار ﴿مِنَ الْجَنَّةِ﴾: أي من الجن والشياطين وهم أبناء الشيطان الأكبر الذي يحاول في إغواء آدم عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾﴾ وهم أبناء آدم أجمعين، وهذا دليل على أنهم كلهم مكلفون يجب عليهم طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وامتنال أمر الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿فَذُوقُوا﴾: أي يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ: ذوقوا هذا العذاب، ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ بسبب تكذيبكم وتناسيكم لهذا اليوم، وحالهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٤١﴾ لِلظَّالِمِينَ مَعَابًا ﴿٤٢﴾ اللَّيثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٤٣﴾ لَا يَدْخُلُونَ

فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٤٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٤٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٤٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ
حِسَابًا ﴿٤٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٤٨﴾ [سورة النبأ: ٢١-٢٨].

﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: تركناكم والله **عَزَّجَلَّ** لا ينسى فهو بكل شيء عليم
ومعنى النسيان هنا الترك فالنسيان في حق الله بمعنى الترك قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ
فَدَسِيحُهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾: أي الخلود في النار كما قال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾
؛ وقال ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٤٧﴾؛ وقال ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا
غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٤٦﴾؛ وقال ﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا
رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدَقَاتٍ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن
تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ التَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿٤٧﴾.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: أي جزاء أعمالكم وهذا دليل على أن الله لا يظلم
العباد وإنما يجازيهم على أعمالهم فمن كان من أهل الطاعات والقربات ضاعف الله
عَزَّجَلَّ له المثوبات ومن كان من أهل النار عذبه الله فيها بعمله وبئس القرار والله
المستعان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [السجدة: ١٥].

ثم يقول الله **عَزَّجَلَّ** مخبراً عن حال المؤمنين الذين ينقادون لأمره و يستجيبون
لشرعه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ﴾ أي يصدق بها ﴿بِآيَاتِنَا﴾ ظاهراً وباطناً ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا
بِهَا﴾ سمعوها وتليت عليهم و وتعلموها ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ بادروا إلى السجود لله
عَزَّجَلَّ تعظيماً وإخلاصاً وتواضعاً، وهذا دليل على أنهم التزموها قولاً وفعلاً
﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ جمعوا بين التسبيح والتحميد؛ فالتسبيح تنزيه الله **عَزَّجَلَّ** عن

النقائص والتحميد إثبات الكمال لله **عَزَّوَجَلَّ**؛ ولهذا اصطفى الله من الكلام لملائكته «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، وكان من احب الكلام إلى الله: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، ويقول الإنسان في السجود: «سبحان ربي الأعلى وسبحان ربي العظيم»، قال رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَسْبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»، متفق عليه.

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (١٦): عن اتباعها والانقياد لها كما يفعله الجهلة، فالكبر هو المانع من السجود لله **عَزَّوَجَلَّ**؛ وهو المانع من قول لا اله إلا الله والانقياد لها وما منع إبليس من الإيمان إلا الكبر ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٥)؛ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنشَأَ لَكُمَا مُؤْمِنِينَ﴾ (٣٦)، وقال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٣٥) ويقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: «الْعِزُّ إِزَارِي وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي فَمَنْ يُنَازِعْنِي عَدَّبْتَهُ».

قال تعالى: ﴿تَتَجَاوَزُ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) [السجدة: ١٦].

﴿تَتَجَاوَزُ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾: يرفعون جنوبهم عن المضاجع الوفيرة وعن الفرش الجميلة أي قيام الليل ويقومون من مضاجعهم، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦) يدعون الله **عَزَّوَجَلَّ** بلسان حالهم ومقالهم خوفًا من بطشه وعقابه وطمعًا في رحمته وثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣) بالصدقات والزكوات فيجمعون بين العبادات اللازمة والمتعدية، وكان رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قد حثهم في ذلك فعن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «إِنَّ أَخَا لَكُمْ لَا يَقُولُ الرَّفَثَ» يَعْنِي: بِذَلِكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ:

وَفِينَا رَسُولٌ اللَّهُ يَتْلُو كِتَابَهُ ❀❀ إِذَا أَنْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعٌ
 أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ❀❀ بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَاقِعٌ
 يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ❀❀ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ
 أخرجه البخاري .

والله **عَزَّوَجَلَّ** يستجيب لهم ويحقق رجائهم وآمالهم واختلف العلماء في معنى هذه الآية فذهب بعض أهل العلم إلى أنها نزلت في الصلاة التي كانوا يصلونها بين مغرب وعشاء فيصلون المغرب ثم ينتظرون العشاء، وقد جاء عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: «كانوا يتقظون ما بين المغرب والعشاء يصلون»، أخرجه أبو داود، وقال بعضهم يراد بها قيام الليل؛ فعن معاذ بن جبل.. ثم قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، حَتَّى بَلَغَ، ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [١٦] أخرجه الترمذي.

وكما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّذِينَ مَا يَهْتَجُونَ﴾ ١٧ ﴿وَالْأَسْحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ١٨: وذهب بعض أهل العلم إلى أنها فيمن يحافظ على العشاء والفجر، ولا مانع أن الآية في وصف الحاليين فإن المؤمنين ينتظرون الصلاتين ويصلون أيضًا بالليل ما يسره الله لهم ويقومون لصلاة الفجر.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

﴾ [السجدة: ١٧].

ثم قال الله **عَزَّوَجَلَّ** في بيان ما أعد الله للمؤمنين: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٧، قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «يقول الله

عَزَّوَجَلَّ: "أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"، أخرجه البخاري .

قال ابن كثير ط العلمية (٦/ ٣٢٦): أَي فَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ عَظْمَةَ مَا أَخْفَى اللَّهُ لَهُمْ فِي الْجَنَّاتِ مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَاللَّذَاتِ الَّتِي لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ، لَمَّا أَخْفَوْا أَعْمَالَهُمْ كَذَلِكَ أَخْفَى اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الثَّوَابِ، جَزَاءً وَفَاقًا، فَإِنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَخْفَى قَوْمٌ عَمَلَهُمْ، فَأَخْفَى اللَّهُ لَهُمْ مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . اهـ

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: أَي مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ مَا أَخْفَى لَهُؤُلَاءِ الْخَلِصِ الْمَسَارِعُونَ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَمَنْ قَرَّبَ أَعْيُنٍ﴾ مِنَ الْحُورِيَّاتِ وَالْإِنْسِيَّاتِ فِي الْجَنَّةِ مَعَ مَا فِيهَا مِنَ النَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْخَيْرِ الْعَمِيمِ ﴿جَزَاءً﴾ أَي أَنْ ذَلِكَ نَالُوهُ جَزَاءً وَثَوَابًا وَأَجْرًا ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والباء هنا باء سبب وليست باء عوض: فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: وَلَا أَنْتَ؟ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمَدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ»؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ يَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ بِسَبَبِ إِيْمَانِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَإِلَّا فَهُوَ الَّذِي يَضَاعَفُ وَيَرْحَمُ وَيَجَازِي الْجَزَاءَ الْأَوْفَى، وَفِي حَدِيثِ الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخْدَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْحَامِسَةِ: رَضِيْتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةٌ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَدَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةٌ؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ

تَسْمَعُ أذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشِيرٍ»، قَالَ: وَمُصَدِّقُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] الآية. أخرجه مسلم.

ونذكر هنا بعض أحاديث وصف الجنة:

منها: حديث أبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبَلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» أخرجه مسلم.

ومنها: عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَوَدُّوا أَنْ يَلِكُوا الْجَنَّةَ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كَسَبَتْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣]، أخرجه مسلم.

ومنها: عن عبد الله بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَحِيمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ جُوفِيَّةٍ، طُولُهَا سِتُونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُونَ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا» أخرجه مسلم.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨].

يخبر تعالى عن عدله وكرمه وأنه لا يساوي بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾ أي متقادًا مصدقًا في الدنيا ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ أي مكذبًا مستكبرًا في الدنيا ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ لا سواء كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وكما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَرَ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠]، فالمساواة بينهم تتعارض مع حكمة الله عَزَّوَجَلَّ فليسوا

سواء في الدنيا فإن المؤمن أرفع من الكافر فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا» أي: من الكافرين.

قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٩].

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدقوا وانقادوا لربهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من توحيد فما دونه وهذا دليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان كما هو معتقد أهل السنة والجماعة الذي يقول بأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فالتوحيد والصلاة وبر الوالدين وصلة الأرحام من الإيمان وقد ذكر الآجري أن عدد الآي التي قرن فيها الإيمان بالعمل الصالح قريب من ستة وخمسين آية في القرآن: ﴿فَلَهُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿جَنَّاتٍ مِنْ رَبِّكَ عِظَاءً حِسَابًا﴾.

﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع جنة وجمعت لكثرة الناس فأخبر أن لكل جنة؛ جنة تكون له يتنعم فيها ويشرب ويتبع كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيُفْضِيَ فِي الْيَوْمِ إِلَى مِائَةِ عِذْرَاءٍ» أين هذا النعيم في ممالك الدنيا ربما لا يستطيع أحدهم أن يفضي إلى أهله مرة فضلاً أن يفضي إلى مئة عذراء في يوم واحد وهذا الجزاء إنما يكون لأهل الجنة حيث يكرمهم الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الكرامة العظيمة ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى﴾ لأنهم يؤوون إليها وفيها مساكنهم وغرفهم العالية، ومن أوى إليها لا يخرج

منها كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَيْئَسُ، لَا تَبَلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى سَبَابُهُ»؛ **(نُزُلًا)** أعدّها الله لهم فعن أبي هريرة، عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أنه قال: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ، أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا، كُلَّمَا غَدَا، أَوْ رَاحَ»، وعن عثمان ت قال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَهُ» إلى غير ذلك.

﴿يَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٨) أي بسبب أعمالهم الصالحة التي كانوا يبادرون فيها لطاعة ربهم، كما قال تعالى: **﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْكَالِيَةِ﴾** (٢٤) [الحاقة: ٢٤].

قال تعالى: **﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾** (٥٠).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾: أي خرجوا وأعرضوا عن طاعة الله **عَرَجَلٌ** فكفروا وناقفوا **﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾**؛ كما قال تعالى: **﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا نَاطِقًا﴾** (١٤) لا يصلها إلا **الْأَشْقَى﴾** (١٥) الذي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ (١١)؛ وقال: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾** (١) **﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾** (٢) عاملةٌ نَاصِبَةٌ﴾ (٣) **﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾** (٤) **﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَائِنَةٍ﴾** (٥) **﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾** (٦) **﴿لَا يَسْمِنُ وَلَا يُغْنَى مِنْ جُوعٍ﴾** (٧) [سورة الغاشية: ١-٧].

وقال: **﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** (٥٦)؛ وقال: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾** (٣٦)؛ وقال: **﴿* هَذَا نِ حَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾** (١١) **﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾** (١٠) **﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حديدٍ﴾** (٩) **﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾** (١٢) [الحج: ١٩ - ٢٢].

ثم قال: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾: يحاولون الخروج لكن هيهات يصيحبون ولا يستجيب الله لهم والحال كما قال الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدِينَ ﴿١٣٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٣٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٣٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٣٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة المؤمنون: ١٣٣-١٣٨]. [المؤمنون: ١٣٣، ١٣٨]، وقبل ذلك قال الله عزَّجَلَّ: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَلَائِكُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فمن الآن يا عبد الله فاستجب لأمر الله وأنقذ لشرع الله وتمسك بسنة رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**؛ قبل فوات الأوان: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ نعوذ بالله، وهذا كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «فَانْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ السُّنُورِ، أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا، فَإِذَا خَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَا: انْطَلِقْ... وَالَّذِي رَأَيْتُهُ فِي الثَّقَبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ» نسأل الله السلامة.**

قال الفضيل بن عياض: والله إن الأيدي لموثوقة وإن الأرجل لمقيدة، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم.

﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾: أعادتهم الملائكة الموكلة لخزانة النار؛ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾: أي قالت لهم الملائكة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: يقال لهم ذلك تقرِّبًا وتوبيخًا .

قال تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُم بِرَجْعَتِهِمْ﴾

﴿٦﴾ [السجدة: ٢١].

قال ابن كثير ط العلمية (٦/ ٣٣٠): قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي بِالْعَذَابِ الْأَذَىٰ مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَأَسْقَامَهَا وَأَفَاتِهَا، وَمَا يَحِلُّ بِأَهْلِهَا مِمَّا يَبْتَلِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَتُوبُوا إِلَيْهِ. وَرُوِيَ مِثْلُهُ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنِ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالضَّحَّاكَ وَعَلْقَمَةَ وَعَطِيَّةَ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَعَبْدَ الْكَرِيمِ الْجَزْرِيُّ وَخَصِيفٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: يَعْنِي بِهِ إِقَامَةَ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ. وَقَالَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو عُبَيْدَةَ: يَعْنِي بِهِ عَذَابَ الْقَبْرِ. وَقَالَ النَّسَائِيُّ، أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ إِسْرَائِيلَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ قَالَ: سُنُّونَ أَصَابَتَهُمْ.

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ عُرْوَةَ عَنِ الْحَسَنِ الْعَوْفِيِّ عَنْ يَحْيَىٰ الْجَزَارِيِّ، عَنْ ابْنِ أَبِي لَيْلَىٰ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ قَالَ: الْقَمَرُ وَالذُّخَانُ قَدْ مَضِيََا وَالْبَطْشَةُ وَاللِّزَامُ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ بِهِ مَوْقُوفًا نَحْوَهُ. وَعِنْدَ الْبُخَارِيِّ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ نَحْوَهُ. وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ أَيْضًا فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ: الْعَذَابُ الْأَذَىٰ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَذَا قَالَ مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ. قَالَ السُّدِّيُّ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ بِمَكَّةَ إِلَّا دَخَلَهُ الْحُزْنُ عَلَى قَتِيلٍ لَهُمْ أَوْ أَسِيرٍ، فَأَصِيبُوا أَوْ غَرِمُوا، وَمِنْهُمْ مَنْ جَمَعَ لَهُ الْأَمْرَانِ. اهـ

ثم قال: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ﴾: وهذا في الدنيا وذهب بعضهم إلى انه في عذاب القبر والصحيح ما تقدم من أن العذاب الأدنى في الدنيا من القتل والسبي وغير ذلك مما ينالهم في حال قوة المسلمين؛ ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي: دون

عذاب الآخرة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أي: يتوبون، وقال بعض أهل العلم: الذي ذكر أن الآية نزلت في عذاب القبر قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ﴾ أي: الكفار ومن إليهم ﴿مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ أي عذاب الدنيا؛ ﴿دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ أي عذاب النار ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ أي بتوبة من ذنوبهم أو يرجعون إلى الله.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ [السجدة: ٢٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾: أي ولا أظلم من إنسان يُذكر بآيات ربه حيث أرسل الله إليه الرسل وأنزل الله عَزَّوَجَلَّ الكتب ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي: تولى ولم يستجب لها فانظر إلى قوله ذُكِّرَ بآيات ربه ولم يقل بآيات الرب ولم يقل بآيات الله ولم يقل بآيات الملك، وإنما قال: بآيات ربه؛ ليشعر أن الرب **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** رحيم بعباده إن استجابوا لشرعه وانقادوا لدينه فهو الرحمن الرحيم **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾: تولى وادبر فاعرض الله **عَزَّوَجَلَّ** عنه كما في حديث أبي واقد الليثي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»، والمعرض عن ذكر الله متعرض لوعيد عظيم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٧٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٧٥﴾ [طه: ١٧٤، ١٧٥].

﴿إِنَّا﴾ عظم نفسه ﴿مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ أي: من الكافرين حيث ينتقم منهم في الدنيا بالفتن والزلازل وفي الآخرة بالعذاب المهين، نسأل الله السلامة والعافية.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ

هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٣٣﴾ [السجدة: ٢٣].

ثم قال تعالى مخبراً عن منته على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الَّذِينَ الَّذِينَ اسْمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُونَ وَالْأَخْبَارُ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] فيها خيرٌ عظيم ومع ذلك أبى اليهود إلا إن يحرفوها ويبدلوها ﴿الْكِتَابَ﴾ وكل رسول انزل الله معه كتاب كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ؛ ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾، في ليلة الإسراء فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لقي موسى وعيسى وإبراهيم ورأى الدجال فعن أنس بن مالك، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَتَيْتُ بِالْبُرَاقِ، وَهُوَ دَابَّةٌ أَيْضٌ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَعْلِ، يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُتَهَيِّ طَرَفِهِ»، قَالَ: «فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمُقَدَّسِ»، قَالَ: «فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرِبُطُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ»، قَالَ «ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: اخْتَرْتُ الْفِطْرَةَ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ [ص: ١٤٦]، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِابْنِي الْحَالَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا، فَرَحَّبَا وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا يُوَسِّفُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، إِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسَيْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٧]، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى النَّبْتِ الْمُعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى السُّدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، وَإِذَا وَرَفَّهَا كَأَذَانِ الْفَيْلَةِ، وَإِذَا تَمَرُّهَا كَالْقِلَالِ "، قَالَ: " فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَتْ تَغَيَّرَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَتَزَلْتُ إِلَى مُوسَى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ "، قَالَ: " فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفَّفْ عَلَيَّ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ "، قَالَ: «فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ

حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّنِي خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلِّ يَوْمٍ وَكَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمَلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ»، قَالَ: «فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: اذْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ»، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

وقيل: فلا تكن في مرية من لقاء الله **عَزَّوَجَلَّ** يوم القيامة؛ ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: التوراة والقرآن دليل على سبيل خيرهم فإن الهداية هنا هداية البيان ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ كما قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦١﴾﴾ فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** أنزل القرآن هدى وأنزل بقية الكتب هدى وبنو إسرائيل هم المنسوبون إلى يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَامُ** فكان اسمه إسرائيل، وكانوا أهل فضل حتى ضلوا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيْنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [البجائية: ١٦، ١٧].

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يُوقِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [السجدة: ٦٤].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً﴾ أي جعلنا من بني إسرائيل أئمة يقتدى ويهتدى بهم ﴿يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يهتدون بأمر الله ويأخذون به لكن متى نالوا الإمامة وصاروا أئمة ركز على هذه الآية فأنت مخاطب بها، ﴿لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: كانوا بها يؤمنون وينقادون ويعظمون وعليها صابرون، ولذلك قال بعض العلماء بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين؛ صبر على طاعة الله من صلاة وصيام وقيام وبر الوالدين وصلة الأرحام وإحسان إلى الجيران فليست المسألة بالتمني كما قال

الحسن البصري ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن شيء وقر في القلب وصدقه العمل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً﴾ فهذا خبر عن بني إسرائيل ولكنه دعوة لنا إلى أن نكون مثلهم ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يهتدون بأمر الله عزوجل بسبب صبرهم ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وطبقوها وصبروا عن نواهي الله فاجتنبوها وصبروا على أقدار الله عزوجل فحمدوه عليها فجزاهم الجزاء الأوفى ﴿وَكَانُوا بِعَابَتِنَا﴾ أي القرآن والسنة التي أوحاها الله إلى أنبيائه ورسله ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي ينفادون ويصدقون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

﴿٢٥﴾ [الجمعة: ٢٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾: يا محمد ﴿هُوَ يَفْصِلُ﴾ أي: يحكم ﴿بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يوم القيامة حيث يفصل بين الأبرار والفسار ويفصل بين الناس كما قال الله عزوجل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٣١﴾، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا﴾ ﴿١٧﴾ [النبا: ١٧]، وسمي يوم الفصل؛ لأن الله يفصل بين العباد فريق في الجنة وفريق في السعير ويتولى ذلك بنفسه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** حتى لا يقول قائل: ظلمنا، ولا أخذ من حقنا بل إن الله عزوجل يلقي العبد فيقره بذنوبه: «يا فل»، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة، قال: أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال: «فوالذي نفسي بيده لا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ، إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا، قَالَ: فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأَسْوَدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَخَّرَ لَكَ الْحَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِي فَيَقُولُ: أَيُّ فُلٍ أَلَمَ أُكْرِمَكَ، وَأَسْوَدَكَ، وَأَزَوَّجَكَ، وَأَسَخَّرَ لَكَ الْحَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسُ، وَتَرْبَعُ، فَيَقُولُ: بَلَى، أَيُّ رَبِّ فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ؟ فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي، ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ آمَنْتُ بِكَ،

وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُنْبِي بِيخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذَا، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبَعْتُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخْذِهِ وَحِمِّهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي، فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَحِمُّهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي: ألم يتبين لهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أي كم أهلك الله من الأمم السابقة فقوم أهلكهم الله بالريح وهم قوم عاد وليسوا ببعيد عنهم فهم في جزيرة العرب وقوم أهلكهم الله **عَزَّوَجَلَّ** بالصاعقة وهم قوم ثمود وليسوا ببعيدين عنهم هم في جزيرة العرب وقوم أهلكهم الله بالغرق وليسوا ببعيدين عنهم هم في سيناء وهم قوم فرعون وقوم أهلكهم الله وجل بالصاعقة والصيحة وهم قوم لوط وليسوا ببعيدين عنهم كانوا كما قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥]؛ ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ أي: يمرون بها عند ذهابهم إلى الشام وعند ذهابهم إلى اليمن للتجارة ومع ذلك ما استفادوا من هذا؛ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ إن فيما تقدم لعلامات وبيانات واضحات، ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦١﴾﴾: سمع استجابة واستفادة هذا هو الذي يريده الله **عَزَّوَجَلَّ** وإلا فكل يسمع لكن كما قال الله **عَزَّوَجَلَّ** في حال الكافرين: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾﴾.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الجمانية: ٢٧].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾: هذا إخبار من الله عز وجل بلطفه بخلقه وإحسانه إليهم في إرسال الماء وفيها إخبارهم كيف يحيي الموتى لأنهم كما ذكرنا في أول السورة يخالفون ويقولون كيف يحيي الموتى قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ﴾ المطر يسوقه الله عز وجل: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ اليابسة القاحلة التي لا نبت فيها ولا خضرة، قال تعالى: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفِكَهًا وَآنًا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾: أي: أفلا يتعظون، فالذي أحيا هذه الأرض قادر على أن يحيي الإنسان بل إنه يحيي الإنسان بهذه الطريقة التي أحيا بها الأرض كما جاء في حديث عبد الله بن عمرو في مسلم؛ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «ثُمَّ يُنَزِّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ، كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ» قَالَ: «وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أفلا تكون لهم تبصرة وذكرى بما يرون من الآيات البيّنات والعلامات الواضحات بأن الله عز وجل على كل شيء قدير وانه لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [السجدة: ٢٨].

ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: كفار قريش ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ ذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد به فتح مكة وهذا قول بعيد بل إن الكفار يخالفون في البعث فيقولون متى هذا الفتح متى يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾﴾

لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ [سورة المعارج: ١-٣]، وكما قال ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [النبا: ١ - ٥] فهم يسألون في أسئلة كثيرة متى الساعة؟، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؛ وقال: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٣﴾﴾؛ وقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ أي متى الساعة ومتى يحكم بيننا كما تقول يا محمد ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾، إن كنت صادق في قولك أخبرنا متى تأتي القيامة ويحكم بيننا ربنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وقد قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَتَهَا إِلَّا هُوَ نُنْفِئُكَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٧].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

﴿١١﴾﴾ [السجدة: ٢٩].

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ يوم القيامة والفصل يكون يوم ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ﴾ حين يعاينوا العذاب، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣]،

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١١﴾﴾ أي ولا يؤخرون لأن الله **عَزَّوَجَلَّ** جعل الدنيا دار عمل ولا

حساب وجعل الآخرة دار حساب ولا عمل .

قال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠].

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾: وهذا تسليية من الله **عَزَّوَجَلَّ** لمحمد **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أي: بلغ ما أنزل إليك من ربك، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها والمعنى أن أعرض عن كفار قريش وعن مطالبهم التي لا تنتهي وعن اعتراضاتهم.

﴿وَأَنْتَظِرُ﴾ لوعده الله **عَزَّوَجَلَّ** فيهم ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ وقد وفى الله **عَزَّوَجَلَّ** لنبيه **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** بوعده ونصره على أعداءه ومكناه وأرى أولئك ما كان يقوله النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**؛ ففي حديث أنس **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** في "الصحيح": أن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** أمر يوم بَدْرٍ بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقتلوا في طوي من أطواء بَدْرٍ حَبِيبٍ مُحَبِّبٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليالٍ، فلما كان بَدْرٍ اليوم الثالث أمر براحلته فشدَّ عليها رحلها، ثم مشى وأتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لِبَعْضِ حاجته، حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» قال: فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم»؛ فعند ذلك علموا.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يا محمد ولا تبالي بهم، وهذا الأمر من الله لمحمد هو أمر لنا وأمر لجميع المسلمين، ﴿وَأَنْتَظِرُ﴾ وعد الله، ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾: وعند ذلك نلقى من الله **عَزَّوَجَلَّ** الجزاء الأوفى للمؤمنين ويلقى الكافرون ما وعدهم الله **عَزَّوَجَلَّ** من العذاب المهين.



تفسير سورة الإنسان

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** تسليمًا كثيرًا.

﴿يَتَّيَبُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل

عمران: ١٧٠].

﴿يَتَّيَبُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَنْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَتَّيَبُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].
أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، و﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

عباد الله كان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** اذا كان صبح يوم الجمعة يقرأ في الركعتين ﴿الم﴾ *** تنزيل*** السَّجْدَةَ، و﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ لما فيهما من العبر فقد ذكر الله **عَزَّوَجَلَّ** فيهما مبدأ الإنسان والقيامة وما فيها من الجنان والنيران فكان حريًا بالمسلمين أن يتدبروا هاتين السورتين وما في بابها من السور، وستتكلّم هنا في بيان معاني سورة الإنسان؛ وذلك لأن كثيرًا من الناس لبعد عهدهم عن لغة العرب وضعفهم في الجانب العلمي وزهدهم في قراءة التفسير يجهلون كثيرًا من الألفاظ ولا يقرّون.

فيقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**:

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ يعني: قد أتى على الإنسان هذا المخلوق الذي ربما علاه الكبر والتهيه والعظمة، ﴿حِينٍ ﴿١﴾﴾: وقت ﴿مِنَ الدَّهْرِ﴾: من الزمن، والدهر الليل والنهار، فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «يُؤَذِّنِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ» متفق عليه، يقول سبحانه قد أتى على الإنسان وقت وزمان ليس له ذكر في هذا الكون لا عند أبيه ولا عند امه بل قبل ذلك جنس الإنسان وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقد ظن كفار قريش ومن إليهم من الدهرية أن الدهر هو المتصرف فيهم خلقاً وإماتة، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].
﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾: لم يكن له وجود وهذا لحقارته وضعفه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: على التعظيم لله عَزَّ وَجَلَّ ﴿خَلَقْنَا﴾: أوجدنا ﴿الْإِنْسَانَ﴾: جنسه، وهذا بعد خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من تراب كما تقدم في تفسير سورة السجدة ﴿مِنَ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾: أي: أخلاط ماء الرجل وماء المرأة، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ في شأنه: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٧] أي صلب الرجل وترائب المرأة، وفي حديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود ت قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَاقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ»، وفي حديث أم سليم أن

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَيْبُصُ، وَمَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ، فَمِنْ أَيِّمَا عَلَا، أَوْ سَبَقَ، يَكُونُ مِنْهُ الشَّبَهُ».

﴿تَبَتَّلِيهِ﴾: نخبره، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [سورة العنكبوت: ٢-٣].

﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [١]: أي جعلنا له سمعًا وبصرًا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية، والواجب عليه استخدام هذه النعم في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ .

قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٣].

﴿إِنَّا﴾: على التعظيم يريد نفسه، ﴿هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾: بيناه ووضحناه وبصرناه به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، والهداية أنواع: منها: العامة لكل مخلوق، الثانية: هداية التوفيق، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، الثالثة: هداية البيان، قال تعالى: ﴿وَلَئِكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، الرابعة: الهداية إلى الجنة أو النار، قال تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفافات: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وهو في هذه الآية مثل قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي نجد الخير والشر .

والسبيل الطريق، فقد بين الله طريق الخير والشر، وهو مع ذلك ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [٣]، فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد، وفي حديث أبي مالك الأشعري قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ،

وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُنِ - أَوْ تَمَلُّأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ،
وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايَعُ نَفْسَهُ
فَمُعْتَقُهَا أَوْ مَوْبِقُهَا».

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَاقًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

يخبر تعالى عما أُرصد له للكافرين يوم القيامة، فيقول ﴿إِنَّا﴾ على التعظيم
﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا من الاعداد والتجهيز، فإن الله عزَّ وجلَّ وكل بالنار ملائكة يحشونها
ويعدونها لمن يقدر عليها والعياذ بالله منها ﴿لِلْكَافِرِينَ ﴿٤﴾﴾ الجاحدين
والمعرضين.

﴿سَلَاسِلًا﴾ يربطون بها ويسحبون بها، كما قال تعالى: ﴿حُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ
صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سَلَاسِلٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢]، ولو ترك من
غير سلسلة لكان في أشد العذاب ولكن زادهم نكلاً وخزيًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾﴾.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾: أخبر الله عزَّ وجلَّ بعد ذلك عن طريق الأبرار وفصل فيه وبين
للتغيب فيه والتحذير من غيره ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ أي أصحاب أعمال البر من الصلاة
والصيام والحج والقيام وصدق الحديث وصلة الأرحام ﴿لَيْسَ إِلِيرَ أَنْ تُولُوا
وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ هذا من البر ﴿وَلَكِنَّ إِلِيرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعَثَهُمْ
إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾: أي يوم القيامة والكأس هو الكوب الذي لا ممسك له وإنما خلقها الله على راحة يد الإنسان يشرب ويتنعم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي من خمر مخلوط بالكافور لطيبه و بروده وسيأتي انه أيضًا يخلط بالزنجبيل لحرارته فتتكافأ الحال.

قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾: عين في الجنة تجري يشرب منها عباد الله ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي يطلبونها حيث أرادوا ويفعلون بها ما أرادوا على أوجه النعم ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا.

ما السبب الذي أهّلهم إلى هذا الخير العظيم؟

السبب قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾.

﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ﴾: نذروا لله بالحج والعمرة والصلاة والصيام وأعمال البر فطبقوها وعملوا بها ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ يخافون يوم القيامة الذي شره واسع وعلیم نسأل الله عزوجل السلامة لا يسلم منه إلا من سلمه الله عزوجل كان شره مستطيرًا ومن أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾.

﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾: يحبون الطعام والمال، لكنهم مع ذلك انفقوا محبين لما عند الله عزوجل، ﴿مِسْكِينًا﴾: فقير ليس له شيء، ﴿وَيَتِيمًا﴾: لا أب له، ﴿وَأَسِيرًا﴾: رجل مأسور قد حجز عن ماله وأهله فتنوعت نفقاتهم في أوجه الخير.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لُوجِهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكُفِّرُكُمْ ۝١﴾.

﴿إِنَّمَا نَطَعُكُمْ لُوجِهِ اللَّهِ﴾: إخلاص في نفقتهم؛ وإخلاص في عباداتهم؛ وإخلاص في جميع شأنهم؛ ﴿لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا نُكُفِّرُكُمْ ۝١﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ۝١٠﴾.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا﴾: السبب الذي دعانا إلى هذا الإنفاق وهذا البذل أننا نخاف من ربنا يوما كان ﴿عَبُوسًا﴾ كان غضوبًا سيئًا ﴿قَطَطِيرًا ۝١٠﴾ طويلاً كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَزَلَهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

والله لو ذكر الناس هذا اليوم لأعدوا له العدة ولكن كثير منا يأكل ويشرب ويتنعم ويلعب وينام ويخرج وربما لا يذكر اليوم الآخر في شهره ويومه وأسبوعه والله المستعان، هذا والله غفلة سحيقة تسلطت على الإنسان.

قال تعالى: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾.

﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ﴾ هذا هو الجزاء ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝١٣﴾؛ ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ الناس في شر وفي شدة وفي عطش وفي بلاء في خوف والمؤمن الذي تقدم بيان بعض أعماله قد وقاه الله شر ذلك اليوم ﴿وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً﴾ نضرة في وجوههم ﴿وَسُرُورًا ۝١١﴾ في قلوبهم ما اعظم هذا النعيم؛ كم من إنسان تراه مكدر الوجه وإن كان قلبه طيباً وكم من إنسان تراه طيب الوجه وقلبه مكدرًا ولكن المؤمن في ذلك اليوم يتلقى من الله عزَّ وجلَّ نضرةً وسرورًا.

قال تعالى: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٢﴾.

﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا﴾: على الطاعة وعن المعصية وعلى الأقدار، ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ جنة فيها حرير؛ لباسهم حرير فرشهم حرير مناشفهم حرير كل شعورهم حرير هذا الذي يشتري في الدنيا بملايين الريالات وربما لا يوجد إلا عند كبار الملوك ولا سواء فهذا حرير الجنة.

قال تعالى: ﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلَّتْ أَرْجُلُهُمْ مُتَّكِلِينَ ١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ١٥ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾.

فقوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِبَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ﴾: أي: يطاف عليهم في الجنة بآنية من فضة وآنيتهم من فضة وهذا إنما هو وصف لبعض أهل الجنة وإلا فهناك وصف آخر قد ذكره الله في سورة الرحمن وفي غيرها من السور لأن الجنة جنتان وكل جنة جنتان كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم **تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ** إِلَّا رِداءَ الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾: سبحان الله هذا الشيء الذي قيل لم يوجد مثله في الأرض لا يمكن أن تجد قارورة من فضة قارورة تصنع من فضة يُرى ظاهرها وباطنها وهي من فضة في متانتها وفي فلزها وهذا شيء عظيم، ﴿قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا ١٦﴾ مقدره يشرب في تقديرها ويسقى بتقديره لا شيء يزيد ولا شيء يذهب قدروها تقديرًا.

قال تعالى: ﴿وَسُقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

يسقون خمراً يسقيهم عبيدهم ومن سخرهم الله لخدمتهم خمراً لا لغو فيه ولا تأثيم لا إسكار فيه ولا رائحة متنتة كخمر الدنيا.

قال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: أن في الجنة عين يشرب منها المؤمنون تسمى ﴿سَلْسِيلًا ﴿١٨﴾﴾ أي: أن الإنسان إذا شرب منها نزل الشراب صائغاً إلى البطن بغير غصة ولا شيء، الآن إذا شربت الماء ربما تأتيك غصة وربما تشربه بكلفة ولا تتلذذ به، أما ذلك شراب ينزل سلسيل.

قال تعالى: ﴿* وَطُوفٌ عَلَيْهِمْ وَوَلَدٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَطُوفٌ عَلَيْهِمْ وَوَلَدٌ مُّخْلَدُونَ﴾: اللهم بارك، كم من الخدم والحشم؛ الآن إذا معك ولد ينفعك كم تفرح؛ زوجة تنفعك كم تفرح؛ بنت تقدم لك كم تفرح، أما هناك: ﴿* وَطُوفٌ عَلَيْهِمْ وَوَلَدٌ مُّخْلَدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾﴾؛ لكثرتهم ولصفاء وجوههم ولجمال ثيابهم ولقوام أبدانهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمْرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾: وإذا رأيت هنالك، ﴿ثَمْرًا رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾: نعيمًا عظيمًا لا ينفذ ولا يتغير ولا يقل ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ إذا كان هذا ملك أقلهم فما بالك بملك أكثرهم.

فقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن آخر رجل يدخل الجنة ويعطى مثل الأرض عشر مرات كما في حديث المغيرة واذكره مختصراً فيقول الله عز وجل له: «أَرْضِي أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ،

وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ، وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيْتُ رَبًّا. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةٌ
أَمْثَالِهِ».

قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوعُ أَسَاوِرٍ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقْلَهُمْ رَهْمٌ
شَرَابًا طَهُورًا ﴿١١﴾﴾.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: أي عليهم، ﴿ثِيَابٌ﴾: ملابس، ﴿سُنْدُسٍ﴾: أي أن الملابس الداخلية
لهم من حرير بل من اعظم الحرير واخلفه وهو حرير الجنة، ﴿خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: أي
ملابسهم الخارجية من حرير لمام يسلب العيون والأبصار وهذا فضل الله عز وجل،
﴿وَحُلُوعُ أَسَاوِرٍ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وهذا كما قلت لكم لصنف من أصناف الجنة وإلا فهناك
صنف كله ذهب؛ بيوتهم ذهب وبناءهم ذهب وأكواسهم ذهب وحليتهم ذهب.
﴿وَسَقْلَهُمْ رَهْمٌ شَرَابًا طَهُورًا ﴿١١﴾﴾ طاهرًا في ذاته مطهرًا لقلوبهم من الغل والحدق
والحسد وغير ذلك من أمراض القلوب التي أفسدت على الناس معاشهم في هذه
الدنيا، والحمد لله رب العالمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: أن الإنسان يعمل العمل اليسير فيجازيه الله عز وجل بالجزاء المضاعف
العظيم ماذا عملت يا أخي؟ ماذا قدمت؟ أنت تذهب وتشتغل مع المقاول؛ تشتغل
مع التاجر؛ تشتغل مع أبيك من الصباح إلى المساء يعطيك ألف ريال؛ خمسة ألف
ريال، عشرة ألف ريال، هب أنه أكرمك وأعطاك مئة ألف ريال ويجلس يمن عليك.
﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر، ﴿وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿١٢﴾﴾ أي: عملكم مضاعف مشكور؛ لأنكم عملتم
مع الله الكريم الذي فضله واسع وعظيم ذي الطول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**؛ ثم يمتن الله على
محمد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ١٣﴾.

أي: يا محمد اشكر ربك على هذه النعمة العظيمة وانتم أيضا اشكروا ربكم على هذه النعمة العظيمة؛ أن الله آتاكم القرآن؛ حفظه من التحريف والتغيير والتبديل وفيه سبيل الوصول إلى الجنة.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ١٤﴾.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: اصبر لما قدره الله عزَّجَلَّ وقضاه عليك من القدر الكوني ومن القدر الشرعي فامتثل الطاعات واجتنب المنكرات واصبر على الأقدار ينالك الخير العظيم.

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا﴾: لا تطع أصحاب الآثام؛ ﴿أَوْ كَفُورًا﴾ لا تطع الكفار لانهم يجرونك إلى النار وبئس المصير والمتأمل الآن لحال الناس لا سيما مع عيد الميلاد يجد أن كثيرا من الناس يقتدون بالكفار ويهنتونهم ويفرحون بهذا الموسم مع أن الفرح به لا يجوز لان هذا فرح بدعوى الألوهية لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو براء من هذه الدعوة؛ فيه الشرك والتنديد.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ١٥﴾.

اذكر ربك بالصباح والمساء.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ١٦﴾.

فإذا أدت الفرائض فكذلك بادر إلى الله عزَّجَلَّ بالنوافل لا سيما قيام الليل وهي من أحب العبادات إلى الله عزَّجَلَّ كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾: والتسبيح قد يطلق على الصلاة وعلى مطلق

التسبيح من سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر وغير ذلك من التنزيه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: عاد الله إلى ذكر أهل النار ما السبب الذي ادخلهم النار؛ ما السبب الذي أوقعهم في ما هم فيه من الخزي والوبال والشنار ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾: احبوا الدنيا و قدموها على الآخرة؛ آثروا النوم على صلاة الفجر؛ آثروا الشرك على التوحيد؛ آثروا قطيعة الرحم على صلة الرحم.

﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿١٧﴾﴾: يومًا شديدًا حره؛ شديد ما فيه من البلاء نسأل الله السلامة، تدنو الشمس من الخلائق مقدار ميل، وينزل الجبار، وتأتي الملائكة للفصل بين العباد يومٌ يغضب فيه الله؛ يوم لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله.

قال تعالى: ﴿تَحْنُ حَلْقَانَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿تَحْنُ حَلْقَانَهُمْ﴾: نحن الذين خلقناهم أي الله عزوجل ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ قويناهم، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْتَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾﴾ قيل: في الدنيا، وقيل: في الآخرة، إن الله لا يعجزه أن يخلقهم كما بدأهم، وقيل: أنه لو أراد أن يبدلهم في الدنيا بقوم صالحين طائعين لفعل سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: السورة وما فيها، ﴿تَذْكِرَةٌ﴾: أي: السورة وما فيها تذكرة؛ لمن؟ لمن يتعظ ويتذكر، ومثله قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١٩﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٠﴾﴾؛ وقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾. ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ طريقًا يوصل إلى الله عزوجل ويبلغه جنات النعيم.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: ثم قضى وبيّن أن العباد يتقبلون في مشيئة الله عزّوجلّ فلا خروج لهم عن ذلك إلا بتقديره وعونه وتسديده، فيا أيها المسلم قل الحمد لله الذي جعلني مسلمًا واختارني مسلمًا ووفقني لهذا الطريق القويم والصرّاط المستقيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾: حين خلقكم بمصالحكم وبمآلكم؛ ﴿حَكِيمًا ٣١﴾: خلقكم على مقتضى حكمته فالمؤمن على مقتضى حكمة الله ورحمته وفضله، والكافر على مقتضى علم الله وحكمته **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فلا يكون في ملكه العبث.

قال تعالى: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٢﴾.

فأسأل الله عزّوجلّ بمنه وكرمه أن يدخلنا في رحمته وأن يجنبنا من طريق الظالمين ومن طريق الكافرين، وأن يرزقنا تدبر القرآن والقراءة له أثناء الليل والنهار والحمد لله رب العالمين.



المحفة فف ففسفر سوراة الفمعة

تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [آل

عمران: ١٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه (٨٧٧): عَنِ ابْنِ أَبِي رَافِعٍ، قَالَ: اسْتَخْلَفَ مَرْوَانَ أَبَا هُرَيْرَةَ عَلَى الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَ إِلَى مَكَّةَ، فَصَلَّى لَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ الْجُمُعَةَ، فَقَرَأَ بَعْدَ سُورَةِ الْجُمُعَةِ، فِي الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ، قَالَ: فَأَذْرَكْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ حِينَ انْصَرَفَ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ قَرَأْتَ بِسُورَتَيْنِ كَانَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَقْرَأُ بِهِمَا بِالْكُوفَةِ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: "إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يَقْرَأُ بِهِمَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ".

وفيه رقم (٨٧٨): عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: كَتَبَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ إِلَيَّ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَسْأَلُهُ: أَيُّ شَيْءٍ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، سِوَى سُورَةِ الْجُمُعَةِ؟ فَقَالَ: "كَانَ يَقْرَأُ هَلْ آتَاكَ".

والذي يتأمل حال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ويتأمل أقواله يجد فيها الخير والنفع العظيم في الدنيا والآخرة، كيف لا وهو المبلغ عن الله والمبين لكتابه والناطق بتوحيده ووحيه، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۗ﴾، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۗ﴾.

فهذه السورة التي كان يتلوها رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في صلاة الجمعة فيها خير عظيم.

وقد كان يقرأ في الجمعة بسورة: سبح اسم ربك الأعلى والغاشية؛ كما في حديث النعمان وغيره.

وفيها من المواعظ ما الله به عليم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۗ﴾.

فناسب الإتيان بهذه السورة بعد موعظة الجمعة؛ كما قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۗ﴾؛ وإنما يجب عليك التبليغ ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۗ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۗ﴾، وهنا قال الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ﴾: أي هذه الموعظة التي سبقت صلاة الجمعة تذكير وتعليم، وهذه وظيفتك وهذا ما تستطيعه مما أمرك الله به، وإلا فإن هداية التوفيق خاصة بالله **عَزَّجَلَّ** وأنت ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء.

وفي الآية الأخرى في سورة سبح يقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۗ وَيَجْزِيهَا الْأَشْقَى ۗ﴾، فناسب الإتيان بها بعد موعظة الجمعة؛ بأن من تذكرك كان من السعداء ومن لم يتذكر ولم يتعظ كان من الأشقياء؛ ولأن المواعظ والعلوم إنما يستفيد منها أهلها.

وفي هذه السورة التي نريد أن نتكلم عنها الليلة سورة الجمعة ففيها حث وإخبار، وفيها أمر ونهي، وفيها الشيء العظيم كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿يَسْبِغُ لَكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

﴿١﴾

يخبر تعالى أنه لتمام ملكه وقهره وقوته يسبح له من في السموات والأرض من بر وفاجر ومؤمن وكافر وحجر وشجر وملائكة وجن فكلها خاضعة دالة على تنزيه الله تعالى عن النقص والعيب، وأنه تعالى متصف بالكمال المطلق من كل وجه في قدرته وملكه وحكمته وعلمه وقهره وسلطانه وغير ذلك من خصائصه فهو رب العالمين ومالك يوم الدين وله ملكوت السموات والأرضين.

فمن أنت وما أنت أمام السماوات وما فيها والأرضين وما فيها، فالله عز وجل غني عن طاعاتك وعن قرباتك وإنما تقدم لنفسك وتعمل لعدك قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبَّهُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّبَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّبَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آتِفُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَآتِفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰلِيسِقُونَ ﴿٤١﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفٰقَائِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

وقيل:

واعمل لدارٍ غداً رضوان خازنها ❀❀ والجار أحمد والرحمن ناشيها
وتسبيح المخلوقات لله تعالى كما قال العلماء بلسان الحال أو بلسان المقال.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد؛ حتى الكفار الذين يكفرونه بأفعاله وأقوالهم واعتقاداتهم وجودهم يدل على عظمة الله وعلى قدرته وعلمه وحكمته وعزته إلى غير ذلك من أوصاف جماله وخصال كماله.

فعليك أن تسبح أيها المسلم بلسان حالك وبلسان مقال أي تكثر من تسبيح الله **عَزَّوَجَلَّ** بلسانك: (سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر).

والنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يقول كما في حديث أبي هريرة عند مسلم: **«لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»**.

ومعنى: (سبحانه الله): تنزيه الله عن كل نقص وعيب.

ومعنى: (الحمد لله تعالى): إثبات كل كمال لله **عَزَّوَجَلَّ**.

وتستلزم سبحان الله إثبات كل كمال؛ لأنه إذا كان منزهاً عن النقائص فلكمالته، وتستلزم الحمد لله تنزيه الله عن النقائص؛ لأنه إذا كان كاملاً فهو منزّه عن النقائص والمعائب.

قوله تعالى: ﴿**الْمَلِكُ**﴾: وفي تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص: ٢٣٣): "الملك المالك: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر، والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق والأمر والجزاء.

وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد، ومماليك، ومضطرون إليه وهو الأمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء، وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار المتكبر، الحكم، العدل، الخافض، الرافع، المعز، والمذل، العظيم، الجليل، الكبير، الحسيب، المجيد، الوالي، المتعالي، مالك الملك، المتسلط، الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك. انتهى

وفي الآية: بيان ملك الله تعالى للموجودات فالله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ

الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾؛ بيان من الله تعالى لملكه المطلق للسموات وما فيها وللأرض وما فيها ومثل هذه الآية كثير في كتاب الله تعالى منها قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدْعُو مِنْ دُونِهِ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٦، ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾ [الفاتحة: ٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على سعة ملك الله تعالى وعظمته فإن الجبارون والمتكبرون مما هم فيه أمام عظمة من ذلت لعظمته الرقاب.

وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه تعالى: «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتَقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفَجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ».

ولتمام ملكه تعالى له الحمد المطلق ف(ال) تفيد الاستغراق أي: أن جميع المحامد ثابتة له تعالى على أكمل الوجوه وأعظم الخصال فله الحمد في ربوبيته والحمد في ألوهيته والحمد في أسمائه وصفاته.

وقد حمد الله تعالى نفسه في مواطن من كتابه وحمده الحامدون فمنها قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٢-٤].

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: ١]
وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وِليٌّ مِنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الإسراء: ٣١].

إلى غير ذلك من الآيات والحمد هو ذكر صفات الله تعالى مع حبه وتعظيمه وإجلاله، ومواطنه كثيرة بينت بعضها في شرحي على الواسطية.

ثم قال الله عز وجل في وصف نفسه حيث استحق هذا التسبيح وهذا التحميد وهذا التهليل ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ فالله عز وجل هو الملك الذي له الملك المطلق الذي لا يعجزه شيء: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾

فالله عز وجل لا يعجزه شيء له الملك المطلق ملوك الأرض عاجزين ملك لكن إنما أوتي مما يؤتى بني آدم يأكل ويشرب ويتلهى ويلبس ويتنعم لكن لا يستطيع أن يتصرف في دقات قلبه، ولا يتصرف في قلوب خواصه، ولا يتصرف في حياة زيد أو موته أعداءه كثر ما استطاع أن يتخلص منهم وحاجته ماسة ما استطاع أن يقضيها فهو بشر محتاج إلى غيره بينما الله عز وجل وله المثل الأعلى له الملك المطلق ونزید على

ما تقدم لبيان عموم ملكه وقهره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَشْفُقُ السَّمَاءَ بِالْقَمَرِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا ٥٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٥٦﴾.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٥٣﴾، وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٥٦﴾؛ فإذا كان هو الملك المطلق وكل ملوك الدنيا فقراء إليه فيقتضي أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

قوله تعالى: ﴿الْقُدُّوسُ﴾: المنزه عن المعاييب والنقائص والذي ثبت له جميع المحامد.

وفي تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص: ٢٠٨) قال **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: "ومن أسمائه القدوس السلام، أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتمنزه عن جميع العيوب، والمتمنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**، **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**، **﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ٥٥﴾**، **﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾**، فالقدوس كالسلام، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله فهو المقدس المعظم المنزه عن كل سوء، السالم من مماثلة أحد من خلقه ومن النقصان ومن كل ما ينافي كماله. فهذا ضابط ما ينزه عنه، ينزه عن كل نقص بوجه من الوجوه، وينزه ويعظم أن يكون له مثل أو شبيه أو كفو أو سمي أو ند أو مضاد، وينزه عن نقص صفة من صفاته التي هي أكمل الصفات وأعظمها وأوسعها.

ومن تمام تنزيهه عن ذلك إثبات صفات الكبرياء والعظمة له فإن التنزيه مراد
غيره ومقصود به حفظ كماله عن الظنون السيئة كظن الجاهلية الذين يظنون به ظن
السوء، ظن غير ما يليق بجلاله وإذا قال العبد مثنيًا على ربه "سبحان الله" أو "تقدس
الله" أو "تعالى الله" ونحوها كان مثنيًا عليه بالسلامة من كل نقص وإثبات كل كمال
". انتهى

وعن عائشة نَبَاتُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: **﴿فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ
سُبُوحٌ قُدُوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿الْعَزِيزُ﴾**: أي: ذو العزة وهي تمام القوة والقهر فالله **عَزَّجَلَّ** قوي
لا يكرهه شيء ولا يعجزه: **﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ
ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾**، فالله **عَزَّجَلَّ** عزيز ذو البطش الشديد، الفعال لما
يريد.

وفي تفسير أسماء الله الحسنى للسعدي (ص: ٢١٤) قال **رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى**: "هذه
الأسماء العظيمة معانيها متقاربة فهو تعالى كامل القوة عظيم القدرة شامل العزة **﴿لِأَنَّ
الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾**، العزيز الذي له العزة كلها عزة القوة، وعزة الغلبة وعزة
الامتناع، فممتنع أن يناله أحد من المخلوقات وقهر جميع الموجودات، ودانت له
الخليقة وخضعت لعظمته. فمعاني العزة الثلاث كلها كاملة لله العظيم. انتهى
وقوله تعالى: **﴿الْحَكِيمُ﴾** (٣٢): "الحكيم هو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره
الذي أحسن كل شيء خلقه: **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**،

فلا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يشرع شيئًا سديًا، الذي له الحكم في الأولى، والآخرة،
وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره،
وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

والحكيم: الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والاطلاع على مبادئ الأمور، وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللاتقة بها في خلقه، وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدر في حكمته مقال.

وحكمته نوعان:

أحدهما: الحكمة في خلقه فإنه خلق الخلق بالحق، ومشملاً على الحق، وكان غايته والمقصود به الحق، خلق المخلوقات كلها بأحسن نظام، ورتبها أكمل ترتيب، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقته، وهيئته، فلا يرى أحد في خلقه خللاً، ولا نقصاً، ولا فطوراً، فلو اجتمعت عقول الخلق من أولهم إلى آخرهم ليقترحوا مثل خلق الرحمن أو ما يقارب ما أودعه في الكائنات من الحسن، والانتظام، والإتقان لم يقدرُوا، وأنى لهم القدرة على شيء من ذلك

وحسب العقلاء الحكماء منهم أن يعرفوا كثيراً من حكمه، ويطلعوا على بعض ما فيها من الحسن، والإتقان.

وهذا أمر معلوم قطعاً بما يعلم من عظمته، وكمال صفاته، وتتبع حكمه في الخلق، والأمر.

وقد تحدى عباده، وأمرهم أن ينظروا، ويكرروا النظر، والتأمل هل يجدون في خلقه خللاً أو نقصاً، وأنه لا بد أن ترجع الأبصار قليلة عاجزة عن الانتقاد على شيء من مخلوقاته.

النوع الثاني: الحكمة في شرعه وأمره، فإنه تعالى شرع الشرائع، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ليعرفه العباد، ويعبدوه، فأى حكمة أجل من هذا، وأي فضل، وكرم

أعظم من هذا، فإن معرفته تعالى، وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص العمل له وحده، وشكره، والثناء عليه أفضل العطايا منه لعباده على الإطلاق. انتهى من تفسير أسماء الله الحسنی للسعدي (ص: ١٨٦).

فعرته مقترنة بحكمته ولذلك يقول تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾، ويقول: ﴿لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾ وفي الحديث القدسي: «إني حرمت الظلم على نفسي»، والحكمة هي: وضع الشيء في موطنه ولهذا يجمع ربنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آيَاتِ الْوَعِيدِ، ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٣٦﴾**: أي أنه قادر على إنفاذ وعيده لكن اقتضت حكمته أن يؤخر الوعيد إلى يوم القيامة وإلا لو أراد أن ينتقم من العصاة وأن يصددهم ويدمرهم ويزلزلهم فعل وقد فعل بقوم نوح فأغرقهم وبقوم فرعون فأغرقهم وبقوم لوط فحسف بهم وبقوم عاد فسخر عليهم الريح وبقوم ثمود فسخر عليهم الصيحة وبقريش فسخر عليهم السيف فالله **عَزَّوَجَلَّ** له الحكمة البالغة والحجة الدامغة.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝١﴾.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: الأميون العرب، وفي حديث ابن عمر رضي الله نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، وقد انتشر فيهم أكثر الشرور وأعظمها الشرك والتنديد والقتل وغير ذلك كما في حديث المغيرة بن شعبة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند البخاري: وَخَرَجَ عَلَيْنَا عَامِلٌ كِسْرَى فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا، فَقَامَ تَرْجُمَانًا، فَقَالَ: لِيُكَلِّمَنِي رَجُلٌ مِّنْكُمْ، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: سَلْ عَمَّا سِئْتَ؟ قَالَ: مَا أَنْتُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ أَنْاسٌ مِنَ الْعَرَبِ، كُنَّا فِي شَقَاءٍ شَدِيدٍ وَبَلَاءٍ شَدِيدٍ، نَمَصُّ الْجِلْدَ وَالنَّوَى مِنَ الْجُوعِ، وَنَلْبَسُ الْوَبْرَ وَالشَّعْرَ، وَنَعْبُدُ الشَّجَرَ وَالْحَجَرَ، فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِينَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ وَجَلَّتْ عَظَمَتُهُ - إِلَيْنَا نَبِيًّا مِنْ أَنْفُسِنَا نَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ، فَأَمَرَنَا

نَبِيْنَا رَسُولَ رَبِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «أَنْ نُقَاتِلَكُمْ حَتَّىٰ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، أَوْ تُؤَدُّوا الْجِزْيَةَ، وَأَخْبَرْنَا نَبِيْنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ رِسَالَةِ رَبِّنَا، أَنَّهُ مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي نَعِيمٍ لَمْ يَرِ مِثْلَهَا قَطُّ، وَمَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقَابِكُمْ».

وفي حديث أم سلمة عند أحمد شيء من ذلك ومنه قول جعفر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** للنجاشي: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَىٰ ذَلِكَ حَتَّىٰ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، "فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالِدَّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ"، قَالَ: فَعَدَدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيُرِدُونَا إِلَىٰ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْحَبَاثِثِ، فَلَمَّا فَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَىٰ بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَىٰ مَنْ سِوَاكَ، وَرَغَبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظَلَّمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فبعث الله تعالى إليهم نبياً من أنفسهم وهذا لا يمنع أن يكون قد أرسل إلى غيرهم على ما هو معلوم وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ومن الأدلة أنه رسول الله إلى الناس عامة قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً

لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا كَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ [سبأ: ٢٨] وقوله تعالى:
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١] وقوله تعالى:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي مسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى
الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأِحْلَتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي
الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ.»

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ:
«أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُئِيتُ إِلَى كُلِّ
أَحْمَرٍ وَأَسْوَدٍ، وَأِحْلَتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا
وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ
شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»، متفق عليه.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾: يبين
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تمام منته وكرمه وفضله عليهم أن بعث فيهم رسولاً يتكلم برسالته
يعرفون نطقه ونسبه ويعرفون فضله وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أمي مثلهم لا يقرأ
المكتوب وما جاء أنه خط بعض الكلمات فهذا من دلائل نبوته، وإلا فإنه لما أتاه
جبريل قال له اقرأ قال: «ما أنا بقارئ» أي: لا يستطيع القراءة.

وهذه نعمة عظيمة أن ييسر الله لك من يسمعك و يعلمك إذا جهلت ويذكرك إذا
نسيت إلى غير ذلك، واحمدوا الله أن جعلكم تتكلمون باللسان العربي غيركم يتعب
كثيراً يحبون الدين لكن لا يفقهون ولا يفهمون ولا يعون ولا يحفظون؛ لأن القرآن
بغير لغتهم، وإذا حفظ يعاني ويتعب وينصب وأنت جعلك الله تتكلم لغة العرب
فتفهم كلام الله وكلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

﴿١٦٦﴾: أيضًا من أسباب الزكاة يزكك بطاعة الله و يعلمك الأسباب التي تؤدي بك إلى الجنة ويحذرك من الأسباب التي تؤدي بك إلى النار، يعلمك مكارم الأخلاق ويحذرك من سفاسفها، يعلمك التواضع وينهاك عن الكبر، يعلمك العلم وينهاك عن الجهل، يعلمك الطاعة وينهاك عن المعصية، يعلمك التوحيد وينهاك عن الشرك، يعلمك السنة وينهاك عن البدعة: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٦٧﴾، نعم والله طاعة النبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ زكاة، زكاة للقلوب، وللأعمال، وللعقائد، زكاة في الدنيا والآخرة، يثنى صاحبها عند الله وعند الصالحين من عباد الله، صاحبها مقدم في الدنيا والقبر والآخرة، صاحبها صاحب رفعة، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿١٦٨﴾.

وقوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾: بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في قوم كانوا يأكلون الميتة ويقطعون الأرحام ويأتون الحرام ويشربون الخمر ويعبدون الأصنام ويأكلون الربا فزكاهم هذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بإتباعهم هذا النبي وصاروا سادة وقادة، فمرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى بمكة وكان بمكة بغية يقال لها عناق وكانت صديقتة، قال: جئت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فقلت: يا رسول الله أنكح عناق؟ قال: فسكت عني فنزلت: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحَهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣﴾ [النور: ٣]، فدعاني فقرأها علي وقال: «لا تنكحها».

فانظر زكاة في طاعة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، زكاة في طاعة أمر الله، زكاة في اللجوء إلى الله، ولما كان الإنسان يقع في قلبه ما يقع رجع إلى رسول الله فأنزل الله

عَزَّجَلْ: ﴿وَالزَّيْنَةُ لَا يَنْكِحَهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾، هذا توجيه الله توجيه وتوفيق وتسديد.

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَنُزُلَاتِهِمْ﴾: وزد أيضًا: **﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ**

وَالْحِكْمَةَ﴾: أي الكتاب والسنة، والكتاب هو القرآن، والحكمة هي السنة.

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾﴾: أخبر الله **عَزَّجَلْ** ما كانوا عليه من

أجل أن يعرفوا قيمة تلك النعمة التي كانوا عليها فكثير من الناس لا يعرفون بالنعمة إلا إذا ذكروا بما كان عليه من الضلال؛ ولهذا قال فرعون لموسى **عَلَيْهِ السَّلَامُ**:

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْآتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٧﴾

فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨﴾ [سورة الشعراء: ١٨-

٢١]، فررت منكم بسبب أني وقع في هذه المسألة في هذا القتل وظلمت نفسي وكنت

جاهلاً بتعاليم الدين، ولم يكن قد بعث الله إليه في ذلك الوقت، وقال تعالى:

﴿وَوَعَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾، ثم أمتن الله **عَزَّجَلْ** عليه فقال: **﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ**

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

نعم يا عباد الله بين الله **عَزَّجَلْ** لهم أنهم كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

قال تعالى: **﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾**.

أي: وأخرين سيستفيدون من هذه الدعوة لما يلحقوا بهم فسرهما رسول الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ بأنهم أناس من فارس في ذلك الزمان، أما أهل فارس الآن رافضة

إلا من رحم ربي، فلا يستدل الرافضة الآن بهذا الحديث: **«لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا**

لَنَالَه رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ» من أهل فارس.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** فَأَنْزَلَتْ

عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ: **﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾**، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فَلَمْ يُرَاجِعْهُ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَصَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيْمَانُ عِنْدَ الثَّرِيَاءِ لَنَالَهُ رِجَالٌ أَوْ رِجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»، متفق عليه.

جاء الله بقوم من ذلك البلاد اسلموا وفتح بهم الفتوح وحفظ بهم الدين كالبخاري ومسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجة ومن كان على شاكلتهم، ومن كان من أفرادهم وأسلافهم ممن أطاع الله: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٣)، أيضًا مع قوته اقتضت حكمته إسلام مثل هؤلاء الصالحين الحافظين ليحفظ الله بهم الدين

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٦).

أي: بالتوفيق والزكاة والهداية والتعليم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه والله ذو الفضل العظيم .

فالمسلم يحمد الله عزَّوَجَلَّ الذي تفضل عليه أخرجته من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاءُ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٥٧)، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦): أي: الهداية للإسلام والمنة به يؤتية من يشاء من عباده ممن علم بهم الخير وحب الخير وعلم في قلوبهم الصلاح: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١٥٧).

ثم أخبر الله **عَزَّوَجَلَّ** عن حال المعرضين عن هذا الإيمان وعن هذا الإسلام فقال:

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِرَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

﴿٥﴾

الظلم من أعظم الأسباب للصد عن الهداية سواء كان ظلم الكفر وظلم الشرك فيما بين العبد وبين ربه أو كان ظلم المرء لغيره أو كان ظلم العبد لنفسه فالظلم عاقبته عظيمة وهو أنواع وأعظمها الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

فمثل الذين حملوا التوراة من اليهود ومن النصراني ثم لم يحملوها كمثل الحمار، كذلك مثل الذين سمعوا وتعلموا القرآن ثم مازالوا على خلافه يشركون وينددون ويتعاطون غير ذلك مما يناقض القرآن كمثل الحمار سمى الله المعرض عن العمل حمار الحمار يحمل الكتب لكن هل يستفيد منها، كما قيل:

زوامل للأشعار لا علم عندهم ❀❀ بجيدها إلا كعلم الأباعر
 لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ❀❀ بأوساقه أو راح ما في الغرائر
 يعني: الذي لا يستفيد من علمه كمثل الأباعير؛ ولهذا قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَأَنْتَ

عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ
 شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ
 تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِرَاتِنَا فَأَقْصِصْ
 الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾، فالله **عَزَّوَجَلَّ** وصف الذي لا يعمل بعلمه بالكلب
 ووصف الذي لا يعمل بعلم بالحمار الذي يحمل الأسفار ولا يستفيد منها.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾: بينما المؤمن له مثل عظيم مثله بالنخلة؛ كما في حديث

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ

شَجْرَةَ لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَهِيَ مِثْلُ الْمُسْلِمِ، حَدَّثُونِي مَا هِيَ؟» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ
الْبَادِيَةِ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَاسْتَحْيَيْتُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ،
أَخْبِرْنَا بِهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ النَّخْلَةُ» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَحَدَّثْتُ
أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي، فَقَالَ: «لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا».
متفق عليه، يعني: كل أجزاءها فيها خير وكلها يستفيد منها الناس بجميع الأوقات
واللحظات.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾: علم الله بهم الظلم
، علم بهم البغي، علم الله بهم الإعراض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا
لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، فالله له المنة وله الحمد على أن
هدانا للإسلام ونسأله أن يتوفانا على ذلك.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ
فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ثم لما كان المقام مقام مناظرة لقوم يدعون أنهم على الحق ويدعون أنهم أهل
الاستقامة ويدعون أنهم أهل الخير وهذا ديدن قديم حين قاله إبليس اللعين حين قال
لآدم: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾، يدعي الخيرية؛ وحين قال فرعون
لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، ويقول في
موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، وقال
في وصف نفسه: ﴿قَالَ يَقَوْمِ الْبَيْتِ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا
تُبْصِرُونَ﴾ أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكادُ يبينُ ﴿٥٤﴾، موسى عندهم
مهين! ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني: لا يكاد يفصح إلى غير ذلك.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما كان الموطن موطن مناظرة وكان اليهود يدعون أنه الله وأنهم أبناءه كما قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾، بل أنتم بشر، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾.

وهنا يقول الله عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾: يا أيها اليهود: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾: إن قلتم أنكم الأولياء والأصفياء وأنتم الجنس الثاني وأنتم شعب الله المختار كما تقولون: ﴿فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾﴾، تمنوا الموت فإذا تمنوه هلكوا، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لوفد نجران: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾، خافوا ورفضوا هذه الملاعنة.

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ، صَاحِبَا نَجْرَانَ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَاعِنَا لَا نُفْلِحْ نَحْنُ، وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ «لَا بُعْثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ»، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ» فَلَمَّا قَامَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ».

فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: يا أيها اليهود إن كنتم الأولياء والأصفياء تمنوا الموت حتى تقدموا على ربكم فيجازيكم بأعمالكم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٩٥-٩٦].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾: لماذا؟

لأنهم على ضلال، وإنما يفرح بلقاء الله المؤمن من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦١﴾﴾، ومن من الناس الآن أصحاب الأحزاب يزعمون أنهم على الحق والصوفية يزعمون أنهم على الحق والشيعنة يزعمون أنهم على الحق والمكارمة لا كرمهم الله ولا صبحهم بخير ولا مساهم يزعمون أنهم على الحق، حتى أنهم في هذه الأيام جاء دعاة الشرك لعنهم الله وأخزاهم إلى اليمن وإذا بهم يعيدون ويحتفلون بهم في حراج.

فنصيحة للمسلمين أن يتبينوا حال هؤلاء الزنادقة والزائرين، والله إن المكارمة والإسماعيلية والرافضة زنادقة يفتنوا المسلمين، أما المكارمة ومن تفرع منهم نقل شيخ الإسلام الاتفاق على أنهم أكفر من اليهود والنصارى، وفعلاً والله هم أكفر من اليهود والنصارى.

ففي ترجمة علي بن الفضل في الثناء عليه:

خذي الدُّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِي *** وغني هزاريك ثمَّ اطربي
تولِّي نَبِيَّ بَنِي هَاشِم *** وَهَذَا نَبِيَّ بَنِي يَعْرَب
لكل نَبِيٍّ مَضَى شَرَعَهُ *** وهاتِي شَرِيعَةَ هَذَا النَّبِيِّ
فقد حطَّ عَنَّا فَرُوضَ الصَّلَاةِ *** وَحَطَّ الصَّيَامَ فَلَمْ تَتَعَبْ

- أَحَلَّ الْبَنَاتَ مَعَ الْأُمَهَاتِ ❀❀ وَمَنْ فَضَّلَهُ زَادَ حَلَّ الصَّبِيِّ
- إِذَا النَّاسَ صَلُّوا فَلَا تَنْهَضِي ❀❀ وَإِنْ صُومُوا فَكَلِي وَاشْرَبِي
- وَلَا تَطْلُبِي السَّعْيَ عِنْدَ الصَّافَا ❀❀ وَلَا زُورَةَ الْقَبْرِ فِي يَثْرَب
- وَلَا تَمْنَعِي نَفْسَكَ الْمَعْرَسِينَ ❀❀ مِنَ الْأَقْرَبِينَ مَعَ الْأَجْنَبِيِّ
- فَبِمَ ذَا حَلَلْتَ لِهَذَا الْغَرِيبِ ❀❀ وَصَرْتَ مُحْرَمَةً لِلْأَبِ
- أَلَيْسَ الْغِرَاسَ لِمَنْ رَبَّهُ ❀❀ وَأَسْقَاهُ فِي الزَّمَنِ الْمَجْدِبِ
- وَمَا الْخَمْرُ إِلَّا كَمَاءِ السَّمَاءِ ❀❀ مَحَلٌ فَقَدَسَتْ مِنْ مَذْهَبِ

انظر إلى هؤلاء الفجرة!، قال الغزالي: وهم يستيحيون الفروج بالإجماع.

وقال بعضهم في صفاتهم: أنهم لا يعلمونك دينهم حتى يختبروك في امرأتك، فمن أراد أن يلتحق بهم قالوا: عندنا أسرار لا نستطيع أن نعلمك حتى تفعل ما نأمرك به فيضل معهم أيام وليالي يريد أن يعرف السر، سر الباطل، سرهم الكفر فيقولون له: يا فلان إذا أردت أن تكون على مذهبنا ففلان على مذهبنا فخذه إلى بيتك وأدخله على امرأتك فإذا فعلت ذلك فأنت تستحق السرية.

فبعد أن يرضى بالزنا بامرأته وهو ينظر يخبرونه بما شاء؛ لأن عقله أردأ من عقل الحمار، إي والله أن الحمار ما يرضى بالحمار التي يكون بجانبها، والديك بل ربما الكلاب بل إن القردة كما قال عمرو بن ميمون قال: "رَأَيْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قِرْدَةً اجْتَمَعَ عَلَيْهَا قِرْدَةٌ، قَدْ زَنَتْ، فَرَجَمُوهَا، فَرَجَمْتُهَا مَعَهُمْ". أخرج البخاري.

فنصيحة للمسلمين: أن يتقوا الله وأن يحذوا من هؤلاء، فهم من أسباب دمار الدول، لا تظن أيها المسلم أن هذا بدولاراته أو بملايينه يستطيع أن يفعل لك شيء هذا من أسباب دمار الدول، لو كانوا على شيء لمكنهم، لكن وإن تسلطوا أيامًا فهم أردأ والله من الحمير والكلاب والبعال، قال تعالى: ﴿إِنَّ سَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ

الضُّمُّ الْبِكْرُ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾، فوالله أنه يجب على الدولة أن تدمر وأن تخرب عليهم مساجدهم وقبورهم وأماكنهم كما وضحنا ذلك في كتابنا: "عقائد الباطنية والمكارمة وخطرها على الأمة"، فالنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قد حرق مجلس الضرار وهو أقل ضرراً من مساجد المكارمة وأقل ضرراً من مساجد الرافضة الذين ينحرون بالإسلام باسم الإسلام، وباسم التشيع لآل البيت .
وكما قال في المكارمة: علانيتهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

فالله عليم بالظالمين، وعلیم بالصالحين، فإن كان من أهل الصدق الله عليم به، ومن كان من أهل الكذب فالله عليم به، فلا تزكي نفسك، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾﴾، وليس هنا بمعنى لا تعملوا الخير وإنما لا تزكوا أنفسكم أي: تطروها وثنوا عليها، فهو أعلم بمن اتقى، وكما قيل:

وَكُلُّ يَدْعِي وَضَلَّ لِلْيَلَىٰ ❀❀ وَيَلَىٰ لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾: كل الناس.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾: الله عالم الغيب المطلع على الغيب والشهادة على الأمور الظاهر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾، وقال: ﴿يَعْلَمُ خَائِبَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٣١﴾﴾، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعَامُونَ ﴿١﴾﴾.

قال ابن مسعود - **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** -: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فأرع لها سمعك، فإنه خير تؤمر به، أو شر تنهى عنه. أرع لها سمعك وقلبك أي: استمع وأصغي؛ لأن هذا النداء من الله لك. فإذا قال لك أبوك: يا محمد أما تلتفت إليه حينئذ، وإذا قال: يا صالح أما تلتفت إليه؟ بلى تلتفت وتنظر ماذا يريد أن يأمر، وماذا يريد أن ينهى، فتفعل المأمور وتترك المحذور، فكذلك من هذا الباب إذا قال الله **عَزَّ وَجَلَّ**: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فأرع سمعك استمع واتعظ والتفت وافعل المأمور واترك المحذور، واصبر على المقدور.

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾: دلالة على أنه ينبغي للمسلم أن يبادر إلى الطاعات والقربات كما أنه يسعى ويجري للمصالح الدنيوية عليه أن يبادر إلى الطاعات والقربات، وعن أبي عَبَسٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ جَبْرِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالَ: «مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فْتَمَسَّهُ النَّارُ». أخرجه البخاري

وبوب عليه البخاري: (باب المشي إلى الجمعة).

وهذا وإن كان في الجمعة خاص فهو عام في جميع الطاعات والقربات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾: إذا أمرتم بالصلاة صلوا، وإذا أمرتم بالزكاة زكوا، وإذا أمرتم بالحج حجوا، وإذا أمرتم بالذكر اذكروا، وإذا أمرتم بمكارم الأخلاق طبقوا، وهكذا، فيما أنه يطاع في صلاة الجمعة يجب أن يطاع في غيرها.

وسبب نزول الآية: ما جاء في صحيح البخاري: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: "بينما نحن نُصلي مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إذ أُقبلت عيرٌ تحمل طعامًا، فالتفتوا إليها حتى ما بقي مع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا اثنا عشر رجلًا، فنزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١٨]."

فأمرهم الله بالسعي للجمعة وترك البيع في حال الجمعة، بل لا يجوز أن تشتري وتبتاع في ذلك الوقت، والبيع محرم ولو كان سواك أو منديل أو ماء أو أي شيء. ﴿ذَلِكَمْ حَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٨]: والله عز وجل يعلم مصالح العباد ولهذا أمر بالخير ونهى عن الشر والضير.

والجمعة يوم عظيم من أعياد المسلمين قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: «خيرٌ يومٍ طلعت عليه الشمسُ يومُ الجمعةِ، فيه خلق آدمُ، وفيه أُدخل الجنةَ، وفيه أُخرج منها، ولا تقومُ الساعةُ إلا في يومِ الجمعةِ»، أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذكرَ يومَ الجمعةِ، فقال: «فيه ساعةٌ، لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، وهو يصلي، يسأل الله شيئًا، إلا أعطاه إياه». متفق عليه.

يوم الجمعة يوم عظيم، يوم فضيل أمتن الله عز وجل به على هذه الأمة، عرض على اليهود فأبوا، وعرض على النصارى فأبوا، فجاء المسلمون فوقفهم الله ليوم الجمعة؛ فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «نحنُ الآخرون، ونحنُ السابِقون يومَ القيامةِ، بيدَ أن كلَّ أمةٍ أُوتيت الكتابَ من قبلنا، وأوتيناها من بعدهم، ثم هَذَا اليَوْمُ الَّذِي كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْنَا، هَذَا اللهُ لهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبِعٌ، الْيَهُودُ عَدَا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». متفق عليه.

فقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾: فالخيرية كل الخيرية في إتباع أمر الله واجتناب نهيه وزجره والله عَزَّوَجَلَّ عليهم بمصالح العباد ولهذا حثهم على الخير وحذرهم من الشر والظير وحثهم على ما يأتي بهم إلى النعيم المقيم وحذرهم من الشر وما يؤدي به إلى العذاب الأليم.

﴿فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ﴾: سبحان الله ما أرحم الله ما ألطف الله بعباده، والله لطيف بهم ورحيم بهم، ما قال اجلس في المسجد يومك ونهارك، وما جعل أوزارًا وآصارًا عليك، بل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٦﴾﴾، حرم على اليهود صيد يوم السبت والعمل يوم السبت، أما المسلمين رحمهم وأمتن عليهم، اليهود شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فقوله: ﴿فَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ﴾: أي: إذا انتهيتم من الصلاة والذكر والطاعة فانتشروا في الأرض لمصالحكم، كزيارة محارمكم، والعمل في مزارعكم وكذلك البيع والشراء والبحث عن المكاسب.

﴿وَأَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾: هذا ليس من فضلكم، هذه دلالة واضحة على أن الله هو المنعم وهو المعطي، فاستحضر مثل هذا أنت أن تخرج من المسجد للسعي ليس بحولك ولا بقوتك، ولا بقدرتك، ولا بمالك، ولا بجاهك وإنما هو فضل الله، وكما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]، ففضل الله واسع.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٥﴾﴾: فمع ما رزقك الله من فضله وسعيت في طلبه فاذكر الله عَزَّوَجَلَّ كثيرًا على هذه النعمة، اذكر الله في دكانك، وسيارتك، ومزرعتك، عند أبنائك، عند أصحابك، في طريقك.

وهذا فيه: دلالة أن ابتغاء فضل الله طيب، ابتغاء للرزق وصيانة للعرض وصيانة للوجه، وانفاق على الأرحام والأقارب والأبناء والنفس أمر طيب، لكن اعلموا أن

الفضل العظيم والخير العظيم والسبب العظيم للفلاح هو في ذكر الله: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والله أكثر، والله أكبر، والله أعظم. وفضائل الذكر كثيرة ومعروفة وليس هذا موطن بسطها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

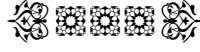
وهذا كما ذكرنا سابقاً في سبب نزولها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: "بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَقْبَلَتْ عَيْرٌ تَحْمِلُ طَعَامًا، فَالْتَفَتُوا إِلَيْهَا حَتَّى مَا يَبْقَى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]".


إذن يا أخي أنت تريد الدنيا وتريد الآخرة، تريد الله والدار الآخرة، تريد الخير العظيم، عليك ابتغاء فضل الله والسعي في مرضاة الله والبعد عن معصية الله.

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوَمِنَ التِّجْرَةِ﴾: فإذا أنعم عليك بنعم الدنيا من الذي يمنحك؟، وإذا منعها من يعطيك؟، والله ما أحد، قال صلى الله عليه وسلم: «وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أخرجه الترمذي كما حديث ابن عباس رضي الله عنه.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾: فالرزق الطيب هو رزق الدين رزق العلم رزق القرآن رزق السنة، وأما رزق الأكل والشرب الحمد لله الذي كتبه الله لك ما سيمنعه أحد، قال صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوِي رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ خذوا ما حلَّ ودعوا ما حرم»، أخرجه ابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.

نسال الله لنا ولكم التوفيق والسداد، والإعانة والثبات، والحمد لله رب العالمين.





بيان معاني سورة الشرح

تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ربي لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [آل

عمران: ١٣].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وإنما تواعدون لآت وما أنتم بمعجزين.

إن من نعم الله العظيمة وآلائه الجليلات: حضور مثل هذه المجالس الطيبات المباركات، مجالس في زمن كثر فيه المعارضون وكثر فيه المخالفون وأنت يا أيها السلفي ويا أيها السني تتوجه إلى بيت من بيوت الله وإلى مجلس من مجالس الذكر العامة لسماع كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

ومعلوم أن هذه المجالس لا يخلو مبتغيها من فوائد جليلة، من أجلها: أن الله **عَزَّوَجَلَّ** يذكر صاحبها فيمن عنده، قال **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَذَكَّرُونَ فِيهِ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِي مَنْ عِنْدَهُ**». أخرجه مسلم عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

ولو لم يكن فيه إلا أن الله **عَزَّوَجَلَّ** يذكرك لكان حريٌّ بك أن لا تفوتك هذه المجالس، وإن بعدت الطريق وعظمت المشقة، وإن حصل ما حصل فإن حضور هذه المجالس يزداد به المرء إيماناً ويزداد به علماً فالله **عَزَّوَجَلَّ** يقول لنبيه: ﴿**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۗ**﴾، ومن يرغب عن العلم ويقول: يكفيني ما عندي إلا من كان جاهلاً بالعلم، وإلا فإن السلف الصالحين كانوا يقولون: "لا يكون الرجل عالماً حتى يأخذ أو يحدث عن من هو فوقه، وعن من هو مثله، وعن من هو دونه".

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات - إن شاء الله - وقيل له مرة أخرى مثل ذلك، فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد.

وفعلًا يقول الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ۖ**﴾، ويقول الله **عَزَّوَجَلَّ** لنبيه: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۖ**﴾.

ومعلوم: أن العلم بالتعلم ولا يمكن أن تنال العلم وأنت نائم في بيتك لا تقرأ ولا تسمع ولا تحفظ، فيسر الله **عَزَّوَجَلَّ** بمثل هذه المجالس، والمحافظة على مثل هذه المجالس محافظة على طريقة سلفية؛ ففي حديث أبي سعيد الخدري **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَ الرَّجَالُ بِحَدِيثِكَ، فَاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَوْمًا نَأْتِيكَ فِيهِ، تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، قَالَ: **«اجْتَمِعْنَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا»**، فَاجْتَمَعْنَ، فَأَتَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا

عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُنَّ مِنْ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا، مِنْ وَلَدِهَا ثَلَاثَةً، إِلَّا كَانُوا هَآءَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ: وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ، وَاثْنَيْنِ»، رواه البخاري ومسلم .

وعبد الله بن مسعود **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** كان يتخول أصحابه بالموعظة يوم الخميس وهو ما يقوم مقام المحاضرة التي نسميها الآن.

فالإنسان يحرص على أن يفرغ شيئاً من وقته لسماع كلام الله وكلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، ووالله إن القلوب لتصدأ، وإن الإنسان يلحقه الفتور، وقد لاحظنا ذلك في أنفسنا فضلاً عن غيرنا فإننا حين شغلنا بما شغلنا به في هذه الفترة قست قلوبنا إلا ما رحم ربنا **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** بسبب ما تلقى من المشاغل وما تلقى من غير ذلك مما يحتاجه الإنسان، فينبغي أن نجعل أكثر أوقاتنا لله.

وإذا كان هذا الأمر قد حصل لمن هو خيرٌ منا وأفضل وأعلم فما بالك بأنفسنا ونحن المفرطون المضيعون المقصرون؛ فقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه من حديث حنظلة الكاتب أنه قال: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ؟ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدَكَ، عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيِّعَاتِ، نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُوْمُونَ عَلَى

مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحْتَكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حُظْلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

انظر إلى قول النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي»، فمجالسة العالم ومجالسة المذكر بالله **عَزَّوَجَلَّ** من أسباب الاتعاظ، ومن أسباب الزيادة في الإيمان والذكر، فإذا كان قد حصل للسلف الصالحين ما رفعوه إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ودلهم على الذكر وعلى حلقه فما بالك بنا نحن الذي كثر تفريطنا وغفلتنا ومشاغلتنا.

ويعزى إلى الشافعي **رَحِمَهُ اللَّهُ** أنه قال: لو كُفِّتُ بشراء بصلة ما حفظتُ مسألة، فما بالك بما يحصل لنا من الخروج إلى الأسواق ومن ضياع الأوقات ومن ازدحام الطرقات كم نفقد من الخير؟!.

فما بقي معنا إلا أن نفرغ من أنفسنا بعض الوقت لله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** مع أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على الخير لنفسه كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** كما في حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند الإمام مسلم: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعيفِ، وفي كلِّ خيرٍ، احرص على ما ينفعك، واستعين بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيءٌ، فلا تقل: لو أني فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

استعن بالله على طاعة الله ولا تعجز عن العمل، ولا تعجز عن المبادرة فإن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يوفق من علمه أهلاً للتوفيق ويسد من علمه أهلاً للسداد، فالله الله يا أهل السنة في امتثال أمر ربكم وفي متابعة نبيكم **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**.

يقول **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ممتناً على نبيه الكريم: **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا**
عَنكَ وَرَدَكَ ۖ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۖ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا ۖ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجَبْ ۗ ﴿٨﴾ [الشرح: ١-٨].

يخبر **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** أنه قد شرح لرسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** صدره، والاستفهام هنا للتقرير، والمعنى: قد شرحنا لك صدرك، وقد شرح الله **عَزَّوَجَلَّ** صدر محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حسيًا ومعنويًا أما الحسي فما جاء عن أنس بن مالك وغيره: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** آتَاهُ جِبْرِيلُ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْعِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصْرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْعِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظَنْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَبَلُّوهُ وَهُوَ مُتَّعِقُ اللَّوْنِ"، قَالَ أَنَسُ: "وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ". أخرجه مسلم.

والنوع الثاني: هو أن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد شرح صدر محمدًا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لطاعته ومرضاته، لتكن بحالين:

الحال الأول: الرضا بقدر الله الشرعي، فما أمر الله **عَزَّوَجَلَّ** به وما نهى الله **عَزَّوَجَلَّ** عنه رضي المؤمنين بشرع الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** وفي ذروة من رضي بذلك محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ومعلوم أنه لا توفيق للإنسان إلى الوصول إلى مرضاة الرحمن إلا بأن يشرح الله **عَزَّوَجَلَّ** صدره لطاعته ومرضاته قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿أَقْمِنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَلَيْسَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٦﴾

والذي يوسع الله **عَزَّوَجَلَّ** صدره لقبول الحق وينشرح لشرع الله **عَزَّوَجَلَّ** لا يستوي مع من ضيق الله **عَزَّوَجَلَّ** عليه صدره ولحقه الضرر بسبب هذا الضيق الذي حصل له: ﴿أَقْمِنِ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾: على هدى ونور على بينة وتقوى؛ لأنه إنقاد لشرع الله **عَزَّوَجَلَّ** إنقاد لكتاب الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ولذلك ثنى الله **عَزَّوَجَلَّ** بعدها بقوله: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِيَتْ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكِ اللَّهُ يَهْدِي بِهٖ
 مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٦﴾، فانشرح الصدر سببه امتثال أمر الله
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والرضا بقدر الله عَزَّوَجَلَّ الشرعي والصبر على قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
 الكوني.

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدعوة فرعون إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ:
 ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٣٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٣٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٣٨﴾
 وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٣٩﴾ هَٰزُونَ أَخِي ﴿٤٠﴾ أَشَدَّدَ بِهِ أَزْرِي ﴿٤١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٤٢﴾ كَيْ
 تُسَبِّحَكَ كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ وَتَذَكَّرُكَ كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٦﴾
 [سورة طه: ٢٥-٣٦]، فسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يشرح له صدره، وأن ييسر له أمره، فإذا
 شرح الله عَزَّوَجَلَّ صدره لقبول الحق فاعلم أنك على خير؛ لأن الإنسان يعتريه الفتور
 والضعف، كم من إنسان لا سيما من المنافقين والمعرضين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا
 قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾؛ لأن
 صدورهم لم تنشرح لطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ يقول: «أَرْحَنَا
 بِهَا»، كما في حديث سالم بن أبي الجعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال رجلٌ من خِزاعة: لَيْتَنِي صَلَّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال:
 سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ - يقول: «أَقِمِ الصَّلَاةَ يَا بَلَاءُ! أَرْحَنَا بِهَا».
 أخرجه أبو داود.

وهي قرعة عين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ؛ كما في حديث عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي
 الصَّلَاةِ». أخرجه النسائي

وهكذا المسلمون من أراد الله عَزَّوَجَلَّ به الخير شرح الله صدره بسماع آية، بسماع
 حديث، بسماع موعظة، جبير بن مطعم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "سَمِعْتُ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٦٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴿٦٧﴾﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ.

فانشرح صدره للإسلام واستسلم لله **عَزَّجَلَّ** بالتوحيد وغيرهم كثير.

روى الإمام مسلم: عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي

أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَاتُوا رَسُولَ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ، فَقَالُوا:

أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، كُنَّا مِنْ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ

أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أَتُرِيدُونَ أَنْ

تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا

اِقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ

رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ

مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا

فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَحَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ **عَزَّجَلَّ**: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ:

نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

قَالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قَالَ: نَعَمْ ﴿وَأَعْفُ

عَنَّا وَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٦]
«قَالَ: نَعَمْ». أخرجه مسلم.

فرج عظيم، وآية جليلة تدل على يسرية الدين وعلى رحمة الله **عَزَّوَجَلَّ** بالمؤمنين إذ لم يكلفك ما لا تستطيع وما لا تطيق، بل كلفك ما بوسعك: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** [البقرة: ٢٨٦]، تستطيع أن تصلي قائماً صليت عجزت عن ذلك صلي قاعداً، فإذا عجزت عن ذلك صلي على جنب؛ كما قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** في حديث عمران بن حصين **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال كانت بي بواسير فسألت النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** عن الصلاة فقال: **«صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»**، راه البخاري.

انشرحت صدورهم بأمر الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** فأنزل الله **عَزَّوَجَلَّ** ما تقدم، ثم زادهم على ذلك، أنزل الله تعالى: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾** قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: **«قَدْ فَعَلْتُ»**. **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾** قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: **«قَدْ فَعَلْتُ»**. **﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾** قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: **«قَدْ فَعَلْتُ»**.

يا لها من حياة سعيدة بانسراح الصدر لطاعة الله **عَزَّوَجَلَّ**، وأعظم ما يكون ذلك بانسراح الصدر لتوحيد الله **عَزَّوَجَلَّ** وإفراده بما يجب له، فالله **عَزَّوَجَلَّ** يقول: **﴿فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**

وقال **عَزَّجَلَّ** في المشرك: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَدَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٦﴾﴾ كأنما يحمل حملاً ثقيلاً للأعلى بينما المؤمن يشرح الله صدره للإسلام للتوحيد ويكون التوحيد أحب إليه من كل شيء من الدنيا وما فيها؛ لأن الموحد سبيله الجنة مهما اقترف من المعاصي. والمشرك يخلد في النار وإن فعل ما فعل من قربات؛ لأن الله **عَزَّجَلَّ** يقول في شأن

المشركين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٧٦﴾﴾.

وعائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** في مسلم تقول: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ جُدَعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمُسْكِينَ، فَهَلْ ذَلِكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». أخرجه مسلم.

لم يكن موحدًا بل كان مشركًا مندداً، بينما المؤمن يقول الله **عَزَّجَلَّ** في شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٧٨﴾﴾، ويقول الله **عَزَّجَلَّ**: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٧٩﴾﴾.

وانشرح الصدر أيضًا يكون بذكر الله **عَزَّجَلَّ**؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾.

ويكون بامثال الإيمان والمبادرة إلى طاعة الرحمن، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾﴾،

* وقد امتن الله **عَزَّجَلَّ** على نبيه فقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾: أي: قد

شرحنا لك صدرك.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿١﴾﴾: قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾﴾ [سورة الفتح: ١-٣]، وهذه من خصائص النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ان الله **عَزَّوَجَلَّ**، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ ولهذا كان **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقيم الليل حتى تتفطر قدماه؛ كما في حديث عائشة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** في البخاري، فقالت عائشة: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا» فَلَمَّا كَثُرَ لِحْمُهُ صَلَّى جَالِسًا، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ فَرَأَى أَنَّهُ رَكَعٌ. متفق عليه.

وكان قد تقرر ذلك عند المسلمين أن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد غفر لنبيه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ ففي الصحيحين: عن أنس بن مالك **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** يقول: جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بَيْتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». متفق عليه.

شاهدنا: أنه تقرر عند المسلمين كما أخبر الله **عَزَّوَجَلَّ** أنه قد غفر لنبيه محمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا هو المذكور في هذه الآية.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿١﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٢﴾﴾: فيه بيان: أن الذنوب والمعاصي خطرها عظيم على العبد إن لم يتجاوز الله **عَزَّوَجَلَّ** عنه سيئاته وأنها ثقيلة كالحمل الثقيل على الإنسان.

وقوله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ﴾: ذكر الظهر دون غيره من الأعضاء؛ لأن الإنسان غالباً ما يحمل على الظهر فنحن بحاجة يا عباد الله إلى التوبة وإلى الاستغفار وإلى الرجوع إلى الواحد القهار **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لعله أن يتجاوز السيئات والزلات وأن يرفعنا الدرجات.

وأمتن الله على نبيه بمغفرة ذنبه أما نحن حالنا إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** ما ندري إلى أين نصير، وإذا كان الله **عَزَّوَجَلَّ** يقول لنبيه الكريم المبادر إلى طاعة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۖ﴾: وسمى تلك أوزاراً فما بالك بنا الذين لم نسلم من غيبة ومن نميمة و من إطلاق بصر بل ربما وقوع فرج، بل ربما من أكل ربا ومن كثير من الذنوب التي هي أشد وطئاً على الإنسان من الجبال الرواسي والله أشد وطئاً على الإنسان من الجبال والجبل لو علاك عسك أن تموت أما أن تركبك الذنوب والمعاصي والسيئات فهي البلية العظيمة: ﴿وَمَا أَصْبَرُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۖ﴾، فالله **عَزَّوَجَلَّ** اسمه الغفور واسمه الرحيم فتوسل إليه بمغفرته ورحمته أن يضع عنك وزرك، وأن يستر عيبك، وأن يغفر ذنبك وأن يسدك للخير العظيم.

ثم قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾: ذكر الله **عَزَّوَجَلَّ** العسر بالتعريف إن مع العسر وعند العلماء أن المعرف إذا كرر فهو واحد وذكر الله **عَزَّوَجَلَّ** اليسر بالتنكير وهذا يدل على أن العسر واحد يأتي بعده الفرج الكثير حتى جاء في بعض المراسيل: "لن يغلب عسرٌ يسرين"، جاء عن الحسن ومراسيله من أضعف المراسيل لكن معنى الآية يدل على ذلك: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ﴾ فإذا اشتدت الأمور ابشر بفرج الله؛ ولهذا قيل: "اشتدّي أزمّة تنفّري".

وقيل:

صَبْرًا جَمِيلًا مَا أَقْرَبَ الْفَرْجَا ❀❀ من رَأَقَبَ اللهُ فِي الْأُمُورِ نَجَا
ويقول أحدهم:

عَسَى الْكُرْبُ الَّذِي أُمْسَيْتَ فِيهِ ❀❀ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ
فابشر بفرج الله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝﴾، سواء في أمور الدين
أو في غيره من الأمور فقد جعل الله عزَّوجلَّ للمريض أن يفطر في رمضان وللمسافر أن
يفطر فيقضي من أيام آخر وشرع للعاجز عن الصلاة قائمًا أن يصلي جالسًا، وشرع
للحلبى وللمرضع أن تفطر تيسيرات عظيمة في كتاب الله عزَّوجلَّ وفي سنة رسول الله
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والذي يحج ثم يعجز عن الوصول إلى بيت الله الحرام جعل الله
فرجًا ومخرجًا، قال تعالى: ﴿وَاتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ
وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ
صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فِصْيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦٦﴾.

فالشاهد: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد جعل تيسيرا عظيما في أمور الشرع كما جعل
تيسيرا عظيما في أمور القدر، فكم من إنسان يضيق صدره بكثرة الهموم والشدة وكثرة
الكره إما للدين أو لمصائب أو لمثالب وإذا بفرج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأتي لاسيما من
كان من المتقين: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ
يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝﴾،
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَى كُرْبٍ
وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ۝﴾، ييسر الله له الأمر الشديد.

فيا أيها المسلم إذا ضاق بك حال فأعلم أن فرج الله قريب، وأن رحمة الله **عَزَّوَجَلَّ** قريب من المحسنين، ما عليك إلا أن تستبشر وتحسن الظن بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، فالله **عَزَّوَجَلَّ** يقول كما في الحديث القدسي عن أبي ذر وغيره: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، فَلْيُظَنَّ بِي مَا شَاءَ».

وما هناك شدة أعظم مما مر به النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وضعوا السلا على رأسه وهو يصلي؛ كما في حديث عبدالله بن مسعود في مسلم قال:

بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ، وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُ لَهُ جُلُوسٌ، وَقَدْ نُحِرَتْ جَزُورٌ بِالْأَمْسِ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَيُّكُمْ يَقُومُ إِلَيَّ سَلًا جَزُورِ بَنِي فُلَانٍ، فَيَأْخُذُهُ فَيَضَعُهُ فِي كَتْفِي مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَأَنْبَعَثَ أَشَقَى الْقَوْمِ فَأَخَذَهُ، فَلَمَّا سَجَدَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وَضَعَهُ بَيْنَ كَتْفَيْهِ، قَالَ: فَاسْتَضْحَكُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَمِيلُ عَلَى بَعْضٍ وَأَنَا قَائِمٌ أَنْظُرُ، لَوْ كَانَتْ لِي مَنَعَةٌ طَرَحْتُهُ عَنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وَالنَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** سَاجِدٌ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى انْطَلَقَ إِنْسَانٌ فَأَخْبَرَ فَاطِمَةَ، فَجَاءَتْ وَهِيَ جُورِيَّةٌ، فَطَرَحْتُهُ عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِمْ تَشْتِمُهُمْ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** صَلَاتَهُ، رَفَعَ صَوْتَهُ، ثُمَّ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَكَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ، عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا سَمِعُوا صَوْتَهُ ذَهَبَ عَنْهُمْ الضُّحْكَ، وَخَافُوا دَعْوَتَهُ، ثُمَّ قَالَ: "اللَّهُمَّ، عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ بِنِ هِشَامٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ، وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ" - وَذَكَرَ السَّابِعَ وَلَمْ أَحْفَظْهُ - فَوَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** بِالْحَقِّ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ سَمَى صَرَغَى يَوْمَ بَدْرٍ، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى الْقَلْبِيبِ - قَلْبِيبِ بَدْرٍ .

وقفروا عليه لخنقه وهو يصلي؛ كما في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** ففي مسند الإمام أحمد: قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عِدَاوَتِهِ؟ قَالَ: حَضَرْتُهُمْ وَقَدْ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي

الْحِجْرِ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهُ أَحْلَامَنَا، وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا. قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي، حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا يَقُولُ، قَالَ: فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّلَاثَةَ، فَعَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَقَالَ: «تَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ» فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ، حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَانَتْهَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرَفُوهُ بِأَحْسَنِ مَا يَحْدُ مِنْ الْقَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انصَرَفَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، انصَرَفَ رَاشِدًا، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ جَهُولًا، قَالَ: فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ، اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثَبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَحَاطُوا بِهِ، يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ»، قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، قَالَ: وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ - دُونَهُ، يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي: ﴿أَنْتَقُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]؟ ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لِأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ.

يا سبحان الله أبو جهل وأعوانه قبل قليل يخنقون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فلما هددهم بما بعث إليهم وإذا بهم يزعمون أنه جاهل وهذا حال الناس جميعًا حال المخالفين لدين رب العالمين إلا ما رحم ربي، يجهل على المستقيم ويؤذيه

ويحاربه إن سمع موعظة أو رأى من ذلك المظلوم دفاعاً عن نفسه فإذا هو يعتبر ذلك جهلاً وطيشاً، وغير ذلك مما يقول الناس.

فبعد هذه الشدة التي بلغت بالنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** جعل الله له فرجاً وجعل الله له اليسرية: ﴿وَلَا يَمَكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِثَبُوتِكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴿٣٥﴾﴾ جعل الله له فرجاً عظيماً وخرج من بين أظهرهم ووضع التراب على رؤوسهم ثم خرج مهاجراً إلى فرج، ثم لحقوه فاخْتَبَأَ منهم في الغار حتى أن أبو بكر **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** يقول كما في حديث أنس بن مالك **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** عند مسلم قال: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ، حَدَّثَهُ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُءُوسِنَا وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمِيهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمِيهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِإِثْنَيْنِ اللهُ تَالِئُهُمَا».

انظر إلى فرج الله **عَزَّوَجَلَّ**، سواء في الأمور الشرعية أو في الأمور القدرية، فرج الله عنهم بعد ذلك وخرجوا من هذا الغار الضيق وصاروا في الأرض الفسيحة إلى أن وصلوا إلى مدينة رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وأبدل الله **عَزَّوَجَلَّ** خوفهم أمناً، وضيقهم رعداً، وقتلهم كثرة، ولما وصل النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** إلى المدينة قالت عائشة **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا**: أَرِقَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: «لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَجْرُسُنِي اللَّيْلَةَ» إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ السَّلَاحِ، قَالَ: «مَنْ هَذَا؟»، قَالَ سَعْدُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ، فَنَامَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حَتَّى سَمِعْنَا غَطِيظَهُ. أخرجَه البخاري ومسلم.

وجاء في الترمذي عن عائشة **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا**: كان النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يحرس حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فرج بعد فرج.

وهكذا بلال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** حين أسلم عُذِبَ وكانت توضع الحجارة على صدره في يوم شديد الحر ثم جعل الله فرجًا من الرق إلى الحرية، جاء له أبو بكر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** واشتراه وأعتقه.

وضيق على المسلمين وجعل الله **عَزَّوَجَلَّ** فرجًا وفروا إلى الحبشة في الهجرة الأولى وفي الهجرة الثانية ثم اجتمعت قريش واتفقوا على أن يبعثوا رجلين إلى النجاشي ليرد المسلمين إلى الكافرين؛ لأذيتهم واشتد بهم الحال وضاق فرحوا حين خرجوا من الضيق وركبوا البحر فلما وصلوا الحبشة وإذا بأهل الكفر يمكرون بهم ويبعثون رجالًا ذكيًا فطنًا وهو عمرو بن العاص قبل إسلامه، واشتد بهم الحال ثم بعد ذلك يرسل إليهم النجاشي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ** فخاطبه جعفر بن أبي طالب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** بما خاطبه به، وإذا بالفرج يأتي بعد ضيقتهم وقال: " اذْهَبُوا، فَأَنْتُمْ سُيُومٌ بِأَرْضِي - وَالسُّيُومُ: الْأَمْنُونَ - مَنْ سَبَّكُمْ عُزِّرَ، ثُمَّ مَنْ سَبَّكُمْ عُزِّرَ ".

بعد ذلك وقعت عليهم ضيقه أخرى وجاء جيش إلى النجاشي لاستئصال مملكته واشتد ذلك على المسلمين؛ لأنهم قد لقيوا الرحمة والشفقة والنصرة والعون، فاشتد الحال على المسلمين فخرجوا ينظرون وأرسلوا الزبير بن العوام **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: فَتَفَعَّحُوا لَهُ قَرِيبَةً، فَجَعَلَهَا فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ سَبَّحَ عَلَيْهَا، حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّيْلِ الَّتِي بِهَا مُلْتَقَى الْقَوْمِ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ، قَالَتْ: وَدَعَوْنَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالتَّمْكِينِ لَهُ فِي بِلَادِهِ، وَاسْتَوْسَقَ عَلَيْهِ أَمْرُ الْحَبَشَةِ، فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ .

وهكذا وقعت غزوة بدر واشتد الحال حتى أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لم ينم ليله كما في حديث علي **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عند أحمد وحديث ابن عباس وعمر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا** عند مسلم؛

لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثٌ مِائَةٍ وَتِسْعَةٌ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَذْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَاذَا يَدِيهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبِيهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبِيهِ، ثُمَّ التَّرَمَّهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُّمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ۝﴾ [الأنفال: ٩].

ومن ذلك أيضًا: ما وقع للمسلمين يوم أحد من الشدة حتى أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ كُسرت رباعيته وهشمت البيضة من على رأسه، وصاح الشيطان في المسلمين إن محمدًا قد قُتِل، فاشتد ذلك على المسلمين وحصل القتل بالمسلمين والهزيمة التي لحقت، فإذا بالفرج يأتي وإذا باليسر يأتي ونجا الله عَزَّوَجَلَّ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بينما المسلمون على حالهم يجمعون جراحاتهم إذ جاءهم المنبر أن أبا سفيان قد أجمع على العودة إليهم لاستئصالهم وفرج عنهم حين صرف أبا سفيان عنهم وقال: نرجع إلى مكة.

ثم فرج عنهم حين عزم أبو سفيان عن الرجوع إليهم أمرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ أن يقوموا معه ولا يشارك إلا من شارك في غزوة أحد فلما بلغ أبا سفيان أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ للمسلمين خاف أن يكون في المسلمين قوة فرجع إلى مكة.

وضاق بهم الحال في غزوة الأحزاب حتى حُصروا وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ ربما ربط على بطنه الحجر من الجوع النبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لم يجد ما يملأ به بطنه بل لا يجد ما يذوقه، وفرج الله عنهم في أول الأمر بجفنة لجابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وشاة

داجن صغيرة لجابر؛ ففي الصحيح: عن جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** قال: لَمَّا حُفِرَ الحَنْدُقُ رَأَيْتُ بِالنَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حَمَصًا شَدِيدًا، فَأَنكَفَأْتُ إِلَى امْرَأَتِي، فَقُلْتُ: هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ؟ فَإِنِّي رَأَيْتُ بِرَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** حَمَصًا شَدِيدًا، فَأَخْرَجَتْ إِلَيَّ جِرَابًا فِيهِ صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيْمَةٌ دَاجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَتِ الشَّعِيرَ، وَفَرَعَتْ إِلَيَّ فَرَاعِي، وَقَطَعْتُهَا فِي بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**، فَقَالَتْ: لَا تَفْصَحْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** وَبِمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَبَحْنَا بُهَيْمَةً لَنَا وَطَحَنَّا صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَتَعَالَ أَنْتَ وَنَفَرَّ مَعَكَ، فَصَاحَ النَّبِيُّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فَقَالَ: «يَا أَهْلَ الحَنْدُقِ، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُورًا، فَحَيَّ هَلَا يَهْلِكُكُمْ» فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «لَا تُنْزِلَنَّ بُرْمَتَكُمْ، وَلَا تَحْزِنَنَّ عَجِينَكُمْ حَتَّى أَجِيءَ»، فَجِئْتُ وَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يَقْدُمُ النَّاسَ حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتِي، فَقَالَتْ: بِكَ وَبِكَ، فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذِي قُلْتَ، فَأَخْرَجَتْ لَهُ عَجِينًا فَبَصَقَ فِيهِ وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إِلَيَّ بُرْمَتِنَا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قَالَ: «ادْعُ خَابِرَةَ فَلْتَحْزِبْ مَعِي، وَاقْدَحِي مِنْ بُرْمَتِكُمْ وَلَا تُنْزِلُوها» وَهُمُ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَقَدْ أَكَلُوا حَتَّى تَرَكَوهُ وَانْحَرَفُوا، وَإِنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغُطُّ كَمَا هِيَ، وَإِنَّ عَجِينَنَا لِيَحْزِبُ كَمَا هُوَ.

وكانت أم سليم أफقه من زوجة جابر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا** زوجة جابر أنبت زوجها حين بلغها مقدم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مع أصحابه وزوجة أبي طلحة أم سليم لما جاء رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مع الثمانين رجلاً والطعام يسير فقال أبو طلحة: يا أم سليم! قد جاء رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** بالناس وليس عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله أعلم، وبعد ذلك فرّج الله بالريح وصدّ الله **عَرَجَل** المشركين ونصر الله المسلمين.

فاستبشر يا أخي وافرح بمثل هذه الآيات العظيمة الجليلات، ولينشرح صدرك بما أنت فيه، إن كان قدرًا شرعيًا فاعمل بالمأمور وابتعد عن المحظور، وما

كلفك الله **عَزَّجَلَّ** إلا ما تستطيع، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وقال: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

والنبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قال كما في حديث أبي موسى **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** أنه لما بعثه رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** ومعاذ بن جبل قال لهما: «يَسْرًا وَلَا تُعْصِرَا، وَبَشْرًا وَلَا تُنْفِرَا، وَنَطَاوَعًا وَلَا تَحْتَلِفَا»، أخرجه البخاري ومسلم.

فالدين يسر واليسرية فيه عظيمة، خمس صلوات في اليوم واللييلة، وحج في العمر، وصيام شهر في السنة، وفي الزكاة ربع العشر لمن كان معه مال وحال عليه الحول وبلغ النصاب، ومن ليس معه شيء لم يكلفه الله **عَزَّجَلَّ** إلا ما استطاع، بل إن من اليسرية ما جعله الله **عَزَّجَلَّ** للفقراء ليصلوا إلى مصاف الأغنياء المسارعين إلى مرضاة الله والمنفقين في مرضاة الله **عَزَّجَلَّ**؛ ففي الصحيح: عن أبي ذر **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** وجاء عن أبي هريرة نحوه قال: أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قَالُوا لِلنَّبِيِّ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّنُورِ بِالْأَجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيَّتِي أَحَدُنَا شَهَوْتُهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وَزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ»، رواه مسلم.

ما علينا إلا أن نحسن الظن بالله، ما علينا إلا أن نلجأ إلى الله في تفرج الكرب وفي ستر العيوب، وفي تعجيل النصر فإن الأمر لله **عَزَّجَلَّ**، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾، فالأمر لله **عَزَّجَلَّ** في كل شيء، فعليك أن تلجأ إليه وتدعوه وتتضرع وتستبشر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك

على أي حال أنت بالله لا حول ولا قوة إلا بالله، فالله **عَزَّوَجَلَّ** يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾.

ثم قال **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾: فإذا فرغت من عبادتك وفرغت من شأنك فأنصب إلى الله تعالى بالدعاء، وقيل: انصب إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** بعبادة أخرى، وهذا هو الحال فإن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد جعل للمسلمين عبادات متتالية تخرج من خير وتدخل في خير، فإذا بدأنا مثلاً من عند القيام من الليل تبدء بشكر الله وذكر الله وحمد الله، أذكار القيام من النوم، ثم ما يسر الله من الوضوء، ثم ما تيسر من الصلاة والاستغفار، ثم صلاة الفجر، ثم ما يسر الله من أذكار الصباح والمساء، ثم تخرج من طاعة الله **عَزَّوَجَلَّ** لطلب الأرزاق، وطلب العلم، وطلب المعاش في غير ما حرم الله **عَزَّوَجَلَّ**، ثم تصلي صلاح الضحى، ثم يأتي الظهر تصلي أربعاً، فنتقل من عبادة إلى عبادة ومن طاعة إلى طاعة.

فقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾﴾: فرغت من عبادة انصب في عبادة أخرى، ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾: ارغب إلى ربك الذي يعينك على طاعته ويوفقك لمرضاته؛ ولهذا قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ أي: نعبدك يا الله حال كوننا مستعينين بك.

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِفَتَى *** فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
وهكذا كان من دعائه **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ**: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ».

ومن وصيته لمن يحب: فقد قال النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ** لمعاذ: «يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَجِبُكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَجِبُكَ، فَقَالَ: أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنِّي فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَىٰ ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»، رواه أبو داود.

لأنه دعاء من جوامع كلام النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ»: وذكر الله **عَزَّوَجَلَّ** شامل للطاعة، قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾.

قال سعيد بن جبير: الذكر طاعة الله، فمن لم يطعه لم يذكره وإن أكثر التسبيح والتهليل وقراءة القرآن، أي: أنه أعم من ذكر اللسان فانت حين تقول: «اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ» كأنك تقول: اللهم وفقني لطاعتك، فارغب إلى ربك بهذا الدعاء.

وقوله: «وَشُكْرِكَ»؛ لأن شكر الله **عَزَّوَجَلَّ** يزيد في النعم وسبب لثبوتها قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وقال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾، وقال النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا».

وقوله: «وحسن عبادتك»: حسن الطاعة ويكون حسن الطاعة بأمرين الإخلاص لله **عَزَّوَجَلَّ** بها والمتابعة للنبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** فيها.

قال الفضيل بن عياض كما حكاه عنه شيخ الإسلام في الفتاوي (١٠ / ١٧٣) قال: " قوله ﴿يَسْتَبَلُّوكُمُ أَنِكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: قال: أخلصه وأصوبه.

قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إنَّ العمل إذا كان خالصًا لله ولم يكن صوابًا لم يقبل؛ حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص: ما كان الله تعالى، والصواب: ما كان على السنة". اهـ

فأنت بحاجة إلى الرغبة إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** وإلى العودة إليه ولهذا كان أيضًا من دعاء النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «رَبِّ اعْنِي وَلَا تُعِنِّي عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ لِي الْهُدَى إِلَيَّ، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَرًا، لَكَ ذَكَرًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا أَوْهَا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي،

وَاعْسِلْ حَوْبِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَتَبَّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي».

وفي الحديث الآخر: عن البراء بن عازب: أن رسول الله **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** قال: «إِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَالْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، أَمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، وَاجْعَلْهُنَّ مِنْ آخِرِ كَلَامِكَ، فَإِنْ مِتُّ مِنْ لَيْلَتِكَ، مِتُّ وَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ قَالَ: فَردَّدْتُهُنَّ لِأَسْتَذْكِرَهُنَّ فَقُلْتُ: أَمَنْتُ بِرَسُولِكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، قَالَ: " قُلْ: أَمَنْتُ بِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ". أخرجه مسلم

فارغب إلى الله في عونك، وتسديدك، وتوفيقك، إنك لست بشيء إذا لم يعنك الله ويوفقك ويسدك **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٦﴾﴾.

انظر كيف ختم الله **عَزَّوَجَلَّ** هذه السورة بهذا الأمر، والأمر للنبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم** هو أمر لأتمته إلا ما دل الدليل على الخصوصية ولا خصوصية هنا: ﴿وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾: ارغب إلى ربك فتقديم الجر هنا يدل على الحصر لا ترغب إلى غيره ولا ترجو من غيره عوناً:

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى * * * فَأَوَّلُ مَا يَجْنِي عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ
كم من إنسان يريد الخير ولا يوفق له ولم يصله، بينما إذا أراد الله **عَزَّوَجَلَّ** له الخير وفاقه وسدده، أتدري أن أمية بن الصلت كان يقول الأشعار التي فيها الدعوة إلى التوحيد حتى قال النبي **صلى الله عليه وعلى آله وسلم**: أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ❀❀ وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم
أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

بل كان يقرر أن الله **عَزَّوَجَلَّ** على عرشه في السماء، ويأتي بأمرٍ من أمر الإسلام،
ولو كان الأمر إلى نفسه لربما قدم لهذا الخير لكن الأمر إلى الله **عَزَّوَجَلَّ**، علم الله من
هذا الرجل الكبر فصرفه عن الإسلام، لما بعث النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قيل لأمية بن
أبي الصلت: هذا محمد يدعو إلى ما كنت تقول فلما لا تتعبه؟ قال: أستحيي من
نسيات ثقيف، إني كنت أقول لهن: إنني أنا هو، ثم أصير تابعاً لغلام من بني عبد
مناف.

فأبي الإسلام، كم من إنسان يعرف الحق ولا يوفق له؛ لأنه ما رغب إلى الله؛ لأنه
ما أعانه الله.

فيا أخي ليس بحولك، ولا بقوتك، ولا باتباعك، ولا بمالك، ما أنت فيه هو
الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، إن نصرك فمن الذي يستطيع أن يخذلك؟، وإن خذلك فمن الذي
يستطيع أن ينصرك؟ لا أحد؛ فلهذا كان من تعليم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** لابن عباس
كما في حديث ابن عباس قال: كُنْتُ خَلَفَ رَسُولِ اللَّهِ **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** يَوْمًا، فَقَالَ:
«يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ، أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ
فَأَسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِينِ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ
بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ
بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». قال الترمذي: هذا
حديث حسن صحيح.

فارغبوا إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** في قبول أعمالك وفي توفيقكم وتسديدكم حتى تلقوا الله
عَزَّوَجَلَّ وهو راضٍ عنكم، فهذا نبي الله يوسف **عَلَيْهِ السَّلَام** مع ما فيه من الخير، ومع ما
فيه من النبوة يقول: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ (١٣) ، وإبراهيم **عَلَيْهِ السَّلَام**

مع ما فيه من الإمامة يقول: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۝٥٥﴾، ومحمد **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** مع ما فيه من المرتبة العظيمة والشرف العظيم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»، أخرجه البخاري في الأدب المفرد " .

ويقول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ»، كما في حديث أبي بكرة في النسائي وغيره.

ويقول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ**: «ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ فِي الْوَسِيلَةِ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَزْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»، رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**.

فالصالحون والأنبياء من قبلهم يرغبون إلى الله **عَزَّوَجَلَّ**، فإن الرغبة إلى الله **عَزَّوَجَلَّ** من أسباب استجابة الله **عَزَّوَجَلَّ**، ومن أسباب تفريح الله **عَزَّوَجَلَّ** على العبد.

وتفسير كلام الله شيق على النفوس، مهما تكلم المتكلم فهو عاجز عن الإتيان بمراد الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** على أتم الوجوه، مع أن الله **عَزَّوَجَلَّ** قد يسر القرآن للذكر، والعلماء قد فسروا هذا القرآن العظيم والنبى **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ** قبل ذلك قد بينه للناس ومع ذلك فإن الموعدة بالآيات القرآنية وبالأحاديث النبوية من أسباب شفاء الصدور، كما قال الله **عَزَّوَجَلَّ**: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ۝٨٦﴾.

فنسأل الله **عَزَّوَجَلَّ** التوفيق والسداد والعون، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وسبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك.



المحتويات

- ٢ فتح الكريم المنان تفسير السبع المثاني أم القرآن
- ٣ المقدمة
- ١٢ فصل
- ٢٠ تفسير سورة الفاتحة
- ٢١ فضائلها:
- ٢٩ ومن فضائلها:
- ٣١ مكان نزولها
- ٣٣ عدد آياتها
- ٣٥ تفاضل القرآن
- ٤٣ الكلام على الاستعاذة
- ٤٩ فصل: معنى الاستعاذة
- ٥٢ الكلام على البسملة
- ٥٣ القول في الجهر بالبسملة
- ٧٢ فوائد تتعلق بالبسملة
- ٩٩ الحكمة في افتتاح القرآن بالبسملة

- ١٠٤..... بيان الاسم الأعظم
- ١١٠..... الفرق بين الحمد والشكر
- ١٥١..... وتضمنت هذه الآيات بيان أنواع التوحيد الثلاثة.
- ١٥١..... النوع الأول: (توحيد الربوبية)
- ١٥٧..... النوع الثاني مما تضمنته هذه السورة: (توحيد الألوهية)
- ١٦٠..... اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض
- ١٦٤..... فضل التوحيد
- ١٧١..... فصل: خطر الشرك
- النوع الثالث: مما دلت عليه هذه السورة وتضمنته؛ (توحيد الأسماء والصفات)
- ١٧٤.....
- ١٨١..... أقسام التوسل
- ١٩٧..... شروط قبول العبادة
- ٢٠٢..... مما تضمنته بيان عقيدة أهل السنة في القدر
- ٢٢٧..... أسباب الحصول على الهدى التام
- ٢٢٨..... الدعاء بالهداية
- ٢٣٢..... الهداية والضلال بيد الله عز وجل
- ٢٤٣..... لزوم الجماعة

- ٢٤٨..... ذكر سبب نزول هذه الآية الكريمة
- ٢٦٧..... إثبات صفة الغضب لله
- ٢٧٧..... بعض أسباب الضلال
- ٢٩٤..... الخاتمة
- ٢٩٨..... القول في: (أمين)
- ٣٠١..... إتحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة
- ٣٠٢..... المقدمة
- ٣٠٦..... بعض فضائل الآيتين من آخر سورة البقرة
- ٣٠٩..... معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «كفتاه»
- ٣١١..... مسألة تسمية سورة البقرة بهذا الاسم:
- ٣١٢..... مسألة هل هذه الآية منسوخة أم محكمة:
- ٣١٤..... تفاضل القرآن والأسماء والصفات:
- ٣١٨..... تفسير الآيات وبيان معانيها وبعض أحكامها
- ٣٣٧..... بيان أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق:
- ٣٤٢..... دلالة الآية على أركان الإيمان الستة:
- ٣٤٣..... الإيمان بالله عَزَّجَلَّ أفضل الأعمال:
- ٣٤٤..... أركان الإيمان بالله عَزَّجَلَّ:

الإيمان بالملائكة: ٣٤٨

الإيمان بالأنبياء: ٣٥٢

الإيمان بالكتب: ٣٥٣

الإيمان باليوم الآخر والقدر ٣٥٤

الإيمان بالقدر: ٣٥٧

ركن الإحسان: ٣٥٨

أركان الإسلام: ٣٥٩

قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾: ٣٥٩

الخاتمة ٣٩٢

تفسير قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٤٠٣

المقدمة ٤٠٤

فتح القدير ببيان آيات التخيير ٥٥٣

تفسير آيات التخيير ٥٥٤

الوصية الجامعة في هذه الآيات ٥٦٣

فتح الرحمن بتفسير سورة السجدة والإنسان ٥٦٧

٥٦٨.....	المقدمة
٥٧٠.....	تفسير سورة السجدة
٦٠٦.....	تفسير سورة الإنسان
٦١٨.....	اللمعة في تفسير سورة الجمعة
٦١٩.....	تفسير سورة الجمعة
٦٤٥.....	بيان معاني سورة الشرح
٦٤٦.....	تفسير سورة الشرح
٦٧٩.....	المحتويات

